

العصر المملوكي

في مصر والشام

تأليف

دكتور سعيد عبد الفتاح عايش

أستاذ تاريخ المصرد الوسطى المساعدا
كلية الآداب - جامعة القاهرة

الطبعة الثانية

١٩٧٦

الناشر

دار النهضة العربية

٣٢ شارع عبد الحامد مروت - القاهرة

ولا زالوا في أول الرمي إلى الجنة
لصاحبها: محمد عبد الرزاق
كنيسة الأرمين في الجديش
تشرين ٩٣٤٠٩٨

مقدمة

التاريخ دول ؛ وتاريخ مصر العريق حافل بكثير الدول التي تعاقبت في حكمها . وبين هذه الدول العديدة التي زخر بها التاريخ المصري في العصور القديمة والوسطى والحديثة ، تحتل دولة المماليك مكانة خاصة بارزة تجعل من عصر سلاطين المماليك عصرًا جديرًا بمزيد من الدراسة والبحث والتحصيل . هذا بالإضافة إلى أن الأحداث الخارجية والداخلية التي ارتبطت بذلك العصر لا تمكس أهميتها على تاريخ مصر والشام لحسب ، بل على تاريخ الشرق الأدنى عامة في العصور الوسطى ؛ فضلاً عن التيارات العالمية الكبرى - اقتصادية وغير اقتصادية - التي ارتبطت ارتباطاً مباشراً بتاريخ المماليك في مصر والشام .

ولذا نحن ذكرنا تاريخ المماليك ، فإننا يجب أن نذكر تلك الأعداء من الجنسيات الأوروبية والآسيوية المتباينة الذين أتوا فرادى أو جماعات صغيرة ، بعضهم من الترك والجركس والتتار والصينيين ، والبعض الآخر من الصقالبة واليونانيين والأسبان والألمان . . . حملهم تهم الرقيق صفاراً إلى بلاد غير بلادهم ليشتبوا في أرض جديدة وعلى ديانة جديدة ويصبحوا نواة الحكم وأداة الحكم وقوة المستقبل التي قدر لها أن تسيطر على مصائر البلاد والعباد أكثر من قرنين ونصف من الزمان .

وإذا نحن ذكرنا عصر المماليك في تاريخ الشرق الأدنى ، فإننا يجب أن نذكر آيات البطولة التي أبدتها تلك الدماء الجديدة في الدفاع عن الوطن العربي ضد الأخطار الكبرى التي هددهته من جانب التتار حينئذٍ ومن جانب

المسلمين والغرب الأوربي أحياناً . وما زالت أسماء مواقع عين جالوت ومرج الصفر من ناحية ، والمنصورة وفارسكور وأنطاكية وطارابلس وعكا وخير وكيثا من ناحية أخرى ؛ ما زالت هذه الأسماء حية في التاريخ تنطق بالبطولة والشجاعة والفداء .

وإذا نحن ذكرنا عصر المماليك ، فإننا يجب ألا ننسى ذلك النشاط الديني والعلمي الحصب الذي صاحب انتقال الخلافة العباسية من بغداد إلى القاهرة ، والذي ظهر أثره وتردد صده في مصر والشام جميعاً ؛ فنحرص على المبالغة في إحياء شعائر الدين والاهتمام بإقامة المنشآت الدينية وإقبال منقطع النظر على حياة الزهد والتصوف ... إلى رغبة جامعة في التعليم والتعلم ونشاط ليس له مثيل في ميدان الكتابة والتأليف ، حتى أننا مازلنا عاجزين حتى الآن عن نشر مئات الموسوعات والمخطوطات التي ألقت في عصر المماليك في مختلف ألوان المعرفة والتي تسكنظ بها دور الكتب في العالم أجمع ، مشرقة ومفربة .

وإذا نحن ذكرنا عصر المماليك ، فإننا يجب أن نذكر أنه العصر الذي غدت فيه مصر والشام قصبة التجارة العالمية ، والمعبر الرئيسي لتجارة الشرق في طريقها إلى الغرب ، الأمر الذي يجعلنا نفكر في ضوئه تلك الثروة الواسعة التي تمتع بها المماليك ، وذلك الأثر الضخم وما ارتبط به من مظاهر السعة والأبهة الذي انصف به عصرهم . وما زالت مخلفات وآثار المماليك من جوامع شاهقة ، وقصور فخمة ، ومصنوعات فنية دقيقة ؛ فضلاً عما حفلت به مراجع العصر المماليكي من وصف لحياة المماليك ، وما فاض به مجتمعهم من ألوان البذخ والغنى العريض ... ما زال ذلك شاهداً على أن ثمة موارد مالية إضافية ضخمة تمتع بها الحكام في ذلك العصر وأصاب المحكومون بعضاً من فئاتها .

وهكذا يبدو أن عصر المماليك ليس عصرًا عاديًا من العصور الهادئة أو الحامدة في التاريخ ، وإنما هو عصر حركة دائمة ونشاط دائم : في الخارج حروب وتوسع وانتصارات ترتب عليها تأمين الوطن العربي في الشرق الأدنى . . . وفي الداخل حياة صاخبة حافلة بالتيارات الاقتصادية والدينية والعلمية والاجتماعية . فلا عجب إذا احتلت دولة المماليك مكانة هامة بارزة في التاريخ ، لا تاريخ مصر والشام والشرق الأدنى فحسب ، بل تاريخ العالم أجمع أو آخر العصور الوسطى . وخير شاهد على ذلك ، تلك السفارات العديدة التي قصدت بلاط سلاطين المماليك في القاهرة من قبل ملوك الشرق والغرب جميعاً ، وذلك العدد الضخم من المراسلات والمكاتبات التي كان يتلقاها ديوان الإنشاء بالقاهرة في ذلك العصر من مختلف الحكام ، والتي كان يقوم بالرد عليها وفقاً لتقاليد وقواعد دقيقة معروفة .

والعجيب أنه مع ما لعصر المماليك من أهمية بالغة بالنسبة لتاريخ مصر والشام من ناحية ، وتاريخ الشرق الأدنى عامة من ناحية ثانية ، وتاريخ العالم في أواخر العصور الوسطى من ناحية ثالثة ، مع ذلك كله فإن المكتبة العربية ما زالت حتى اليوم خلوا من كتاب واحد يعالج تاريخ ذلك العصر في صورة وحدة مترابطة تبدو في إطارها العام مميزات ذلك العصر وخصائصه ومظاهره .

وقد حاولت في هذا الكتاب الجديد أن أسد تلك الفجوة الهامة التي تشكو منها المكتبة العربية ، فحرصت فيه على إعطاء القارئ العربي صورة متكاملة للعصر المماليكي بين سنتي ١٢٥٠ ، ١٥١٧ الميلاد ؛ وحاولت بقدر الإمكان أن يكون علاجي لتاريخ ذلك العصر الهام علاجاً موضوعياً شاملاً بعيداً عن التفصيلات الثانوية الصغيرة التي لا تخدم التاريخ بقدر ما تفسد عرضه .

ولما كانت المراجع الأولى الأساسية لعصر المماليك مليئة بالمصطلحات الغربية غير المألوفة ، التي لا نجد لكثير منها تفسيراً في القواميس العربية لأنها

(و)

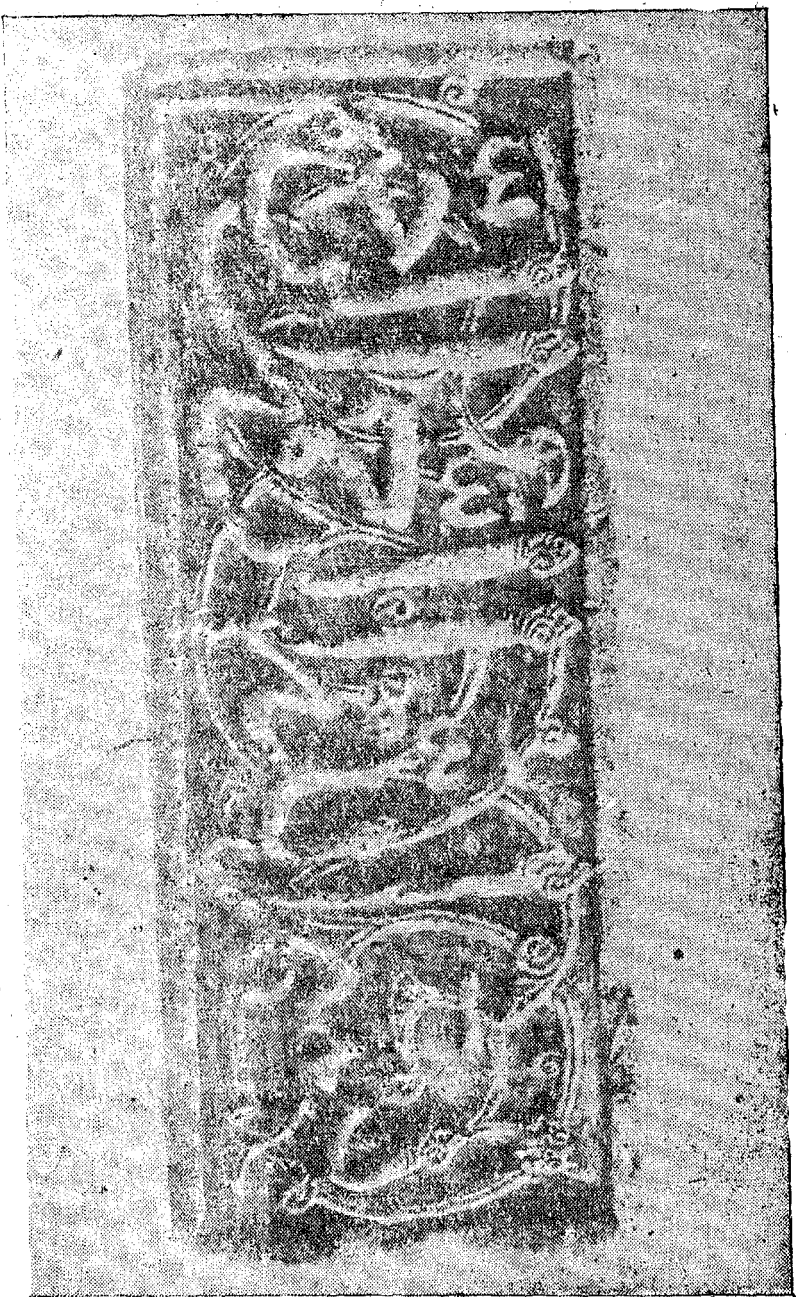
دخلت مع التيارات العديدة غير العربية التي تعرضت لها منطقة الشرق الأدنى في العصور الوسطى ؛ فإننى رأيت إنتماً للفائدة أن أورد في نهاية الكتاب كشافاً بأهم تلك المصطلحات مع شرحها شرحاً علياً ، مستعيناً في ذلك بجهود الأساتذة المتخصصين الذين سبق أن أسهموا في خدمة تاريخ الممالك .

والله أسأل أن يوفقنا فيما ذهبنا إليه من رغبة صادقة في استكمال نواحي النقص في مكتبتنا العربية .

سمير عبد الفتاح هاشور

ضاحية المعادى في ٣٠ شعبان ١٣٨٤ هـ
٣ يناير ١٩٦٥ م

عبارة (بسم الله الرحمن الرحيم) محفورة على قطعة من الرخام بالخط النسخ المائلي



الفصل الأول

قيام دولة المماليك في مصر

نشأة نظام المماليك في الدولة العثمانية :

المملوك وجمعه مماليك اسم مفعول مشتق من الفعل العربي « ملك » ، ويقال عبد ملكه بفتح اللام وضمها إذا سبي ومملك دون أبويه . ويدور أن هذا المعنى مأخوذ من القرآن الكريم ، حيث وردت عبارات « ملكك أيمانكم » و « ملكك أيمانهم » ، و « ملكك يمينك » أكثر من مرة (١) .

ولم يلبث اللفظ أن اتخذ معنى اصطلاحى خاص فى التاريخ الإسلامى ، فأصبح يقصد بالمماليك جموع الرقيق الأبيض الذين كانوا يصبحون رقيقاً إما نتيجة للأسر فى الحرب أو للشراء من التجار الذين يجلبونهم إلى البلاد الإسلامية حيث يطلبون أثماناً مرتفعة لبضاعتهم .

وكان الخلفاء العباسيون هم أول من استخدم المماليك — أو الرقيق الأبيض — واعتمدوا عليهم فى توطيد نفوذهم . والمعروف أن الدولة العباسية قامت على اكتاف الفرس ، ولم يكن الخلفاء العباسيين — وبخاصة منذ أيام الخليفة المأمون — أخذوا يخشون ازدياد نفوذ الفرس ويتشككون فيهم ، فلجأوا إلى الإكثار من شراء مماليك من الترك ليعتمدوا عليهم فى دعم نفوذهم وسلطانهم .

(١) انظر مثلاً سورة النساء آيات ٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٣٩ . وسورة النحل آية ٧١ .

وسورة النور آيات ٣١ ، ٣٣ ، ٥٨ . وسورة الروم آية ٢٨ . وسورة الأحزاب آية ٥٠ .

(١ — العصر المماليكى)

ولم يلبث أن شاع استخدام المماليك في كثير من أرجاء الدولة الإسلامية، فأدى ضعف الدولة العباسية من جهة ورغبة حكام الولايات في الاستقلال من جهة أخرى إلى اعتمادهم على ما يشترطونه من ممالك في تأليف جيوش يحققون بها مقاصدهم . وفي جميع الحالات كان التطور يسير في نفس الطريق تقريباً ؛ فالمماليك الذين يجلبون صغاراً يحفظون بحضن ساداتهم وأساندتهم فيتمتعون بيزداده نفوذهم حتى يسيطرون على مقاليد الأمور في البلاد التي استوطنوها .

وكانت مصر مثلاً بارزاً لولايات الدولة العباسية التي شهدت هذا التطور نحو ازدياد نفوذ المماليك حتى تملكوا البلاد . فطولون — الذي أسس ابنه أحمد الدولة الطولونية في مصر — كان مملوكاً تركياً آل إلى الخليفة المأمون العباسي . وعند ما طمع أحمد بن طولون في الاستقلال بمصر، رأى أن يدعم استقلاله بقوة ضاربة من المماليك الديالة والأتراك ؛ حتى ذكر ابن أبياس أن ممالك أحمد بن طولون بلغت أربعة وعشرين ألفاً^(١) . فلما دالت الدولة الطولونية وأسس محمد بن طنج الأخشيد دولته في مصر سنة ٩٣٥ ، اعتمد هو الآخر على المماليك من الأتراك والديلم حتى بلغت عدة مملكته ثمانية آلاف مملوك ، على قول أبي المحاسن^(٢) . وإذا كان الخلفاء الفاطميون الأوائل قد اعتمدوا على المغاربة والسودان في تأليف جيوشهم ؛ فإن الخلفاء الأواخر في الدولة الفاطمية — منذ عهد الخليفة المستنصر فصاعداً — أكلوا من الاعتماد على المماليك — أنزك وخير الترك — وبذلك حافظوا على سياسة الطولونيين والأخشيديين في الاعتماد على المماليك وهكذا حققت قامت الدولة الأيوبية لتفتح صفحة جديدة في تاريخ الشرق الأدنى والمماليك جميعاً .

(١) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ٩ ص ٣٧ .

المقريزي : المواعظ ج ١ ص ٩٤ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٥٦ ، ٥٩٠ .

ازدياد نفوذ المماليك في عصر الأيوبيين :

والواقع إن العصر الذي أعقب وفاة صلاح الدين الأيوبي سنة ١١٩٣ شهد ازدياد أعداد المماليك في مصر والشام ازدياداً كبيراً يستوعب الالتقاء . ذلك أن ورثة صلاح الدين - من أبنائه وأخوته وأبناء أخوته - اقتسموا فيما بينهم تلك الدولة الواسعة ، فصارت دمشق ومصر وحلب والسكر وبصرى وبلبك وحمص وحماء ... وغيرهما مراكز لإمارات مهمة يحكمها بعض أبناء البيت الأيوبي^(١) . ولم يلبث أن دب الخلاف والشقاق بين ورثة صلاح الدين فقامت الحروب فيما بينهم وبين بعض ، كقامت المنازعات فيما بينهم من ناحية وأبناء البيوت القديمة الأخرى التي ظلت تحكم أجزاء من الوطن الإسلامي في الشرق الأدنى ، مثل أبناء البيت الزنكي في الموصل وسنجار ، وكيفا وآمد وخر تهرت فضلا عن بني مكان في خلاط ... من ناحية أخرى .

وفي وسط تلك الفوضى الضاربة التي عمّت العلاقات بين حكام مصر والشام أعقب وفاة صلاح الدين ، كان لابد لكل أمير من الأمراء أن يكون لنفسه عصبية يعتمد عليها في الاحتفاظ بإمارته أو في تحقيق مطامعه على حساب أمير آخر قريب أو بعيد^(٢) . ولم يجد أمراء المسلمين - من أيوبيين وغير أيوبيين - وسيلة يتقنون بها في أوجه خصومهم سوى المماليك - أو الرقيق الأبيض - ، فأكثروا من شرائهم وعنوا بتدريبهم وتلشأتهم ليسكونوا أداة وسنداً لهم . وهكذا شهدت السنوات الأخيرة من القرن الثاني عشر والنصف الأول من

(١) عماد الدين السكاك : الفتح النسي ص ٣٥٨ - ٣٥٩ ،

ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٦٨ - ٣٧٩ ،

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٢٦ .

(٢) سميح طاهر : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩١٢ وما بعدها .

القرن الثالث عشر ازدياد نفوذ المماليك في مختلف الإمارات والدول الإسلامية في الشرق الأدنى ، ومنها مصر ، وسرعان ما غدا الأولئك المماليك كلمة مسدوعة في الأحداث والخلافات التي تعرضت لها المنطقة . من ذلك ما تزويه المراجع من أنه عندما توفي الملك العزيز عثمان سلطان مصر في نوفمبر سنة ١١٩٨ ، وتسلم العادل أخو صلاح الدين الاستيلاء على مصر ، خشي المماليك الأسدية والصالحية في مصر سطوة العادل ، فتدخلوا فوراً واستدعوا الملك الأفضل من حوران وسلموه مقاليد الأمور في مصر في يناير سنة ١١٩٩ (١) .

وخلاصة القول أن سلاطين الأيوبيين وملوكهم دأبوا على شراء ممالك صغار من الرقيق الأبيض وبخاصة من بلاد القفجاق وما وراء النهر ، واتخذوا منهم قوة يعتمدون عليها في تثبيت حكمهم والوقوف في وجه خصومهم . وقد ظل أولئك المماليك الأتراك أداة سهلة لينة في أيدي ساداتهم الأيوبيين . طالما احتفظ أولئك السادة بقوتهم وهيبتهم . وإلى جموع المماليك بالذات يرجع الفضل في احتفاظ خلفاء صلاح الدين -- وبخاصة العادل الكامل بتفوقهم الحربي في وجه خصومهم من الصليبيين ومنافسيهم من أسراء المسلمين . ولم يلبث أن أصبح المماليك الأداة التي لا غنى عنها للملك الأيوبيين للاحتفاظ بسلاطنتهم ، مما أدى إلى تضخم نفوذهم السياسي نتيجة لشعورهم بأهميتهم .

المماليك البحرية :

وقد بلغ من ازدياد نفوذ المماليك السياسي في الدولة الأيوبية في النصف الأول من القرن الثالث عشر ، أنهم دبروا مؤامرة مكشفتهم من خلع العادل الثاني

(١) الميرزى : السلوك ، ج ١ ص ١٤٦ - ١٤٧ .

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٣٥ .

ولاحلال الصالح أيوب عمله في السلطنة (١) وهكذا أحس السلطان الصالح نجم الدين أيوب (١٢٤٠ - ١٢٤٩) بفضل المماليك عليه ، وأهميتهم له في توطيد سلطانه والاحتفاظ بمملكته ، فأكثر من شراء المماليك وحق بهم غناية فائقة جعلت نفوذهم يتضخم في صورة ملووسة على أيامه . ويروى المؤرخ العيني أن الصالح نجم الدين أيوب جمع من المماليك الترك ما لم يجمع غيره من أهل بيته ، حتى كان أكثر أمراء العسكر ممالكه ، ورتب جماعة من المماليك الترك حول دوايره ومخامهم البحرية (٢) .

وقد تعددت التفسيرات لاسم البحرية الذي أطلق على ممالك الصالح أيوب فالرأى القديم الشائع - وهو الأرجح في نظرنا - يقول إن هذه الطائفة سميت بالبحرية نسبة إلى بحر النيل ، حيث أن السلطان الصالح أيوب اختار لهم جزيرة الروضة وسط النيل لتكون مستقراً ومقاماً . وهناك رأى آخر رأى فيه البعض نوعاً من التجديد والرغبة في الخروج على المألوف ، ويقول إن تلك التسمية إنما مصدرها أن أولئك كانوا يجلبون عن طريق البحر صلبة تجار الرقيق ، ومن ثم سموا بالبحرية .

ومهما يكن من أمر ، فقد ازداد نفوذ المماليك البحرية في عهد الصالح أيوب ازدياداً خطيراً ، بعد أن انفض عن الصالح أحواله من الأكراد وغيرهم . ولم يلجأ أن يستغل المماليك البحرية سطوتهم في العبث بمصالح البلاد والعباد ، فأكثرُوا من الاعتداءات على أموال الناس وأرزاقهم ، الأمر الذي دفع بعض الشعراء إلى التهديد بهم وإلى إلقاء تبعه أعمالهم على السلطان الصالح أيوب نفسه ، ومن ذلك قول الشاعر :-

(١) الميرزى : السلوك ج ١ ص ٢٩٥ .

(٢) العيني : عقد الجمان ، حوادث سنة ٦٤٧ هـ .

الصالح المرتضى أيوب أكثم من ترك بدولته يا شر مجلوب
قد أغضت الله أيوباً بفعلته فالناس قد أصبحوا في ضرر أيوب (١)

على أن أولئك الممالك البحرية الذين أسرفوا في العبث بمصالح الناس واستفثروا غضب الأهل بعدوانهم وشرهم ، سرعان ما أثبتوا كفايتهم في التغلب على أكبر خطارين خارجيين واجها مصر - بل الوطن الإسلامي في الشرق الأدنى - حوالى منتصف القرن الثالث عشر ، وهما خطر الصليبيين وخطر التتار . ذلك أن استيلاء الخوارزمية على بيت المقدس سنة ١٢٤٤ استثار الغرب الأوربي من جديد ، فخرج لويس التاسع ملك فرنسا سنة ١٢٤٨ على رأس حملة صليبية كبرى قاصداً مصر . ولم تكن هذه أول حملة صليبية تخرج من غرب أوروبا بنيت الاستيلاء على مصر بالذات ، فقد سبق لمصر قبل ذلك بثلاثين سنة أن تعرضت لهجوم من جانب الحملة الصليبية الخامسة برعاية حنابرين ولكن حملة لويس التاسع على مصر سنة ١٢٤٩ كانت أعظم خطراً ، لكونها أكثر عدداً وعدة وأوفر تنظيماً ، فضلاً عن أنه كان على رأسها ملك من أعظم ملوك الغرب الأوربي وأشد هم تديناً وتحمساً للفكرة الصليبية .

ثم إن الظروف التي ظهرت فيها حملة لويس التاسع في الشرق ساعدت على إكساب تلك الحملة قصداً من التطورة بالنسبة لأوضاع مصر الداخلية . ذلك أن لويس التاسع ورجاله وصلوا إلى شواطئ مصر في الوقت الذي كان السلطان الصالح نجم الدين أيوب يعاني مرضاً خطيراً ؛ ولم تكن الأخبار تصل مسامعه عن قرب تعرض مصر لخطر صليبي حتى حملوه في محفة إلى مصر حيث نزل في

(١) ابن دياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٨٣ ،

جمال الدين سرور : الظاهر ببغداد ص ٣٨ . ويلاحظ أن الشاعر يشير إلى الآية السكرية « وأيوب إذ نادى ربه أنه مسني الضر وأنت أرحم الراحمين » .

أشهرهم طناح ليرقب الموقف^(١) . وهكذا أتى الصليبيون مصر في وقت كان سلطانها مريضاً لا يقوى على الحركة لغاراتهم ، فاستولى لويس التاسع على دمياط في يولييه سنة ١٢٤٩ هـ وتملكها الفرنج بغير قتال ، ويقال إن السلطان الصالح أيوب حزن حزناً شديداً لسقوط دمياط في قبضة الصليبيين ووبخ المماليك الأتراك وقائدهم فخر الدين لإهمالهم في الدفاع عنها وقال لهم ما قدرتم تفعلون ساعة بين يدي الفرنج ؟ ، وقد تخوف المماليك هذئذ من نوايا الصالح أيوب ، وأرادوا قتله ، ولكن الأمير فخر الدين أفهمهم أن السلطان مريض وأشار عليهم بالتريث فقال لهم « اصبروا عليه فهو على شفا... فإن مات فقد استرحتم منه وإلا فهو بين أيديكم »^(٢) .

ولم يلبث أن اشتد المرض على الصالح أيوب ، فحمل إلى قلعة المنصورة حيث ظل ينظم شئون الدفاع وهو على فراش الموت . وفي الوقت الذي شرع الصليبيون في الزحف من دمياط تجاه الجنوب ، توفي الصالح أيوب في المنصورة في ٢٣ نوفمبر سنة ١٢٤٩ م^(٣) .

المماليك الجهمية وإزال الهزيمة بالفرنسيين :

جاءت وفاة الصالح أيوب في تلك الظروف الحرجة خصاصة جسيمة ، لعدم وجود من يحمل شمله بسرعة في حكم البلاد وفي مواجهة الخطر الناجم عن الغزو الصليبي . وكان للصالح أيوب ابن واحد اسمه تورانشاه ، وهو شاب هديم الخبرة عينه أبوه نائباً عنه في حصن كيفا^(٤) . ولكن شاعت الظروف أن تظهر في

(١) المقرئى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ص ٢١٩ (بولاق) .

(٢) العيني : عقد الجمان ؛ حوادث سنة ٦٤٧ هـ .

(٣) المقرئى : السالك ، ج ١ ص ٣٤٦ .

(٤) أبو المحاسن : النجوم ، ج ٦ ص ٣٦٤ .

حريم الصالح أيوب امرأة قوية هي أو ملته شجر الدر ، التي قدرت خطورة الموقف فأخفدت خبر موت زوجها ، وأرسلت تستدعي ثور انشاء على عجل من حصن كيفا ، واستدبرت المناشير تخرج كل يوم عليها علامة السلطان ، والأدوية والطعام تدخل غرفته كما لو كان حياً (١) .

وعلى الرغم من كافة الاحتياطات التي اتخذتها شجر الدر فإن خبر وفاة الصالح أيوب تسرب إلى لويس التاسع الذي رأى أن يصرح بتوجيه ضربته قبل أن يستكمل المسلمون استعداداتهم ويفيقوا من أثر الصدمة التي حلت بهم نتيجة لوفاة الصالح أيوب . وعندما وصل الصليبيون إلى نقطة تفرع نهر أشموم من فرع دمياط ، وهي النقطة المواجهة للمنصورة ، صار على الصليبيين أن يهربوا نهر أشموم للوصول إلى المنصورة ومهاجمتها . ولم يعجز لويس عن عبور نهر أشموم ، وعندئذ اندفعت القوات الصليبية في اتجاه المنصورة وافتحمها مقدمة الجيش الصليبي فعلا بقيادة روبرت دى آرثوا أخى لويس التاسع (٢) .

وبذلك المرحلة الحرجة ظهر المماليك البحرية على المسرح لينفذوا الموقف . ذلك أن المماليك تركوا الصليبيين يدخلون المنصورة ليقيموا في أرقعتها . وعندئذ انقضت الطائفة التركية من الجهادية والبحرية الصالحية وحملوا على الفرنجة حملة زهزعت وعدمت بليانهم وأناخروا عليهم حرباً ذاكاً وقتلاً وإهلاكاً ، فكانت عدة القتلى منهم ألفاً وخمسة مائة ولوا منهم زعماء (٣) . وبذلك استطاع المماليك أن يحوّلوا انتصار الصليبيين إلى هزيمة وأن يبددوا مخاوف المسلمين ويهبطوا فيهم روح الأمل والمقاومة . ثم إن المماليك لم يتركوا الصليبيين يمددون إلى دمياط سالمين ، وإنما طاردوهم حتى أنزلوا بهم هزيمة كبرى عند فارسكور ووقع الجيش الصليبي

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ورقة ٣٦٢ - ٣٦٣ (مخطوط) .

(٢) محمد مصطفى زيادة : حملة لويس التاسع على مصر ص ١٥٣ - ١٥٤ .

(٣) العيني : عقد الجمان حوادث سنة ٦٤٧ هـ .

بأ كناه تقريباً بين أسرى وقتلى . وكان من جملة الأسرى لويس التاسع نفسه
الذى سبق مكبلاً بالأغلال إلى المنصورة حيث سجن في دار فخر الدين إبراهيم
ابن لقمان (١)

نهاية الدولة الأيوبية في مصر :

وفي تلك الأثناء وصل المعظم تورانشاه ابن الصالح أيوب إلى مصر في
نهاية فبراير سنة ١٢٥٠ . أي بعد موقعة المنصورة مباشرة . وقد أهدن تورانشاه
سلطاناً في دمشق ، وهو في طريقه إلى مصر ، وفتحن الناس بطلمعة ، وورقوا
خبراً على يديه . ولكن المراجع أجمعت على أن السلطان الجديد لم يكن
رجل الساعة ، وعلى أنه جمع بين سوء الحظ والجهل بشؤون الحكم والسياسة ؛
حتى لقد وصفه سبط بن الجوزي بأنه : كان سوء التدبير والسلوك ذا هوج
وخفة ، (٢) .

وكان مفروضاً أن يقدّر السلطان المعظم تورانشاه الموقف الجديد الذي نجم
عن انتصار المماليك على الصليبيين ، مما جعل المماليك يبدون في صورة أصحاب
الفضل في تخليص البلاد من ذلك الخطر الداهم . ولكن بدلاً من أن يصانع
تورانشاه المماليك ، حسدهم على ماحقه قوه لأنفسهم من مكانة وكرامة ، وسيطر
عليه شعور بأن المماليك يزاحونه الحكم ويقاسمونهم سلطانه . ولم يلبث أن أضمر
تورانشاه للمماليك البحرية أمراً . من ذلك ما ترويه المراجع من أنه كان يهرب
الخز ويضرب الشموع المصفوفة أمامه واحدة بعد أخرى حتى تنقطع وهو يردد

(١) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٣٥٦ .

أبو الحسن : النجوم ، ج ٦ ص ٣٦٧ .

(٢) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ؛ حوادث سنة ٦٤٨ هـ .

« هكذا أفعل بالبحرية ، ويسمى كل واحد من زعماء البحرية باسمه . (١) »
وليت تورانشاه حفظ الخيل اروج أبيه شجر الدر ، بل نفسى أنها حرس له
ملك أبيه وأنها أرسلت إليه تستدعيه إلى عمل من حصن كيفا بعد وفاة الصالح
أيوب ، فاتهمها بأنها أخفت ثروة أبيه وأرسل إليها يتهددها ويطلبها بما تحت
يدها من الجواهر فدأخلها منه خوف كثير ، وكانت الممالك البحرية .
وهكذا استثار تورانشاه سياسته الحقاء الممالك البحرية ، أصحاب القوة الفعلية
في البلاد وقتئذ ، واكتفى بجموعة من الندماء كان قد أحضرهم معه من حصن
كيفا ، فوزع عليهم الإقطاعات والوظائف التي حرم منها الممالك .

وكان أن استقر رأى الممالك على التخلص من تورانشاه بالقتل ، واستحثتهم
على ذلك زوجة أبيه شجر الدر التي باتت تفضي على نفسها من خدر تورانشاه
فأرسلت إلى البحرية تقول : « اقتلوا تورانشاه وعلى رضاكم » ، وقد ترعهم
المزامة بمجموعة من أسراء الممالك على رأسهم بيهر من البغدادي وقلاوون الصالحى
وأقطاي الجامدار وأبيك التركاني . ولم يكن تورانشاه ينزل بفارسكور في ٢ مايو
سنة ١٢٥٠ حتى بادره أولئك الأمراء بالسيوف ، ففر تورانشاه ليستمى بكشك
خدي كان قد أعد لإقامته في فارسكور . ولما أغلق تورانشاه أبواب الكشك
عليه ، أشعل الممالك النار فيه ، وهندت التي تورانشاه بنفسه في الليل وقد
اشتعلت النار في ثيابه ، وأخذ يسبح هالبا النجاة ، ولكن الممالك لاحقوه
بالنشاب من كل ناحية وهو يصيح : « ما أريد ملكا دعوني أرجع إلى الحصن
(كيفا) ، يا مسلمين ! ما فيكم من يهطعنني ويحرقني ! » (٢) ، ولكن أحدا

(١) المقبرى : السلوك ج ١ ص ٣٥٩ ،

أبوالمحسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧١ .

(٢) أبوالمحسن : النجوم الزاهرة : ج ٧ ص ٣٧١ .

لم يتقدم لنجدة تورانشاه ، فأتت جريحاً غريقاً عثراً - على قول المقرئ - وتركته جنته ملقاة في العراء على شاطئ النيل ثلاثة أيام لا يجرؤ أحد على دفنه ، حتى شفع فيه رسول الخليفة العباسي وهند بن ووري في التراب (١)

وبمقتل تورانشاه انتهى حكم الأيوبيين في مصر .

السلطنة شجر الدر :

غدا المماليك بعد مقتل تورانشاه أصحاب الكلمة الأولى والأخيرة في شئون البلاد . وقد اختار المماليك شجر الدر - أرملة أستاذهم الصالح أيوب - لتكون سلطنة على البلاد . وكانت شجر الدر حارية تركية الجنس - وقيل بل أرمينية - اشتراها الملك الصالح أيوب وحظيت عنده ، حتى أعتقها وتزوجها ولذلك فهي من ناحية الأصل والنسب أقرب إلى المماليك ، حتى اعتبرها المقرئى أول سلاطين المماليك في مصر - وأول من ملك مصر من ملوك الترك المماليك (٢) .

وكانت أولى المشاكل التي واجهت شجر الدر في سلطنتها هي مشكلة الصليبيين الذين مازالوا يحتلون دمياط . لذلك أخذت شجر الدر تسعى لحل هذه المشكلة ، فأرسلت الأمير حسام الدين محمد لمفاوضة الملك لويس التاسع - أسير المنصورة - وتمت تأخير التهديد ثم الاتفاق بين المماليك والفرنسيين ، فوافق الطرف الأول على إطلاق سراح لويس التاسع وجميع أسرى الصليبيين منذ عهد العادل الأيوبي وذلك مقابل ثمانمائة ألف دينار يدفع الصليبيون نصفها

(١) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ص ١٨٩ .

المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ٣٥٨ - ٣٦٠ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٣٦١ .

عاجلاً ، والنصف الآخر بعد ذلك (١) أما الطرف الثاني وهم الفرنسيون فقد وافقوا على إخلاء دمياط والجلاء عن البلاد ؛ كما تعهد لويس بعدم العودة إلى هيوأجل الإسلام مرة أخرى . وقد تحدد أجل الصالح بعشر سنوات . ولم يلبث أن تسلم المماليك دمياط في ٦ مايو سنة ١٢٥٠ ، وأطلقوا أسراح الملك لويس التاسع بعد دفع مقدم الفدية المتفق عليها ، وبذلك كانت مدة استيلاء الصليبيين في تلك المرة على دمياط أحد عشر شهراً وتسعة أيام (٢) .

وعندما نهجت السلطنة شجر الدر في تخليص البلاد من آثار الخطر الذي تعرضت له في أواخر أيام زوجها الصالح فهم الدين أيوب . على أن ذلك كله لم يكف لتدهيم مركز شجر الدر في أذهن المعاصرين ، إذ لا يخفى علينا أن السلطنة الجديدة كانت قبل كل شيء امرأة ، والمسلمون لم يعتادوا في تاريخهم الطويل أن يسلبوا زمام حكمهم لامرأة . وبدوا أن شجر الدر نفسها أحسست بوضعها الغريب ، الأمر الذي جعلها تسرف في التقرب إلى أهل الدولة ومنعهم الترتب والإقطاعات فضلاً عن أنها خفضت الضرائب عن الرعية لتستميل قلوبهم ؛ وبالجمله فقد ساست الرعية أحسن سياسة (٣) .

ولا أدل على شعور المعاصرين بالحرج من قيام امرأة في حكمهم ، من أن السلطنة شجر الدر حرصت على ألا تبرز اسمها مكشوفاً ، فكانت المراسيم والمناشدات تصدر من القلعة وعليها علامتها أم خليل ، ونقش اسمها على السكك والنقود في صيغة المستعصمية المحلية ، ملكة المسلمين ، والدلة الملك المنصور خليل أمير المؤمنين ، أما الخطباء فكانوا يقولون في دعاء يوم الجمعة بالمساجد اللهم وأدم سلطان الستر الرفيع والحجاب المنيع ، ملكة المسلمين والدلة الملك خليل ، وبعض

(١) Jouiuville, p. 194 &

أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٦٩ .

(٢) القرني : السلوك ، ج ١ ص ٣٦٣ .

(٣) ابن لياس : بدائع الزهور ، ج ١ ص ٨٩ .

الخطباء كان يقول - بعد الدعاء للخليفة العباسي - « واحفظ اللهم الجهة الصالحية ، ملكة المسلمين ، عصمة الدنيا والدين ، أم خليل المستعصمية ، صاحبة الملك الصالح ، . وفي جميع هذه الألقاب لا نلصق اسم شجر الدر الأمر الذي يعبر عن شعور الاستعلاء وحرص المرأة على عدم كشف اسمها مكتفية بأن تنسب إلى ولدها أو زوجها أو مولاها .

وكانت شجر الدر قد أنجبت من الصالح أيوب ولداً اسمه خليل توفي في صغره ولكنها تمسكت في سلطنتها بلقب « أم خليل » لتجنب ذكر اسمها في عصر اعتبر اسم المرأة عورة من هوانها . وربما أحست شجر الدر بأصلها غير الحر ، وبأنها لا تنحدر من شجرة البيت الأيوبي ، وبالتالي فإنها دخيلة على الحكم وليس لها حق شرعي فيه . لذلك حرصت السلطنة شجر الدر على التمسك بلقب « أم خليل الصالحية » لتظهر صلتها القوية بالبيت الأيوبي عن طريق ولدها خليل من ناحية وزوجها الصالح أيوب من ناحية أخرى ، وبذلك تضي على سلطتها هائلة من الشرعية تجعل المعاصرين يهرفون النظر عن الحقيقة الكبرى وهي أن مقاليد حكمهم خدت فعلاً في يدي امرأة .

ومع ذلك ، فإن جمع تلك الحيل لم تفلح في دعم موقف السلطنة الجديدة ؛ فرفض الأمير جمال الدين بن يغمور نائب السلطنة والأمراء القيمرية في دمشق أن يخلفوا يمين الولاء والطاعة للسلطنة أم خليل ، وثارَت دائرة الأسراء والملوك الأيوبيين في بلاد الشام عندما سمعوا بمقتل تورانشاه وقيام شجر الدر في الحكم لأنهم وجدوا في ذلك خروجاً للسلطنة من بينهم . ولم يلبث أن ألهب الموقف في بلاد الشام وأصبح من الواضح أن ملوك الأيوبيين سيخذون موقفاً حازماً هجومياً ضد مصر ، بعد أن استولى الملك المعيد حسن الأيوبي على غزة وقاعدة الصليبية ،

ونار الطواشي بدر الدين لؤلؤ الصالحى نائب السكر والشوبك ، وملك الملك
المفتى عمر الأيوبى على هذين الحصنين . فى الوقت الذى سلم الأمراء القيسرية
مدينة دمشق إلى صاحب حلب الناصر يوسف بن العزيز الأيوبى (١) . وبذلك
خرجت بلاد الشام بأكلها من قبضة شجر الدر ، وانقسمت الجهة الإسلامية
فى الشرق الأدنى مرة أخرى فحدث مصر فى قبضة المماليك وبلاد الشام فى
قبضة الأيوبيين .

ولم يشفع لشجر الدر أنها حاولت عندئذ أن تتمسح فى الخلافة العباسية ،
فتمسكت بقلب المستعصمية ، نسبة إلى الخليفة المستعصم العباسى ؛ بل على
العكس وجد الخليفة العباسى فى بغداد نفسه لا يمكن أن يقر مبدأ قيام امرأة فى
حكم المسلمين ، فبعث من بغداد كتاباً إلى مصر عاب فيه على الأمراء موقفهم ،
وقال لهم عبارته المشهورة : إن كانت الرجال قد عدمت عندكم فاهلونا حتى
نسير إليكم رجلاً (٢)

وهكذا وجدت شجر الدر نفسها فى موقف لا تحسد عليه بعد أن أحاطت
بها مظاهر السكر فى الداخل والخارج ، وجاء قيامها فى الحكم مصحوباً بتمزيق
الوحدة بين مصر والشام ، وهى الوحدة التى ظلت قائمة فى صورة أو أخرى منذ
أيام نور الدين محمود بعد منتصف القرن الثانى عشر . هذا إلى أن الممارضين
لشجر الدر انهموها بالتفريط مع الصليبيين وأنها المسئولة عن إطلاق سراح
لويس التاسع ملك فرنسا ، وهو الذى خرج من مصر ليواصل نشاطه الصليبي
فى بلاد الشام . ولاندعرج من ذلك المأزق دخلت شجر الدر نفسها من مملكة
مصر ، فوافقت على الزواج من الأمير عز الدين أيبك - أتابك السكر -
على أن تتركه وظيفة السلطنة . وكان أن تمت هذه الخطوة فى يوليو سنة ١٢٥٠

(١) المغريزى : السلوك ، ج ١ ص ٣٦٦ - ٣٦٧ .

(٢) المغريزى : السلوك ج ١ ص ٣٦٨ .

وبذلك انتهى عهد شجر الدر بعد أن ظلت في الحكم ثمانين يوماً أثبتت فيها مهارة فائقة وكفاية ممتازة (١) .

السلطانة المصرية أيلك : (١٢٥٠ - ١٢٥٧)

كان عز الدين أيلك أحد المماليك الصالحية ، ولكنه لم يكن من طائفة المماليك البحرية ؛ ترقى في خدمة السلطان الطالح أيوب حتى أصبح من الأمراء وتولى وظيفة الجاشنكير في بلاط السلطان .

وعندما تولت شجر الدر السلطنة صار أيلك أتابك العسكر أى قائد الجيش ، حتى تخرج موقف شجر الدر في الداخل والخارج كما ذكرنا ، وعندئذ وافق الأمراء على زواج أيلك من شجر الدر على أن تصير له السلطنة وكان أيلك معروفاً بين المماليك بدين وكرم وجودة رأى ، ولكنه يبدو أن هذا لم يكن السبب الرئيسى الذى جعل المماليك - ومنهم طائفة البحرية - يجمعون على اختياره للسلطنة ، إذ الواقع أنه وجد عندئذ مجموعة من الأمراء الأقوياء وهؤلاء كانوا يخشون بعضهم بعضاً ، ويخشاهم الناس جميعاً ، قال الناس لى أيلك : لأنه من أوسط الأمراء ولم يكن من أعيانهم ، فى حين أبدى عماء البحرية - مثل إقطاعى وبيرس وقلاون - اختياره للسلطنة لاعتقادهم أنه سهل ومضى أردنا صرفه أمكننا ذلك لعدم شوكته ، (٢) ١

على أن الصعاب لم تلبث أن أحاطت بالسلطان الجديد فى الداخل والخارج . وكان أول خطرين تعرض لهما خطر الأيوبيين فى الشام وخطر البحرية فى مصر . أما ملوك الأيوبيين فى بلاد الشام فقد غلوا فى حالة نقمة وثورة ، وأخذوا

(١) ابن دياس : بدائع الزهور ، ج ١ ص ٩٥ ، الميرزى : السلوك ص ٣٦٧ - ٣٦٨ .

(٢) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٤ .

يجمعون قواهم لغزو مصر والقضاء على دولة المماليك الناشئة. وأما المماليك البحرية، فقد عز عليهم أن يتولى أيك السلطنة وهو ليس بحرياً، فناروا بعد خمسة أيام من إعلان أيك سلطاناً وقالوا « لا بد لنا من سلطان يكون من بني أيوب يجمع الكل على طاعته ١ » (١). ومن الواضح أن الهدف الحقيقي للبحرية كان استئثارهم لأنفسهم بالحكم، ولم تكن الدعوة لبني أيوب إلا ستاراً ينفخون وراءه أطماعهم الحقيقية.

وكان أن وقع الاختيار على صبي صغير من بني أيوب - هو الملك الأشرف موسى - ليجعله شريكاً للسلطان الممز أيك في السلطنة « ليجتمع الكل على طاعته ويطيعه الملوك من أمته ». وهكذا بدت ظاهرة غريبة هي اشتراك سلطانين - الممز أيك الركاى والأشرف موسى الأيوبي - في حكم مصر فكانت المراسيم والمناشير تخرج عن المملكين الأشرف والممز، إلا أن الأشرف ليس له سوى الاسم في الشركة لا غير وجميع الأمور بيد الممز أيك (٢). وكان الأشرف موسى في السادسة من عمره، الأمر الذي جعل زعماء البحرية - مثل أقطاي الجندار ويهرس البندتارى وبلبان الرشيدى وسنقر الرومى - يرحبون بذلك الطفل، حتى يدبرونه كيفما شاءوا وياكلون الدنيا به ١، على قول أبى المحاسن (٣). أما الممز أيك فقد رأى في إشراك ذلك الصبي معه وسيلة طيبة لتخدير بني أيوب وتسكين ثورتهم.

ولكن ملوك الأيوبيين بالشام لم تنطل الحيلة عليهم، فقرروا بالاصري وحلف الأيوبي صاحب حلب ودمشق انحف على الديار المصرية للقضاء على ثورة المماليك (سبتمبر ١٢٥٠) وفي تلك الأثناء أثبت السلطان الممز أيك أنه أقوى

(١) أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٥٠
(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٣٦٩
(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٥٥

بما ظنه عليه البعض ، فقبض على بعض أمراء المماليك المعروفين بميلهم
للأيوبيين ، وأعلن في القاهرة أن البلاد للخليفة المستعصم بالله العباسي وأن
الملك المعز نائبه فيها (١) . هذا إلى أن أيك خشي حدوث تفاهم بين
الأيوبيين في الشام ولويس التاسع زعيم الصليبيين الذي كان عندئذ قابلاً في
حكاير قرب الموقف ، ولذلك حاول أيك أن يتقرب من الملك الفرنسي بأن
أطلق سراح بعض أسرى الصليبيين الفرنسيين من المسجونين المصريين . وفي
الوقت نفسه أراد أيك أن يأمن شر هجوم غادر يقوم به لويس التاسع على
مصر لينتار بما حل به من هزيمة في المنصورة ، فأمر أيك بهدم تحصينات
مدينة دمياط حتى خربت كلها وحيث آثارها ، وبذلك لا يتمكن الصليبيون
من اتخاذها مرة أخرى قاعدة لهم يهددون منها داخلية البلاد .

أما زعماء البحرية فقد نسوا في تلك الأزمات مصيبتهم الصغيرة الضيقة ،
وتذكروا العصبية المملوكية الكبيرة التي تجعل منهم ومن أيك وبقيّة المماليك
كتلة واحدة أمام الخطر الأيوبي الذي هدد مستقبل المماليك جميعاً . وهكذا
خرج المعز أيك ومعه المماليك البحرية لدفع الغزاة ، خلت الهزيمة برجال
المعز أيك ولكنهم هادوا وانتصروا على الأيوبيين عند العباسية في فبراير
سنة ١٢٥١ ففر الناصر يوسف الأيوبي إلى الشام وهاد المماليك ظافرين
ومعهم الأسرى إلى القاهرة (٢) .

ولم تلبث الخلافة العباسية أن أخذت تهتس بفطرت التتار الذين اقترعوا
بزعامته هولاكو من العراق . وقد رأى الخليفة المستعصم العباسي أن يعمل
بسرعة لتوحيد صفوف المسلمين في الشرق الأدنى ليقفوا صفاً واحداً أمام
خطر المغول الوثنيين ، ولذلك أرسل رسولاً إلى الملك الناصر (يوسف)
صاحب دمشق يأمره بمصالحة الملك المعز (أيك) وأن يتفقا على حرب

(١) المبريزي : السلوك ج ١ ص ٣٧٠ .

(٢) أبو الفدا : المختصر ، ج ٣ ص ١٨٤ - ١٨٥ .

(٣) - المصرا المماليكي

التتار^(١) . وبفضل هذه الوساطة أمكن الوصول إلى اتفاق بين الأيوبيين في الشام والمماليك في مصر ، فمعدت اتفاقية بين الطرفين في إبريل سنة ١٢٥٣ وبمقتضاها صار للمماليك مصر وفلسطين حتى نهر الأردن بما في ذلك غزة والقدس والساحل ، على أن تكون بقية بلاد الشام للأيوبيين^(٢) . ومن الواضح أن هذه الاتفاقية لها أهميتها في التاريخ لأنها بمثابة الوثيقة التي اعترف فيها بنو أيوب بشرعية سلطنة المماليك في مصر . وكان ذلك في الوقت الذي استغل أيك فرصة انتصاره على الناصر يوسف الأيوبي عند العباسية من جهة ، وفرصة المخاوف التي عمت نتيجة لخطر التتار من جهة أخرى ، وتخلص من شريكه الصغير الملك الأشرف موسى الأيوبي ؛ فحذف اسمه من الخطبة وقبض عليه وسجنه^(٣) .

على أن الأمور لم تهدأ لأيك في الداخل بسبب ثورة الأعراب الذين احتقروا المماليك لأصلهم غير الحر ، وأنفوا أن يخضعوا لحكمهم ونادوا بأنهم أحق بالملك من المماليك وقد كفى أننا خدمنا بني أيوب ؛ وهم خوارج خرجوا على البلاد ، وقد اتخذ تمرد الأعراب شكل ثورة "جماعة" ، فاختموا شخصاً زعموا أنه من ذرية علي بن أبي طالب اسمه حصن الدين بن ثعلب ليكون زعيماً لحركتهم . ولكن السلطان المماليك استعان بالبحرية وزعيمهم أقطاي في القضاء على ثورة الأعراب في الشرقية والغربية والمذوفية وغيرها من الجهات ، وقبض على حصن الدين بن ثعلب وقتل كثيراً من أتباعه^(٤) .

ولكن إذا كان أيك قد نجح في التغلب على الأخطار الخارجية والداخلية

(١) السبكي : طبقات الشافعية ج ٥ . ص ١١٣ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٣٨٥ .

(٣) أبو الحسن : النجوم ج ٧ ص ١٢ .

(٤) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٣٨٦ - ٣٨٨ .

التي واجهته بمساعدة المماليك البحرية ، فإن النتيجة الحتمية لذلك الوضع هي ازدياد نفوذ البحرية وزعيمهم أقطاي حتى أصبح لا مفر من وقوع صدام بينهم وبين أيك وقد سبق أن أشرنا إلى أن البحرية لم يمانعوا في تولية أيك السلطنة لاعتقادهم في ضعفه وأنه من الممكن إزالته من طريقهم في سهولة . ولكن الأيام أثبتت خلاف ذلك ، وأظهرت أيك في صورة السلطان القوي الذي نجح في التغلب على الأخطار الخارجية والداخلية التي واجهته خطراً بعد آخر . وأخيراً أفاق أيك ليجد أن جميع الانتصارات التي كسبها مطلوب منه ومن شعب مصر أن يدفع ثمناً خالياً لها ، هو تحمل بطش المماليك البحرية الذين اعتدوا بأنفسهم وبقوتهم ، وساروا إلى القاهرة ومصر أنجس مهرة من العسف بالناس والجور . أما أقطاي زعيم البحرية فقد بلغ درجة من السطوة والنفوذ فاقت سطوة السلطان أيك ونفوذه فطشى وتجهز وبغى وتكبر ... وأمره مطاع في الحقيرة والكبيرة لا يرد له مرسوم ، والملك المعز (أيك) معه باسم الملك لا غير ، ^(١) وقد بالغ أقطاي في احتقار السلطان أيك فصار لا يسميه إلا أيكا ، كما أخذ أقطاي ينتحل لنفسه في مواكبه ومجالسه بعض الشعائر التي كانت من اختصاص السلطان وحده بل إن أصحابه أسموه الملك الجواد ، ^(٢) .

وأخيراً خطب أقطاي ابنة الملك المظفر تقي الدين محمود صاحب حماء ، ثم طلب من المعز أيك أن يسكنها قلعة الجبل ، ليكونها من بنات الملوك ولا يليق سكناها بالبلد ، وعندئذ أدرك أيك ما يحول بنفس أقطاي ، لأن قلعة الجبل في ذلك العصر كانت المقر الرسمي للحكم ، فكان معنى طلب أقطاي أن نفسه ، حدثه بالملك ، هذا إلى أن زواج أقطاي من أميرة من أميرات البيت الأيوبي كان كفيلاً بأن يجعل له سنداً شرعياً في الحكم ، وهو أمر

(١) ابن أيك : كنز الدرر ج ٨ ق ١ ص ٢٢ (مخطوط) .

(٢) أبو الحسن : النجوم ج ٧ ص ١١ .

لما يتوفر لأبيك . لذلك قرر أليك التخلص من أقطاي بالقتل ، فاستدعاه إلى القلعة بحجة استشارته في بعض أموره ، وهناك هاجمه بعض أتباع أليك ، وهربوه بالسيف حتى مات ، (١) .

وسرعان ما انتشر خبر مقتل أقطاي في القاهرة ، فاجتمع ببيرس البندقدارى وقبلاون الألفى وسنقر الأشقر وبيسرى ... وغيرهم من أمراء البحرية تحت أسوار القلعة ومعهم أتباعهم في محاولة يائسة لإنقاذ أقطاي ، ظناً منهم أنه لم يقتل . ولكن أليك ألقى إليهم رأس زعيمهم أقطاي من القلعة وعندئذ أدرك أمراء البحرية أن دورهم آت عن قريب فقرروا الفرار إلى الشام . وعندما علم أليك بنيتهم أغلق أبواب القاهرة في وجوههم ، ولكنهم أحرقوا باب القراطين — الذى عرف بعد ذلك باسم الباب المحروق — وبذلك استطاعوا الفرار إلى الشام (٢) .

وقد بدت تلك الحركة التى اتخذها أليك ضد البحرية وقد خاصته من خطر جسيم ، إذ استطاع أليك أن يقبض على من تبقى من البحرية في القاهرة فقتل بعضهم وحبس البعض الآخر ، وصادر أموالهم ونساءهم وأتباعهم ، ونودى في القاهرة بتهديد كل من أخفى أحداً من البحرية (٣) . على أن الأمر كان في حقيقة أعمق بكثير من ذلك الانتصار الظاهرى ، لأن زعماء البحرية الذين فروا إلى الشام لم ينسوا نارهم وظلوا يسبون المتاعب لأبيك ومن خلفه من السلاطين في مصر ، حتى انتهى الأمر باستئثارهم بالحكم . وكان أن انفصل أمراء البحرية الذين فروا إلى الشام بالناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب .

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٣٩٠ . ويذكر المقرئى أن قطز . الذى ولى السلطنة فيما بعد كان ممن شاركوا في قتل أقطاي .

(٢) ابن خلدون : المعبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٣٧٥ - ٣٧٦

(٣) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٢٩٢ .

وأغروه بفتح مصر ، وفعلًا ساء الموقف بين الناصر يوسف والمعز أيك .
سنة ١٢٥٦ ، ولكن الأمر انتهى بالصلح بين الطرفين بفضل وساطة
الخليفة العباسي (١)

والغريب أن أيك الذي ثبت ذلك الثبات في وجه خصومه في الداخل
والخارج ، واستطاع أن يتغلب على جميع ما واجهه من مشا كل متعددة ، جمات
نهايته أخير أعلى يد زوجته شجر الدر التي ذاق طعم السلطان وتولت السلطنة
فعلًا ثمانين يوما ، عز عليها بعدها أن تتخلى عن نفوذها وأن يخرج الأمر والنهي
من يديها . وقد وصف المؤرخ ابن إياس شجر الدر بأنها د صعبة الخلق قوية
البأس ، كما وصفها المؤرخ نفسه بأنها كانت د نكرانة من خمرة العجب
والتيه (٢) وهذا النوع من النساء إذا ذاق طعم السلطان مرة من الصعب أن
يتخلى عنه بعد ذلك . ومن الواضح أن شجر الدر عندما قررت الزواج من عز
الدين أيك إنما أرادت أن تتظاهر بالتخلي عن السلطنة لترضى شعور المسلمين
ولكنها صممت منذ اللحظة الأولى على أن تحتفظ بسلطانها وتتحكم في أيك
وشئون الدولة جميعاً . وفعلًا أحكمت شجر الدر سيطرتها على زوجها الجديد
السلطان المعز أيك ، فأرغمته على هجر زوجته الأولى أم ولده علي ، وحرمت
عليه زيارتها هي وابنها ، وبالجملة فقد كانت شجر الدر د مستوية على أيك
في جميع أحواله ليس له معها كلام (٣)

ولم يلبث أن ستم المعز أيك الحياة مع شجر الدر ، وخاف على نفسه من
غائلتها لاسيما بعد أن أخبره أعدا المنجمين أن نهايته ستكون على يد امرأته وكان

(١) أبو الحسن : النجوم ج ٧ ص ١٢ ،

المقريزي : السلوك ج ١ ص ٣٩٨ .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٩١ .

(٣) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧٤ .

أن خطب المعز أيك ابنة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ليتزوجها ، فغضبت شجر الدر لذلك ، وكانت شديدة الغيرة ، وقد أسرعت شجر الدر في تدبير مؤامرتها ، فأرسلت إلى أيك - الذي كان قد غادر القلعة في منظر اللوق - تسترضيه وتطلب عفوه ، فتدع أيك واستجاب لدعوتها وعاد إلى القلعة حيث احتفت به حفاوة بالغة . ولم يكبد أيك يدخل الحمام في الليل ، حتى انقض عليه خمسة رجال أهداء أهدتهم شجر الدر ، فقتلوه سنة ١٢٥٧ (١) .

وقد أشاعت شجر الدر أن المعز أيك مات فجأة أثناء الليل ، ولكن ممالكك أيك لم يصدقوها وهبوا للنار لاستأذهم فقبضوا على شجر وبعض أعيانها . ويقال إنه بلغ من صلابة شجر الدر أنها عندما وجدت نفسها أوشكت على الوقوع في أيدي أعدائها جمعت معظم مالهيا من جواهر ولآلىء وألقتهم بأن كسرتها في الهاون ، حتى لا تتمتع بها ضرتها أم علي بن أيك من بعدها (٢) . ولكن ذلك كله لم ينجحها من سوء المصير ، فقتلها ممالكك أيك وألقوا بجثتها من سور القلعة إلى الخندق وليس عليها سوى سراويل وقميص ، إلى أن دحمت في قفّة ، ودفنت بعد عدة أيام . وعلى ذلك الوجه انتهت حياة أيك وشجر الدر جميعاً (٣) .

السلطان المنصور علي بن أيك : (١٢٥٧ — ١٢٥٩)

لم يؤمن الممالك بنظام ورائة العرش . ولم يتبعوا هذا النظام عن قصد كقاعدة ثابتة طوال تاريخهم ، الأمر الذي جعل منصب السلطنة دائماً موضعاً

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٤٠٣ .

(٢) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧٨ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٤٠٤ .

للتنافس والمنازعات بين كبار امراء الممالك عقب وفاة كل سلطان . وكان الذى يحدث عادة عند وفاة سلطان من سلاطين الممالك هو أن يجتمع كبار الامراء ويعينوا ابن السلطان المتوفى فى منصب السلطنة بدلا من أبيه ، لا ليماناً منهم بمبدأ الوراثة ، ولكن كحل مؤقت إلى أن ينجلي الموقف بين الامراء ويظهر الأمر القوى الذى يستطيع أن يثبت تفوقه على بقية الامراء ، وعندئذ يأخذ منصب السلطنة لنفسه بعد عزل من عساه يكون موجوداً من سلالة السلطان الراحل .

وكان هذا هو الموقف فى مصر بعد مقتل السلطان أيبك ، إذ اجتمع كبار الامراء واختاروا ابنه نور الدين على - الذى تلقب بالمنصور - سلطاناً ، وكان فى الخامسة عشرة من عمره . ولم يكن منتظراً من هذا الصبي أن يصمد فى وجه كبار الامراء أو أن يتمكن من مواجهة الاخطار الخارجية التى هددت الوطن العربى فى الشرق الأدنى عندئذ ، وحسب المنصور على بن أيبك أنه كان يقضى وقته فى التلمى بركوب الخيل والطواف بها داخل أسوار القلعة .

وسرعان ما ظهر التنافس بين كبار الامراء فى الدولة ، فقبض الأمير قطز - الذى كان نائب السلطنة وأقوى الامراء نفوذاً فى شئون الدولة - على الأمير علم الدين سنجر الحلبي أنابك العسكر ، وعين بدله فى ذلك المنصب الأمير فارس الدين أقطاي . ثم انتشرت الشائعات بعد ذلك بأن السلطان المنصور على قد تغير على نائبه الأمير قطز وأنه ينوى عزله مع بقية الممالك المعزية ، ولكن بعض الامراء تواسطوا بين الطرفين حتى صلح الأمر بين السلطان المنصور على من ناحية والأمير سيف الدين قطز المعزى من ناحية أخرى^(١) وهكذا عاشت القاهرة فى تلك الفترة عيشة قلق وعدم استقرار ، وهى المظاهر التى نشأت عن قيام صبي قاصر فى السلطنة

(١) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٤٢ - ٤٣ .

ومجموعة من الأمراء الأقوياء المتربصين لبعضهم البعض حول كرسى السلطنة .

وفي ذلك الوقت كان المماليك البحرية الذين فروا إلى الشام في عهد المعز أيبك بعد مقتل كبيرهم أقطاي ، مازالوا يتعمقون القرص للنار لأنفسهم . ولم ينس زعماء البحرية بالشام أن السلطان المنصور هلى إنما هو ابن المعز أيبك الذى تسبب في تشريدهم ومقتل زعيمهم ، كذلك لم ينسوا أن الأمير قطز نائب السلطنة في مصر إنما كان أحد الأمراء الذين هوى بسيوفهم على رقبة أقطاي تنفيذاً لأوامر المعز أيبك ، وكانت العلاقة قديمة بين الناصريوسف الأيوبي صاحب حلب ودمشق من ناحية وأمراء البحرية بالشام من ناحية أخرى ، فاتجه البحرية إلى الكرك حيث أطمعوا المغيث عمر الأيوبي في ملك مصر^(١) . وفعلا استجاب المغيث عمر لدعوة البحرية فأمدهم بالمال وللأسلحة وخرج البحرية متجهين صوب مصر لغزوها . وقد أسرع قطز على رأس الجيش المصري لصد خطر البحرية ، واستطاع أن ينزل بهم هزيمة عند الصالحية ، حيث أسر منهم بعض الأمراء مثل قلاون الألفى وبلبان الرشيدى ، وإن كان قد أطلق سراح معظم الأسرى بعد ذلك فعاد قلاون إلى الكرك ليلحق بأصحابه^(٢) .

على أن البحرية لم يكنوا عن محاولة أخذ مصر بعد ذلك ، فانتهزوا فرصة الفوضى التى حمت بلاد الشام نتيجة للأخبار المتواترة عن اقتراب خطر المغول ، وزينوا المغيث عمر مرة أخرى الخروج معهم لأخذ مصر . وفى تلك المرة - سنة ١٢٥٨ - خرج المغيث عمر بنفسه صهبة البحرية ، ولكن الأمير قطز تصدى لغزاة من جديد وأنزل بهم هزيمة أخرى عند الصالحية ، ففر المغيث عمر

(١) أبو القدا : المختصر ج ٣ ص ١٩٢ - ١٩٣ .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٠٦ .

إلى الكرك في حين اتجه البحرية إلى الطور حيث اتصلوا بالأكراد الفارين من وجه التتار^(١). ويبدو أن حركات البحرية في ذلك الدور أخافت الناصر يوسف الأيوبي فتهدى لهم وأخذ يطاردهم، وهدد المفتي عمر بتسليم من لديه منهم، وكان ذلك في الوقت الذي اشتد خطر التتار ليهدد الأيوبيين والمماليك جميعاً في الشام ومصر.

ذلك أن الأخبار أخذت تترى سنة ١٢٥٩ - بوصول التتار بزعامة هولاكو إلى الشام بعد أن أسقطوا الخلافة العباسية في بغداد، ومن ثم عم القلق أهل مصر بعد أن أحسوا باقتراب الخطر منهم. وفي ذلك الموقف الحرج وجد قطز فرصته سانحة ليزل الصبي المنصور على بن أيك والجلوس محله على كرسي السلطنة، فجمع د الأعيان والأمراء بالديار المصرية، وعرفهم أن الملك المنصور هذا صبي لا يحسن التدبير في مثل هذا الوقت الصعب، ولا بد أن يقوم بأمر الملك رجل شهم بطيعة كل أحد، وينتصب للجهاد في التتار. فأجابه الجميع: ليس لها غيرك^(٢)،

وهكذا تم الأمر لقطز، فقبض على المنصور على بن أيك وأخيه قاتان ابن أيك وأمهما، واعتقلهم جميعاً في برج بالقاهرة؛ وتولى هو السلطنة بقلب المظفر في أبريل سنة ١٢٥٩.

(١) أبو الفدا: المختصر ج ٣ ص ١٩٥.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ٧ ص ٥٥.

الفصل الثاني

الممالك والتتار

سقوط المموية العباسية في بغداد :

عرفت قارة آسيا في التاريخ بأنها المخزن البشري الضخم الذي خرجت منه غزوات كثيرة في العصور الوسطى لتؤثر سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وسياسياً في أوضاع بلدان الشرق الأدنى حينئذ ، وبلدان شرق أوروبا ووسطها أحياناً . ويفسر الباحثون تلك الغزوات التي تدفقت من حواف القارة الآسيوية في العصور الوسطى في ضوء العامل الاقتصادي ، وما يرتبط بهذا العامل من ازدياد السكان وزيادة ضخمة وتناقص الأمطار في بعض الأوقات ، مما يدفع الشعوب الرهوية الآسيوية إلى الهجرة في صورة غزوات هدامة ضخمة ، فتدمر الزرع والضرع وتحرق في طريقها المدن والقرى ، ولا يعنيها في كل ذلك سوى أن تنجو من ألم الجوع وخطر الموت .

ومن تلك الغزوات التي تركت أثراً خطيراً في تاريخ الشرق الأدنى بوجه خاص غزوات التتار ، الذين نهج زعيمهم جنكيز خان في توحيد قبائلهم ثم في الاستيلاء على الصين في أوائل القرن الثالث عشر ، ومن ثم غدا التتار قوة رهيبة لم تقنع بالاقليم الوسطى من القارة الآسيوية ، وإنما انطلقت غرباً نحو شرق أوروبا من جهة وغرب آسيا والشرق الأدنى من جهة أخرى ، لتنفس عن طاقتها المكبوتة تعبيراً حريياً عنيفاً واسع النطاق .

ويمننا من أمر تلك الغزوات المغولية التي شهدتها النصف الأولى من القرن الثالث عشر ، أن منكوك خان - خاقان التتار الأعظم - أوفد أخاه هولاكو

لفتح إيران والشام ومصر وبلاد الروم (السلاجقة) والأرمن . وفعلا لم يكبد
ينتصف القرن الثالث عشر إلا كان التتار قد قضوا على الدولة الخوارزمية
وسيطروا على إيران ، كما استولوا بعد قليل على قلاع الباطنية في فارس ؛ وبذلك
جاء دور الخلافة العباسية في بغداد ^(١) . وكانت الخلافة العباسية هندية منتصف
القرن الثالث عشر - في عهد الخليفة المستعصم باقه - تعاني آلام الموت ؛ بعد
أن عتارها الضعف الشديد بسبب الانقسامات المذهبية والفتن الداخلية وسيطرة
الأمراء على الخلافة وشؤونها ؛ ولذلك لم تستطع الخلافة العباسية الصمود على وجه
الغزو المغولي للعراق سنة ١٢٥٧ . في الوقت الذي فعلت جهود الخليفة المستعصم
العباسي في توحيد جهود الأيوبيين والمماليك في الشام ومصر لصعد ذلك
الخطر ^(٢) .

وهكذا اقتحم التتار بغداد في فبراير سنة ١٢٥٨ ليقتلوا ثمانمائة ألف من أهلها
في مذبحه رهية استمرت أربعين يوما ، ثم أشعلوا النار في المدينة بعد ذلك
فأنت على كثير من تراث العباسيين - بل تراث الحضارة الإسلامية - في
الأدب والعلوم والفنون . أما الخليفة المستعصم باقه العباسي فقد قتلته التتار في ٣٠
فبراير بعد أن حصلوا منه على كل دما كان الخلفاء العباسيون قد جمعوه خلال
خمس قرون ، ^(٣) . ولم يكتف التتار بقتل الخليفة العباسي نفسه بل أرادوا
أن يحدوا مذبحه لاستئصال جذور البيت العباسي كله دفنوا على كل شخص
وجده حيا من العباسيين ، ^(٤)

(١) رشيد الدين الهمداني : جامع التواريخ ج ٢ ص ٢٣٦ وما بعدها .

(٢) السبكي : طبقات الشافعية ج ٥ ص ١١٣ ، المقرئ : السلوك ج ١ ص ٣٨٥ .

(٣) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٥٦ هـ .

(٤) رشيد الدين الهمداني : جامع التواريخ ص ٢٦٤ .

التتار في الشام

ولا شك في أن وصول التتار إلى العراق واستيلائهم عليه ، وإسقاطهم الخلافة العباسية في بغداد... كل ذلك أحدث هزة عنيفة في العالم الإسلامي بوجه عام والوطن العربي بوجه خاص . وقد أخذ حكام المسلمين وأمرؤهم في البلاد المجاورة يعملون حساباً لليوم المرتقب ، لأنه لم يكن منتظراً أن يمنع المغول بالاستيلاء على العراق وأن تقف غزواتهم وقفة تلقائية عند ذلك الحد ، وهم الذين خرجوا من جوف القارة الآسيوية واستمروا - كلما استولوا على بلد - يتطلعون إلى ما بعده من بلاد .

ويبدو أن أخبار قسوة التتار ووحشيتهم وعنهم كانت تسبقهم دائماً إلى البلاد التي لم يصلوا إليها بعد ، فيسرع الأمراء والحكام إلى استرضائهم والاستسلام لهم طلباً للسلامة وتجنباً لسوء العواقب . وهكذا أسرع أهالي الحلة والكوفة وواسط في العراق إلى استقبال جندهم ولا كورسله و أقاموا الأفراح ابتهاجاً بقدمهم^(١) ، وفعل مثل ذلك حاكم الموصل وسليمان سلاجقة الروم . وغيرهما من حكام البلدان الإسلامية المجاورة .

أما ملوك الأيوبيين وأمرؤهم بالشام فلم يكونوا أحسن حالا ، إذ أسرع الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب ودمشق إلى إعلان خضوعه للتتار فأرسل ابنه العزيز سنة ١٢٥٨ هـ يستعطف وتقادم إلى هولاكو ملك التتر وصانعهم لعله بعجزه عن ملتي التتر ،^(٢)

على أن تلك المظاهرات من جانب ملوك الأيوبيين جاءت بعد فوات الأوان

(١) رشيد الدين الحمصاني : جامع التواريخ م ٢ ج ١ ص ٢٩٩ .

(٢) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٠٧ هـ .

إذ لم يكن إعلان ولاتهم بعد سقوط بغداد ليصرف نظر هولاء عن الشام .
وقد بدأ التتار هجماتهم ضد بني أيوب بالاستيلاء على ميفارقين في ديار بكر ،
وكان يحكمها أحد أمراء الأيوبيين واسمه الكامل دحمه ، وعندما استولى التتار
على تلك المدينة ذهبوا من فيها من المسلمين ، في حين قطعوا جسد الكامل
محمد الأيوبي إرباً وحملوا رأسه على حربة ليطاف بها في جميع أنحاء الشام من
حلب إلى دمشق (١) .

أما الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب ودمشق فلم يشفع له أنه أرسل
ابنه العزيز إلى هولاء ، لأن الأخير تخرج بأن هدم حضور الناصر يوسف
بنفسه إليه واكتفائه بإرسال ابنه يعتبر إهانة شخصية بالنسبة له . ويروى
المقرئ أن العزيز عاد إلى أبيه ومعه رسالة من هولاء كوهف فيها ما حل
ببغداد على أيدي التتار ويذره بسوء العاقبة إن لم يستسلم للتتار فوراً دون قيد
أو شرط (٢) . وفي تلك الأثناء لم يجد الناصر يوسف الأيوبي أمامه سوى
المماليك في مصر ، فأرسل إليهم صاحب كمال الدين بن العديم ليطالب معهم أنهم
لمواجهة خطر التتار ، فوعده المماليك بالمساعدة (٣) .

وهنا يصح أن نقير إلى أن فزو التتار لبلاد المسلمين في الشام اتخذ طابعاً
صليبياً ذلك أن زوجة هولاء وأمهم كانتا مسيحيتين على المذهب النسطوري ،
الامر الذي جعل هولاء كوهف يطف على المسيحيين بقدر ما قسما على المسلمين في
الشرق الأدنى . وفي الوقت نفسه وجدت بعض القوى الصليبية في الشرق
الأدنى وفي الغرب الأوربي فرصة طيبة في إمكان تحويل التتار إلى المسيحية
فانصلوا بهم واستأثروهم ضد المسلمين . وهناك في المراجع الصليبية المعاصرة

(١) D' Ohsson : Hist. des Mongols, IU, P. 307 .

(٢) المقرئ : السالك س ٤١٥ - ٤١٦ .

(٣) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٧٢ - ٧٣ .

ما ثبت أن ملك أرمينية الصغرى المسيحى اتصل بهولاكو ورسم معه خطة غزو بلاد الشام وانتزاع بيت المقدس من المسلمين ليقسملها المسيحيون (١) .

ومهما يكن من أمر ، فإن غزو التتار لبلاد الشام بدأ فعلا سنة ١٢٥٩ ، فتدفقت قواتهم من أذربيجان وكردستان على الجزيرة ، واستولى هولاكو على آمد ونصيبين وحران والرها والبحيرة ، ومن هناك اتجهت صوب حلب . وقدر فض نائب حلب الاستسلام للتتار ، فاقتحموا المدينة في يناير سنة ١٢٦٠ واستولوا عليها عنوة ليعملوا في أهلها قتلا وأمرا (٢) . وسرعان ما انتشرت أخبار ما فعله التتار بحلب في بقية أنحاء الشام ، فأسرع ملوك الأيوبيين إلى الدخول في طاعة هولاكو ، فحين فر الناصر يوسف من دمشق إلى غزة وترك دمشق تلقى مصيرها على أيدي التتار . ولا شك في أن نخاذل ملوك الأيوبيين أمام التتار واستسلامهم لهم ، وفرارهم أمام ذلك الخطر ، جاء بمثابة تنازل منهم عن ملكهم بعد أن عجزوا عن الدفاع عن ذلك الملك (٣) .

ولم يصعب على هولاكو بعد ذلك الاستيلاء على دمشق في مارس سنة ١٢٦٠ ، ثم استولى التتار على بقية بلاد الشام في الأسابيع التالية ، بحيث وصلوا إلى غزة ، وبذلك جاء دور مصر .

الملك الظفر قطز : (١٢٥٩ - ١٢٦٠)

وفي تلك الأوقات التي شهدت سقوط بلاد الشام في أيدي التتار ، استغل الأمير قطز خطورة الموقف لعزل على بن أيبك وإعلان نفسه سلاطانا ، كاسبق أن أوضحنا وقد وصف المؤرخون السلطان المظفر قطز بأنه « كان بطلا شجاعا

(١) سعيه عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٧٣ .

(٢) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، حوادث سنة ٦٥٨ هـ .

(٣) Greasset : Hist. des Croisades, Tome III, p587.

مقدماً حازماً حسن التدبير، يرجع إلى دين وإسلام وخير، وله اليد البيضاء في جهاد التتار. (١)

والواقع أن قطز تولى منصب السلطة في ظروف لا يحسد عليها حاكم، إذ كان مطالباً بأنه أن يصد الخطر الذي لم تستطع قوة في الشرق الأدنى الصمود في وجهه. ولم يكذ قطز يمتلئ عرش السلطنة حتى حضر إليه رسل هولاكو يطلبون منه الاستسلام ويذكرونه بما فعله المغول وينذرونه سوء العاقبة إذا حدثته نفسه بالمقاومة؛ . . . فلكم بجميع البلاد معتبر وعن هزنا من دجر، فانهظوا بغيركم واسلموا إلينا أمركم، قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا ويعود عليكم الخطأ. فنحن ما نرحم من بكى ولا نرق لمن شكى. وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد وطهرنا الأرض من الفساد وقتلنا معظم العباد. فعليكم بالهرب وعلينا بالطلب. . . (٢).

ولكن قطز لم يهتز لحرب الأعصاب التي دأب التتار على شنها والإفادة منها. وكان أن جمع السلطان قطز الأمراء واستشارهم في الأمر فقرروا المقاومة وعدم الاستسلام، وعندئذ أمر قطز بتوسيط رسل التتار— وكانوا أربعة— فوسط أحدهم بسوق الخيل، والثاني عند باب زويلة، والثالث عند باب النصر والرابع بالريدانية، ثم علق رؤوسهم جميعاً على باب زويلة (٣).

وفي تلك الأزمة أظهر المماليك البحرية— الذين كانوا مازالوا هائمين على وجوههم بالشام— روحاً طيبة وحماسة نادرة مما كان له أثر كبير في التغلب على التتار. وذلك أنه منذ أن دخل التتار بلاد الشام، وأمراء البحرية يصرون على مقاومتهم وعدم الاستسلام لهم. ويقال إن أحد أمراء دمشق— وهو زين الدين

(١) أبو الحسن: النجم الزاهرة ج ٧ ص ٨٤.

(٢) المقرئى: السلوك ج ١ ص ٤٢٧—٤٢٨.

(٣) المقرئى: السلوك ج ١ ص ٤٢٩.

الحافظي — أظهر تخوفه عندما سمع بزحف التتار على حلب ، وأشار بالاستسلام لهولاكو والدخول في طاعته ، ولكن الأمير بيبرس البندقداري — وهو أحد زعماء البحرية — لم يعجبه ذلك القول ، فقام وصدفح الأمير الحافظي على وجهه قائلا : أنتم سبب هلاك المسلمين ،^(١) وبمثل هذه الروح سار الأمير بيبرس البندقداري ومعه جملة من أمراء البحرية إلى غزة ، ومن هناك أرسل بيبرس إلى السلطان المظفر قطز يطلب منه الأمان وتوحيد الكلمة لمواجهة خطر التتار وقد رحب قطز بتلك الدعوة وطلب من بيبرس الحضور إليه ، وأحسن استقباله وأقطعته قلوب وأعمالها^(٢) . وبذلك تماسك المماليك جميعا بحرية وغير بحرية . وأظهر وادوحاطية لمواجهة ألدح خطر هدد العالم الإسلامي في الشرق الأدنى في القرن الثالث عشر .

موقعة عين جالوت سنة ١٢٦٠ :

وفي الوقت الذي أظهر المماليك جميعاً تماسكاً عظيماً في صد خطر التتار ، إذا بالظروف نفسها تساعدهم في التغلب على ذلك الخطر ، ذلك أن منكوخان حاقان المغول العظيم توفي في أغسطس سنة ١٢٥٩ ، مما أثار نزاعاً بين أخوته حول اقتسام إمبراطورية المغول الواسعة . وعندما سمع هولاكو بوفاة أخيه ، رأى أن يسرع إلى قراقورم حاضرة التتار في جوف آسيا ، فعاد إليها تاركاً قيادة جيوشه بالشام لقائده كتبغا . ولا شك في أن عودة هولاكو إلى قراقورم ومعه جزء كبير من جيشه كان لها أثر كبير في إضعاف قوة التتار بالشام في الوقت الذي أخذ السلطان قطز يعددته لمواجهة خطرهم^(٣) .

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٤١٩ — ٤٢٠ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ورقة ٣٩٤ (مخطوط) .

(٣) رشيد الدين الهمذاني : جامع التواريخ ، ج ١ ص ٣٠٨ .

وعندما اكتملت استعدادات السلطان المظفر قطز خرج على رأس جيوشه قاصداً الشام لملاقاة التتار. وقرب الصالحية تردد بعض الأمراء في السير بعد أن تذكروا ما أحاط تحركات التتار من قصص مخيف جعل مقاومتهم ضرباً من العبث في نظر كثير من المعاصرين. ولكن السلطان المظفر قطز هب في أمرائه صائحاً يا أمراء المسلمين ! لكم زمان نأكلون أموال بيت المال وأنتم للغزاة كارهون. أنا متوجه ، فنأختار الجهاد يصحبنى ومن لم يفت ذلك يرجع إلى بيته ، فإن الله مطلع عليه وخطيئة المسلمين في رقاب المتأخرين (١) ...

وبمثل هذه الروح واصل الجيش المماليكي زحفه في اتجاه الشام في يولية سنة ١٢٦٠. وكانت مقدمة جيش المماليك بقيادة الأمير بيبرس البندقدارى الذى اتجه إلى غزة ، في الوقت الذى كان كتبغا قد أقام قوة من التتار عند غزة تحت قيادة بيدرا. وقد أرسل بيدرا إلى كتبغا — الذى كان عندئذ فى بعلبك — يعلمه بوصول مقدمة الجيش المماليكي ويطلب منه النجدة ، ولكن كتبغا رد عليه قائلاً قف مكانك وانتظر ، وأمره بالاحتفاظ بغزة وعدم التخلي عنها لحين وصول الإمدادات إليه. على أن المماليك فوتوا على التتار فرصتهم ، فبادروهم بالهجوم وهزموا بيدرا واحتلوا غزة وطاردوا المغول حتى نهر العاصى (٢).

وكان لو وصول المماليك إلى فلسطين واحتلالهم غزة رد فعل قوى عند المسلمين في كافة مدن الشام ، إذ أروا فى ذلك النصر بادرة أمل ، وقشجعوا على مقاومة التتار (٣) وفى الوقت نفسه أظهر المماليك كياسة وبعد نظر فلم يحاولوا استئثار الصليبيين وحرسوا على معاملتهم حتى لا يجاربروا خصمين في وقت واحد وكان أن أرسل المماليك إلى حكومة عكا الصليبية يستأذنونها فى السماح لجيوشهم

(١) المقرئى : السلوك ج ٤ ص ٤٢٠ .

(٢) رشيد الدين الهمذانى : جامع التواريخ ، ج ١ ص ٣١٣ .

(٣) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ١٢٥٨ .

بعبور الأراضى الصليبية لمحاربة التتار ؛ فوافق الصليبيون على ذلك الطلب (١).

وهكذا سار قطز على رأس الجيش المماليكى بجنداء الساحل، ومر المماليك بسلام فى أراضى الصليبيين بجنداء عكا ؛ بل إن الصليبيين فى عكا خرجوا إلى السلطان قطز ومعهم التقادم والهدايا وأرادوا أن يسيروا معه نجدة، فمكرهم وأخلع عليهم واستحلفهم أن يكونوا لاله ولا عليه (٢). وبعد أن حصل المماليك فى الأراضى الصليبية على مالزمهم من ميرة ومؤن، اتجهوا شرقاً عبر الجليل إلى الأردن عن طريق الناصرة. لاسترداد دمشق من التتار وقد لجأ قطز إلى خدعة حربية ناجحة، فأخفى معظم جيشه بين الأحراش والأشجار المحيطة بعين جالوت — بين ييسان و نابلس — وترك مقدمة الجيش بقيادة بيبرس تتابع سيرها وحدها تجاه التتار. وفى تلك الأثناء كان كتبغا قد وصل د وكانه بحر من اللهب بسبب الغيرة والغضب، فالتقى بالمماليك عند قرية عين جالوت فى ٣ سبتمبر سنة ١٢٦٠ (٣). وقد أظهر المماليك شجاعة كبيرة فى عين جالوت ؛ حتى يقال إنه حدث عندما اضطربت صفوفهم أن ألقى السلطان قطز خوذته عن رأسه إلى الأرض وصرخ بأعلى صوته دوالسلاماء، وحمل بنفسه على العدو حتى تم القضاء على التتار قضاء تاماً د وولوا الأدبار لابلون على شيء. أما كتبغا فقد ظل يقاتل فى شجاعة وعناد حتى سقط قتيلاً (٤).

ولا شك فى أن موقعة عين جالوت تعتبر من المواقع الفاصلة فى التاريخ، نظراً لما ترتب عليها من نتائج خطيرة. فلوانتهصر التتار فى تلك الموقعة لفعلوا

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٣٥ - ١١٣٦.

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٤٣٠.

(٣) رشيد الدين الأهدانى : جامع التواريخ، ج ١ ص ٣١٣.

(٤) المقرئى : السلوك، ج ١ ص ٤٣١، أبو الحاسن : النجوم ج ٧ ص ٧٩.

بمصر وأهلها مثلما فعلوا بالعراق وأهله ، أو على الأقل لأقاموا واستقروا بالشام مثلما أقاموا واستقروا بالعراق ؛ ولمرت بقية البلدان العربية بالشرق الأدنى في دور مظلم حالك طويل تحت حكم التتار مما يترك أثراً بعيداً في تاريخها . ولكن انتصار المماليك في عين جالوت لم ينفذ مصر لحسب من هزيمة التتار ، بل أنقذ الشام أيضاً ، لأنهم غدوا ولا مقام لهم بالشام بعد تلك الضربة القاصمة التي نزلت بهم في عين جالوت^(١).

ولكن مع اعتراشنا بحسن بلاء المماليك وشجاعتهم في موقعة عين جالوت ، إلا أنه ينبغي ألا نسقط من حسابنا العوامل المساعدة على تحقيق ذلك النصر ، وهي العوامل التي تستقر عادة في التاريخ وتحتاج إلى نوع من التقصي لكشف الستار عنها ، ومن هذه العوامل موقف جمهرة الصليبيين بالشام من التتار موقفاً سلبياً ، وعدم محاولتهم استغلال تلك القوة الجديدة لإزالة ضربة قاصمة بالعدو المشترك ممثلاً في المسلمين . كذلك كانت عودة هولاكو ومعه معظم جيشه إلى قراقورم ذات أثر كبير في إضعاف قوة التتار بالشام ، ولا يخفى علينا أن وجود هولاكو نفسه في المعركة ضد المماليك كان من الممكن أن يؤثر تأثيراً معنوياً خطيراً في نفوس رجاله من التتار وأعدائه من المماليك جميعاً . وأخيراً فإن ثمة حقيقة كثيراً ما يغفلها المشتغلون بالتاريخ . هي أن لكل غزوة أو هجرة - مهما يبلغ عنفها وقوتها - نهاية حتمية ؛ وأن حركات الغزو كالسكرة التي تنطلق في أول أسرها في سرعة وقوة ولكن لا تلبث أن تفترق قوة اندفاعها تدريجياً حتى تتوقف تلقائياً ، ولا توجد غزوة في التاريخ استمرت في حالة انطلاق دائم ، وإنما هناك نقطة معينة يجب أن تتوقف عندها نتيجة لظروف عديدة طبيعية وبشرية تفرض عليها ذلك التوقف .

(١) صعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٢٧

ولا شك أنه بوصول التتار إلى بلاد الشام كانت حركتهم الضخمة قد بلغت نهايتها في ذلك الاتجاه الجنوبي الغربي ، بعد أن طالت خطوط مواصلاتهم وبعثوا كثيراً عن مراكزهم الأصلية في جوف القارة الآسيوية ، فضلاً عما استنفدوه من جهد وطاقة نتيجة لاجتياحهم تلك البلدان الفسيحة والمساحات الواسعة حتى وصلوا إلى الشرق الأدنى . وجميع هذه الاعتبارات يجب أن نضعها أمام أعيننا - إلى جانب شجاعة المماليك وحسن بلائهم - عندما نفخر بانتصار عين جالوت .

توحيد مصر والشام :

وثمة أهمية خطيرة لانتصار المماليك على التتار في عين جالوت هي إعادة الوحدة بين مصر والشام ، بعد أن أدى قيام دولة المماليك في مصر وغضب الأيوبيين بالشام ، إلى تمزيق رباط الوحدة التي أجهد كل من نور الدين محمود وصلاح الدين نفسه في بنائها في القرن الثاني عشر ، والتي كان لابد منها لمواجهة الأخطار التي واجهت المسلمين جميعاً في الشرق الأدنى . ولكن تقاعس ملوك البيت الأيوبي عن صد التتار وفقورهم من الجهاد ، بل نواطق بعض أبناء البيت الأيوبي مع التتار واشتراكهم معهم في عين جالوت ضد إخوانهم المسلمين ؛ أفقد بنى أيوب أي حق شرعي في الملك وجعلهم يبدون في نظر المعاصرين في صورة القوة المتداعية هزيلة الجديرة بحكم المسلمين .

وفي الوقت نفسه كانت دولة المماليك الناشئة في حاجة إلى دعامة تعتمد عليها في البقاء في الحكم . ولا يخفى علينا أن المماليك الذين استأثروا بحكم مصر في منتصف القرن الثالث عشر كانوا قبل كل شيء مغتصبين للعرش من أصحابه الشرعيين ، فضلاً عن كونهم مجرحين بسبب أصلهم غير الحر . وكان المماليك عند قيام دولتهم في حاجة ماسة إلى القيام بعمل كبير يرضي عليهم نوعاً من

التشريف ويكسب حكمهم قسطاً من الأهمية والشرعية ويجعل حكمهم مستساغاً لدى جماهير المسلمين . وهنا تبدو أهمية انتصار المماليك في عين جالوت ، لأن هذا الانتصار أظهرهم ، في صورة الدرع الواقي للوطن الإسلامي في الشرق الأدنى ، والقوة الوحيدة التي استطاعت الصمود في وجه خطر التتار ، بل كسر شوكتهم وإنقاذ الشام ومصر من براثنهم .

وهكذا يمكننا القول أنه بانتصار المماليك في عين جالوت حصلوا على ما كان ينقصهم من مجد لا بد منه لتثبيت أركان دولتهم ؛ فلم يبق للناس أصلهم غير الحر ، وتناموا أنهم في حقيقة أمرهم مفتقدو العسرس من سادتهم الأيوبيين . ولم يعد الناس يذكرّون لإشيتاً واحداً ، هو أن المماليك أنقذوهم من التتار ؛ وأن بقاء المماليك في الحكم إنما هو ضرورة لا بد منها للمحافظة على كيان المسلمين في الشرق الأدنى ، وفي ضوء هذه الحقيقة يمكننا أن نقول إن موقعة عين جالوت كانت بمثابة الحد الفاصل للصراع بين الأيوبيين والمماليك ، فجاءت هذه الموقعة إذناً بغروب شمس دولة بنى أيوب وارتفاع نجم دولة المماليك .

والواقع أن السلطان المظفر قطز صار غذاة موقعة عين جالوت سيد الموقف في د بلاد الشام كلها من الفرات إلى حدود مصر ، فلم يبق أمامه من بقايا البيت الأيوبي سوى بعض الشخصيات العجاف التي كانت لا تستطيع الصمود في وجه قاهر التتار . وكان أن عفا قطز عن الأشرف موسى الأيوبي صاحب حصص وأمنه ، وكذلك فعل مع الملك المنصور الثاني صاحب حماة وأقره على حماة وبعرين ، كما أعطاه المعرة وكانت بيد الحلبيين^(١) . أما الملك السعيد حسن أمير باناس والصبية — وهو الذي تواطأ مع التتار وانضم

لهم يوم عين جالوت في محاربة المسلمين — فلم يقبل قطز عذره وأمر بضرب عنقه فضربت في الحال^(١).

ولم يكند يتم انتصار المسلمين على التتار في عين جالوت حتى انتشر الخبر في سرعة مذهلة ، فحملت رأس كتبغا إلى مصر حيث أقيمت الاحتفالات بالنصر في حين فر د نواب التتار من دمشق وتبعهم أصحابهم^(٢) ثم دخل قطز دمشق دخول الفاتح المظفر ، فاستقبل استقبالاً حافلاً ، وتضاعف شكر المسلمين لله تعالى على هذا النصر العظيم ، فإن القلوب كانت قد يئست من النصرة على التتار لاستيلائهم على معظم بلاد الإسلام ، ولأنهم ما قصدوا إقلاها إلا فتحوه ولا عسكرياً إلا هزموه^(٣).

السلطان الظاهر بيبرس : (١٢٦٠ - ١٢٧٧)

وفي الوقت الذي استعدت القاهرة لاستقبال بطل عين جالوت وأقيمت الزينات في الطرقات والأسواق والحوانيت تحية له وتكريماً لبطولته إذا بالأمور تتطور بسرعة حتى انتهت بمقتل قطز وقيام بيبرس في السلطنة .

ذلك أن الأمير بيبرس كان يأمل أن يجد من قطز حظاً من التقدير بعدما أبداه من شجاعة في محاربة التتار ، فطلب من قطز أن يوليّه نيابة حلب التي كان السلطان قد وعد فعلاً بمنحها إياه^(٤) . ولكن قطز امتنع وتكرّر للجمل ، وبذلك أظهر قصر نظر واضح لأن المسكاة التي أحرزها بيبرس في ذلك الوقت كانت أعظم من أن يتجاهلها إنسان ، ولو كان قطز حكيماً لآلى بيبرس

(١) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٨٠

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٤٣٢

(٣) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٥٨ هـ .

(٤) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٠١

بقيا به حلب ، وبذلك يأمن منافسته له في مصر^(١) . ولا يخفى علينا أن البحرية - ومنهم بيبرس - لم ينسوا لقطز أنه شارك في قتل كبيرهم أنطاي زمن أيبك ، ومعنى آخر فإن البحرية أحسوا دائما أن لهم ثأرا في عنق قطز ، ولذا لم يكونوا في حاجة إلى مزيد من التحريض والاستئثار ضد قطز .

وكان أن صمم بيبرس على الانتقام من قطز ، فدبر مؤامرة مع زملائه من زعماء البحرية لقتل قطز في أول فرصة مناسبة . وسر هان ما حانت الفرصة عندما وصل ركب السلطان إلى الصالحية في طريقه إلى القاهرة . ذلك أن قطز أظهر رغبته في الصيد ، فلما فرغ من رياضته تقدم منه الأمير بيبرس وطلب امرأة من سبي التتار ، فأجابه السلطان إلى طلبه وأنعم عليه بما أراد . وقد تظاهر بيبرس برغبته في تقبيل يد السلطان ، وكانت إشارة بينه وبين شركائه المتآمرين ، فقبض بيبرس على يد قطز لينزله من الحرك في حين انهمال عليه بقية أمراء البحرية بسيفهم ورماحهم وأقوه عن فرسه حتى أجهزوا عليه . وبمقتل قطز على ذلك الوجه في أواخر أكتوبر سنة ١٢٦٠ ، خلا الجو للبحرية وزعيمهم بيبرس^(٢) .

وكان طبيعياً أن تؤول السلطنة بعد مقتل قطز إلى قاتله الأمير ركن الدين بيبرس ، بوصفه أقوى الأمراء البحرية من ناحية وصاحب الفكرة في قتل قطز من ناحية ثانية ، فضلا عن موافقه المشرفة في محاربة المغول من جهة ثالثة . وتروى المراجع أن الأمراء البحرية الذين قتلوا قطز ساروا بعد تنفيذ مؤامرتهم إلى الدهليز السلطاني بالصالحية ، وقد أجمعوا أمرهم على سلطنة بيبرس . وعندما قابلهم الأمير فارس الدين أنطاي الأنابك عند باب الدهليز ، أخبروه بما فعلوا من قتل السلطان قطز ، وعندئذ سألمهم

(١) سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ص ٣٣ - ٣٤

(٢) أبو الفدا : ج ٣ ص ٢٠٧

الأنابك « من قتله منكم ؟ » فقال بيبرس « أنا » فنظر إليه الأنابك وقال « ياخوند ، اجلس في مرتبة السلطنة ! »^(١) وبمثل هذه الموهلة والبساطة حل القاتل محل القتيل ، فاستدعى العسكر في الحال ليحلفوا السلطان الجديد قبل أن تحف دماء ضحيته ، وكان القاضي برهان الدين قد وصل من القاهرة ليستقبل قطز وبجيشه بانتصاره في عين جالوت ، فاستدعى القاضي نفسه ليقوم بتحليف العسكر للملك بيبرس الذي تلقب بالملك القاهر .

وبعد أن تمت تلك الإجراءات المبدئية في الصالحية . قال الأمير أنطاي لبيبرس « لا تتم السلطنة إلا بدخولك قلعة الجبل » لذلك أسرع بيبرس ومعه صحبه من الأمراء إلى القاهرة التي كانت قد زينت لاستقبال المظفر قطز بطل عين جالوت ، فإذا بالمنادي يتنادى في طرقات القاهرة « ترحموا على الملك المظفر وادعوا اسلاطنتكم الملك القاهر ركن الدين بيبرس ! » وهكذا شق بيبرس طريقه إلى قلعة الجبل ، فلقىه الأمير عز الدين أيمن نائب السلطنة وكان قد خرج للقاء قطز ، فأخبره بيبرس بما حدث ، وعندئذ حلف نائب السلطنة للسلطان الجديد ونقدمه إلى القلعة حيث أعلن الأراء ولاهم لبيبرس ، واستقر السلطان الجديد في قلعة الجبل قاعدة الحكم في البلاد^(٢).

ويروى المؤرخ أبو المحاسن أن الوزير زين الدين يعقوب - وكان فاضلا في الأدب وعلم التاريخ — دخل على السلطان بيبرس بالقلعة فأشار عليه بتغيير لقبه « القاهر » وقال له « ما لقب به أحد فأفلح ، لقب به القاهر ابن المعتضد فلم تطل مدته وخلع من الخلافة وسئل ، ولقب به القاهر ابن صاحب الموصل فسم ، لذلك أشاءم بيبرس من لقب القاهر وأبطله واتخذ لقباً جديداً هو « الملك الظاهر »^(٣).

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٤٣٦

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٤٣٧ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ١٠٣ — ١٠٤ .

وبدخول بيمرس قلعة الجبل يوم ٢٣ أكتوبر سنة ١٢٦٠ بدأت صفحة جديدة في تاريخ دولة المماليك ، ذلك أن السلطان الظاهر بيمرس أثبت بأعماله وإصلاحاته وحروبه أنه المؤسس الحقيقي لدولة المماليك في مصر والشام . ومن يتأمل دولة المماليك في الدور الأول من نشأتها يجد أنه تعاقب على عرشها في السنوات العشر الأولى من عمرها خمسة سلاطين ، مما يدل على حالة القلق وعدم الاستقرار التي تعرضت لها دولة المماليك في ذلك الدور . أما بيمرس فيكفيه أنه شغل كرسي السلطنة سبعة عشر عاماً ، وهي مدة طويلة لم يبلغها أحد من سلاطين دولة المماليك البحرية ، هذا السلطان الناصر محمد بن قلاوون وإذا كان السلطان الظاهر بيمرس قد بق مدة طويلة في الحكم ، فإن ذلك جاء دليلاً على قوته ونجاح سياسته في الحكم من ناحية ، فضلاً عن استقرار الأمور له من ناحية أخرى (١) .

ولم يلبث السلطان الظاهر بيمرس أن وضع لنفسه سياسة واسعة الأفق استهدفت في الخارج صد أخطار التتار والصليبيين عن بلاد الشام ونشر نفوذه على شبه الجزيرة العربية والنوبة ؛ وفي الداخل توطيد الأمن والقضاء على الثوار والمناوئين وتخفيف الأعباء الملقاة على كواهل الأهالي ثم وضع قواعد النظام الإداري في مصر والشام في العصر المماليكي ، فضلاً عن القيام بقدر ضخم من الإصلاحات المتنوعة . وهكذا قضى السلطان بيمرس حكمه في حركة دائبة بين مصر والشام يصلح ويجهاد ويثبت أركان دولته ، حتى قال فيه أحد المعاصرين :

يوماً بمصر ويوماً بالهجاز وبالشام يوماً ويوماً في قرى حلب
وفي سبيل تنفيذ سياسته الواسعة النطاق البعيدة الأهداف ؛ لجأ بيمرس إلى

(١) سعيد عاشور : الظاهر بيمرس ص ٣٧ .

عدة إجراءات سياسية تدل على ذكائه وفطنته ؛ فهو يحالف مغول القفجاق ليتخذ منهم ستاراً ضد مغول فارس ؛ ويحالف الدولة البيزنطية أو امبراطورية الروم ليجعل منها عضداً له في سياسته ضد الصليبيين بالشام ؛ ويحيي الخلافة العباسية في مصر لتكون دعامة له ولحكم المماليك في مصر والشام . وسنتكلم عن مختلف أعمال الظاهر بيبرس الداخلية والخارجية حسب ترتيبها الموضوعى في فصول هذا الكتاب ؛ ونكتفى في هذا الموضع بالكلام عن موقف بيبرس من تثار فارس بالذات .

والواقع أنه إذا كان التثار قد انسحبوا من الشام عقب حين جالوت ، فإنهم لم ينسوا أبداً تلك الهزيمة الفاضحة التي حلت بهم ، فظلوا يداومون الإغارة على بلاد الشام بين حين وآخر كلما سفلحت لهم فرصة لذلك . ومن الواضح أن الصراع بين المماليك والتثار كان أمراً طبيعياً بين جارين آمن كل منهما بفكرة الحرب ومبدأ الغزو ، واتخذ هذه الفكرة وذلك المبدأ هوراً لنشاطه ومجالاً لحياته (١) . وإذا كان هناك عامل ديني واضح جعل المسلمين يكرهون تثار فارس بوصفهم وثنيين أولاً ومسؤولين عن إسقاط الخلافة العباسية في بغداد ثانياً ، فإننا يجب أن نذكر بالإضافة إلى هذا العامل الديني أثر صغار أسراء المسلمين الذين استولى التثار على مدنهم وبلادهم في العراق والشام ، والذين احتتموا بسلاطين المماليك في مصر وظلوا يحرمونهم ضد المغول ؛ حتى أن يكون في ذلك التحريض تنقيساً عما تكبته صدورهم من حقد على المغول ، وسأوى لما لحقهم من خسارة على أيديهم . وإذا كان المماليك قد اتخذوا لأنفسهم لقب سلاطين الإسلام ، وبذلك اكتسبوا صفة حماة العالم الإسلامي المدافعين عنه وعن أهله ؛ فلا أقل من أن يسهروا على دفع الأخطار التي تهددت العالم الإسلامي من جانب الصليبيين والتثار جميعاً (٢) .

(1) Wiet : ' Egypte Arabe, p. 431.

(٢) سعيد عاشور : الظاهر بيبرس : ص ٨٩ .

ومهما يكن من أمر، فإن تتار فارس كانوا هم البادئون بالعدوان فأغاروا سنة ١٢٦٥ على البيرة — وهي قلعة هامة على نهر الفرات — وحاصروها بغية الاستيلاء عليها . وكان أن أظهر بيبرس همة كبيرة لصد ذلك الخطر فأرسل الجيوش إلى الشام على دفعات ، ثم سافر بنفسه على رأس الفوج الأخير في نهاية يناير سنة ١٢٦٥ ، فوصل غزة في ٩ فبراير . ولما شكوا بعضهم إلى السلطان قلة الدواب قال : ما أنا في قيد الجمال ، أنا في قيد نصر الإسلام^(١) . على أن بيبرس لم يصل إلى البيرة ، إذ وافته الأخبار وهو في دمشق بأن التتار ولوا مدبرين أمام الإمدادات التي أرسلها بيبرس إلى البيرة صحبة الملك المنصور صاحب حماة^(٢) . ولما أدرك بيبرس أن التتار في فارس يتخذون البيرة مركزاً للعبور إلى بلاد الشام ، أمر بتحصينها وتزويدها بالسلاح والمؤن التي تمكنها من تحمل حصار طويل . هذا إلى أن الظاهر بيبرس استخدم شيوخ العرب في العراق ليكفونوا هيولاً له على التتار فيخبرونه بتحرركاتهم وأحوالهم^(٣) .

ولم تؤد وفاة هولاكو خان التتار في فارس سنة ١٢٦٥ إلى تهدئة الموقف بين التتار وسلطنة المماليك ، لأن أبغا بن هولاكو كان مسيحياً نسطورياً ، فتزوج من ابنة الامبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوجس ، وحرص على أن يدعم علاقاته بالقوى المسيحية في الشرق والغرب للالتقام من المسلمين في بلاد الشام ومصر . على أنه يبدو أن أحوال دولة مغول فارس الداخلية والخارجية عند قيام أبغا في الحكم كانت لا تساعد على الاستمرار في معاداة المسلمين في مصر والشام ، بدليل أنه سارع بإرسال الرسل سنة ١٢٦٥ إلى السلطان بيبرس تحمل الهدايا وتطلب الصلح . ولكنه بيبرس لم يرتض لنفسه أن يصالح التتار ، وهم الذين

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٥٢٤ .

(٢) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ٩٠ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٤٧٦ .

مزقوا العالم الإسلامي وقتلوا خليفة المسلمين وحالفوا أعداء الإسلام^(١). ولما أهل بيبرس تلك الدعوة إلى الصلح ، هاد أبغا بعد عدة سنوات وأرسل سنة ١٢٦٨ رسولا إلى بيبرس يكرر الطلب إلى الصلح . وفي تلك المرة وسط أبغا ملك أرمينية الصفري في طلب الصلح ، كما لجأ إلى مزيج من التمهيد والترغيب ، فجاء في كتابه إلى بيبرس . وإن الملك أبغا لما خرج إلى الشرق تملك جميع العالم وما خالفه أحد . ومن خالفه هلك وقتل . فأنت لو صعدت إلى السماء أو هبطت إلى الأرض ما خلصت منا ؛ فالصلحة أن تجعل بيننا صلحا . ثم إن أبغا لم يكتف بذلك التهديد الصريح ؛ بل عمد على لسان رسوله — إلى تهريج بيبرس بأصله المماليكي غير الحر ، والخط من قدره وقيمته بين الملوك ؛ فقال الرسول للسلطان أثناء الحديث : أنت ملوك وأبعث في سيواس ، فكيف لشاقي الملوك ، ملوك الأرض ؟^(٢) .

ولكن بيبرس لم يضعف أمام حرب الأهصاب التي حاول أبغا أن يشنها عليه ، فرفض مبدأ الصلح ، ورد على رسول التتار قائلا : « أعلم أني وراء المطالبة ولا أزال أترع من يده جميع البلاد التي استحوذ عليها من بلاد الخليفة وسائر أقطار الأرض^(٣) ، وهكذا يش أبغا من مصالحة بيبرس ، فلم يبق أمامه إلا مواصلة العدوان على بلاد الشام بمحاربة الصليبيين . وكان الظاهر بيبرس بالإسكندرية سنة ١٢٦٩ عندما بلغه أن التتار أغاروا على الساحل — قرب حلب — . دوانهم واعدوا فرنج الساحل ، أي اتفقوا مع الصليبيين على القيام بهجوم مشترك على المسلمين في بلاد الشام . وفي الحال أرسل السلطان بيبرس الأمير علاء الدين البندقدار على رأس قوة من الجند ، وأمره أن يقيم في أطراف بلاد الشام على أهبة

(١) سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ص ٩٦ .

(٢) القرطبي : الملوك ج ١ ص ٥٧٤ .

(٣) العيني : مقد الجنان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٤٩ (مخطوط) .

أهد التتار . ولم يكتف ببيرس بذلك وإنما خرج بنفسه إلى الشام ، ولكنه لم يكد يصل إلى دمشق حتى سمع بانهمزام التتار وارتدادهم عن بلاد الشام .

ولم يقنع أبنا بذلك الفصل الذي منى به في هجماته على بلاد المسلمين بالشام فعاود الهجوم سنة ١٢٧١ على عين تاب وعمق الحارم . ولكن ببيرس خرج على رأس جيشه إلى حلب ، وأرسل فرقا من جنده إلى أطراف الشام والعراق ، فحلبت الهزيمة بالتتار عند حران ، وعندئذ تدخل الصليبيون للتخفيف عن حلفائهم فأغاروا على قاقون ولكن المسلمين هزمهم هم الآخرون^(١) .

ومرة أخرى ينس أبنا من محاربة المماليك ، وبخاصة بعد أن تم عقد الصلح بين ببيرس والصليبيين بمحرم التتار من حليف يعتمدون عليه في مناوأة المسلمين ببلاد الشام ، فأرسل أبنا بعض الرسل إلى ببيرس لتحسين العلاقات بين الطرفين والتهدئة لعقد الصلح بين التتار والمماليك . وفي تلك المرة أكرم ببيرس رسل التتار وأرسل بدوره اثنين من كبار أمرائه إلى أبنا ومعهما الهدايا والخلع^(٢) . ويبدو أن أبنا أراد أن يستعجل الصلح ، فقام ببعض حركات عسكرية على حدود الشام سنة ١٢٧٢ في الوقت الذي أرسل رسله لطلب الصلح . ولكن ببيرس أهل رسل التتار ولم يحتفل بهم ، وبخاصة عندما طلب أولئك الرسل أن يسير السلطان ببيرس بنفسه إلى بلاط أبنا لعقد الصلح ، وعندئذ رد ببيرس على رسل التتار قائلا : بل أبنا إذا قصد الصلح يمشى هو فيه أو أحد من إخوته .

وكان أن عادت جيوش أبنا إلى الإغارة من جديد على البيرة فنصبوا المجانيق لهاجهتها ، واتخذوا كافة الاحتياطات لمنع المسلمين من الوصول إليها هرب

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٥٨٤ .

(٢) ببيرس الهدايات : في بدء الفكرة ج ٩ ورقة ١٠٤ - ١٠٥ .
مفضل ابن أبي الفضايل : المتج السديد ص ٢٠٤ - ٢٠٦ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٦٠٢ .

الفرات وقد أسرع بيبرس إلى تعبئة قواته لإنقاذ البيرة ، وعبر بيبرس ورجاله
الفرات عوماً ، وعندئذ فر التتار تاركين خلفهم جميع ما أعدوه من عدد
وأسلحة (١) .

على أن سياسة الظاهر بيبرس لإزاء تتار فارس لم تقتصر على الدفاع ، وإنما
تعدت ذلك إلى الهجوم أحياناً للانتقام من التتار من ناحية وإشعارهم بقوة
سلطنة المماليك من ناحية أخرى . من ذلك أن بيبرس قام بحملة سنة ١٢٧٧
على بلاد سلاجقة الروم التي كانت مشغولة بحماية التتار في فارس ، واستطاع
بيبرس أن يمزق الجيش التتاري في الأفاضول عند أبلستين في ١٨ أبريل سنة ١٢٧٧ ،
دون أن يستطیع كينغسرو الثالث — الذي كان صغيراً — أو وزيره معين
الدين سليمان البرواناه وقف ذلك الخطر (٢) . وبعد عودة بيبرس إلى الشام
أسرع أبغيا إلى أبلستين حيث « شاهد عسكر مصرى ولم يشاهد أحداً من عسكر
الروم مقتولاً ، فاستشاط غضباً وأمر بنهب الروم وقتل من مر به من المسلمين » (٣)
ويروى رشيد الدين الهمذاني أن أبغيا بكى عندما شاهد قتل التتار مكديسين
وحزن على رجاله حزناً شديداً (٤) .

عمدة المماليك بقتار فارس بهد بيبرس :

وهكذا استمر الهدوء بين التتار في فارس والعراق من ناحية والمماليك في
مصر والشام من ناحية أخرى قائماً طوال عهد بيبرس ، ولا شك أن الحرب بين
الطرفين تهدأ حيناً لئلا لتتور أحياناً . وإذا كان السلطان الظاهر بيبرس قد توفي

(١) النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ورقة ٣٣٤ .

(٢) مفضل بن أبيه الفضائل : كتاب التمجيد السديد ص ٢٥٩ وما بعدها .

(٣) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٧٥ هـ .

(٤) رشيد الدين الهمذاني : جوامع التواريخ ج ٢ ص ٦٢ — ٦٣ .

١٢٧٧ ، فليس معنى ذلك أن العداء توقف بين المماليك والتتار ، لأن ذلك العداء حقيقة أمره لم يكن أمراً شخصياً ، وإنما رجعت أصوله وأسبابه إلى عدوان ر على المسلمين وبلادهم واحتلالهم العراق وفارس وغيرها من أرض الإسلام وقتلهم الخليفة العباسي وأهل بيته ، وتدميرهم بغداد وغيرها من المدن رى الإسلامية ... هذه الأعمال وغيرها أثارت لعة المسلمين جميعاً على ر في فارس والعراق وجعلت المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها يرون بمرارة قاسية كلما تذكروا ما حل بالإسلام والمسلمين على أيدي تلك المشركين .

وهكذا لم يكن منتظراً أن يتوقف العداء بين المماليك وتتار فارس بمجرد اة حاكم وقيام آخر بدله . وربما أراد التتار أن يستغلوا فترة الفلق وعدم استقرار التي تعرضت لها دولة المماليك بين وفاة الظاهر بيبرس سنة ١٢٧٧ يام السلطان المنصور قلاوون في الحزم سنة ١٢٧٩ ، فأغاروا على بلاد الشام ، جديداً بنفس الوحشية والهمجية التي عرفوا بها من قبل ولكن السلطان منصور قلاوون أظهر أنه لا يقل ثباتاً في وجه التتار عن سلفيه بيبرس وقطز ، يكاد يعلم أنهم اقتربوا من حلب واستولوا على بعض أعمالها ، حتى أرسل ضدهم ملة سنة ١٢٨٠ ، وعندئذ ولي التتار الأديبار (١) وعندما طرد أبغا الهجوم إلى الشام سنة ١٢٨١ ، ووصلت جيوشه حماة ، تصدت لهم جيوش السلطان منصور قلاوون التي استطاعت إزال الهزيمة بالتتار قرب حمص ، فقتل كثير منهم ، وأسرع أبغا بالعودة إلى بغداد ومعه فلول جيشه ، ولم يلبث أبغا أن وفي بعد ذلك بقليل سنة ١٢٨٢ (٢) .

وبوفاة أبغا تبدلت العلاقات فجأة بين سلطنة المماليك وتتار فارس . ذلك

(١) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٦٨٠ .

(٢) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ١١٣ ،

التوحيدي : نهاية الأرب ج ٢٩ ورقة ٨ - ٩ .

أن تكردار الذى خلف أخاه أبغا فى الحكم كان قد اعتنق الإسلام قبل اعتقاله عرش تبار فارس ، فأرسل إلى السلطان المنصور قلاون يظهر رغبته فى أن يظل فى سلام ومودة مع جيرانه المسلمين ، ويعبر عن حرصه على حماية الإسلام والدفاع عن أراضيه . ولم يخف أحمد تكردار فى رسالته إلى المنصور قلاون رغبته فى توحيد كلمة المسلمين وإنهاء حالة الحرب والقتال القائمة بين التتار والمماليك . فقد ظهر بفضل الله تعالى فى دولتنا النور المبين ، وإن كانت لما سبق من الأسباب فمن يتحرى الآن طريق الصواب فإن له عندنا لؤلؤ وحسن مأب . وقد رفعنا الحجاب وأتيننا بفصل الخطاب وعرفنا طريقنا وما عز منا بنية خالصة لله تعالى على استئنافها وحرمانا على جميع العساكر العمل بخلافها ، انرضى الله والرسول ويلوح على صفحتها آثار الإقبال والقبول ، وتسريح من اختلاف الكلمة هذه الأمة وتنجلي بنور الاتفاق ظلمة الاختلاف والغمعة^(١) . وكان من الطيبى أن يرحب السلطان قلاون بدخول إلبخان القتال فى الإسلام ، ويأجل السلام محل الحروب والعدوان بين التتار والمماليك^(٢) .

ولكن شاءت الظروف ألا يستمر أحمد تكردار فى حكم تبار فارس ، إذ نقم عليه قومه لإسلامه وقتلوه ليحل محله ابن أخيه أرغون سنة ١٢٨٤ . وقد اتبع أرغون سياسة عنيفة مع المسلمين فى بلاده ، الأمر الذى أساء إلى العلاقة بين تبار فارس وسلطنة المماليك مرة أخرى مما أدى إلى اشتداد الشعور فى دولة المماليك بضرورة إجلاء التتار عن العراق^(٣) . على أن سلاطين المماليك كانوا لا يستطيون القيام بذلك بلشروع الضخم فى الوقت الذى استنفدت الحروب ضد الصليبيين كثيراً

(١) الفقه شندى : صبح الأعشى ج ٨ ص ٦٥ - ٦٨ .

(٢) هبى الدين بن عبد الظاهر : تهرىف الأهم والعصور فى سيرة الملك المنصور ص ١٠ - ١٢ .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٧٧٤ .

من جهودهم ؛ فاكتمى السلطان الأشرف خليل بن قلاوون بالاستيلاء على قلعة الروم سنة ١٢٩٢ ، وهي قلعة غربي الفرات كان التتار يتخذونها قاعدة لثوب منها على بلاد الشام^(١) .

ويبدو أن دولة تتار فارس تطرق إليها الضعف بعد عهد أرغون بسبب الخلافات الداخلية . وقد آل حكم تلك الدولة سنة ١٢٩٥ إلى غازان بن أرغون الذي أشهر إسلامه وأظهر حماسة كبيرة في نصرة المسلمين ببلاده واضطهاد العناصر المسيحية والبودية^(٢) على أن حماسة غازان للإسلام لم تقربه من سلطنة المماليك ، لأنه أبى إلا أن يتمسك بسياسة أملافة التوسعية على حساب جيرانه المسلمين . من ذلك أن غازان أعد حملة كبرى سنة ١٢٩٩ لغزو بلاد الشام فحاول الناصر محمد بن قلاوون — سلطان المماليك عندئذ — أن يتصدى له . فحاربا الناصر محمد لم يستطع أن يصمد في وجه التتار الذين أنزلوا الهزيمة بجيوش المماليك عند مجمع المروج بين حمص وحماه^(٣) . وقد فر السلطان الناصر محمد عقب تلك الهزيمة إلى دمشق حيث عم الأهالي الذعر والقلق . ولم يلبث أن أرسل غازان أمانا لأهل دمشق ، قرأه أحد رجال التتار على الناس في المسجد الأموي^(٤) ؛ فدفع فيه غازان بالمماليك وحكمهم ، ووعد أهالي دمشق بأنه لن يتعرض أحد من العساكر المذكورة على اختلاف طبقاتها لدمشق وأعيالها وسائر البلاد الشامية الإسلامية ، وأنه يكفوا إظهار التعدي عن أنفسهم وأموالهم وحريةهم .

ولكن غازان لم يحفظ وعده ، إذ لم يكف رجاله يصلون إلى دمشق حتى عاثوا فسادا في المدينة وأهلها ، ثم انتشر التتار بعد ذلك حتى وصلوا إلى بيت المقدس

(١) مفصل بن أبي الفضائل : كتاب النهج السديد ج ٢ ص ٣٨٩ — ٣٩٠ .

(٢) Howarth : Hist of Mongols, vol. 3, p. 396

(٣) القرينى : السلوك ج ١ ص ٨٨٧ — ٨٨٨ .

(٤) الذويرى : نهاية الأرب ج ٢٩ ورقة ٣٢٥ «مخطوط» .

(٤ — العصر المماليكي)

والكرك في جنوب فلسطين ، في الوقت الذي عاد السلطان الناصر محمد بن قلاوون إلى مصر . على أن سلطنة المماليك كانت لا يمكن أن ترضى بذلك الوضع وتترك التتار يعيشون فساداً في أرجاء الشام ، ولذلك عاد الناصر محمد إلى مصر ليعد جيشاً كبيراً خرج به إلى الشام حيث دارت بينه وبين التتار عدة مناوشات ومراسلات (١) وفي موقعة مرج الصفر قرب دمشق دارت الدوائر على التتار سنة ١٣٠٢ ، فولوا الأدبار عبر الفرات وبذلك طادت بلاد الشام إلى أحضان دولة المماليك . ويبدو أن النصر الذي أسخّره السلطان الناصر محمد في موقعة مرج الصفر جعله يعتمد بنفسه ، فأرسل إلى غازان عهقر آرياه ، طالباً منه الجلاء عن العراق فوراً لإعادتها إلى الخلافة العباسية . وإن سولت لك نفسك خلاف ذلك فأنت لا محالة هالك ، وعن قريب يخلو منك العراق والعجم وتبدل وجودك بالعدم . فاختر لنفسك إما الدخول إلى خراسان سريعاً وإما الخروج عن الروم والعراق جميعاً ، (٢) . ويقال إن غازان لم يحتفل مرارة الهزيمة فوات من الغيظ في ١٧ مايو سنة ١٣٠٥ وخلفه أوجتايو بن أرغون .

وعلى الرغم من أن أوجتايو حاول في بداية عهده مصالحة المماليك حتى أنه أرسل إلى القاهرة يطلب الصلح ويقول « عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم منه الله » (٣) ، إلا أن اعتناق أوجتايو المذهب الشيعي جعله ينفّر من المماليك السنيين ، فعاد إلى التفكير في مهاجمة بلاد الشام . وربما شجع أوجتايو على اتباع هذه السياسة الجديدة فرار لثنين من كبار أمراء المماليك - هما قراستقور والافرم - إليه حيث دينا له الهجوم على الشام . وقد شرع التتار فعلاً في مهاجمة بلاد الشام سنة ١٣١٢ ، ولكنهم لم يلبثوا أن عادوا أدراجهم بعد أن ضمّهموا بأقتراب الناصر محمد

(١) محمد جمال الدين سرور : دولة بني قلاوون في مصر ص ١٨٩ — ١٩٧ هـ

(٢) زهير هتيت : تاريخ سلاطين المماليك ص ١١٨ — ١٢١ .

(٣) المقرئزي : السلوك ج ٢ ص ٦ .

على رأس جيوشه الجرادة (١) وإذا كان الصدام بين التتار والمماليك قد تكرر سنة ١٣١٥ حول ماردین ، فإن الهزيمة حلت عندئذ بالتتار ، وسبق أسرام إلى حلب (٢) .

وأخيراً استقرت العلاقات الطيبة بين المماليك وتتار فارس بعد موت أولجاتيو وولاية ابنه بوسعيد سنة ١٣١٦ ، مما أدى إلى عقد صلح بين الطرفين سنة ١٣٢٠ ويعتبر هذا الصلح نقطة تحول في العلاقات بين دولتي المماليك وتتار فارس ، إذ هدأت الأمور بين الدولتين بعد ذلك ولم نعد نسمع عن حروب طاحنة بين المماليك والتتار من نوع الحروب التي شهدتها القرن الثالث عشر . وربما ساعد على ذلك الوضع الجديد أن دولة تتار فارس تعرضت لكثير من عوامل الضعف والانحلال منذ عهد بوسعيد في القرن الرابع عشر ، في الوقت الذي أخذت دولة المماليك البحرية تعاني كثيراً من مظاهر التفكك في عصر أولاد الناصر محمد وأحفاده .

(١) محمد جمال الدين سرور : دولة بني فلان في مصر ص ٢٠٥ .

(٢) المقرئى السلوك ج ٢ ص ١٤٧ .

الفصل الثالث

المماليك والصليبيون

الشرق الأدنى بين خطريه :

إذا كان المماليك قد واجهوا في فجر دولتهم إلى أكاموها عند منتصف القرن الثالث عشر خطر التتار ونجحوا في مواجهة هذا الخطر والتغلب عليه وحماية مصر والشام من شره ؛ فإن ثمة خطراً آخر آخراً كان على المماليك مواجهة بنفس روح الشجاعة وقوة التصميم التي واجهوا بها الخطر الأول ، وأعلى هذا الخطر الثاني خطر الصليبيين . ومع أن التشابه بين الخطرين التتري والصليبي يبدو واضحاً في بعض النواحي ، إلا أن أوجه الاختلاف لا تقل وضوحاً ، في نواح أخرى . فمن نرى أن الخطرين التتري والصليبي متفقان في أن لهما عدو مشترك واحد كبير هو الإسلام والمسلمين في الشرق الأدنى . ومهما يقال من أن التتار في دولة فارس والعراق كانوا في الدور الأول من تاريخهم وثلثين بوذيين ؛ إلا أن الميول المسيحية النسطورية لا يمكن إخفاؤها في سياسة تلك الدولة منذ ذلك الدور بالذات . وحسبنا أن دوقوز خاتون زوجة هولاكو والمرأة ذات الكلمة المسموعة في بلاطه كانت مسيحية ، نسطورية ^(١) ، فضلاً عن أن بعض القوى الصليبية في الشرق الأدنى — وبخاصة إملاكة أرمينية الصغرى — حرصت على استغلال قوة التتار في القضاء على الكيان الإسلامي ، ولذلك تحالف الأرمين مع التتار واشترك الطرفان في وضع خطة غزو هولاكو لبلاد الشام . فإذا أضفنا إلى ذلك ما كان هناك من إتصالات بين تتار فارس من ناحية والقوى المسيحية في غرب أوروبا

(١) رشيد الدين الهمداني : جامع التواريخ ص ٢٢٠ (٢ م ١) .

وعلى رأسها البابوية من ناحية أخرى ، أدركنا مدى ذلك التقارب بين التتار والمسيحية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر بالذات. لذلك لا عجب إذا همل المسيحيون الشرقيون - في الجزيرة والشام وأطراف آسيا الصغرى - الحركة التوسع التتري ، ولا عجب إذا سمعنا في المراجع أن رجال هولاء كانوا كلوا استولوا على مدينة من مدن الشام الإسلامية - مثل حلب أو دمشق - أسرفوا في اضطهاد أهلها المسلمين وأعتان مساجدهم ، بقدر ما أسرفوا في تأمين العناصر المسيحية واحترام كنائسها ودورها (١).

وثمة وجه آخر من أوجه التقابه بين الخطرين الصليبي والتتري هو أن كلاهما كان خطرا خارجيا لم ينبع من منطقة الشرق الأدنى وإنما أتى على شكل غزوات خطيرة ليدهم المسلمين والوطن الإسلامي في تلك المنطقة. فالتتار وفدوا من أقصى الشرق والصليبيون وفدوا من أقصى الغرب ، والجميع أرادوا أن يتخذوا من الوطن الإسلامي في الشرق الأدنى مستقرا ومقاما ، مما جعل المسلمين في القرن الثالث عشر يحسون بمرارة قاسية عندما رأوا أنفسهم بين شقي رحى ضخمة تريد أن تسحقهم وتقتض على كيانهم. وقد عبر المؤرخ ابن الأثير تعبيراً صادقا عن ذلك الشعور في رفرة عميقة أرسلها قلبه إذ يقول : لم يزل المسلمون أذى وشدة منذ جاء النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذا الوقت مثل ما دفعوه إليه الآن. هذا العدو الكافر التتري قد وطئوا بلاد ما وراء النهر وملكوها وخربروها. والعدو الآخر الفرنج قد ظهر في بلادهم في أقصى بلاد الروم بين الغرب والشمال ووصلوا إلى مصر ، فملكوا مثل دمياط وأقاموا فيها .. فإن الله وإن إليه راجعون ! ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم (٢).

(١) سعيد هاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٣٠ - ١١٣١ .

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٦١٧ هـ .

هذا عن أوجه التشابه بين الخطرين التتري والصليبي، أما عن أوجه الخلاف فيلاحظ أن الخطر الصليبي أعمق جذورا وأقدم عمرا من الخطر التتري. فبينما كان خطر التتار من النوع الداهم المفاجيء الذي لا يرتبط إلا بالرغبة في التوسع والنهب والسلب، ولا يتصف إلا بسفك الدماء والتدمير الحضارى الشامل، إذ الخطر الصليبي على الشرق الأدنى يرتبط بأصول قديمة ترجع إلى أيام حركة التوسع الإسلامى فى القرن السابع الميلادى، ويتخذ ممسحة دينية — ولوظاهرية — يظن وراءها أغراضا أخرى اقتصادية وسياسية وغيرها. وليس معنى هذا أن الصليبيين كانوا أقل خطرا على المسلمين فى الشرق الأدنى من التتار. حقيقة إن غزوات التتار كانت أشد عنفا وبدت أكثر قسوة ووحشية، ولكن ينبغى أن نذكر أن الخطر الصليبي كان أقرب إلى قلب العالم الإسلامى فى الشرق الأدنى من الخطر المغولى. فالمرکز الرئيسى الذى خرجت منه الحملات الصليبية كان غرب أوروبا، وشتان بين المسافة بين غرب أوروبا والشام، والمسافة بين قراقورم — قاعدة التتار فى جوف آسيا — وبلاد الشام. ولعل قرب مركز الحركة الصليبية من بلاد المسلمين فى الشرق الأدنى هو الذى جعل الخطر الصليبي يتخذ شكل حملات مستقلة تخرج بين حين وآخر من الغرب قاصدة بلاد المسلمين، فتسكون هذه الحملات أشبه بالدماء الجديدة التى تخرج من القلب لتغذى الأطراف وتبعث فيها الحياة. وطالما استمر جهنم الحجاج والصليبيين من غرب أوروبا إلى بلاد الشام، ضمنت الإمارات الصليبية فى بلاد الشام قوة تنفيذها بين حين وآخر وتحقق لها البقاء. أما التتار فى فارس والعراق فهما يقال عن قوتهم، فإنهم باستقرارهم فى تلك البلدان البعيدة فى الشرق الأدنى ضعفت الصلوات بينهم وبين مراكزهم الأولى، ولم يحدوا غذاء بشرى مستمرأ يهيى فيهم أصولهم الأولى، فتعرضوا تدريجيا للذبول والانحلال والذوبان البطيء.

وعلى هذا الأساس لا ينبغي أن نقسّم من خطر الصليبيين بالقياس إلى الخطر التتري ، فقد ولدت دولة المماليك والصليبيون يحتلون جزءاً من أراضي مصر فضلاً عن إمارات ومستعمرات قوية أسسوها في الشام ، ودول مسيحية مستقلة تجاوبت معهم في أرمينية وقبرص . وكانت الإمارات الصليبية في بلاد الشام صورة دائمة تهبر عن الخطر الأوربي الغربي ، وتعتمد في تهديدها الدائم لبلاد المسلمين في الشرق الأدنى على قواعد قريبة ثابتة .

وهنا أظهر المماليك ثباتاً كبيراً في مواجهة الخطر الصليبي لا يقل عن ثباتهم في مواجهة الخطر التتري ، ونجحوا في التغلب على الخطر الصليبي نجاحاً لا يقل عن نجاحهم في التغلب على الخطر التتري بل ربما فاقه ، لأن المماليك هم أصحاب الفضل في اقتلاع جذور الخطر الصليبي من بلاد الشام وطرده الصليبيين نهائياً من تلك البلاد . وربما اضطر المماليك إلى مقاتلة الصليبيين في نفس الوقت الذي قاتلوا فيه التتار ، ولكن كان يحدث غالباً أن يحرص المماليك على عدم محاربة الخصمين في وقت واحد إلا إذا اضطرتهم الظروف إلى ذلك .

لويس التاسع في مصر الشام :

وكان أول نجاح أحرزه المماليك على الصليبيين هو إنقاذ المنصورة ثم إزاله العنبرية القاصمة بالجيش الصليبي قرب فارسكور سنة ١٢٥٠ كما سبق أن رأينا . وأعقب ذلك مباشرة قيام دولة المماليك في حكم مصر ، فكان على الدولة الجديدة أن تقوم بمجهود سريع لتصفية آثار الحملة الصليبية السابعة على مصر . حقيقة إن لويس التاسع زعيم تلك الحملة كان أميراً في دار ابن لقمان بالمنصورة ، ولكن الصليبيين كانوا مازالوا يحتلون دمياط الأمر الذي شكل خطراً جسيماً على مصر ودولة المماليك الناشئة . ومن يدري ، فإنه طالما ظلت دمياط في أيدي الصليبيين ، فإن ذلك كان كفيلاً بأن يجعل منها قاعدة للصليبيين في الأراضي المصرية يمكن أن

تأتى إليها الوفود الصليبية من الغرب الأوربي للقيام بمحاولة أخرى لغزو مصر وفك أمر لويس التاسع . لذلك حرصت شجر الدر - أولى سلاطين المماليك في مصر - على إبرام الصلح مع الصليبيين وفك أمر لويس التاسع ، كما سبق أن أوضحنا .

وقد تعهد لويس التاسع في تلك الاتفاقية ألا يقصد شواطئ الإسلام مرة أخرى ، إلا أنه شق عليه عقب إطلاق سراحه في مايو سنة ١٢٥٠ أن يعود إلى بلاده مباشرة وقد لخصت سمعته فضيحة الهزيمة وعار الأسر ، واختار أن يقصد بلاد الشام أولاً عسى أن يتمكن من القيام ببعض الأعمال الصليبية التي تعيد إليه ماء وجهه . وكان الصليبيون في بلاد الشام وقتئذ أخرجوا يائسون إلى زعيم قوى ينظم صفوفهم ويحل مشاكلهم ويثبت فيهم روح الأمل والثبات ، ولذلك فرحوا بمقدم لويس التاسع اليهم ورحبوا به ترحيباً كبيراً^(١) . وقد قضى لويس التاسع بالشام أربع سنوات (مايو ١٢٥٠ - أبريل ١٢٦٤) حمل فيها جاهداً لتصفية الخلافات بين أمراء الصليبيين بعضهم وبعض من ناحية ، والاحتفاظ بكيان الصليبيين وسط الخلافات التي تأججت بين بني أيوب في الشام والمماليك في مصر من ناحية ثانية ، ثم القيام بمباحثات هامة مع التتار من ناحية ثالثة .

وكان أن أغاد لويس التاسع في الشام من النزاع بين الأيوبيين والمماليك ، لأن كل فريق أخذ يخطب وده ويحاول محالفته عند الطرف الآخر . ومن ذلك أن المعز أيك سلطان المماليك في مصر حرص على استرضاء لويس التاسع فأخرج عن دفعات من أسرى الصليبيين بلغت نحو أربعين ألف أسير ، كما أرسل هدية إلى لويس التاسع^(٢) . أما الناصر يوسف - كبير الأيوبيين بالشام -

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٨٤ - ١٠٨٥ .

(٢) Joinville, p 254-256 .

فقد بادر هو الآخر بإرسال سفارة إلى الملك لويس التاسع في هكا يعرض عليه محالفته ويعدده بإعطائه بيت المقدس^(١) وقد أدرك لويس التاسع أنه لا يمكنه أن يقبل العرض الأيوبي ويضحي بأرواح أكثر من عشرة آلاف صليبي ما زالوا أسرى في مصر. كذلك فضل لويس التاسع أن يعقد اتفاقية مع المماليك في مايو سنة ١٢٥٢ ، وافق المماليك فيها على إطلاق سراح جميع أسرى الصليبيين وإعفاء لويس التاسع من مؤخر القدية المستحق عليه ، فضلاً عن إعطاء بيت المقدس للصليبيين ، إن نهروهم على الشاميين ،^(٢) . وفي مقابل ذلك كله وافق لويس التاسع على مساعدة المماليك في القيام بحملة ضد الناصر يوسف الأيوبي ، على أن تلتقي جيوش الحلفاء عند ياقا في مايو سنة ١٢٥٢ . على أنه حدث في تلك المرحلة أن توسط الخليفة العباسي في الصلح بين الأيوبيين والمماليك — كما سبق أن ذكرنا — وبذلك ضاعت على لويس التاسع والصليبيين فرصة الحصول على بيت المقدس عن طريق استغلال حالة النزاع بين الأيوبيين والمماليك^(٣) . ولم يجد لويس التاسع بعد ذلك وسيلة لتدعيم مركز الصليبيين بالشام سوى الاتصال بالتمتار لمحالفتهم ضد المسلمين جميعاً من أيوبيين ومماليك . ولكن يبدو أن هذه الاتصالات لم تؤد إلى نتيجة ناجحة ، مما جعل لويس التاسع يغادر بلاد الشام عائداً إلى فرنسا في إبريل سنة ١٢٥٤ .

وعلى الرغم من حدوث صدام بين المماليك والصليبيين سنة ١٢٥٦ ، إلا أن هذا الصدام لم يستمر طويلاً ولم يلبث أن انتهى بالصلح السريع بين الطرفين^(٤) وأهل السبب في ذلك هو أن كلا من الطرفين لم يكن مستعداً للدخول في حرب

(١) Runciman: A Hist. of the Crusades, III p. 275.

(٢) الدينى : عهد الجمان حوادث سنة ٦٥١ هـ (ج ١٨ قسم ٢ ورقة ٣٤٤) .

(٣) سعيد هاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٩٧ .

(٤) Setton : A Hist. of the Crusades, II, p. 568.

طويلة مع الطرف الآخر، فالصليبيون كانوا منقسمين على أنفسهم في خلافات داخلية خطيرة. والمماليك كانوا يقيمون دولة في دور التأسيس ولم تستطع أن تقف على قدميها بعد أمام الأخطار الداخلية والخارجية التي واجهتها.

وبانتصار المماليك على التتار في عين جالوت، أمكن للمماليك أن يتغلبوا على أكبر خطر من واجهادولتهم الناشئة، وهما خطر التتار وخطر الأيوبيين. وبذلك أصبح المماليك سادة مصر والشام، وحققوا لأنفسهم من المجد ما أضفى عليهم قسطاً من الأهمية ونوعاً من الشرعية. وما دام المماليك قد ورنوا الأيوبيين في ملكهم في مصر والشام، فإنه كان من الطبيعي أن يرنوا عن الأيوبيين سياستهم الخاصة بجهاد الصليبيين وتقويض دعائم ملكهم بالشام. وإذا كان القدر لم يمل قطر بطل عين جالوت لوضع قواعد هذه السياسة، فإن خليفته السلطان الظاهر بيبرس، استطاع أن يصمم بهمهم وافر في جهاد الصليبيين والتهديد لطردهم كلية من بلاد الشام.

الظاهر بيبرسي والخدمة لله على أنطاكية:

وقد رأينا كيف أن السلطان الظاهر بيبرس الذي تولى سلطنة المماليك في أواخر سنة ١٢٦٠، استطاع أن يثبت أنه من أقدر الحكام وأقواهم وأبعدم نظراً. فأخذ يتغلب على المشاكل الداخلية والخارجية التي واجهته واحدة بعد أخرى ليتفرغ بعد ذلك لحرب الصليبيين^(١) والواقع أن الحقيقة الكبرى التي تواجهنا في نشاط بيبرس الحربى ضد أعداء الوطن الإسلامى في تلك الحقبة هي أنه يصمم وضع خطط فاصلة بين حروبه ضد التتار وحروبه ضد الصليبيين فكثيراً ما كان بيبرس يخرج على رأس جيوشه من مصر لمحاربة أحد الخصمين، فيحارب

(١) سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ص ٣٨ وما بعدها.

الأخر، أو يحارب الاثنين معاً. وإذا كنا لاحظنا أن حروب بيبرس ضد التتار امتازت بالقوة والشجاعة والمثابرة، فإننا يجب أن نذكر في نفس الوقت أن حروبه ضد الصليبيين كانت أكثر استمراراً وأوسع نطاقاً وأشد عنفاً من حروبه ضد التتار. ذلك أنه يلاحظ دائماً على حروب سلاطين المماليك ضد التتار أن تلك الحروب كانت مؤقتة منقطعة تأتي في أوقات متباعدة نسبياً، أي عندما يمرّ التتار على مهاجمة بلاد الشام. وطالما ظل التتار قابضين في العراق وفارس لا يبدؤون بالهجوم على أطراف دولة المماليك في الشام، لم يحاول سلاطين المماليك غالباً أن يهاجموهم. أما الخطر الصليبي فكان من نوع آخر، لأن الصليبيين كانوا عند قيام دولة المماليك منقشزين في بلاد الشام شمالها وجنوبها - عن طريق عديد حصونهم ومعاقلهم التي أسسوها داخل البلاد وقرب الساحل، أو عن طريق المدن الشامية التي ظلوا يسيطرون عليها ويتحكمون فيها. وهكذا صار الاحتكاك بين المسلمين والصليبيين بالشام يمكن أن يكون مباشراً ومتصل الحلقات كما كان سلاطين المماليك أكثر إحساساً بالخطر الصليبي منهم بالخطر التتاري الذي لم يحسوا به إلا وقت خروج التتار من العراق لمهاجمة أطراف الشام.

وإذا كان الظاهر بيبرس هو الشخصية الكبرى في صدر دولة المماليك البحرية، والرجل الذي أراد أن يجعل من نفسه صلاح الدين الثاني، فإن ذلك دفعه إلى أن يضع لنفسه برنامجاً حرجياً ضخماً كانت أبرز أركانه حماية بلاد الشام من خطر التتار والقضاء على الصليبيين وطردهم من الشام^(١). وقد بدأت هجمات بيبرس على الصليبيين في وقت مبكر، أي في نوفمبر سنة ١٢٦١ عندما هاجم بيبرس إمارة أنطاكية لعقاب أميرها بوهيموند السادس على محالفته التتار، ثم كرر الهجوم عليها في صيف سنة ١٢٦٢، وفي تلك المرة حاصر الجيش المماليكي

(١) سعيد عاشور: الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٤٢٢.

مدينة أنطاكية ذاتها وأوشك على الاستيلاء عليها لولا تدخل هينوم الأول ملك أرمينية الصغرى الذى استنجد بالمنول ، مما أدى إلى جلاء المماليك عن أنطاكية فعادوا ومعهم أكثر من ثلاثمائة أسير (١) .

على أن يبرس رأى قبل أن يتوجه بكييته إلى الفرنج ، — على قول المقرئى — (٢) أن يدعم مركزهم باتخاذ خطوتين على جانب كبير من الأهمية ، الأولى هى إحياء الخلافة العباسية فى مصر سنة ١٢٦٢ ليطهر سلطنة المماليك فى صورة القوة الحامية للخلافة المستتعة ببيعها لما يدعم دولته الناشئة ويكسبها أهمية فى نظر المسلمين كافة . والثانية هى محاربة تار القفجاق — فى القوقاز وجنوب روسيا — وهم الذين اعتنقوا الإسلام فأراد يبرس أن يتخذ منهم عوناً على هولاء كوتار وقارس .

وقد بدأت الحرب الشاملة التى شنها يبرس على الصليبيين بعدة محاولات من جانبهم لطلب الصلح ، وبعض مناشطات من جانب يبرس لاسر فورهم حتى إذا ما كانت سنة ١٢٦٥ بدأ يبرس حربه الشاملة ضدهم . ففى أوائل فبراير من تلك السنة خرج السلطان يبرس على رأس جيش ضخم إلى غزة فاستولى على فيسارية ويافا وعذليت وأرسوف التى استسلمت بعد مقاومة شديدة أبدتها حاميتها من الاسبتارية (٣) . وبعد استيلاء يبرس على أرسوف جاء دور عكا ، ولكن هيو الثالث الوصى على عرش قبرس قام عندئذ بالوصاية على عكا أيضاً ، لخطر على رأس جيش قوى من جزيرة قبرس فى أبريل سنة ١٢٦٥ للدفاع عن عكا ، مما جعل يبرس ينصرف إلى مصر (٤) .

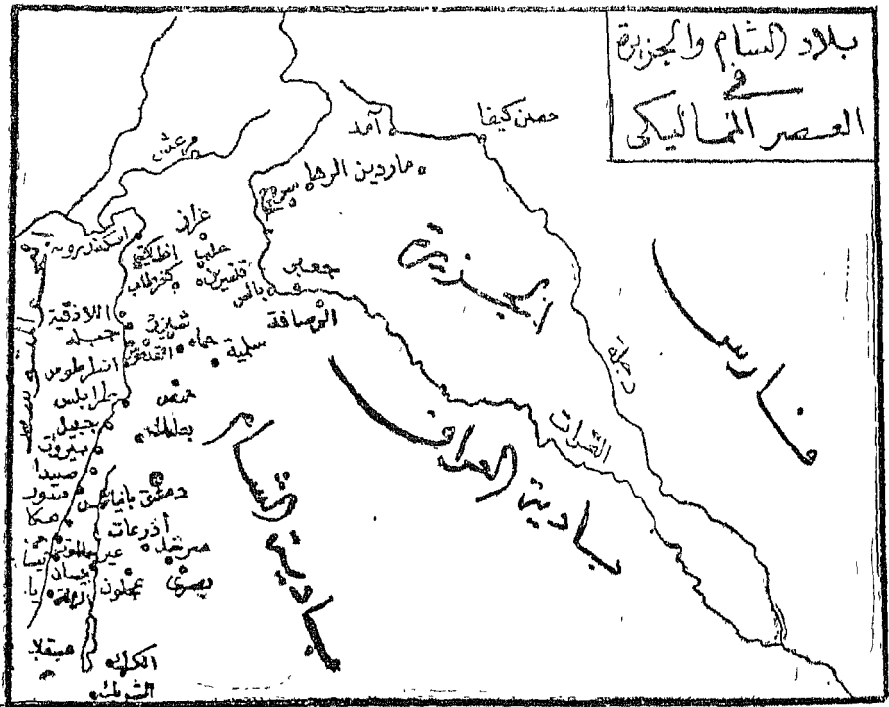
(١) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٦٠ هـ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٤٨٣ .

(٣) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٦٣ هـ .

(٤) سعيد هاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٤١ .

بلاد الشام و الجزيرة
العصر الثانی



ثم عاد بيبرس في العام التالي - مايو سنة ١٢٦٦ - لاستئناف الحرب ضد الصليبيين ، فبدأ بمهاجمة عكا ، ولما وجدها قوية التحصين انصرف إلى قلعة القرين فوجدوها هي الأخرى صعبة المنال ، فقصده صفد واستولى عليها في صيف سنة ١٢٦٦ ، وبعدها استسلمت هونين وتبنين ومدينة الرملة^(١) . وبعد ذلك استولى بيبرس على بعض المراكز القريبة من طرابلس مثل القليعات وحلباء وعرة .

ولم يلبس السلطان بيبرس لأرمينية الصغرى موقعها وموقف ملكها هيثوم الأول في مؤازرة التتار وحشهم على خزو الشام سنة ١٢٥٩ - ١٢٦٠ . لذلك أرسل بيبرس جيشاً كبيراً في صيف سنة ١٢٦٦ تحت قيادة الأمير قلاوون والملك المنصور الثاني الأيوبي صاحب حماء لمهاجمة أرمينية الصغرى واستطاع المالك أن ينزلوا هزيمة كبرى بالأرمن وحلفائهم قرب دربساك في ٢٤ أغسطس سنة ١٢٦٦ . وقد قتل في الموقعة أحد أبناء الملك هيثوم وأسر ابنه الثاني ، في حين كان هيثوم نفسه متغيباً عن بلاده في تبريز يستجدي مساعدة التتار^(٢) . وبعد أن أغار المالك على مدن أرمينية الرئيسية - وهي أذنة والمصيصة وطرسوس - وأشعلوا النار في عاصمتها سيس ، عادوا معهم قدر كبير من الغنائم وعدد ضخم من الأسرى^(٣) . والواقع إن ملكة أرمينية الصغرى لم تفق مطلقاً من تلك الكارثة وصار دورها سلبياً بعد ذلك في الأحداث الجارية على مسرح الشرق الأدنى ، أما الملك هيثوم فإن الصدمة جعلته يتنازل عن العرش سنة ١٢٦٩ لابنه ليون الثالث^(٤)

(١) القرينى : السلوك ، ج ١ ص ٥٥٠ .

(٢) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٤٠ .

أبو الفدا : المختصر حوادث ٦٦٤ هـ .

(٣) فضل بن أبي الفضائل : كتاب النهج السديد ص ١٥٢ .

(٤) Runciman : op. cit; III p. 323.

ويبدو أن السلطان الظاهر بيبرس استغل فرصة الخلافات الداخلية بين الصليبيين بعضهم وبعض وأغار على منطقة طابرية وهكذا سنة ١٢٦٧ كما استولى على يافا والشقيف أرفون في العام التالي (١). أخيراً توج بيبرس أعماله الحربية ضد الصليبيين بالاستيلاء على أنطاكية ، فوصل إليها قرب منتصف مايو سنة ١٢٦٨ وهناك قسم جيشه إلى ثلاث فرق داحداها اتجهت إلى ميناء السويدية لتقطع الصلة بين أنطاكية والبحر ، والثانية سدت الممرات بين قسليقية والشام لمنع وصول أية مساعدة إلى أنطاكية من أرمينية الصغرى ، في حين أخذت القوة الرئيسية تحت قيادة بيبرس نفسه تهاجم المدينة . ولم تلبث أن سقطت أنطاكية فدخلها المماليك وغنموا منها غنائم طائلة ، بلغ من كثرتها أن قسمت النقود بالاطاسات . كذلك بلغ من كثرة الأسرى أنه لم يبق غلام إلا وله غلام ، وأبيع الصغير بائق عشر درهما والجارية بخمسة دراهم (٢) وقدرت بعض المراجع الصليبية عدد أسرى أنطاكية بمائة ألف أسير .

ولا تخفى علينا أهمية سقوط أنطاكية بالذات في قبضة المسلمين سنة ١٢٦٨ . إذ كانت ثاني إمارة — بعد الرها — أسسها الصليبيون في الشرق سنة ١٠٩٧ ، فجاء استيلاء المسلمين عليها دليلاً جديداً على انهيار ذلك البناء الضخم الذي أقامه الصليبيون في الشام في أواخر القرن الحادي عشر .

وفي سنة ١٢٦٩ توج هيو الثالث ملك قبرس ملكاً على مملكة بيت المقدس الصليبية ، فأخذ يعمل على تقوية جبهة الصليبيين بالشام . ولسكن بيبرس لم يحترم الهدنة التي كان يعقدها مع الصليبيين حين وآخر ، وإنما هاجم إمارة طرابلس سنة ١٢٧١ واستولى على صافيتا من الداوية ، وعلى حصن الأكراد وحصن

(١) أبو الهاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ١٤٢ .

العيني : همم الجان سنة ٦٦٦ هـ .

(٢) المقرئ : السلوك ، ج ١ ص ٥٦٨ .

عكار من الاسبتارية^(١) . وفي طريق عودة بيبرس من طرابلس استولى على حصن القرين — إلى الشمال الشرقي من عكا — في يونية سنة ١٢٧١ ، وكان من الحصون المنيعه التي احتفظ بها الفرسان النيو تون حتى ذلك الوقت^(٢) .

وفي تلك الأثناء كان السلطان بيبرس ناقماً على قبرس لجهود ملكها هيو الثالث في توحيد قوى الصليبيين بالشام من ناحية ولاعتداء القبارسة على السفن الإسلامية في شرق البحر المتوسط من ناحية أخرى . لذلك أرسل بيبرس أسطولاً سنة ١٢٧٠ لغزو جزيرة قبرس ، ولكن ريحاً عاصفة هبت على سفن ذلك الأسطول وحطمت عدداً كبيراً منها قرب شاطئ الجزيرة ، مما جعل حملة بيبرس تلتهم بالفشل^(٣) .

ويلاحظ أن جهود بيبرس في ذلك الدور لم تقتصر على محاربة الصليبيين ، وإنما امتدت إلى تقليم أظافر الباطنية ، وهي الطائفة الهدامة التي قامت بدور خطير في تاريخ الشام على عصر الحروب الصليبية . ولم يقنع الظاهر بيبرس بأن يجعل الباطنية يدفعون الأموال له منذ سنة ١٢٦٧ بدلا من دفعها للصليبيين ، وإنما أخذ يستولى على معاقلهم بالشام ، وأقطعهم بدلا منها أراضي في مصر^(٤) .

وفي سنة ١٢٧١ وصلت إلى عكا حملة صليبية صغيرة بقيادة الأمير إدوارد الإنجليزي ، ولكنها لم تستطع أن تفعل شيئاً مذكوراً لمساعدة الصليبيين بالشام مما أدى إلى عقد هدنة لمدة عشر سنوات بين الصليبيين من ناحية والسلطان

(١) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٦٩ هـ .

(٢) مفضل بن أبي الفضائل : التهج السديد ص ١٩٨ — ١٩٩ هـ .

(٣) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ٤٧ — ٤٨ .

(٤) المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ٥٥٧ .

سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ص ٨٢ — ٨٣ .

(هـ) العصر المالكي)

بيبرس من ناحية أخرى . ولم يستطع بيبرس أن يظل ساكناً طوال مدة تلك الهدنة ، وإنما قام سنة ١٢٧٥ بغزو مملكة أرمينية الصغرى ، فأغار على المصبصة وسيس وأذنة وطرسوس وإلياس . هذا إلى أنه أغار على بلاد سلاجقة الروم التي كانت مشغولة بحماية التتار ، واستطاع أن يمزق الجيش التتارى عند أبلستين في أبريل سنة ١٢٧٧ ، كما سبق أن ذكرنا (١) . وهكذا قضى السلطان الظاهر بيبرس حكمه الطويل في جهاد الصليبيين من ناحية والتتار من ناحية أخرى ، حتى كانت وفاته سنة ١٢٧٧ .

أبناء الظاهر بيبرس : (١٢٧٧ - ١٢٧٩)

على الرغم من أن الظاهر بيبرس كان أحد المماليك الذين لم يؤمنوا بنظام وراثته الملك ، وعلى الرغم من أنه عاصر الأحداث التي أدت إلى عزل على ابن أبيك وقيام قطز في السلطنة ، إلى أن غريزة الأبوة غلبت على بيبرس فأراد أن يورث سلطنة المماليك لابنه السعيد . وربما اغتر بيبرس بما حققه من أعمال ، وبما وصل إليه من نفوذ واسع لم يدركه أحد قبله من سلاطين المماليك ، فظن أنه حقق لنفسه وليته من المجد ما يكفل لابنه الملك السعيد القيام في الحكم من بعده دون اعتراض من كبار الأمراء .

وكان أن استغل بيبرس فرصة حركة التتار على شمال الشام سنة ١٢٧٤ لتنفيذ غرضه . ويروى المقرئى أن الأمراء أشاروا على بيبرس عندئذ بسلطنة ولده ليقم بديار مصر أثناء غيبة أبيه في حرب التتار بالشام . هذا وإن كانت نية بيبرس في تمليك ابنه من بعده قد ظهرت قبل ذلك بما صير

(1) D'O Hsson : op. cit; III, pp. 481—488.

هذه ماهر بن بريس عساكر مصر وحلفهم لولي عهده الملك السعيد ناصر الدين
خاقان بركة خان» (١).

ولم يلبث السلطان بريس أن احتفل سنة ١٢٦٤ بسلطنة ابنه الملك السعيد
احتفالاً كبيراً فأركبه بشعار السلطنة وخرج السلطان بنفسه في ركابه ماشياً على
قدميه وقد زينت له القاهرة أحسن زينة . وبعد ثلاثة أيام جمع بريس الأمراء
والقضاة والفقهاء وقرىء تفويض عهد السلطنة للملك السعيد وجاء فيه « كانت
شجرتنا المباركة قد امتدت منها فرع نفوسنا فيه الزيادة والنمو وتوسعنا منه حسن
الجنات المرجو .. فليتقلد الولد ما قلدها من أمور العباد ، وليشركننا فيما نبشره
من مصالح النور والقلاح والبلاد » (٢).

ثم كان أن توفي السلطان الظاهر بريس في دمشق سنة ١٢٧٧ ؛ فكتب
الأمير بدر الدين بيلبك الخازن دار إلى الملك السعيد في القاهرة يخبره بوفاته
أبيه ، وعندئذ جدد الأمراء البيعة للملك السعيد ، كما بايعه سائر المعسكر
والقضاة والأعيان ودعاه له الخطباء في الجوامع (٣) .

على أن الملك السعيد اتبع سياسة في الحكم أغضبت الأمراء ، ففقد إليه
جماعة من المهاليك الأحداث الذين ازداد نفوذهم في شئون الدولة ، الأمر الذي
أغضب كبار الأمراء وعلى رأسهم نائب السلطنة الأمير سيف الدين كوندك
الساق . وهذا ما ازداد العداء بين السلطان السعيد وكبار الأمراء حول على
التملص منهم ، فسدح بعضهم ، الأمر الذي أثار الخواطر ضده ، وتزعج حركة
المقاومة بمجموعة من كبار الأمراء البحرية مثل الأمير سيف الدين قلاوون والأمير
شمس الدين سنقر الأشقر . وأخيراً اجتمع هؤلاء الأمراء وأرسلوا إنذاراً إلى

(١) المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ٤٦٨ .

(٢) بريس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ٨١ - ٨٥ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٦٤٢ .

السلطان السعيد بركة بن بيبرس جاء فيه : لما قد أفسدت الخواطر وتعرضت إلى أكابر الأمراء ، فإما أن ترجع عما أنت عليه وإلا كان لنا ولك شأن ،^(١).

وهكذا ظلت العلاقة بين الملك السعيد وكبار الأمراء تبدأ حيناً وتساءل أحياناً ، حتى انتهى الأمر بأن حاصر الأمراء القلعة سنة ١٢٧٩ وقطعوا عنه الماء وأصروا على أن يطلع نفسه من السلطنة^(٢). وعندما لمس السلطان السعيد خطورة موقفه طلب من الأمراء أن يعطوه السكر ، فأجابوه إلى ذلك .

وقد عرض كبار الأمراء السلطنة بعد ذلك على الأمير سيف الدين قلاوون ، فنظاهم بالزهد وتمنع قائلاً : أنا لم أخلع السعيد شراً إلى السلطنة وحرصاً على المملكة ، ولكن حفظاً للنظام وأتفة لجيوش الإسلام أن يتقدم عليها الأصغر ، والأولى ألا يخرج الأمر من ذرية الملك الظاهر^(٣) ، ومن الواضح أن ادعاء الأمير قلاوون الرغبة في الاحتفاظ بالسلطنة لذرية السلطان للظاهر إنما كان ادعاء باطلاً لعدم إيمان الماليك بمبدأ توريث الملك ؛ وكل ما هنا لك هو أن قلاوون أدرك أن الأمور لم تنضج بعد فاختار أن يترى لاسيما وأن غالبية الجيش كانت من الماليك الظاهرية — أتباع الظاهر — فخشي أن يشوروا عنده .

وهكذا استقر رأى الأمراء على تعيين بدر الدين سلاش بن بيبرس سلطاناً ، وكان عمره سبع سنوات . فتلقب بالملك العادل واختير الأمير قلاوون أتباعاً له . وكانت هذه هي فرصة الأمير قلاوون ، فاستغل صغر سن السلطان الجديد وأخذ يمكن لنفسه من وراء ستار ، فقبض على زمام الأمور وتخلص من بعض الأمراء الظاهرية بالسجن ؛ بل لقد جعل نفسه شريكاً للسلطان العادل

(١) المرجع السابق ص ٦٤٥ .

(٢) أبو الحسن : الهجوم ج ٧ ص ٢٦٦ — ٢٦٩ .

(٣) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٦٥٧ .

بدر الدين سلامش فأجبر الأمراء على أن يقسموا له يمين الطاعة وضربت
المسكة باسميهما ، كما خطب لهما على المنابر (١).

ولما أدرك الأمير قلاون أن الكمثرى قد نضجت ، جمع الأمراء ، وتحدث
معه في صغر سن السلطان العادل وقال لهم : قد علمتم أن المملكة لا تقوم
إلا برجل كامل ، فاتفقوا على خلعه ونفيه إلى السرك وتولية قلاون سلطنة
مصر (٢).

السلطان المنصور قلاوون والصلبيين (١٢٧٩ - ١٢٩٠)

تولى السلطان المنصور قلاوون عرش سلطنة المماليك سنة ١٢٧٩ ، ولكنه
لم يلبث أن تعرض في أوائل حكمه لنفس النوع من العقبات التي تعرض لها
غيره من سلاطين المماليك. ونقصد بهذه العقبات خروج بعض كبار الأمراء على
السلطان الجديد لأنهم يأفوا الخروج لواحد منهم أو لاعتقادهم أنهم أجدر منه
بالسلطنة. من ذلك أن الأمير شمس الدين سنقر نائب الشام رفض الاعتراف
بالمنصور قلاوون سلطاناً سنة ١٢٨٠ ، وأعلن نفسه حاكماً على الشام وتلقب
بالمملك الكامل ودعى له في المسجد الأموي (٣). على أن السلطان المنصور
قلاوون استطاع أن يقضى على الفتنة فأرسل أكثر من حملة ضد سنقر الأشقر
الذي اتصل بالقتار وأغراه على غزو الشام. وأخيراً خضع سنقر الأشقر
وطلب الأمان سنة ١٢٨٧ وبذلك دانت بلاد الشام للسلطان قلاوون.

وقد اتبع السلطان المنصور قلاوون سياسة سلفه بيبرس من حيث الوقوف

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢٨٦ .

(٢) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٦٥٥ - ٦٥٨ .

أبو المحاسن النجوم ج ٧ ص ٢٧٠ - ٢٧١ .

(٣) المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٦٧٢ - ٦٧٤ .

بالمرصاد للتتار ومحاولاتهم للتسرب إلى بلاد الشام ، وفي الوقت نفسه العمل على تقويض بناء الصليبيين بالشام . ويبدو أن السلطان قلاوون كان في الدور الأول من حكمه - أي حتى سنة ١٢٨٤ - أكثر انشغالا بثورة سنقر الأشقر في الشام ، فضلا عن هجمات التتار الذين أغاروا على بلاد الشام سنة ١٢٨٠ ثم سنة ١٢٨١ ، الأمر الذي جعل قلاوون يحرص في ذلك الدور على مسالمة الصليبيين فعقد معهم صلحا لمدة عشر سنوات تبدأ بسنة ١٢٨١ (١) . على أن الأمور لم تسكد تهدأ للسلطان المنصور قلاوون حتى لجأ إلى خرق ذلك الصلح الذي سعى إليه بنفسه مع الصليبيين ، فشرع في مهاجمة الإسماعيلية واستولى منهم على حصن المرقب سنة ١٢٨٥ (٢) .

والواقع إن جميع الشواهد دلت عندئذ على أن الصليبيين بالشام كانوا يملكون دورا احتضارا ، بعد أن فترت مملكة الغرب الأوربي من جهة وازدادت الخلافات الداخلية بين القوى الصليبية في بلاد الشام من جهة أخرى (٣) . وقد استغل المماليك تلك الأوضاع للإجهاز على البقايا الصليبية بالشام إجماعا تاما ، فأرسل السلطان المنصور قلاوون حملة بقيادة الأمير حسام الدين طرناوى استولت على اللاذقية في أبريل سنة ١٢٨٧ ، وكانت آخر ما تبقى من إمارة أنطاكية الصليبية (٤) .

وشاءت الظروف أن يستند الخلاف عندئذ داخل إمارة طرابلس الصليبية بعد وفاة أميرها بوهيموند السابع . ويقال إن بعض الأحزاب داخل طرابلس استعجلت بالسلطان قلاوون طالبة تأييده فوجد قلاوون في ذلك فرصة سانحة

(١) King : The Knights Hospitallers. 282.

(٢) محيي الدين بن عبد الظاهر : تهريف الأيام والعصور ص ٧٧ .

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٦٧ - ١١٧٠ .

(٤) أبو الفدا : المختصر حوادث سنة ٦٨٦ هـ ٩ .

محيي الدين عبد الظاهر : تهريف الأيام والعصور ص ١٥١ .

وتحجج بأن أهل طرابلس من الصليبيين نقضوا الهدنة واعتدوا على التجار المسلمين وقطعوا الطريق على المسافرين . وهكذا أهد قلاون عدته ، وتحجج لأخذ طرابلس ، (١) ، وخرج فعلا من مصر إلى الشام في فبراير سنة ١٢٨٩ . وكان جيش قلاون مؤلف من أربعين ألف فارس ومائة ألف من المقاتلة ، وبهذه القوة الضاربة شمس قلاون يحاصر طرابلس في ٢٤ فبراير سنة ١٢٨٩ وحضايقها مضايقة شديدة ، بعد أن نصب حولها آلات الحصار وأخذ النصابون ينقبون أسوارها حتى سقطت المدينة في يد قلاون في أواخر إبريل سنة ١٢٨٩ (٢) . ويرى أبو الفدا أن بعض أهالي طرابلس من الصليبيين حاولوا النجاة عن طريق البحر ، فنجح أقلهم في المراكب وقتل غالب رجالها وسيبى فرارهم وغنم منها المسلمون غنيمة عظيمة ، وكان أمام طرابلس وعلى مقربة منها في البحر جزيرة القديس نيقولا ، ففر إليها كثير من الصليبيين ، ولكن المماليك لحقوا بهم فقتلوا وسبوا وأسروا منهم أعدادا كبيرة . وقد زار المؤرخ أبو الفدا تلك الجزيرة بعد المذبحة السابقة ، لكنه لم يستطع البقاء فيها ، من تنن القتل ، (٣) . وبعد أن تم تدمير مدينة طرابلس القديمة ، بنى السلطان قلاون طرابلس الجديدة في الداخل بعيدا عن شاطئ البحر ، وذلك خوفا من تهديد الأساطيل الصليبية (٤) .

ولم يلبث الصليبيون أن أخذوا ما لهم من مراكز ومدن في إمارة طرابلس - مثل بيروت وجبل - فاحتلها المماليك في سهولة . وإذا كانت جبيل قد ظلت في أيدي الصليبيين بضعة سنوات آخر ، فإن ذلك جاء مشروطا بإعلان تبعيتها وخضوعها التام لسلطنة المماليك ، كما تعهد صاحبها الصليبي بدفع أموالها

-
- (١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٧٤٦ .
 (٢) أبو المعاسن : الزهور الزاهرة ج ٧ ص ٣٢١ .
 (٣) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٨٨ هـ .
 (٤) المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ٧٤٨ .

السلطان (١) وبذلك لم يبق للصليبيين من ملكهم العريض ببلاد الشام سوى عاصمتهم عكا ، فضلا عن صيدا وصور وحملايت .

ويبدو أنه لم يكن في نية السلطان قلاون أن يقوم بهجوم على عكا عقب استيلائه على طرابلس مباشرة ، بدليل أنه اتجه إلى دمشق حيث استجاب لرغبة الصليبيين في عقد الصلح وتحديد الهدنة القديمة لمدة عشر سنوات (٢) . ولكن لم تكد المياه تعود إلى مجاريها بين المسلمين والصليبيين في بلاد الشام بعد إبرام الصلح المشار إليه ، حتى وصلت عكا في صيف سنة ١٢٩٠ حملة صليبية إيطالية الطابع . وقد أراد هؤلاء الصليبيون الجسد أن يعبروا عن حماسهم الدينية فور وصولهم إلى الشام ، فاعتدوا على المسلمين في إقليم عكا وقتلوا عددا من تجار المسلمين داخل عكا ذاتها ، الأمر الذي قطع حبل السلام بين دولة المماليك والصليبيين (٣) .

ذلك أن أخبار العدوان الصليبي لم تكد تصل إلى مسامع السلطان قلاون حتى استشاط غضبا ، ورفض الأعذار الواهية التي تهجج بها الصليبيون القدامى من أهل عكا . وفي الوقت الذي أخذ السلطان قلاون يعد جيوشه بالقاهرة للانتقام من الصليبيين ، أمر الأمير شمس الدين سنقر الأهرس بالاستعداد للحرب في الشام (٤) . على أنه لم يكد السلطان قلاون يفرغ من كافة استعداداته الحربية ويقادر القاهرة فعلا لحرب الصليبيين بالشام ، حتى دهمه الموت في ١٠ نوفمبر سنة ١٢٩٠ (٥) .

(١) أبو الحاسن : التجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٢١ .

(2) Stevenson : The Crusaders in the East p. 351.

(٣) مفضل بن أبي القضايل : النهج السديد ، ج ٢ ص ٣٨٦ .

(٤) الماريزي : السلوك ج ١ ص ٧٥٤ .

(٥) محيي الدين بن عبد الظاهر : تهريف الأيام ص ١٧٨ .

السلطان المنصور خليل بن قهورة : (١٢٩٠ - ١٢٩٣)

لم يكتف السلطان المنصور قلاون يحمل ولاية العهد لابنه علاء الدين ، بل أراد أن يجعل ابنه سلطانا في حياته ، فعرض فكرته على كبار الأمراء الذين أقروه على رأيه . وكان أن قرىء تقليد علاء الدين بالقلعة سنة ١٢٨٠ وتلقب بالملك الصالح ، وركب علاء الدين بشعار السلطنة في حياة أبيه (١) .

على أن الملك الصالح علاء الدين لم يلبث أن توفي في حياة أبيه المنصور قلاون سنة ١٢٨٨ [ويقال إن قلاون حزن حزنا شديدا لوفاته ، لأنه كان يضع كل ثقته في ذلك الابن بالذات . وكان المنطق يحتم أن يعهد قلاون بولاية العهد لابنه الثاني خليل ، وفعلا كتب القاضي محي الدين بن عبد الظاهر تقليدا بولاية العهد لخليل الذي لقب بالآشرف (٢) .

ومن الثابت أن المنصور قلاون كان لا يثق في ابنه خليل ولا يميل إليه ولا يرضى من تصرفاته وسلوكه الشخصي ، فاعتقد أنه غير كفؤ للسلطنة ، وقال - عندما عرض عليه القاضي ابن عبد الظاهر تقليد ولاية العهد لخليل - أنا ما أولى خليلا على المسلمين ، (٣) ويقال إن المنصور قلاون كان يعلم أن ابنه خليل مكروه من الأمراء لاستهانتهم بهم ، فضلا عن انه ساء بهنس السم لأخيه الملك الصالح علاء الدين (٤) . ولهذا الأسباب توفي السلطان المنصور قلاون دون أن يوقع كتاب ولاية العهد لابنه خليل .

(١) بويرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ ص ١٠٥ - ١٠٨ .

القلشندى : صبح الأعشى ج ١٠ ص ١٧٢ - ١٧٧ .

(٢) القلشندى : صبح الأعشى ج ١٠ ص ١٦٦ - ١٧٣ .

(٣) المقرئى : السواك ج ١ ص ٧٤٥ - ٧٥٦ .

(٤) المرجع السابق ص ٧٩٢ - ٧٩٣ .

ولما سمع الأشرف خليل بوفاة والده السلطان المنصور قلاوون ، استدعى القاضى ابن عبد الظاهر صاحب ديوان الإنشاء وسأله : أين تقليدى ؟ فأحضر القاضى التقليد إليه وهو خلو من توقيع والده ، وعندئذ قال الملك الأشرف : إن السلطان امتنع أن يعطينى فأعطانى الله ، (١) ولم يلبث أن أقسم الأمراء الأيمان للسلطان الجديد الأشرف خليل بن قلاوون .

وقد تعرض السلطان خليل فى أول كلبة للمؤامرات التقليدية التى تعرض لها بقية سلاطين المماليك ، لحاول الأمير حسام الدين طر نطاي نائب السلطنة إقصاء خليل عن العرش ولسكن السلطان الجديد نجح فى القضاء على المؤامرة وقتل الأمير طر نطاي وبذلك هدأت الأمور ولم يبق أمامه سوى أن ينفذ مشروع أبيه الخاص بالاستيلاء على عكا من الصليبيين (٢) .

طرد البقايا الصليبية من الشام :

وكان الصليبيون قد هلكوا لوفاة المنصور قلاوون ، وظنوا أن تلك الوفاة جاءت لإرادة الله لإيقاد عكا من مصيرها المحتوم . ولسكن سرعان ما خاب ظنهم عندما سمعوا أن السلطان خليل قد سار فعلا على رأس الجيوش التى أعدها أبوه إلى الشام ، فى الوقت الذى أرسل إلى كافة القوات الإسلامية فى مختلف المدن الشامية بمقاومته أمام عكا (٣) . وقد قدر عدد الجيوش الإسلامية التى اشتركت فى حصار عكا بستين ألفا من الفرسان ومائة وستين ألفا من المشاة مجزين بقدر كبير من الأسلحة وعدد ضخم من آلات الحصار (٤) .

ولم يكف السلطان الأشرف خليل يصل إلى عكا ويفرض حصاره عليها

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٩ ورقة ٢٩٣ .

(٢) بيبرس الدواغر : زبدة الفكرة ، ج ٩ ورقة ١٦٧ .

المقريزى : المواعظ ج ١ ص ٧٥٧ .

(٣) أبو القدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٩٠ .

(4) Setton : op. cit. II, p. 595.

في خامس إبريل سنة ١٢٩١ ، حتى أخذت قواته في مهاجمة أسوار المدينة وضربها بالمجانيق الكبار التي كان منها ما يرمى بقنطار دمشق وأكبر ؛ وبذلك أمكن إحداث عدة ثغوب في سور المدينة^(١) . وكان على الصليبيين عندئذ أن يبذلوا محاولة أخيرة للدفاع عن عكا وإنقاذها من السقوط ، فجمعوا كل قواتهم في الشام وعكا ، فضلا عن البحارة الإيطاليين والصليبيين الجدد الوافدين ، حتى اجتمع في عكا عدد يتراوح بين ثلاثين ألفاً وأربعين ألفاً ، منهم ثمانمائة فارس وأربعة عشر ألف من المشاة ، والبقية من عامة الحجاج . وأخيراً أدرك الصليبيون بالشام خطورة الموقف ، لمحاولات الهيئات والجاليات الصليبية أن تتناسى ما بينها من حزازات قديمة ، وتقاسموا جميعاً الدفاع عن أسوار عكا وقلمتها^(٢) .

وفي ٤ مايو وصل هنري الثاني ملك قبرس إلى عكا على رأس مائتين من الفرسان وخمسمائة من المشاة وقدر كبير من المؤن والإمدادات ، ففرح الصليبيون في عكا بقدومه فرحاً كبيراً وتجمعوا على الثبات والمقاومة^(٣) . ولكن هنري الثاني لم يلبث أن فشل في التفاهم مع المسلمين من ناحية . كما قنط من جمع كلمة الصليبيين وإزالة ما بينهم وبين بعض من خلافات من ناحية ثانية . ولذلك عاد هنري الثاني إلى قبرس ومعه جميع قواته وفرسانه ، فكان لذلك أسوأ الأثر في نفوس المدافعين^(٤) .

وكان أن اشتدت هجمات المسلمين على عكا يوم ١٨ مايو حتى نجحوا فعلاً في افتتاح المدينة ، رغم المقاومة العنيدة التي أبدتها مقدم الداوية وقائد الاسبتارية ، حتى خسر كلاهما قتيلاً في المعركة^(٥) ولم يلبث أن وجد الصليبيون

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ٥ - ٨ .

(٢) King : op. cit., pp. 291-292

(٣) Schlumberger : Prise de Saint-Jean d'Acre, pp. 23-36.

(٤) أبو المحاسن : النجوم ، ج ٨ ص ٦ .

Crousset : Hist. des Croisades, III, pp. 755-758.

(٥) Setton : op. cit., II, p. 595

أنفسهم لاعاصم لهم . فالمسلمون أمامهم والبحر خلفهم ؛ ففرعوا إلى السفن
فارين بأرواحهم ولكن السفن الباقية في ميناء عكا لم تسكن كافية ، فغرق بعضها
في البحر بسبب ثقل حولتها وكثرة من اكتظت فيها من طلاب النجاة وكانت
النتيجة أن نمية من الصليبيين في عكا وقعوا بين قتلى وغرقى وأمرى .

ولم يكن منتظرا من بقية المعاقل الصليبية الباقية بالشام أن تظل قائمة ،
فاحتل المماليك مدينة صور دون مقاومة في ١٩ مايو ، واستولى المماليك على
صيدا ودمروا قلعتها في ١٤ يوليو سنة ١٢٩١ ، كما احتلوا حيفا وهدموها .
وبذلك لم يبق للصليبيين في الشام سوى موضعين هما انطراطوس وعثليث ،
فاستسلمت الأولى في ٣ أغسطس والثانية في ١٤ أغسطس سنة ١٢٩١ ، وبذلك
تكاملت بهذه الفتوح جميع البلاد الساحلية للإسلام (١) .

وهكذا دالت دولة الصليبيين بالشام ، وانتهى أمر تلك الجموع من الغزاة
الفرين إلى حيث لا رجعة ، وهاجت بلاد الشام من قيلية شمالا حتى غزة
والحدود المصرية جنوبا لا يقطنها إلا أبناءها الحقيقيون من العرب واسكن
طرد آخر البقايا الصليبية من الشام في أواخر القرن الثالث عشر لايعنى
نهاية قصة الحروب الصليبية ، إذ استمرت بقية فصول تلك القصة في القرنين
الثالث عشر والرابع عشر : وظلت دولة المماليك تنهض بدورها كاملا في
ذلك الدور الأخير من أدوار الحركة الصليبية ، كما سيلى فيما بعد .

(١) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٩٠ هـ
المريزي : السلوك ج ١ ص ٧٦٥ — ٧٦٦ .

الفصل الرابع الممالك والنوبة

مصر والنوبة قبل قيام دولة المماليك :

تربط النوبة بمصر روابط قوية متميزة منذ أقدم عصور التاريخ، وكان من الطبيعي أن تتأثر النوبة — بحكم هذه الروابط — بما تعرض له مصر من تيارات متنوعة . وإذا كانت مصر قد تعرضت في النصف الأول من القرن السابع للميلاد لحركة الفتح العربي ، فإنه كان من المتعذر أن تظل النوبة بعيدا عن ذلك التيار الجديد .

والمعروف في التاريخ أنه لم يكبد يتم فتح مصر على يد عمرو بن العاص ، حتى أرسل عمرو وأخاه لأمه — وهو عقبة بن نافع الفهري — على رأس جيش لفتح النوبة سنة ٦٤٢ . وكانت النوبة عندئذ مركزا للمملكة المسيحية هي ملكة دنقلة التي امتدت من أسوان حتى كورتى ، فأظهر النوبيون مقاومة شديدة للمسلمين ، واضطر الجيش الإسلامي إلى التراجع بعد أن يتحمل خسائر كثيرة (١)

ولم يقنع العرب بتلك النتيجة ، فقام عهد الله بن سعد بن أبي سرح أثناء ولايته على مصر بغزو بلاد النوبة سنة ٦٥١ . وفي تلك المرة أفاد عهد الله بن سعد من التجربة المريعة التي مرت بها حملة عمرو بن العاص ، فعنى بإعداد حملته إعدادا محكما ، وبذلك تمكنت جيوشه من التوغل داخل ملكة النوبة جنوبا حتى وصلت عاصمتها دنقلة وحاصرتها (٢) . على أنه بوصول الجيش العربي

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٢٣٧ .

(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٩٠ .

الإسلامى إلى ذلك الحد ، كان قد استنفد قواه وعجز عن القيام بأى جهد جديد ، الأمر الذى أدى إلى عقد اتفاقية البقط الشهيرة بين عبد الله بن سعد ابن أبى مرجم من ناحية وملك النوبة المسيحية من ناحية أخرى (١) . وبمقتضى هذه الاتفاقية كان على صاحب النوبة أن يقدم إلى بيت المال فى مصر خمسة وستين وثلاثمائة رأما من الرقيق كل عام ، مقابل ألف أردب من الغلال وقدر آخر من البقول والأقمشة تقدمها مصر للنوبة . ومن هذا يبدو أن اتفاقية البقط كانت أقرب إلى معاهدة تبادل اقتصادى بين مصر والنوبة ، منها إلى جزية يدفعها النوبيون رمزا للخضوع ، الأمر الذى جعل ابن خردادبه يقول عن البقط إنه ليس « بجزية ولا خراج » (٢) ، كما قال البلاذرى « ليس بيننا وبين الأساود عهد ولا ميثاق ، إنما هى هدنة بيننا » (٣) .

ومهما يكن من أمر ، فإن اتفاقية البقط لم تحقق لمصر الإسلامية أية سيطرة سياسية على بلاد النوبة المسيحية ، وهى فى الوقت نفسه لم تفتح حدا للعلاقات المضطربة بين مملكة النوبة المسيحية ومصر العربية الإسلامية فى العصور الوسطى . وقد حدث أكثر من مرة أن حاولت مملكة النوبة التدخل من شروط اتفاقية البقط ، كما لجأ النوبيون فى سنوات الشدة إلى الإغارة على حدود مصر الجنوبية بغية السلب والنهب ومن الواضح أن تلك الإغارات النوبية على مصر كانت تستند فى أوقات عدم الاستقرار فى مصر ، مما كان يشجع النوبيين على الإغارة والعدوان ، كما حدث ذلك فى أواخر الدولة الإخشيدية وفى أواخر الدولة

(١) اختلف الباحثون فى تفسير أصل لفظ « البقط » فالبعض قال إنه تعريف من قبيل غير أن رأى الأرجح أن هذا اللفظ مشتق من كلمة bak وهو كلمة مصرية قديمة بمعنى الضريبة التى كانت تجبى عادة من بلاد النوبة والسودان . وربما كان لفظ بقط مشتق أيضاً من اللفظ اليونانى Pactum ومعناه عهد أو ميثاق .

(٢) ابن خردادبه : المسالك والممالك ص ٩٢ .

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٣٧ .

الفاطمية . وربما أحس النوبيون بأن اتفاقية البقعة فيها غرم فادح لهم أو فيها مهالة ومساس بكرامتهم ، بدليل أنهم أرسلوا مبعوثاً - هو ابن ملك النوبة - إلى الخليفة المعتصم العباسي يشكون إليه فداحة البقعة ويطلبون إلغاؤه ، فنظر المعتصم إلى ما كان يدفعه المسلمون فوجده أكثر من البقعة . . . ، وعندئذ وافق المعتصم على ألا يكون البقعة سنوياً وإنما يدفع كل ثلاث سنوات (١) .

على أن أحكام مذهب الإسلامية أظهروا من جانبيهم تمسكاً كبيراً بالبقعة ، فبدأوا على مهاجمة النوبة كلما تأخر ملوكها عن دفع البقعة المفروض عليهم ومن تلك الحملات التي شنها أحكام مذهب على النوبة الحملة التي أرسلها صلاح الدين بقيادة أخيه توران شاه سنة ١١٧٢ ، والتي أوغلت في تلك البلاد حتى أبريم (٢) على أنه يبدو في تفسير حملة صلاح الدين على النوبة أنه من الصعب إرجاع سبب تلك الحملة إلى رغبة صلاح الدين في إجبار النوبيين على دفع البقعة وربما كان أقرب إلى الصواب أن صلاح الدين استهدف من وراء حملته على النوبة مطاردة بقايا أنصار الفاطميين ، أو إيهام سيده نور الدين بمحرد بأنه يسعى لمد نفوذه جنوباً على حساب قوة مسيحية مجاورة . وهذا وإن كان هناك رأى يقول بأن صلاح الدين أراد بتلك الحملة أن يحتج بمدى صلاحية النوبة لتسكون مأوى لأبناء البيت الأيوبي في حالة تفاقم الحرقف بينه وبين نور الدين وبأن تقرير توران شاه عن أحوال النوبة جعل صلاح الدين يلبذ تلك الفكرة ويوجه أنظاره إلى الدين (٣) .

(١) المقريزي : المواقف ، ج ١ ص ٣٠١

Mac Michael : Hist of the Arabs in the Sudan vol. p. 158,

(٢) الفيلسوف : صبح الأمل ج ٥ ص ٢٧٦ ج ٦ ص ٥٦ - ٥١٦ .

(3) Lane-Poole : A Hist of Egypt, p. 197.

السلطان الظاهر بيبرس والنوبة :

ثم كان أن قامت دولة المماليك في مصر ، وأخذ سلاطين المماليك - بعد أن استقرت لهم الأمور في الداخل - يهضمون القوى غير الإسلامية المحيطة بهم - من تتر وصليبيين - لحماية الوطن الإسلامي في الشرق الأدنى من ناحية والتحكم لأنفسهم من طريق الظهور في صورة حماة المسلمين من الأخطار التي تهددهم من ناحية أخرى . وإذا كان المماليك قد وجهوا جزءا كبيرا من طاقتهم لمحاربة الصليبيين ، فإنه كان من الصعب أن تمر موجة الحماسة الدينية التي عمت عصر الحروب الصليبية دون أن يلحق بملك النوبة بعضا من رذاذها وإذا كان الصليبيون في بلاد الشام مسيحيين فلهذه يهددون الكيان الإسلامي فإن النوبيين كانوا عندئذ أيضاً مسيحيين لا يقلون إخلاصاً لعقيدتهم وتأييداً للمسلمين في جنوب مصر عن الصليبيين في الشام .

ثم إن ملوك النوبة من جانبهم لم يراعوا حرمان الجزيرة ، واستمر وابين حين وآخر يستفرون بحكام مصر ياغاراتهم العدوانية . من ذلك ما نسمعه من أن داود ملك النوبة انتهز فرصة انشغال السلطان الظاهر بيبرس بهروبه في الشمال ضد التتار والصليبيين والأرمن ، وقام بحملة كبيرة على جنوب مصر سنة ١٢٧٢ ، فنهب أسوان وأسر منها جمعا كبيرا من المسلمين ، كما اعتدى على ميناء عيذاب ، وهدم موانئ مصر الكبرى على شاطئ البحر الأحمر في ذلك العصر (١) .

ويبدو أن مشاغل بيبرس في ذلك الوقت حالت بينه وبين إرسال حملة كبرى لتأديب ملك النوبة ، فاكتمى بإرسال تهريذة عسكرية سنة ١٢٧٢

(١) النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ص ١٠٩
ابن القرات : تاريخ الدول والملوك ج ٧ ص ٤٥ - ٤٦ .

مهمتها دفاعية أكثر منها هجومية وقد نهضت هذه الحملة الصغيرة في حماية حدود مصر الجنوبية من عدوان ملك النوبة ، وقبض المماليك على صاحب الجبل وفيره من النوبيين فأحضرهم أسرى إلى القاهرة .

ولم تلبث أن أتت فرصة طيبة لبيرس للانتقام من داود ملك النوبة عندما حضر إلى مصر شكندة ملك النوبة الأسبق الذي عزل ابن أخيه داود وحل محله في الحكم ، فجاء شكندة يطلب مساعدة السلطان بيرس في استرداد عرشه (١) . وكان أن أعد الظاهر بيرس حملة كبرى بقيادة الأمير بن شمس الدين أفسنقر الفارقاني وعر الدين الأفرم ، وصحبتهما شكندة الذي أمر بيرس بتسليمه ما يتم فتحه من بلاد النوبة وتضلع لنا تفاصيل أخبار تلك الحملة من مكاتبات الأمير شمس الدين أفسنقر للسلطان بيرس ، خلاصة المكاتبات عن أخبار تلك الحملة ، أن المماليك أغاروا على قاعة الدرح حيث قتلوا وسبوا كثير من الأعداء ، ثم تقدموا بعد ذلك إلى جزائري ميكايل عند شلال وادى حلفاء ، حتى اضطرب الملك داود إلى الفرار بنفسه بعد أن وقع معظم رجاله قتلى وأسرى ، ومن جملة الأسرى كان أخوه شنكو وأمه وأخته . وقد حاول صاحب الجبل قرد الدولة الهرب ولكن قبض عليه ، ثم أفرج عنه بعد أن تعهد بالدخول في طاعة الملك شكندة وكان أن أظهر قرد الدولة هذاهمة كبيرة بعد ذلك في معاونة الحملة المماليكية وإمدادها برجال كلما احتاج الأمر إلى ذلك ، وبعد أن أقام المماليك شكندة في الملك بدلا من داود وألبسوه التاج ، نظم القائد أن أسس العلاقة الجديدة بين دولة المماليك وملك النوبة على الوجه الآتي : —

١ — تعهد شكندة بإرسال البعثة السنوية المقتادة إلى سلطان المماليك في مصر

(١) الألفبندى : صبح الأعشى ج ٦ ص ٢٧٦

المريزي : السلوك ج ١ ص ٢٢٦

مضافا إليه بعض الهدايا من الفهود والفيلة والزراف: على أن يقوم سلطان الممالك بإرسال الغلال إلى ملكة النوبة .

- ٢ — يستولى شكندة على أموال الملك السابق داود ويرسلها إلى مصر .
- ٣ — تفرض دولة الممالك سيادتها على الجزء الشمالي من بلاد النوبة ، أي دبلاد العلى وبلاد الجبل ، ومعنى ذلك أن سيادة مصر امتدت لأول مرة بصورة فعلية على جزء كبير من بلاد النوبة يبلغ ربعها . أما ما بقي من ملكة النوبة فيصبح مناصفة بين سلطان الممالك وملك النوبة ، فتذهب نصف خيرات الإقليم إلى السلطان يبرس والنصف الآخر يبقى لملك النوبة ولعمارة البلاد^(١) .
- ٤ — خيرة ملك النوبة بين اختيار واحد من الأساليب الثلاثة التي عامل بها المسلمون المغلوب — وعلى الإسلام أو الجزية أو القتل — فاختار الجزية ، وتعمد بدفع دينار سنوياً عن كل فرد عاقل بالغ في ملكته ولذلك أنعم السلطان يبرس ديونا للنوبة يشرف عليه الصاحب بهاء الدين بن حنا الوزير ، للإشراف على جوية النوبة وخراجها .

ه — أخذ عشرون أميراً من أسراء النوبة ليكنوا رهاً تحت يد السلطان يبرس ، وكذلك أطلق سراح جميع أسرى المسلمين الذين أسرهم داود في إمارته السابقة على أسوان وعيناب .

وبعد كتابة جميع الشروط السابقة ، أقسم شكندة على احترامها . وذكر في قسمه ما نصه : ... أننى أخلاصت نيتى وطوقى من وفاق هذا وسأبقى هذه لمولانا السلطان الأعظم الملك الظاهر ركن الدنيا والدين يبرس خلد الله ملكه ، وأننى أبذل جهدى وطاقتى فى تحصيل مرضاته ، وأننى ما دمت نائبه لا أنقطع ما قرر على فى كل سنة تمضى ...^(٢)

(١) المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ٦٧٧

(٢) مقفل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ٢٣٦ — ٢٣٨ .

وعلى هذا الوجه استطاع يبيرس أن يبسط سيطرته على ملكة النوبة المسيحية في العصور الوسطى . ولا أدل على حرص يبيرس على ضمان إشرافه على النوبة من أنه في تخطيطه للبريد أنشأ طريقاً هاماً يبدأ من قوص ثم يتشعب شعبتين إحداهما إلى أسوان والنوبة والثانية إلى عيذاب (١) .

وأخيراً عادت حملة يبيرس من بلاد النوبة سنة ١٢٧٦ حيث احتفل السلطان يبيرس بقعودهما في القاهرة احتفالا كبيرا ؛ فخلع على الأميرين القائدين واستعرض الأسرى والغنائم الذهبية والفضية التي استولى عليها المرأة ؛ هذا فضلا عن الرقيق الذين بلغ من كثيرهم أن يبيع الواحد منهم بثلاثة دراهم . وقد اشترط السلطان في بيع الأسرى ألا يفرق بين المرأة وغلामها ولا يباع منهم شيء لغير المسلمين (٢) .

وقد اعترف جمهور المؤرخين بأن حملة يبيرس على النوبة حققت ما لم تحققه أية حملة أخرى على تلك البلاد منذ أيام الفتح العربي لمصر . من ذلك ما يقوله مفضل بن أبي الفضائل من أن ما قام به يبيرس من فتوحات في بلاد النوبة يعتبر دما يفوق به على كل ملك تقدمه (٣) . أما ابن الفرات فيقارن بين الغزوات التي قام بها حكام مصر في بلاد النوبة منذ أيام عمرو بن العاص وبين ما قام به الظاهر يبيرس فيقول : كل هذه غزوات وإنما الفتح الذي وقع في زمن الملك الظاهر (٤) .

على أن قصة النوبة في عهد يبيرس لم تقف عند ذلك الحد ، إذ لم يلبث أن وقع داود — ملك النوبة السابق الذي أغار على أسوان وحيذاب — أسيراً في قبضة بعض خصومه ، فأرسلوه إلى السلطان يبيرس الذي أمر بحبسهم مع أمه

(١) الألفندي : صبح الاعشى ج ١ ص ٣٧٤ .

(٢) ابن شاكر السكتي : عيون التواريخ ج ٢١ ق ١ ورقة ٥٢ (مخطوط) .

(٣) مفضل بن أبي الفضائل : كتاب النهج السديد ، ص ٢٣٦ .

(٤) تاريخ ابن الفرات ج ٧ ص ٤٥ .

وأخيه حتى مات في سجنه (١) .

والواقع إن بيرس لم يستطع أن يفسى ما حل ببلاده على أيدي النوبيين ، فظل يراقب أحوال النوبة عن كثب . ويبدو أنه لم يطمئن إلى شككده ، فهد إلى أحد الباطنية القداية — واسمه إسماعيل — بالتردد على النوبة سرأ ومراقبة شككده وأحواله ، خوفاً من أن يذدر بالهد ويفعل بأسوان وعيناب مثلما فعل داود . وكان لإسماعيل هذا زميل رافقه في بعض سفرياته إلى النوبة ، فأنقذ ذلك الزميل على شككده وقتلك به بغاء ذلك ختاماً لصفحة مثيرة في تاريخ العلاقات بين مصر والنوبة — على عهد الظاهر بيرس (٢) .

السلطان المنصور قهورة والنوبة :

ولم تقف علاقة سلاطين الممالك بالنوبة عند حد جهود بيرس ، وإنما استمر تدخل الممالك في شئون تلك البلاد لرغبة سلاطين مصر في تأمين أطراف دولتهم الجنوبية ، بعد أن قاست الكثير من لغارات النوبيين واعتداءاتهم على الأهالي الأمنين . هذا فضلاً عن أن اهتمام الممالك بأمر النوبة كان جزءاً من سياستهم التجارية في البحر الأحمر . وساعد على ازدياد تدخل الممالك في شئون ملكة النوبة — تدهور أحوال تلك المملكة المسيحية تدهوراً سريعاً بسبب ظهور بعض الدول الإسلامية في غرب السودان مثل الحكام والبرنو ، وهي الدول التي بدأت تربطها بدولة الممالك في مصر علاقات طيبة ، مما جعل النوبة المسيحية تصبح شبه محصورة وسط نطاق من الدول الإسلامية المتفاهمة (٣) .

(١) مفضل بن أبي الفضائل : النهج السديد ص ٢٣٦ .

(٢) سعيد عاشور : الظاهر بيرس ص ١٢٤ .

(٣) سعيد عاشور : مصر في عصر دولة الممالك البحرية ص ٨٢ . ٨٣ .

وكان السلطان المنصور قلاوون الذى اعتلى عرش سلطنة المماليك سنة ١٣٧٩
 حريصاً على اقتناء أثر سياسة بيبرس الخارجية ، سواء فى دفع خطر التتار
 أو قطع دابر الصليبيين أو تثبيت سيادة السلطنة المماليكية على النوبة (١) .
 ولا يخفى علينا أن شكندة عقد الاتفاقية السابقة مع المماليك كارهاً تحت
 ضغط المماليك العسكري من ناحية ولشعوره بأنه يدين فى استرداد عرشه
 للسلطان الظاهر بيبرس من ناحية أخرى . ولذلك ظل خلفاء شكندة من
 ملوك النوبة ينتهزون الفرص لنقض شروط تلك الاتفاقية والخروج عن طاعة
 سلطنة المماليك فى مصر . ولكن خلفاء بيبرس من ناحية أخرى ظلوا
 بالمرصاد لكل محاولة قام بها النوبيون للتخلص من سيطرة المماليك . من ذلك
 أن الملك برك — خليفة شكندة — قام بمحاولة من هذا النوع ولكن
 الأمير علم الدين سنجر المسروى والى القاهرة أحبط تلك المحاولة ، وانتهى
 الأمر بقتل برك (٢) .

وقد خلف برك فى حكم النوبة الملك سمامون الذى وصفته المراجع بأنه
 كان ذا دهاء ومكر وبأس ، فسعى للتخلص من قيود الاتفاقية التى عقدها
 شكندة مع سلطنة المماليك ، وأهم هذه الشروط مداومة إرسال البقطة إلى مصر .
 وصادف فى ذلك الوقت أن دب النزاع بين سمامون ملك دنقلة والنوبة ،
 وآدور ملك ملكة الأبواب المجاورة ، فأرسل آدور سفراءه إلى السلطان المنصور
 قلاوون سنة ١٢٨٧ حاملين إليه هدايا من جملتها ذرافة وفيل . وقد أكد
 آدور فى رسالته ولاده وخضوعه التام للسلطان ، وشكا إليه سوء المعاملة التى
 يلقاها من سمامون ملك دنقلة والنوبة (٣) . ولما علم سمامون أن ملك الأبواب أرسل

Wiet : L'Egypte Arabe. p. 435

(١)

(٢) محبى الدين بن عبد الظاهر : تشرىف الايام والعصور فى سيرة الملك المنصور

ص ١٥٤ .

(٣) مصطفى محمد مسعد : الإسلام والنوبة فى العصور الوسطى ص ١٥٣ .

سفارة إلى مصر، بادر هو الآخر بإرسال سفارة من قبله لتشرح وجهة نظره للسلطان المنصور قلاوون وتوضح له ظروف النزاع بينه وبين ملك الأيواب، ووصلت سفارته بعد وصول سفارة آدور بقليل. ويقال إن سفارة سمامون حملت معها إلى السلطان قلاوون هدية ضخمة مقدارها مائة وتسعون رأساً من الرقيق ومائتا بقرة^(١).

وقد رأى السلطان بعد أن استمع إلى جميع كل من الطرفين المتنازعين أن يرسل مبعوثاً إلى كل من الدولتين ليدرس أسباب النزاع على الطبيعة، واختار الأمير علم الدين سنجر المعظمي مبعوثاً إلى ملك الأيواب والأمير علم الدين الحصني رسولا إلى ملك دنقلة بالنوبة. وكان أن سلك الرسول الأول طريق قوص وعيذاب والبحر الأحمر، مخافة أن يقع في قبضة سمامون فيعذبه. وفعلا استطاع الأمير سنجر المعظمي أن يتم مهمته بنجاح، ولكنه في طريق عودته إلى مصر ألقي سمامون القبض عليه وفكر في قتله لولا أن حذره بعض رجاله فاقبضه ذلك، وقالوا له: تريد أن تخرب ديارنا وأعمارنا؛ وعندئذ أطلق سراحه^(٢). أما الأمير علم الدين الحصني الذي قصد ملك دنقلة فلا توجد في المراجع إشارة عن عودته؛ وإن كان يبدو أنه هادئاً سلماً وأنه أقنع السلطان الظاهر بأن سمامون هو المعتدي.

ومهما يكن من أمر، فقد قرر السلطان قلاوون غزو النوبة وأعد لذلك حملة سنة ١٢٨٧ ويضمهم من أخبار تلك الحملة في المراجع أن السلطان قلاوون اهتم بإعدادها اهتماماً كبيراً وحشد لها قوة ضخمة على رأسها الأمير سنجر المسروري المعروف بالحياط متولى القاهرة، والأمير عز الدين السكوراني كذلك كتب السلطان

(١) Quatreware. Memoire sur l'Egpte, Tome 2, pp 109-112

(٢) محيي الدين عبد الظاهر: تعريف الأيام والمصور من ١٤٤٠.

قلاون إلى الأمير عز الدين أيدمر السيفي متولى قوص بأن يشارك في تلك الحملة بكل ما يستطيع من ممالك وأجناد وعربان (١).

وعندما وصلت الحملة المماليكية إلى أطراف النوبة الشمالية انقسمت إلى قسمين ، قسم بقيادة الأمير سنجر الخياط زحف على امتداد الشاطئ الغربي لنهر النيل ، والقسم الثاني بقيادة الأمير عز الدين أيدمر سار بجنداء الشاطئ الشرقي للنيل . وكان معظم القتال من نصيب أيدمر ، حيث أن المدن الهامة في مملكة النوبة — ومنها العاصمة دنقلة ذاتها — تقع على الضفة الشرقية للنيل . على أن سمامون — وهو الرجل الذي انصف بالدهاء وسعة الحيلة كما سبق أن ذكرنا — وضع خطة مكيدة استهدفت استدراج المماليك إلى داخلية البلاد ، وعدم الاشتباك معهم في معركة فاصلة إلا عند العاصمة دنقلة حيث يكون المماليك قد أدرهم الكل والتعب من طول الطريق ومشقته . لذلك كتب سمامون إلى جريس صاحب الجبل يأمره بعدم الاشتباك مع الجيوش الغازية وإخلاء البلاد في وجهها ، «فكانوا يرحلون والعسكر (المماليك) وراءهم منزلة بمنزلة» (٢).

وعند دنقلة دارت الواقعة بين المماليك وسمامون ، وكانت معركة عنيفة ذهب ضحيتها عدد كبير من النوبيين والمسلمين سواء (٣). أما سمامون فقد فر جنوباً ، وعندئذ تبعه الأمير أيدمر حتى ابتعد عن دنقلة مسارب خمسة عشر يوماً ، ولكنه لم يستطع أن يظفر بملك النوبة ، وإن كان قد ظفر بأبن خالة سمامون وجريس صاحب الجبل (٤) . ولما فشل أيدمر في القبض على سمامون عاد إلى دنقلة ، حيث تم تعيين ابن أخت سمامون ملكاً على مملكة النوبة ، كما أفرج عن جريس

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٧٣٦ — ٧٣٧ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٧٣٧ .

(٣) Quatremere : Mémoires. p. 113.

(٤) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٧٣٧ .

وأعيد إلى منصبه بولاية الجبل ، وأقيمت إلى جانبها حامية عسكرية^(١). كذلك تعهد ملك النوبة الجديد بدفع البقعة القديم وكافة الالتزامات الأخرى التي تعهد بها شكندة . وكان اليمين الذي أقسمه ملك النوبة الجديد — والذي أورده الفلقشندي — مطابقاً إلى حد كبير لليمين الذي سبق أن أقسمه شكندة من قبل (٢) .

وفي سنة ١٢٨٨ وردت إلى السلطان المنصور قلاوون كتب الأمير علم الدين مننجر الخياط ، تبشره بما قام به من فتح البلاد ، وما انعقد له من نصر ؛ فتنازع السلطان على الرسول وأعادته إلى النوبة بكتاب إلى الأمير مننجر الخياط يطلب منه العودة إلى مصر على أن يترك الأمير أيدير بدفلة مع حامية ليكون أميراً مقيماً من قبل السلطان إلى جانب ملك النوبة الجديد . ثم جهز السلطان مع البردية سعد الدين سعد — ابن أخت الملك داود الذي أسراً بمرس والذي يبدو من اسمه الجديد أنه اعتنق الإسلام — ليعاون أيدير في حكم النوبة بحكم خبرته بأحوال البلاد . على أنه لم يقدر لسعد الدين أن يصل إلى النوبة عندئذ بسبب تطور الأمور تطوراً سريعاً — كما سيلى فيما بعد — الأمر الذي جعل سعد الدين يستقر في قوص (٣) .

ولم يلبث أن وصل الأمير علم الدين مننجر المسرورى إلى القاهرة ، ومعه « ملوك النوبة ونساؤهم وبناتهم وعدة أسرى كثيرة » ، فقصر السلطان الأسرى ونهادهم الناس « وبيعوا بالثمن اليسير لكثرتهم » (٤) .

غير أن قلاوون يكدهمناً بذلك النصر حتى جاءت الأخبار بأن سمامون

(١) محبى الدين بن عبد الظاهر : تشرىف الأيام والمعصوم ١٥٤ .

(٢) الفلقشندي : صبح الأعشى ج ١٣ ص ٢٩٠ — ٢٩١ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٧٤٣ .

(٤) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٧٤٣ .

ظهر مرة أخرى ساعياً لاسترداد مملكته ، وأنه فصح في إنزال الهزيمة بالحامية المماليكية وسيطر على دنقلة ، في حين فر ملك النوبة الجديد - بمدمه - وجريس صاحب الجبل إلى القاهرة . وقد غضب السلطان المنصور قلاوون لهذه الأخبار وأمر فوراً بإعداد حملة كبيرة لتأديب سهاون (١) .

وفي تلك المرة أراد قلاوون أن تكون سيطرته على النوبة نهائية فعنى بإعداد الحملة إعداداً فائقاً ، فامتازت عن سابقتها بوفرة عدد السفن - من حرايق وغيرها - ، كما امتازت بوفرة عدد الأمراء المشتركين فيها ، إلى جانب الأمير عز الدين أيك الأفرم الذى عقدت له القيادة العليا ، ذهب مع الجيش الأمير قبجاق المنصورى والأمير بسكتمر الجوكندار والأمير أيدير والى قوص ، فضلاً عن ملك النوبة الطريد وجريس صاحب الجبل (٢) .

وفي سنة ١٢٨٩ غادرت تلك الحملة - التى زاد عدد أفرادها عن أربعين ألفاً - القاهرة . فانضم إليها بالوجه القبلى كثير من أجناد الأمراء فضلاً عن العربان . ولكن لم تسلك الحملة تصل إلى نهر أسوان حتى توفي ملك النوبة فدفن هناك ، وأرسل الأمير الأفرم إلى السلطان يعلمه بذلك ويستشيريه فيما يفعله ، فأرسل السلطان إليه ابن أخت آخر للملك داود - كان معتقلاً بقلعة الجبل - لتعيينه ملسكا فى دنقلة (٣) .

ويروى المقرئى أن تلك الحملة الجديدة التى أرسلها السلطان قلاوون إلى النوبة اتبعت نفس الخطة التى اتبعتها الحملة السابقة ، فانقسمت إلى نصفين : نصف سار على البر الغربى لليل وعلى رأسه الأمير عز الدين الأفرم والأمير قبجاق ، والنصف الآخر سار بحذاء البر الشرقى تحت قيادة أيدير والى قوص

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٧٤٣ .

(٢) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٨ ص ٨٢ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٧٤٩ .

وبسكتهم . أما جريس الذى لقبه المقر يزي بلقب « نائب ملك النوبة » فقد تقدم الجند معه أولا كنز « ليقوم أهل البلاد ويجهز الإقامات » (١) . ويبدو أن حملة المماليك لم تصادف مقاومة في ذلك الجزء الشمالى من بلاد النوبة — أى من بلد الدالى — جزائريكا نيل — لأن هذا الجزء كان ولاية جريس « فكان المسكر إذا قدم إلى بلد خرج إليه المشايخ والأعيان وقبلوا الأرض وأخذوا الأمان وهادوا » . ومن جهة أخرى فإن المماليك احترموا أرواح الأهالى وممتلكاتهم في تلك الجهات ، رهاية لجريس .

على أن سياسة المماليك لم تلبث أن تبدلت عندما دخلوا نطاق نفوذ ملك النوبة ، إذ وجدوا الأهالى قد جلوا عن البلاد « طاعة لمتملك النوبة » ، فأخذ المماليك يتهبون ويقتلون من يصادفونه من الناس « فرعوا الزروع وخرّبوا السواقي » (٢) . ويفهم من ذلك أن سمامون هاد إلى خطته القديمة فجلا عن البلاد وتحاشى أن يصطدم مع المماليك في معركة فاصلة . وعندما وصل المماليك إلى دنقلة — عاصمة مملكة النوبة — وجدوا المدينة خالية ، إلا من شيخ واحد وعجوز ، أخبرا المماليك أن سمامون فر إلى جزيرة في النيل تبعد عن دنقلة خمسة عشر يوما (٣) .

وكان أن اتجه أيدمر وإلى قوص بمن معه من جنده إلى تلك الجزيرة لمطاردة سمامون ، حتى وصلوا إلى تجارهم فطلبوا منه الدخول في الطاعة وأمنوه فلم يقبل . ويبدو أن سمامون خشى أن تحاصره سفن المماليك في تلك الجزيرة ، فهرب منها جنوباً إلى جهة الأبواب هلى بعد ثلاثة أيام ، وعندئذ فارقه معظم جنده وأمراته فهزلا عن الأسقف والقساوسة ومعهم الصليب الفضى الذى يحمل على رأس الملك

(١) المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٢) المقر يزي : السالك ، ج ١ ص ٧٥٠ .

(٣) المرجع السابق ص ٧٥٠ .

وتاج الملك^(١) ، وقد استسلم هؤلاء جميعا لأيدمر ، نخلع عليهم وعاد بهم إلى دنقلة ، وهناك في دنقلة توج المماليك الملك الجديد — الذى كان قلاون قد أرسله لهم — ملكا على النوبة ، بعد أن تعهد بالولاء لسلطان المماليك والوفاء بالالتزامات التى تعهد بها شكندة من قبل ، وبعد أن أحيا المماليك في دنقلة انتصارهم بأن أدوا ألعاب الفروسية وزيّنوا الحراريق والسفن فى النيل حيث لعب الزرقون بالنفط ، قفلوا راجعين إلى مصر ، واكتفوا بترك حامية صغيرة فى دنقلة لمساندة الملك الجديد^(٢).

أما سمامون ، فإنه لم يكده يعلم بعودة المماليك ، حتى خرج من جحره مرة أخرى ، وعاد إلى دنقلة ليطرده الأمير بيبرس العزى قائد الحامية المماليكية ، فى حين قبض على الملك الذى عينه المماليك وعراه من ثيابه وألبسه جلد ثور ... وتركه حتى مات ، كما قتل جريس^(٣).

وكان سمامون يعرف أن سلطنة المماليك فى مصر لن تسكت عن ذلك الوضع ، وإن تغفر له عمله ؛ فأرسل رسالة إلى السلطان المنصور قلاون يسأله العفو ، وأنه يقوم بالبقاء المقرر وزيادة ، وبموت رقيقا وغيره تقدمه. ويبدو أن المنصور قلاون كان فى ذلك الوقت قد ملّ حرب النوبة واستنفدت مشاكله الداخلية وحروبه ضد التتار والصليبيين كثيرا من جهوده ، فرضى بما عرضه سمامون وقبل تعهده ، وأقره على ما يده من بلاد^(٤) ، وذلك بعد أن حلفه على يمين مشابه لليمين التى حلف عليها شكندة^(٥). وقد ذكر النويرى

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٩ ورقة ٢٧٤ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٧٥٢ .

(٣) المرجع السابق ص ٧٥٣ .

(٤) ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ص ٤٠٠ .

(٥) القلقشندي : ج ١٣ ص ٢٩٠ — ٢٩١ .

أن السبب الذى دفع قلاون إلى قبول سياسة الأمر الواقع فى النوبة . وإقرار
سماون على وضعه ، هو أن المنصور قلاون كان فى ذلك الوقت يتأهب
للاستيلاء على عكا بعد أن استولى على طرابلس ، ولذلك لم يكن لدى السلطان
متسع من الوقت أو الجهد لإرسال حملة جديدة إلى النوبة (١).

وخلاصة القول أن السلطان قلاون — مثل الظاهر بيبرس — اعتبر
النوبة جزءاً من مملكته الواسع ، ودليل ذلك أن كتاب ولاية العهد الذى
كتب للملك الصالح علاء الدين ابن المنصور قلاون نص على سائر أقاليم
الدولة ، « ومن جملتها مملكة النوبة وما احتوت عليه » (٢).

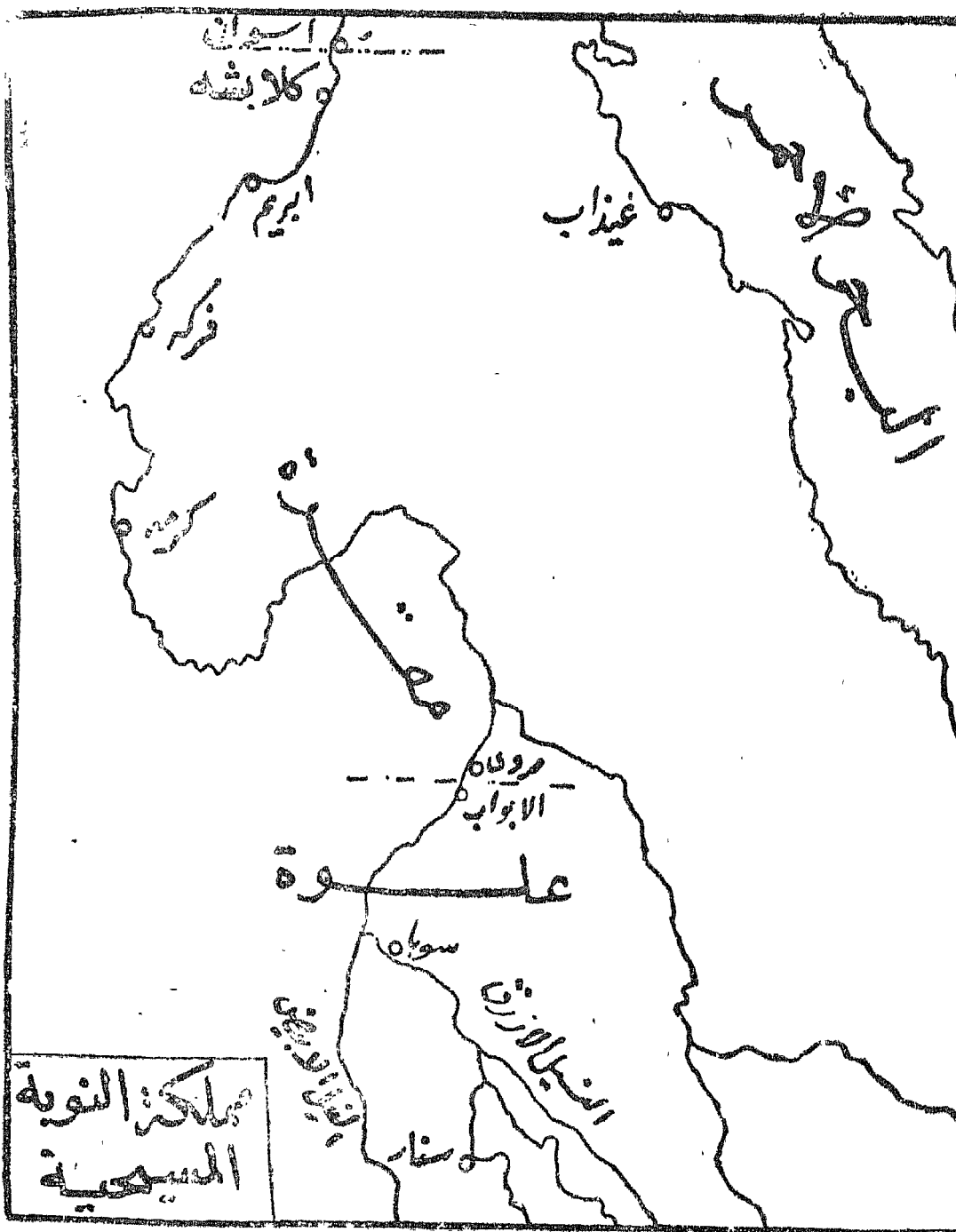
السلطان الأشرف خليل والنوبة :

على أن سماون لم يقف بالعهد الذى قطعه على نفسه إذ لم يكف يعلم بوفاة
السلطان المنصور قلاون حتى قطع البقط المستحق عن سنة ١٢٩١ ، وبعث
إلى السلطان الأشرف خليل يعتذراً بما أصاب بلاده من التخريب نتيجة « دخول
العساكر الإسلامية إليها كرهة بعد كرهة » ، وبأن إغارات الملك آدر صاحب
الأبواب قد زادت البلاد خراباً إلى خرابها (٣). لكن السلطان خليل
لم يقبل تلك الأعذار ، فأرسل الرسل إلى سماون مهددة منذرة ، حتى سأل
الأمان وعندئذ أجابه السلطان خليل بن قلاون إلى طلبه ، كما شمل أم سماون
وعنته وبعض أهله بمعطفه بوصفهم رهباناً وأنزلهم فى دور الضيافة بالقاهرة
وبعد ذلك بقليل أرسل سماون أخاه جريس — وهو غير جريس الذى
سبقته الإشارة إليه — برسالة إلى السلطان خليل يستعطفه لإرسال أمه إليه.

(١) الزبيرى : نهاية الأرب ج ٢٩ ورقة ٢٧٤ .

(٢) اللقهندي : سبج الأعشى ج ١٠ ص ١٧٥ .

(٣) ابن عبد الظاهر : الألطاف الخفية ص ٢٩ — ٣١ .



البحر
غنداب

ابريم

فكر

سور

روية
الابواب

علاوة

سواه

المنبيل الأزرق

منار

الملك النوبة
المسيحية

وقد ذكر سمامون في رسالته « إن ملوك النوبة ما يدبرهم غير النساء » إشارة إلى مكانة المرأة عند أهل النوبة ، كما أرسل بعض الهدايا إلى السلطان^(١). ويظهر أن المداء كان مستحقا في ذلك الوقت بين ملك دنقلة وصاحب الأبواب ، لأن سمامون أفرط في الشكوى من صاحب الأبواب ، وزعم أنه اعتدى على الهدية التي أرسلها للسلطان ، كما طلب من السلطان خليل ألا يفسح صدره لأي رسول يرسله ملك الأبواب^(٢).

ومهما يكن من أمر ، فإن السلطان خليل لم يندفع بكلام سمامون المعسول ، بل ضاق ذرعا بمأطلمته ، وقرر استخدام القوة لردعه ، وكان أن أنفذ السلطان الأشرف خليل بن قلاوون حملة كبرى إلى بلاد النوبة للقبض على سمامون من ناحية وأمير آخر اسمه آني من ناحية أخرى . وقد ذكر محي الدين بن عبد الظاهر أخبار هذه الحملة في اقتضاب : فقال إن الأمير الأفرم أوغل في مملكة النوبة مسيرة ثلاثة وثلاثين يوما جنوبا ونقله في مطاردة الملك آني الذي فر ومعه سبعة أنفار إلى جهة الأنج^(٣). ولسكن المماليك لم يستطيعوا الاستمرار في مطاردة آني بسبب « شدة العطش ، ولأن البلاد التي وصلوا إليها خراب ، مأوى الفيلة والقرود والخنازير والزرافات والنعام » مما يشير إلى أن المماليك وصلوا إلى جنوب السودان . وقد اكتفى المماليك بتأديب تلك الجهات « ورجعوا بغنيمة » إلى دنقلة^(٤). أما سمامون فلا تذكر عنه المراجع شيء ، ويغلب على الظن أنه هلك أثناء مطاردة المماليك له .

وفي تلك الأثناء وصلت تعليقات من السلطان الأشرف خليل بالقاهرة

(١) المرجع السابق ص ٣٩ — ٤٠

مصطفى مسعد : الإسلام والنوبة ص ١٦٠ .

(٢) ابن عبد الظاهر : الألفاظ الخفية ، ص ٣١ .

(٣) محي الدين بن عبد الظاهر : تشریف الأيام والعصور ص ١٥٣ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١٥٣ .

إلى الأمير الأفرم بأن يعين أميراً نوبياً اسمه بدمه ملكاً على دنقلة ، وفي الحال جمع الأمير عز الدين الأفرم مقدمى الممالك وأكابر إمارة النوبة ، واحتفل بتتويج بدمه ، وحلف الرعية بيمين الولاء له ، ولكن ذلك اليقين جاء مشروطاً بطاعته لسلطان الممالك « ولولا مولانا السلطان ما أطعناك ومتى تغيرت أمسكتك ؛ ونحن نرضى أن يقيم مولانا السلطان لنا ملكاً فلاحاً أو جبلياً ، فإن بلاد النوبة ما لها ملك إلا مولانا السلطان ونحن رعيته » (١) . وبعد ذلك حلف الممالك جريس — الذى كان نائباً للملك النوبة فى جزائر ميكائيل وعمل الدر — وبذلك تهد كل من بدمه وجريس بطاعة سلطان الممالك « وأن أى من خرج عن الطاعة كان الآخر عوناً عليه لمولانا السلطان » .

وبعد ذلك شرع الأمير عز الدين الأفرم فى العودة بمن معه من جنود إلى القاهرة ، وبعد رحيله بخمسة أيام وصل كتاب من بدمه ملك دنقلة يفيد أن أهل المملكة عادوا إلى بلادهم وأنهم أخذوا فى عمارتها . كذلك وصل كتاب آخر من ملك الأبواب فى الجنوب يعتذر عن تأخره فى الحضور بنفسه والمثول بين يدي الأمير الأفرم لأنه كان مشغولاً بمطاردة آفى ؛ وأنه يسعى للسيطرة على بلاد الأنج ، فإذا تم له ذلك « صار جميع بلاد السودان فى قبضة مولانا السلطان وطاعته » (٢) .

وهكذا حققت حملة السلطان الأشرف خليل على النوبة نجاحاً كبيراً ، لأنها وصلت إلى أمكنة ما وصلها جيش قط . وكان الأمير عز الدين الأفرم وهو فى طريقه إلى القاهرة قد طلب ثلثمائة جمل لركوب الأسرى ، فأرسلت إليه ، فدخل القاهرة وصحبته عساكره « متجهلة فى أحسن دى » ؛ ومعه أحمال عديدة من غلات النوبة (٣) .

(١) محبى الدين بن عبد الظاهر : تشرىف الايام والمصور ص ١٥٣ .

(٢) محبى الدين بن عبد الظاهر : تشرىف الايام ص ١٥٤ — ١٥٥ .

(٣) محبى الدين بن عبد الظاهر : تشرىف الايام ص ١٥٥ .

السلطان الناصر محمد والنوبة:

ويبدو أن الحملات التي أرسلها سلاطين المماليك في مصر إلى النوبة منذ عهد السلطان الظاهر بيبرس أفلحت في جعل ملوك النوبة يعملون حساباً لسلطنة المماليك في القاهرة ويخشون بأسهم وسطوتهم. وهكذا ظل ملوك دنقلة يمدون عن ولائهم بين حين وآخر لسلاطين المماليك، ويحتكون لإيهم فيما ينشب بينهم وبين بعض من خلاف. من ذلك أن الملك أُمَاي ملك النوبة أتى بنفسه إلى القاهرة سنة ١٣٠٤ يحمل الهدايا للسلطان الناصر محمد بن قلاوون ويطلب معونته ضد منافسيه وأعدائه. وقد استجاب الناصر محمد لنداء ملك النوبة، فأرسل معه تجريدة بقيادة والي قوص الأمير سيف الدين طقصبا، وبعد أن أنمت هذه الحملة مهمتها في مساعدة ملك النوبة عادت إلى مصر سنة ١٣٠٥^(١).

على أنه يبدو أن الأمور لم تستقر تماماً لأمَاي ملك النوبة، بدليل أن أخاه كرنبس قتله سنة ١٣١١ ليحل محله في عرش دنقلة، وقد أحس الملك الجديد بحاجته إلى تأييد سلطنة المماليك، فأتى إلى القاهرة معلناً ولاءه للسلطان الناصر محمد حاملاً الجزية والضرائب المفروضة على بلاده^(٢).

ولكن كرنبس سرعان ما تنكر لسلطنة المماليك بمجرد استقرار الأمور بالنسبة له، وامتنع سنة ١٣١٦ عن إرسال البقعة إلى مصر. وكان أن أعد السلطان الناصر محمد حملة كبرى لتأديب كرنبس ووضع حد للمشكلة النوبية^(٣) وحشد لهذه الحملة عدداً كبيراً من الأمراء بقيادة الأمير عز الدين أيبك جهاركس عبد الملك^(٤). واصططحت هذه الحملة معها أحد النوبيين - هو سيف الدين عبد الله

(١) المقرئى : السالك ج ٢ ص ٢٩ .

(٢) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ١ ص ٤٢١ .

(٣) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٥ ص ٢٢٧ .

(٤) المقرئى : السالك ج ٢ ص ١٦١ .

برشبو ابن أخت داود ملك النوبة الأسبق - لتتويجه ملكاً على النوبة بدلا من كرنيس وكان برشبو قد أسر في إحدى الحملات السابقة التي أرسلها سلاطين الممالك إلى النوبة وتربى نشأ في الطباق السلطانية ضمن جملة عماليك السلطان واعتنق الإسلام^(١). والواقع إن تفكير سلاطين الممالك في تعيين بعض أبناء النوبة - الذين عاشوا وشبوا في مصر ونشروا كثيراً من مظاهر الحضارة المالكية الإسلامية - ملوكاً على مملكة دنقلة ، ليدل على اتجاه جديد جدير بالتأمل والعناية. وترجع أهمية هذا الاتجاه في التاريخ إلى أن اختيار حامكم مسلم للنوبة كان كفيلاً بسرعة تحويل تلك البلاد إلى الإسلام ، وبالتالي إلى زيادة نفوذ العنصر العربي فيها ؛ وكل هذه أدت في نهاية الأمر إلى إسقاط مملكة النوبة المسيحية^(٢) . ذلك أن بنى كنز - وهم من عرب ربيعة الذين تطرقوا إلى بلاد النوبة في العصور الوسطى - أخذوا يتطلعون في ظل الاتجاه الجديد إلى ملك النوبة لأنهم مسلمون فضلاً عن أنهم تزوجوا من بنات البيت المالكي في النوبة ، حتى أن الملك كرنيس كان خال كنز الدولة أمير بنى كنز . ولما كان العرف عند ملوك النوبة قد جرى بتوريث أبناء الأخت ، فإن الملك كرنيس عندما علم برغبة السلطان الناصر محمد بن قلاوون بتعيين ملك مسلم في عرش دنقلة فإنه أرسل ابن أخته كنز الدولة بن شجاع الدين ... إلى الأبواب السلطانية وسأل شموله بالإععام السلطاني في توليته الملك . وقد جاء في رسالة كرنيس إلى السلطان الناصر محمد ما نصه : « إذا كان يقصده ولا السلطان بأن يولى البلاد مسلم ، فهذا مسلم ، وهو ابن أختي . والملك ينتقل إليه من بعدى »^(٣) .

ولكن السلطان الناصر محمد لم يستجب لملك الرغبة ، ومضت حملته بقيادة

(١) النويرى : نهاية الأرب ، ج ٣٠ ورقة ٩٥ .

اللقمى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٧٧ .

(٢) مصطفى مسعد : الإسلام والنوبة ص ١٦٥ - ١٦٦ .

(٣) النويرى : نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ٩٥ - ٩٦ .

الأمير عز الدين أيوب وصحبتهما عبد الله برشبو إلى النوبة . وقد فر كرئيس إلى الجنوب من وجه جيوش المماليك ، ولكن ملك الأيوبيين قبض عليه وعلى أخيه أبرام وسلمهما لقائد الحملة المماليكية ، الذي هاد بهما إلى مصر سنة ١٣١٧ بعد أن تم تتويج عبد الله برشبو أول ملك مسلم على مملكة النوبة^(١).

أما كنز الدولة ، فقد اتخذ من وصول ملك النوبة وأخيه إلى القاهرة سبباً للمطالبة بالإفراج عنه ، فأذن له السلطان الناصر محمد بالسفر إلى أسوان ، ولكن ملك النوبة استهواه ، فواصل كنز الدولة سفره حتى دنقلة . وهناك رحب به الناس وحيوه كعادتهم في تهيئة الملوك بلفظ « مو شاى ! ... مو شاى »^(٢) وفي ذلك الوقت كان اسقياء الأهالي في النوبة من ملوكهم الجديد الذي عينه السلطان الناصر محمد . وهو عبد الله برشبو . قد بلغ أشده لأنه « غير قواعد البلاد وتعا على نوعا من الكبر لم تجر عليه عادة ملك النوبة بمنزله » ، وهامل أهل البلاد بغلظة وشدة^(٣) . وهكذا استطاع كنز الدولة أن ينزل الهزيمة بالملك برشبو وأن يقتله ؛ وجلس كنز الدولة على عرش دنقلة . وقد ذكر النويرى أن كنز الدولة رفض أن يضع تاج الملك على رأسه « رعاية لحق أخواله وتعظيما لهم وحفظاً لحرمتهم »^(٤) ولكن يبدو أن السبب الرئيسى الذى جعل كنز الدولة يرفض وضع التاج على رأسه هو أن ذلك التاج كان يحمل علامة الصليب ، وهو أمر لا يتفق وديانة كنز الدولة الإسلامية^(٥) .

وقد وجد السلطان الناصر محمد بن قلاوون في مصر أن ما فعله كنز الدولة

(١) النويرى: نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ٩٦ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق .

(٤) النويرى: نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ٩٦ .

(٥) مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة ، ص ١٦٩ .

يعتبر تحدياً لمفوضية السلطنة المالكية وإخلالاً بهيبتها ومكانتها . لذلك رفض السلطان الناصر الاعتراف بكنز الدولة وأطلق سراح أبرام أخى كرئيس وأرسل إلى النوبة ليقبض على ابن أخته كنز الدولة . ولم يكذب أبرام يصل إلى النوبة حتى دخل كنز الدولة في طاعته وتنازل له عن الملك غير أن أبرام غدر بابن أخته وقبض عليه ليرسله إلى القاهرة ، لولا وفاة أبرام المفاجئة التي أوقفت ذلك الإجراء (١) .

وهكذا تكررت القصة مرة أخرى ، إذ مات أبرام ليعتلى كنز الدولة عرش النوبة من جديد سنة ١٣١٧ ، أما السلطان الناصر محمد فلم يقف مكتوف اليدين أمام تحدى كنز الدولة له ولرجاله ، وإنما بادر بإرسال حملة إلى النوبة سنة ١٣٢٣ بقيادة الأمير علاء الدين بن على قراسنقر . وقد أرسل الناصر محمد بحجة تلك الحملة كرئيس ليعتلى عرش النوبة ، لا سيما أنه ورد في المراجع أن كرئيس اعتنق الإسلام عقب هجيمته إلى مصر (٢) بدلا من كنز الدولة . وكان أن نهضت تلك الحملة في تحقيق أغراضها فهرب كنز الدولة من دنقلة واعتلى كرئيس العرش ، ولكن لم تنكس الحملة المتسحبة من النوبة حائدة إلى مصر ، حتى ظهر كنز الدولة من جديد واسترد عرشه (٣) .

العلاقة بين دولة المماليك والنوبة في أواخر المصور الوسطى :

كانت حملة السلطان الناصر محمد على بلاد النوبة سنة ١٣٢٣ آخر حملة نسمع عنها في التاريخ أرسلها سلاطين المماليك لإخضاع النوبة . والواقع إن السبب

(١) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ١١٦ ،

النويرى : نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ٩٦ .

(٢) اللسانى : صبح الأعيان ج ٥ ص ٢٧٧ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٢٥٠ .

في ذلك واضح ، هو أن سلاطين المماليك دأبوا منذ أيام بيبرس على إرسال حملات إلى النوبة للدفاع عن حدود مصر الجنوبية من جانب النوبيين . وكان لسلاطين المماليك سند قوي في تلك الحملات لأن ملك النوبة كانت مسيحية ، حكمها ملوك مسيحيون ، الأمر الذي جعل سلاطين المماليك ينظرون إلى بلاد النوبة بوصفها ميدانا جديدا للجهاد إلى جانب الميدان الصليبي القديم في حوض البحر المتوسط .

ولكن الأمر انتهى في عصر الناصر محمد بن قلاوون بقيام كنز الدولة في حكم دنقلة ، ولم يكن كنز الدولة مسيحياً وإنما كان مسلماً انحدر من أصل عربي صريح . ثم إن الأمر لم يقف عند حد أن بلاد النوبة صار يحكمها ملك مسلم ، وإنما تعدى ذلك إلى أن تلك البلاد أخذت عندئذ - منذ أوائل القرن الرابع عشر - تصطبغ بالصبغة العربية الواضحة نتيجة لهجرة بعض القبائل العربية - عدائي كنز - إلى النوبة واستقرارهم فيها (١) . وهكذا لم يعد هناك مبرر واضح لأن يقوم سلاطين المماليك بالتدخل في شئون دولة مجاورة ذات صبغة عربية ويحكمها ملوك مسلمون ، لاسيما إذا كانت هذه الدولة في عهد لها الجديد قد جندحت إلى السلم ولم تعد مصدر خطر على حدود مصر الجنوبية . وإذا كان سلاطين المماليك قد تمسكوا فيما مضى بضرورة قيام ملوك النوبة بإرسال البقعة ، فإن هذه الضرورية صار لا مبرر لها أيضا بعد أن غلب الطابع العربي الإسلامي على بلاد النوبة . ونستدل على هذا المعنى من عبارة ذكرها القلقشندي نصها « فبعث السلطان كرنبس إليهم فليسكنهم ، وانقطعت الجزية عنهم من حين أسلم ملوكهم » (٢) .

(١) حسن أحمد محمود : الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا من ٣٢٤ - ٣٢٦ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ من ٣٧٧ .

وكيفما كان الأمر ، فإن مملكة النوبة المسيحية سقطت في النصف الأول من القرن الرابع عشر ، وقامت على أنقاضها وحدات عديدة صغيرة ذات صبغة إسلامية عربية ، ومنذ ذلك الوقت حتى سقوط سلطنة المماليك سنة ١٥١٧ صارت العلاقة بين مصر والنوبة لا تتمدى بهن المبادلات التجارية المحدودة .

الفصل الخامس

بيت قلاون

أشرنا من قبل إلى أن المماليك لم يؤمنوا مطلقاً بمبدأ الوراثة في الملك ؛ فالأمراء جميعاً سواء والملك للأقوى والأكثر أتباعاً والأوفر ذكاءً . وربما حاول المماليك أن يظهروا قسطاً من الوفاء للسلطان الراحل فيعينون ابنه بعده سلطاناً ؛ ولكن لا تلبث أن تنقشع الغيوم وتزول صدمة الموت وعندئذ يدرك كبار الأمراء أن ذلك الوضع غير طبيعي ، وأنهم لا يقولون أحقية في الملك عن السلطان الراحل ، ويكفي أنهم رضوا بحكمة حيناً من الدهر ، فلا مبرر لأن يخضعوا لابنه من بعده . أو ربما اشتد التنافس بين كبار الأمراء عقب موت السلطان ، فيتظاهرون - خيماً للنزاع - بموافقتهم على تعيين ابن السلطان الراحل ، حتى تنكشف الأمور ويظهر بين صفوف الأمراء الرجل القوي الذي يبدؤملاءه في سطوته وعصبيته المماليكية ، وعندئذ يسهل عليه عزل ذلك الابن وإحلال نفسه محله .

وهكذا نلحس في دراستنا لعصر المماليك عدم استمرار بيت واحد في الحكم مدة طويلة ، وإذا استطاع رجل مثل بيبرس أن يمكن لنفسه ويخلف الأمراء على احترام ولاية العهد لابنه من بعده - فإن تلك الأيمان كانت سرعان ما تنكث بعد وفاته لعدم إيمان المماليك بمبدأ الوراثة . ولم يحدث طوال القرنين ونصف القرن التي حكم فيها سلاطين المماليك مصر أن ظلت السلطنة في بيت واحد مدة طويلة . باستثناء بيت قلاون الذي حطم تلك القاعدة والذي يعتبر مثلاً فريداً في تاريخ المماليك لبقاء الحكم في بيت واحد أكثر من قرن (١٢٧٩ - ١٣٨٢) . ولا يمكن إرجاع هذه الظاهرة إلى إيمان المماليك

في حقبة معينة بمبدأ وراثة الملك ؛ وإنما هي مجرد الصدفة والظروف التي أحاطت بذلك البيت وبعض أفراده فضلاً عن أحوال البلاد عندئذ والدليل على ذلك أن أمراء المماليك لم ينتقدوا لبيت قلاوون طوال ذلك القرن، وإنما قامت محاولات لعزل بعض السلاطين بنى قلاوون من الحكم ، ونجح بعض الأمراء في تولي السلطنة فعلا في تلك الأثناء ، ولكن التيار القلاووني كان لا يلبث أن يتغلب بعد قليل .

ولاشك في أن بقاء منصب السلطنة في بيت قلاوون تلك المدة الطويلة ، جعل عصر تلك الأسرة يكتسب طابعاً خاصاً يميز في تاريخ المماليك، وربما كان في بقاء اسم الجد « قلاوون » في سلسلة طويلة من أسماء السلاطين منذ أواخر القرن الثالث عشر حتى أواخر القرن الرابع عشر، ما أضفى على ذلك العصر جواً خاصاً يميزاً . هذا بالإضافة إلى أن جميعميزات وخصائص العصر المماليكي اكتملت ونضجت في ذلك العصر ، فاستقر الحكم للمماليك تماماً في مصر والشام بعد فترة الاضطرابات الأولى التي أنهاها بيبرس بتثبيت أوتاد الدولة ، وأخذت تتطور النظم والقواعد التي سارت عليها سلطنة المماليك حتى أواخر أيامها ؛ وبدأت تظهر بشائر النشاط التجاري الذي هاد على المماليك بالثروة الواسعة ومكنهم من إقامة تلك المنشآت الرائعة التي ما زالت بقاياها في مدن مصر والشام تنطق بمجدهم . فإذا أضفنا إلى ذلك أن عصر أسرة قلاوون شهد حلقات بارزة في قصة الجهاد ضد التتار من ناحية والصليبيين من ناحية ثانية وفي أرض النوبة من ناحية ثالثة ؛ فضلاً عن النشاط الدبلوماسي والمعاهدات السياسية والاتفاقيات الاقتصادية مع كثير من القوى المعاصرة في إفريقية وأوروبا وآسيا ... أدركنا في نهاية الأمر أهمية عصر بيت قلاوون في تاريخ دولة المماليك .

السلطان الأشرف خليل بن قلاوون : (١٢٩٠ - ١٢٩٣)

والواقع إن السلطان المنصور قلاوون نفسه لم يكن يتصور بأن السلطنة ستظل في أعقابه أكثر من قرن، لأنه كان مملوكاً قبل أن يكون سلطاناً، وحطم بنفسه مبدأ الوراثية عندما عزل سلامش - ابن الظاهر بيبرس - من السلطنة ليتولى هو الحكم بدلاً منه . وإذا كانت عاطفة الأبوة قد غلبت على المنصور قلاوون فأعلن ابنه الصالح علاء الدين سلطاناً في حياة أبيه ، فإن هذا الابن لم يلبث أن توفي في حياة أبيه أيضاً سنة ١٢٨٨ . وقد سبق أن أوضحنا كيف أن السلطان قلاوون رفض أن يوقع كتاب ولاية العهد لابنه الثاني خليل لاعتقاده في سوء خلقه وعدم أهليته لتولى الملك، ومع ذلك فقد شاءت الظروف أن يتولى خليل السلطنة سنة ١٢٩٠

وسرعان ما أثبتت الأيام صدق نظرة الأب قلاوون وسبب مخاوفه من ابنه خليل . حقيقة إن خليل عرف بالشجاعة والبأس، وله مواقف مشهودة في محاربة الصليبيين والتتار والنوبيين ، وهو فوق هذا وذاك السلطان الذي اقترن اسمه في التاريخ بمحو آفة الصليبيين من الشام - كما سبق أن أشرنا - ولكنه ذلك كله جاء مصحوباً بنزعة تعسفية في أخلاقه، فغدر بالأمراء وتعاظم عليهم واستخف بهم ؛ مما عجل بنهايته . وفي ذلك يقول المؤرخ ابن إياس :
كان الأشرف بطالاً بكل من الحروب ليلاً ونهاراً . وكان مسعوداً في حركاته ولا يعرف في أبناء الملوك من كان يناظره في العزم والشجاعة والإقدام . . . ولكنه كان يسمع الكلام في الناس بالباطل من وزيره ابن السلجوس ، وكان ذلك سبباً لروال ملكه . . . (١)

وتفصيل ذلك أن السلطان الأشرف خليل لم يكديتولى السلطنة سنة ١٢٩٠

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٢٦ .

حتى أخذ يغدر برجال الدولة وكبار الأمراء الذين كانت لهم الحكمة والنفوذ في عهد أبيه . ومنذ أن كان خليل ولياً للعهد ظهرت خلافات بينه وبين نائب السلطنة الأمير حسام الدين طر نطاي ، فحرض بعض الأمراء نائب السلطنة على التخلص من السلطان الجديد ، ولكن طر نطاي رفض الاستجابة لهم . وكانت النتيجة أن السلطان خليل بأمر بعد توليه السلطنة بأيام معدودات إلى القبض على طر نطاي وقتله غدراً ، الأمر الذي أثار استياء الأمراء ومخاوفهم^(١) . ولم يدرك السلطان خليل أنه بعمله إنما سعى إلى حثفه بظلفه ، لأنه عين الأمير بدر الدين بيدرا نائباً للسلطنة بدلاً من طر نطاي ، ومنحه إقطاع الأمير طر نطاي نفسه . وكان أن ازداد نفوذ بيدرا في الدولة ، فأخذ يتطلع بدور إلى السلطنة وازداد العداء بينه وبين خليل ، وهو العداء الذي انتهى بالقضاء على السلطان خليل نفسه .

ثم إن السلطان الأشرف خليل عزل الأمير علم الدين سنجر الشجاعى من الوزارة وعين بدله شمس الدين محمد بن السلجوس . وقد ازدادت مكانة ابن السلجوس في الدولة بعد أن فوض إليه السلطان خليل الإشراف على شئون الأمراء . وهكذا ظهر التنافس بين بيدرا نائب السلطنة وابن السلجوس الوزير ، فأخذ الأخير يوشح قلب السلطان على بيدرا وأوهمه أن أملاكه اتسعت ونفوذه ازداد حتى غدا خطراً على السلطان نفسه^(٢) .

وقد أحس بيدرا بنية السلطان الأشرف خليل للقدر به ، ولكنه كان أقوى من أن يستطيع السلطان القضاء عليه في سهولة . ثم إن بيدرا لم يكتف بالحيلة والتحرز على نفسه . وإنما أخذ يدبر مؤامرة للإيقاع بالسلطان قبل أن يوقع السلطان به . وكان أن اغتم بيدرا فرصة ركوب السلطان خليل للصيد

(١) بيبس الهوامد : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ١٦٧ .

(٢) المغريزي : السلوك ج ١ ص ٧٨٢ — ٧٨٣ .

في ناحية تروجه - قرب أبي المطامير بمديرية البحيرة - وانقض عليه بالسيف ثم تبعه بقية الأمراء المتآمرين مثل حسام الدين لاجين المنصوري وشمس الدين قراسنقر وسيف الدين بهادر المنصوري . . . حتى خر السلطان قتيلا بين أيديهم سنة ١٢٩٣^(١) . ويقال إن جيشان السلطان خليل ظل ملقى في العراء يومين كاملين ، حتى حمل بعد ذلك إلى القاهرة ودفن فيها^(٢) .

السلطان الناصر محمد بن قلاوون : (المنظم المؤيد ١٢٩٣ - ١٢٩٤)

وبمقتل السلطان خليل تكررت نفس التمثيلية التي حدثت عقب مقتل قطز من قبل ، إذ اجتمع الأمراء المتآمرون في مسرح الجريمة وقبل أن تجف دماء ضحيتهم لينشأوا في مصير السلطنة . وكان أن استقر رأيهم على تولية بيدرا سلطانا خلفوا له وقبلوا الأرض بين يديه ، ولقبوه « الملك الرحيم » ، وقيل « الملك الأمجد » ، أو « الملك القاهر » ، أو « الملك الأوحد » ،^(٣)

ولكن المماليك الأشرفية - مماليك الأشرف خليل - لم يرضوا عن ذلك الوضع ، فهبوا بزعماء الأمير زين الدين كتبغا للنار لاستأذم ، وطاردوا بيدرا وأعوانه حتى لحقوا بهم في الطرائه من قرى كوم حمادة بالبحيرة^(٤) . وهناك دارت معركة بين الطرفين انتهت بمقتل بيدرا وفرار معظم أعوانه . وبذلك يكون بيدرا قد أراد « السلطنة لنفسه ولكن المقادير قهرته والدنيا الغرور غدرته »^(٥) .

(١) مفضل بن أبي الفضائل : كتاب النهج السديد ج ٢ ص ٤٠٥ - ٤٠٦ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٣٤ - ٣٥ .

(٣) ابن لمباس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٢٧ .

أبو الفدا : المختصر ج ١ ص ٣٠ .

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٦ .

(٥) مفضل بن أبي الفضائل : النهج السديد ، ص ٥٧٤ .

وكان المنتظر أن يحاول الأمير زين الدين كتبغا بعد ذلك أخذ العرش لنفسه ، ولكن الأمير علم الدين سنجر الشجاعى الذى كان السلطان خليل قد أنابه عنه بقلعة الجبل حال بينه وبين الوصول إلى القاهرة . ومن الواضح أن كلام هذين الأميرين كان يطمع فى الاستئثار بالسلطنة لنفسه ، ولما وجد كل منهما أنه أمام خصم قوى عنيد ، اتفق الطرفان على مبايعة محمد بن قلاون — أخى خليل (١)

والواقع إن السلطان الناصر محمد بن قلاون يتمتع بأهمية كبيرة فى تاريخ دولة المماليك ، نظراً لطول حكمه ولما حدث فى عهده من أحداث وتطورات هامة ، فضلاً عن شخصيته التى جعلت الناس يتمسكون به ويرون فى بقائه تحقيقاً للاستقرار والأمن والرخاء . ولا نكون مباغين إذا قررنا إن أهمية بيت قلاون لا تنبع من شخص السلطان المنصور قلاون مؤسس تلك الأسرة ، بقدر ما ترتبط بالسلطان الناصر محمد بالذات .

غير أن الناصر محمد بن قلاون كان صغير السن — لم يتجاوز التاسعة من عمره — وقت اعتلائه العرش . وكان من الصعب على ذلك الغلام أن يتحمل إدارة شئون تلك الدولة الواسعة ، لذلك يمكن القول أن سلطنته الأولى — التى امتدت من ١٢٩٣ حتى ١٢٩٤ كانت اسمية وأن السلطة الفعلية تركزت فى أيدي مجموعة من الأمراء أهمهم زين الدين كتبغا نائب السلطنة وعلم الدين سنجر الشجاعى الوزير (٢) .

وتمشياً مع التطور المألوف فى عصر المماليك كان المفروض أن يسعى كل من هذين الأميرين لاقتزاع العرش لنفسه من السلطان الصغير . وفعلاً

(١) المقريزى : السوك ج ١ ص ٧٩٣

(٢) أبو الحسن : النجوم ج ٨ ص ١٩٩ — ٢٠٠

تركز النزاع بين الأمير كتبغا والأمير الشجاعى ، وانضم إلى كل منهما عدد كبير من الانصار والأتباع . ويقال إن الأمير الشجاعى بدأ بالعدوان وسعى للتخلص من كتبغا ، ولكنه لم يوفق في تحقيق هدفه . ولكن كتبغا كان أوفر قوة ، فأرسل إلى السلطان الناصر محمد يقول له ما نصه : إن الشجاعى قد انفرد برأيه في القبض على الأمراء ولا بد من حضوره . فإنه بلغنا عنه ما أنكركناه . ولما امتنع الشجاعى عن الحضور ، زحف كتبغا على رأس رجاله إلى القلعة وحاصروها وفيها السلطان الناصر والأمير الشجاعى ، وقطعوا عنها الماء يوما كاملا . ويبدو أن أم السلطان الناصر محمد خديجة عندئذ على ولدها ، وأدركت أن حقيقة النزاع بين الأميرين كتبغا والشجاعى هي الوصول إلى العرش ، فأرسلت إلى كتبغا تقول : إيش قصدك حتى نفعله ؟ إن كان قصدك أن تخلع ابنى من السلطنة فأفعل . ولكن كتبغا رد : على طريقة أمراء المماليك . متظاهرا بالزهد في السلطنة وبالرغبة في إقرار الأمور لا أكثر ، فقال : أعوذ بالله السميع العليم : والله لو بقي من أولاد أستاذنا (المنصور قلاوون) بنت عمياء ما أخرجنا الملك عنها ، ولا سبنا ابن أستاذنا رجل وفيه كفاءة لذلك ، وإنما قصدنا الشجاعى لإخماد الفتنة ١ ، (١) .

وقد حاولت أم الناصر محمد التوسط بين الأميرين الثائرين لإخماد الفتنة ، فأوحى إلى ابنها بأن يعرض على الأمير الشجاعى نيابة حلب ، ولكنه الشجاعى لم يعجبه الاقتراح ، وأغلظ على السلطان في القول ، فقبض عليه المماليك الذين كانوا في حضرة السلطان وقتلوه (٢) .

وبذلك أصبح كتبغا صاحب الكلمة الأولى في شئون الدولة ، ولا حيلة للسلطان الصغير الناصر محمد معه ، ولم ينقص كتبغا سوى لقب السلطنة وشعارها . وصادف أن ظهر بالقاهرة عندئذ الأمير حسام الدين لاجين ، فأدى ظهوره إلى

(١) المقريزى : السلوك ؛ ج ١ ص ٨٠١

(٢) ابن لياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٣١ .

ثورة المماليك الأشرفية - ممالك الأشرف خليل - واضطراب الأحوال في القاهرة . وكان لاجين ما كراً ، فيادر بالانصال بالأمير كتبغا وزير له لإعلانه سلطاناً بعد خلع الناصر محمد ولأن الأشرفية مادام الملك الناصر في الملك شوكنهم قائمة ، (١) . لذلك استغل كتبغا اضطراب الأحوال في القاهرة نتيجة لثورة الأشرفية وجمع الأمراء للشاور في الموقف ، فقال بعضهم : د لقد فسدت الأحوال لكون السلطان صغير السن وطمع المماليك في حق الرعية ، ومن رأى أن نولي سلطاناً كبيراً يجمع المماليك عن هذه الأفعال ، (٢) وهكذا تم عزل السلطان الناصر محمد بعد سنة واحدة من توليه الحكم ، وأعلن كتبغا سلطاناً سنة ١٢٩٤ . على أن يكون حسام الدين لاجين نائباً للسلطنة .

السلطنة العادل كتبغا : (١٢٩٤ - ١٢٩٦)

اعتلى كتبغا عرش سلطنة المماليك ، فأخذ يتقرب إلى أمراء المماليك بالقول والعمل ، أما السلطان الناصر محمد فقد عزله كتبغا في بعض قاعات القلعة ومعه أمه وحجبه عن الناس . وقد اختار كتبغا الأمير حسام الدين لاجين نائباً للسلطنة وفوض إليه جميع أمور الدولة ، كما عين صاحب نقر الدين الخليلي وزيراً (٣) .

على أن الظروف شاءت أن تتجمع عدة عوامل لتجعل الناس يكرهون كتبغا ويتمنون زوال ملكه . وأول هذه العوامل أن اعتلاء كتبغا عرش السلطنة جاء مصحوباً بانخفاض النيل واشتداد الغلاء نتيجة للجذب ، حتى انتشرت المجاعة وفسدت

(١) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٤٨ - ٤٩ .

(٢) ابن لياس : بدائع الزهور ، ج ١ ص ١٣٢

(٣) المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٨٠٧ - ٨٠٨

الأمراض وحصار الناس يسقطون صرعى في الطرقات . ويروى المؤرخون أنه بلغ من حدة الأزمة التي نتجت عن الجوع والمرض أنه كان يموت في القاهرة كل يوم بضعة ألوف ، ويبقى الميت مطروحاً في الأزقة والشوارع ملقى في الممرات اليوم واليومين لا يوجد من يدفنه ، لاشتغال الأصحاء بأمواتهم والمسيكين بأمراضهم ،^(١) ولم تقتصر الطامة على مصر وحدها ، بل امتدت إلى الشام حيث توقف نزول المطر ، وخرج النائب وسائر الناس مشاة للاستسقاء^(٢).

وإذا كانت المجاعة التي عصفت اعتلاء كتبغا عرش السلطنة قد جعلت الناس يتشاءمون من حكمه وسوء طامعه ، فإن ثمة عاملاً آخر كان له أثره في ازدياد كراهية الناس لكتبغا . ذلك أن كتبغا كان مغولى الأصل أسره السلطان المنصور قلاوون في واقعة حمص الأولى وجعله في زمرة عاليكه حتى شب وتحرر ووصل إلى مرتبة الإمارة ومن ثم شق طريقه إلى السلطنة^(٣). ولكن وصول كتبغا إلى منصب السلطنة لم ينميه أصله وعشيرته ، فلم يكف يعلم أن طائفة كبيرة من التتار الوثنيين فروا صوب مصر خوفاً على أنفسهم من غازان محمود أيلخان مغول فارس الذي اعتنق الإسلام ، حتى رحب كتبغا بهم وقد أطلق على تلك الطائفة من المغول اسم العويرانية أو الأويرانية ، وما كادوا يصلون إلى القاهرة حتى أمر كتبغا الأمراء والجنود بالخروج لاستقبالهم ، ثم رحب بهم السلطان وأقطعهم الاقطاعات الوفيرة وأجرى عليهم الأرزاق السخية وأنزلهم بالحسينية^(٤).

ولاشك في أن ترحيب كتبغا بذلك العدد الضخم من التتار الذين زادوا

(١) بئرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ١٨٩

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٨٠٨

(٣) أبو المحاسن : المنهل الصافي ج ٣ ورقة ٤٧

(٤) المقرئى : المواظ والاعتبار ج ٢ ص ٢١ - ٢٣ .

عن عشرة آلاف ، واستضافته لهم في الوقت الذي اشتد الغلاء في البلاد وندرت الأقوات ومات الناس بسبب الجوع ، كل ذلك أدى إلى استياء الناس من كتبغا . وزاد سمعة كتبغا سوءاً بين الجنود والشعب أن أولئك الأويرانية كان معظمهم وثنيين مما أظهر كتبغا في صورة حامى الوثنيين . ولا يخفى علينا أن المسلمين في مصر والشام لم ينسوا للتنازع وانهم على الوطن الإسلامي منذ أيام هولاء ، لاسيما وأن خطر مغول فارس على بلاد الشام كان لا يزال ماثلاً حتى أيام كتبغا (١)

ثم كان أن زار كتبغا بلاد الشام سنة ١٢٩٥ لإقرار الأمور فيها ، وعندئذ اشتد غضب الأمراء عندما عزل السلطان كتبغا نائب السلطنة بالشام أغرلو العادلى (٢) هذا إلى أن كتبغا لم ينعم على أمراء الشام بالخلع والإعامات والهدايا ، كما جرت به عادة السلاطين من قبل ، فإن عادة الملوك إذا دخلوا مدينة مثل دمشق أن يهدقوا الهدايا والصلوات على الأمراء ، (٣)

ولا يخفى علينا أن الأمير حسام الدين لاجين كان من وراء جميع مظاهر الاستياء ضد كتبغا . حسام الدين هو الذي حرض كتبغا على عزل السلطان الناصر محمد ، وهو شريكه في المؤامرات التي انتهت بعزل الناصر ، وإذا فإنه كان يعتقد أن حقه في الملك لا يقل عن حق كتبغا نفسه . وإذا كان حسام الدين لاجين قد تظاهر بالتمعفف والزهد في منصب السلطنة ورضى بأن يكون نائبا للسلطان ، فإن ذلك جاء نتيجة لإحساس لاجين عندئذ بمرج موقفه بوصفه من المتآمرين على قتل الأشرف خليل . ولكن مع مضي الأيام ثبت لاجين مركزه وضعف نفوذ المماليك الأشرفية الذين كان لاجين يخشى سطوتهم ، فلم يعد هناك

(1) Wiet : L, Egypte Arabe, p. 464.

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٨١٧

(٣) مفضل بن أبي القضايل : النهج السديد ٥٩٢ - ٥٩٤ .

مانع من أن يكشف لاجين عن وجهه الحقيقي ويكيد للسلطان كتبغا لانزاع السلطنة منه .

وفعلا أخذ لاجين يحرك عوامل البغض ضد كتبغا ، بل لأنه رسم الخطة مع بعض أعوانه لقتله أثناء عودته من الشام إلى مصر ؛ مثلما فعل بيبرس مع قطز . ولما وصل كتبغا إلى اللجون — قرب طبرية — سنة ١٢٩٦ ، أحس بالثأمة ، ففر إلى دمشق ، ولم يتمكن المتآمرون إلا من قتل الأميرين بتخاص وبكتوت الأزرق ، وهما من أقرب أعوان كتبغا .

السلطان المنصور لأهين : (١٢٩٦ — ١٢٩٨)

فر كتبغا ليحتمي بقلمنة دمشق ، فانضم رجال الجيش إلى حسام الدين لاجين الذي استولى على خزائن السلطان ؛ ثم حاول أن يسترضى الأمراء ليبايعوه بالسلطنة ؛ فجمعهم وقال لهم : أنا واحد منكم ولا أخير نفسي عنكم ولست موليا عليكم من ماليكي أحدا ولا أسمع فيكم كلاما أبدا ، ولا يصيبكم ما أصابكم من ماليك العادل (كتبغا) وأنتم خوشدأشيني (زملائى) ومحل لإخوتى !^(١) . وبمثل هذه النغمة والعبارات المعسولة استطاع لاجين أن يكتسب تأييد الأمراء الذين تعودوا سماع تلك الأقوال من كل سلطان مغتصب جديد ، ثم عدم الارتباط بها بعد وصوله إلى السلطنة ، فاشتروا على لاجين عدم الاستبداد برأيه أو تسليط ماليكه — وخاصة منكوتمر — عليهم^(٢) .

وهكذا بايع الأمراء لاجين بالسلطنة سنة ١٢٩٦ ، فركب بشعار السلطنة

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفسكرة ج ٩ ورقة ١٦٥ .

(٢) أبو الفدا : المختصر ج ٤ ص ٣٤٨ .

(٨ — العصر المماليكى)

قاصداً مصر حيث خف أمرام مصر للقائه قرب بلبيس وحلفوا له يمين الولاء ، ثم دخل القاهرة واستقر في القلعة بعد أن تلقب بالسلطان الملك المنصور^(١).

أما في بلاد الشام فقد خطب أولاً للمنصور لاجين في غزة والقدس وصفد والسكر و نابلس ؛ لأن كتبغا كان لا يزال مقيماً في قلعة دمشق . ولكن لم تلبث أن جاءت الأخبار بسلطنة المنصور لاجين ، وعندئذ انفض الناس والأمراء في شمال الشام عن كتبغا الذي لم يسمعه سوى أن يتنازل عن السلطنة طائفاً مختاراً ؛ وأعلن أنه يرضى بالمكان الذي عينه السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين^(٢) . وقد حدد له السلطان لاجين الإقامة في صرخد — من أعمال دمشق — فذهب إليها معزراً — ولعله رأى ذلك الحل أوفق بكثير ، وأسلم عاقبة من المقاومة .

على أن مشكلة كتبغا لم تكن المشكلة الوحيدة التي واجهت لاجين في مستهل حكمه ، إذ كانت أمامه مشكلة الناصر محمد الذي ظل مقيماً في القاهرة ينظر إليه الناس بوصفه صاحب الحق الشرعي الأول في السلطنة . لذلك فكر لاجين في إبعاد الناصر محمد إلى الكرك بعد أن أمنه على حياته وتعهد له بأنه سيعيده إلى السلطنة متى يبلغ سن الرشد^(٣) .

وبعد أن استراح لاجين نسبياً من خطري كتبغا والناصر محمد ، أخذ ينظم شئون الحكم ، فاختار الأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري نائباً للسلطنة ولكن لم يلبث أن عزله وعين بديله الأمير سيف الدين منكوتمر^(٤) ولا يخفى علينا أن كبار الأمراء كانوا يخشون من أول الأمر أن يؤثر لاجين الأمير منكوتمر

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٨٢٢ — ٨٢٣ .

(٢) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٦٧ .

(٣) النويرى : نهاية الأرب ، ج ٩ ورقة ٣١٥ .

(٤) مفصل بن أبى الفضائل : كتاب التهج السديد ص ٥٩٩ .

عليهم وأنهم اشترطوا - كما سبق أن رأينا - على لاجين ألا تدخلوا
ملوكك منكوتمر في التحكم والتدبير ، فتضل ،^(١) . لذلك استاء الأمراء بما
فعله لاجين وأخذوا يكيدون له . وزاد من سخطهم أن السلطان حسام الدين
لاجين رآك البلاد - وهو الروك المعروف باسم الروك الحسامي -
وبمقتضاه قل نصيب الأمراء والجند من أرض مصر . أما عامة الناس فقد
غضبوا من لاجين لإهماله و تمنى كل أحد زواله وكثر الدماء عليه ،^(٢) .

وفي ذلك الوقت كان ممالك الأشرف خليل يتبعون القرصة للنار من
لاجين الذي تأمر على قتل أستاذهم ، وبذلك تكاملت عناصر المؤامرة .
ولم يلبث المتآمرون - بزعماء الأمير كرجي مقدم البرجية - أن نجحوا
في قتل لاجين ومنكوتمر جميعاً سنة ١٢٩٨ ، وبذلك تجددت مشكلة مله
العرش مرة أخرى^(٣) .

سلطنة الناصر محمد الثانية : (١٢٩٨ - ١٣٠٨)

اتجهت الأفكار عقب قتل لاجين إلى إحضار الناصر محمد وتنصيبه سلطاناً
مرة أخرى ولكن ثمة ظاهرة مسنناها في تاريخ دولة المماليك منذ مولدها ، هي
أن قاتل السلطان يعتبر نفسه دائماً أحق الأمراء بمنصب السلطنة . لذلك حدث
عندما اجتمع الأمراء - عقب مقتل لاجين - لبحث الموقف واختيار سلطان
أن نهض الأمير كرجي وقال « يا أمراء ! أنا الذي قتلت السلطان وأخذت
نار أستاذي . والمالك الناصر صغير ما يصلح . ولا يكون السلطان إلا هذا
- وأشار للأمير طنجي - وأنا نائبه ،^(٤) . ولم يلبث أن كثرا طامعون واشتد

(١) بيبس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ١٧٢ .

(٢) ابن لباس : بذائع الدهور ، ج ١ ص ٣٧ .

(٣) أبو المحاسن : المهمل الصافي ج ٣ ورقة ٦٥ - ٦٨ (مخطوط) .

(٤) المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ٨٦٦ .

الشقاق . وكما هي العادة دائماً في تاريخ المماليك - رؤى حسماً للخلاف - اختيار السلطان الناصر محمد بن قلاوون سلطاناً من جديد ، لا إيماناً من الأمراء بأحقية ، ولكن حتى ينجلي الموقف ويظهر بين صفوف الأمراء الرجل القوي الذي يسهل عليه عزل الناصر محمد وفرض نفسه سلطاناً .

وكان أن استدعى الناصر محمد من الكرك سنة ١٢٩٨ ، فاستقبل في القاهرة إستقبالاً حماسياً رائعاً ، ورحب به أهالي مصر أجمل ترحيب ، ولا يظن علينا أن عامة الناس رأوا في حكم أسرة قلاوون نوطاً من الاستقرار وحسماً للمنازعات بين الأمراء .

ومهما يكن من أمر ، فقد جددت أيمان الولاء للناصر محمد بالقلعة ، وعين الأمير سيف الدين سلار نائباً للسلطنة والأمير بيبرس الجاشنكير استاداراً . وقد استغل هذان الأميران بالذات صغر سن السلطان واستعباد الأمور ، واضيقا على الناصر محمد ، حتى أنهما تدخلتا في أبسط أموره الشخصية مثل المصروف والمأكل والمشرب^(١) .

وفي ذلك الوقت ظهر التنافس واضحاً بين الأمير بيبرس وسلار ، الأمر الذي أدى إلى عدم استقرار الأمور في البلاد . وزاد من سوء الأحوال في تلك الفترة إحتمام الصدام بين طوائف المماليك البرجية الذين أخذ نفوذهم يزداد تدريجياً ، في حين كان الأمير سلار يشرف على أمور المماليك الصالحية والمنصورية . وهكذا اضطربت أحوال البلاد نتيجة لقيام سلطان قاصر في الحكم ، وانشغال أمراء المماليك وطوائفهم بالمنافسات فيما بينهم وبين بعض ، في الوقت الذي اشتد عبث العربان في الداخل ، وتجدد خطر التتار على بلاد الشام .

وقد تكلمنا عما دار من حروب بين المماليك والتتار في ذلك الدور .

(١) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٧٠ .

أما العربان ، فقد انتهزوا فرصة انشغال الحكام في العاصمة وأكثروا الفساد في البلاد، وبخاصة في الوجه القبلي، فقطعوا الطرق على التجار وفرضوا عليهم إتاوات؛ بل إنهم امتنعوا عن أداء الخراج واختاروا اثنين منهم سموا أحدهما بيبرس والآخر سلار^(١). وكان أن أفق العلماء والقضاة بقتالهم، فخرج إليهم الأمراء، « و ضربوا على الوجه القبلي حلقة كحلقة الصيد » ، أى أحاطوا بالأعراب من جميع النواحي حتى أخضعوهم وقتلوا كثيراً منهم فضلاً عن الأسرى^(٢).

أما السلطان الصغير الناصر محمد فقد عيل صبره من تضيق الأمراء عليه ، فاتصل بالأمير بكتمر الجوكندار وطلب منه مساعدته في التخلص من الأميرين بيبرس وسلار . ولكن هذين الأميرين عرفا خبر المؤامرة ، فأحاطوا بالسلطان في القلعة وعتدوا أن يرسل السلطان الناصر محمد إلى الأمراء يقول : « سبب هذا الركوب على باب اسطبلي ؟ إن كان غرضكم في الملك فأنا متطلع إليه ، خذوه وأبعثوني أي موضع أردتم ! » فرد الأمراء عليه قائلين : « إن السبب هو من عند السلطان ومن المماليك الذين يحرضونه على الأمراء »^(٣).

وجدير بالذكر أن عامة الناس أظهروا عطفاً كبيراً على السلطان الناصر محمد في تلك الأزمة فتجمعوا وأخذوا يضيحون « يا ناصر يا منصور الله يخون من يخون ابن قلاون » ، الأمر الذي أدى إلى عدة اشتباكات بين المماليك والعامة^(٤).

وأخيراً فقد صبر الناصر محمد بعد أن شكاضيق يده وحرمانه من أبسط الحقوق الشخصية دون أن يجد معيناً ، لذلك تظاهر برغبته في الحج حتى

(١) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٩٢٠ .

(٢) المرجع السابق ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٤٩ — ١٥٢ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٧٢ .

(٤) المرجع السابق ص ١٧٣ .

يسمح له بمغادرة البلاد ؛ ولكنه لم يكده يصل إلى قلعة الكرك حتى أعلن عزمه على اتخاذ ذلك المكان محلا لإقامته وكتب إلى الأميرين بيبرس وسلاار باعتزاله الحكم سنة ١٣٠٨^(١) ، وبذلك انتهى سلطنة الناصر محمد الشافية التي استمرت نحو عشر سنين ونصف .

السلطانة المظفر بيبرس الجاشنكير (١٣٠٨ - ١٣٠٩)

ولم يتوقع كبار الأمراء في الدولة أن يقرر بهم الناصر محمد ، فغضبوا عندما تسلبوا رسالته لأهم فيما يبدو كانوا لا يستطيعون العثور على أداة سهلة في أيديهم مثل الناصر محمد الصغير . لذلك بادروا بالكتابة إليه يطلبون منه العودة فوراً إلى مصر ومعه عائلته ، وإلا طردوه من الكرك وحرموه من حقه في العرش . شغل عنك الصبي وقم واحضر إلينا ، وإلا بعد ذلك نطلب الحضور ولا يصح لك ، وتندم ولا ينفعك الندم^(٢) . ولكن الناصر محمد أصر على موقفه وأبى العودة وكتب إلى الأسراء يقول لهم ما نصه « دعوني أنا في هذه القلعة منعزلاً عنكم إلى أن يفرج الله تعالى إما بالموت وإما بغيره » .

وهكذا تجددت مشكلة شغل العرش من جديد ، فعرض الأمراء منصب السلطنة على الأمير سلاار بوصفه نائب السلطنة ، ولكنه امتنع عن قبول المنصب وعاف أن يحل به ما حل بكتبغا ولاجين ، فأشار سلاار إلى زميله الأمير بيبرس الجاشنكير وقال « والله يا أمراء أنا ما أصلح للملك ولا يصلح له إلا أخى هذا » ، وكان أن بايع الأمراء بيبرس الجاشنكير — الذي تلقب بالمظفر سنة ١٣٠٨ ، واختير الأمير سلاار نائباً للسلطنة « على عادته »^(٣) .

(١) أبو المحاسن: التجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ١٧٩ - ١٨٠ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٤٦ .

ومن الواضح أن المشكلة الأولى التي واجهت السلطان الجديد كانت مشكلة الناصر محمد الذي مازال يتمتع بعطف كثير من الناس داخل مصر وخارجها. وقد بادر السلطان المظفر بيبرس (الثاني) بكتابة تقليد بمنح السكر للناصر محمد ، ظناً منه أن ذلك الحل فيه ترضية كافية للناصر وأشياعه . ولكن عدداً كبيراً من كبار الأمراء بالشام — وبخاصة قراسنقر نائب حلب وقبجق نائب حماه وأسندمر نائب طرابلس — رفضوا الاعتراف بسلطنة بيبرس الجاشنكير وأصروا على ولائهم للناصر محمد بن قلاوون ، الأمر الذي أثار مشكلة خطيرة في وجه المظفر بيبرس . ثم إن هؤلاء الأمراء الثلاثة عقدوا اجتماعاً في حلب وقرروا مكتابة الناصر محمد في السكر ليعرضوا عليه مساعدتهم ، فإما أن نأخذ له الملك وإما أن نموت على خيولنا . ولكن الناصر محمد أشار عليهم بالتريث والصبر ، لأن هذا الأمر ما يزال بالعجلة (١) . ومن هذا يبدو لنا أن الناصر محمد عندما استقال من السلطنة لم يكن زاهداً فيها ، ولكنه أثر الانتظار في السكر إلى أن تنضج الأمور وعندئذ يستطيع أن يسترد سلطانه بسهولة . هذا وإن كانت رغبة الناصر في التريث قد دفعت قراسنقر وقبجق وأسندمر إلى التظاهر بالدخول في طاعة المظفر بيبرس الذي أعلن بعد ذلك على مصير عرشه وقال : الآن تم لي الملك (٢) .

على أن السلطان الناصر محمد لم يظل ساكناً في السكر ؛ إذ كان الصبي الصغير قد شب وأصبح فتى يافعا ، فأخذ ينشط في معاملاته مع الناس بالشام وأكثر من الركوب للصيد ومعه ما ليكه (٣) . ويبدو أن ذلك النشاط أقلق مضاجع المظفر بيبرس ، ففكر في الحد من نشاط الناصر ، وأرسل إليه يطالبه بإرسال

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٣٨ — ٢٤٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٤٢ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٥٢ .

ما عنده من الخيل والمماليك وما استولى عليه من أموال الكرك ، « ولا جرى عليك ماجرى على أولاد الملك الظاهر بيبرس البندقدارى ونفيهم إلى القسطنطينية » (١) ، وعندئذ أخذ يظهر دهاء الناصر محمد الذى اشتهر به فى التاريخ ، فرأى « أن المغالطة أولى ، وحاول أن يستر نياته فكتب إلى المظفر بيبرس فى مصر يسترضيه ويقول له « المملوك محمد بن قلاون يقبـل الأرض . . . وإن مولانا السلطان هو الذى ربانى وما أعرفلى والدا غيره ، وكل ما أنا فيه فثقه وعلى يديه » (٢) ! وفى الوقت نفسه أرسل الناصر محمد إلى أمراء الشام — أعنى فواب حلب وطرابلس وحماه — يشكو لهم سوء وضعه وتهديد السلطان بيبرس الجاشنكير له ويستدر عطفهم عليه ويطلب مساعدتهم له ؛ فقال لهم ما نصه « لما اشتد على الضنك من الأمراء خرجت لهم من مصر وتركتم لهم الملك ورضيت من الدنيا بأحققر المساكن وأضيق الأماكن ليستريح خاطرى من الضنك ؛ فما تراجعوا عني وأرسل المظفر يهدنى بالنفى إلى القسطنطينية . مثل أولاد الظاهر بيبرس ، وأرسل يطلب منى ما لا أقدر عليه ، وأنتم تعلمون ما لوالدى المنصور (قلاون) عليكم من حق العتق والتربية ، وما أظنكم ترضون لى بهذا الحال » (٣) !

• ولم يكن أمراء حلب وطرابلس وحماه فى حاجة إلى مزيد من التحريض ضد المظفر بيبرس ، فقد كان غرضهم الوئرب عليه وإعادة الناصر محمد إلى عرشه منذ إعلان المظفر بيبرس سلطاناً ، ولكن الناصر محمد هو الذى أشار عليهم بالتريث حتى يحين الوقت المناسب ، وهما هو الوقت المناسب قد حان ، فلم يبق إلا أن توجه ضربة قاصمة ضد بيبرس الثانى لإعادة الحق إلى صاحبه .

(١) ابن لىاس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٥١ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٥٢ .

(٣) ابن لىاس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ١٥١ .

وكان أن انضم عدد كبير من أمراء الشام إلى الناصر محمد الذي أخذ يعد العدة للزحف على مصر . ولم يكبد أهل مصر يعلمون بنية الناصر محمد في الحضور إليهم حتى أظهر واستمرهم ، وانفض معظم الأمراء في مصر ذاتها عن المظفر بيبرس ؛ وغادر بعضهم - مثل نوغاي - البلاد قاصداً الناصر محمد لمؤازرته في استرداد عرشه . وقد أطلع هؤلاء الأمراء الناصر محمد على حقيقة الحال في مصر وشجعوه على دخول البلاد حيث سيرحب به عامة الناس والجند ؛ الأمر الذي شجبه على اتخاذ تلك الخطوة^(١).

أما السلطان المظفر بيبرس ، فبدلاً من أن يتدارك أموره ويرضى بالأمر الواقع ، حاول أن يبذل محاولة أخيرة للاحتفاظ بعرشه ، فطلب من الخليفة العباسي المستكفي بالله أن يجدد له عهد البيعة سنة ١٣٠٩ ، فتم ذلك وكان المتأدون في القاهرة يصيحون : سلطانكم الملك المظفر وطيّبوا قلوبكم ومن تكلم فيما لا يعينه قتل^(٢) ، ولكن كل هذه الإجراءات لم تفلاح في تغيير مجرى الأمور . وأخيراً وجد بيبرس الجاشنكير نفسه في موقف لا يحسد عليه ، بعد أن انفض عنه الشعب ومعظم الأمراء وصار وحيداً أمام الأخبار التي أخذت تترى عن قرب تحرك الناصر محمد . ويقال إن الأمير سلاّر نائب السلطنة رأى من واجبه أن يبصر السلطان بحقائق الأمور ، فدخل عليه وقال له : يا مولانا السلطان ؛ إن غالب الأمراء والمماليك السلطانية قد تسحبوا من القاهرة وتوجهوا إلى الملك الناصر بالسكر ، وقد وقع الاختيار على عوده ، ومن الرأي أن ترسل إلى الملك الناصر لتسأله في مكان تتوجه إليه أنت وعيالك فلعله يجيبك إلى ذلك ؛ وإن لم تبادر إلى هذا دهمتك العساكر وهجموا علينا وأنت هنا^(٣) .

(١) المقريزي : السلوك ج ٢ ص ٥٩ .

(٢) زيركشتين : تاريخ المماليك ص ١٣٩ .

(٣) ابن أبياس : بدائع الزهور ، ج ١ ص ١٥٢ .

وفي تلك الأثناء جاءت الأخبار بأن الناصر محمد خرج من الكرك قاصداً دمشق حيث استقبله أهلها استقبالا حاراً وأقيمت له الخطبة وقدم له أمراء الشام وفروض الولاء (١). ولم يسع السلطان المظفر بيبرس لإزاء تلك الأخبار سوى أن يعلن تنازله عن العرش ، فأرسل إلى الناصر محمد يسترضيه ويطلب منه العفو ويقول له ما نصه : « إن حبستني عددت ذلك خلوة وإن نفيقتي عددت ذلك سياحة وإن قتلتني كان ذلك لي شهادة » (٢) ؛ وطلب من الناصر أن يمنحه الإقامة في الكرك أو صهيون أو حماء . ريدو أن يببرس الجاشنكير أحسن فعلا بأن بقاءه في القاهرة صار متعذرا ، فقرر الخروج إلى أطمحبع بعد أن استولى على مافي خزائن الدولة من أموال . وعندما سمع العامة خبر هروبه دبعبوه وهم يصيحون وراءه بهتافات عدائية ورجعوه بالحجارة (٣) .

سلطنة الناصر محمد الثالثة : (١٣٠٩ — ١٣٤٠)

وأخيراً خرج الناصر محمد من دمشق قاصداً القاهرة فوصلها في سلام واستقبل في جميع البلاد التي مر بها بالترحاب والسرور ، حتى دخل قلعة الجبل وبذلك بدأت سلطنته الثالثة .

وتعتبر هذه السلطنة الثالثة للناصر محمد على جانب كبير من الأهمية ، إذ ظهرت فيها شخصيته بعد أن أصبح شابا يافعا ، فعزم من أول الأمر على القبض على زمام الأمور في الدولة بنفسه وعدم الاستسلام لكبار الأمراء يتحكمون فيه كما حدث في المرتين السابقتين . هذا إلى أن حكم الناصر محمد في تلك المرة استمر مدة طويلة بلغت إحدى وثلاثين سنة (١٣٠٩ — ١٣٤٠) وهي مدة لم يتمتع

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٦٠ — ٢٦٥ .

(٢) المرجع السابق ج ٨ ص ٢٧٠ — ٢٧١ .

(٣) العيني : عقد الجمان ، ج ٢٢ ق ١ ص ١٦٨ (خطوط) .

بها سلطان واحد من سلاطين المماليك السابقين أو اللاحقين ؛ الأمر الذي أعطى عصر الناصر محمد طابعاً خاصاً فريداً ، والذي جعل اسم الناصر محمد يحتل مكانة خاصة في قلوب الناس . وساعد على يريق تلك الهالة التي أحاطت به عصر السلطان الناصر محمد ، أن دولة المماليك بلغت عندئذ أقصى درجات الاتساع والعظمة بعد أن نجحت في قهر التتار وطرد الصليبيين من الشام وبدأت في صورة القوة العظمى في الشرق الأدنى بوجه خاص والعالم الإسلامي بوجه عام . وأخيراً فإنه لا يخفى علينا أن شخصية الناصر محمد نفسه كان لها أثرها في رسم صورة الإطار العام لعصره ؛ فقد وصف المؤرخون ذلك السلطان بأنه كان « ملكاً عظيماً ، محظوظاً ، مطاعاً ، مهيباً ، ذا بطش ودهاء ، وحزم شديد وكيد مديد ... » (١) .

وقد بدأ الناصر محمد سلطنته الثالثة بالانتقام من كبار الأمراء الذين أذلوه ، فألقى القبض على بيبرس الجاشنكير قرب غزة وهو يحاول الفرار إلى الشام ، واستحضر الناصر محمد غريمه ليؤنبه على سوء أفعاله ويذكره بمواقفه ، فقال له مانصه : « أذكرك وقد صحت على وقت كذا بسبب فلان ، ورددت شفاعتي في حق فلان ، واستدعيت نفقة في وقت كذا من الخزانة ففنعمتها ، وطلبت في وقت حلوى بلوز وسكر ففنعمتي يا ركن الدين أنا اليوم أستاذك وأمس تقول لما طلبت أوز مشوى ما يعمل به » (٢) وبعد ذلك أمر السلطان الناصر محمد بقتله فقتل ؛ في حين ألقي الأمير سلاار في السجن إلى أن مات (٣) .

وقد ظن بعض أمراء المماليك أن الناصر محمد في ذلك الدور هو الناصر محمد الذي عهدوه في الأدوار السابقة ، فحاول الأمير بكتمر الجوكندار نائب السلطنة

(١) أبو المحاسن : المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ج ٣ ورقة ٢٥٠ .

(٢) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٨٠ - ٨١ .

(٣) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٥٦ .

تدير مؤامرة لخلع الناصر محمد وإقامة ابن أخيه الأمير مظفر الدين موسى محله في السلطنة ؛ كما حاول المماليك الأشرفية إشعال نار الثورة من جديد . ولكن السلطان الناصر محمد قبض في تلك المرة بيد من حديد على شئون الحكم فأمسك بالأمير مظفر الدين موسى وزجه في السجن ، وقلم أظفار المماليك الأشرفية ، ولم يتساهل مع أي أمير - في مصر أو الشام - شك في ولائه وإخلاصه له (١).

وهكذا أثبت الناصر محمد كفاية نادرة ومقدرة في تصريف شئون الدولة بما أضفى عليه وعلى حكمه مهابة كبيرة في الداخل والخارج ، فكاتبه سائر الملوك وهادوه وهابره ، وصار جميع عسكر مصر في قبضته (٢) ، ولا أدل على موجة الرخاء التي عمت مصر في ظل حكم الناصر محمد من المنشآت العديدة والعمائر الضخمة التي أقامها ذلك السلطان من مدارس ومساجد وخانات وسبل وقصور ؛ وما زالت بقايا بعض هذه المنشآت قائمة في مصر والشام . وقد وصف المقرئ السلطان الناصر محمد بأنه كان « محبا للمهارة » كما ذكر أنه كان ينفق في كل يوم على المهارة سبعة آلاف درهم فضة ، أي ما يساوي ثلثمائة وخمسين دينارا ، وهو مبلغ ضخم بالنسبة لمستوى الأسعار في ذلك العصر (٣).

هذا كله بالإضافة إلى نضوج النظم المالية في عصر السلطان الناصر محمد ، فاستقرت دواوين الحكومة واستجدت كثير من التطورات في نظم الحكم ، وألغيت بعض الوظائف الكبرى - مثل وظيفة نائب السلطنة ووظيفة الوزير - واستحدثت بدلها وظائف أخرى مثل وظيفة ناظر الخاوص واهتم كذلك السلطان الناصر محمد بتقظيم الموارد المالية وزيادة الدخل عن طريق

(١) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٢٤ - ٢٥

المقرئ : السلوك ج ٢ ص ٩٩ - ١٠٠ .

(٢) ابن مياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٧٣ .

(٣) المقرئ : المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٣٠٦ .

الإعاش الاقتصادي ؛ مما سنفير إليه في مواضع معينة من هذا الكتاب .

وفي جميع هذه الأعمال ، استعان السلطان الناصر محمد بن قلاوون بمجموعة طيبة من أمرائه المخلصين . غير أنه يبدو أن الناصر محمد كانت لديه دائماً عقدة من ناحية الأمراء ، فظلت علاقته بهم تنصف بالشك والريبة ، واشتهر عنه في التاريخ أنه كان يقرب الأمير منه وينيد من ألقابه ويضفي عليه الكثير من ألوان التشفير ، حتى إذا ما أحس بازدياد نفوذه غدر به فجأة وتخلص منه بطريقة أو أخرى . وتبدو تلك السياسة التي اتبعها السلطان الناصر محمد تجاه الأمراء بوضوح في علاقته بالأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري الذي ولاه الناصر نيابة بالشام ثم غدر به بعد قليل ، وفي علاقته بالأمير تمشكز الحسامي المنصوري الذي ولاه السلطان الناصر جميع بلاد الشام وزاد في ألقابه الكثير وصاهره ، ثم أبعد عن مناصبه وتخلص منه في نهاية الأمر (١) .

عصر أولاد الناصر محمد : (١٣٤٠ - ١٣٦١)

لم يكن السلطان الناصر محمد بن قلاوون من شاكاة أولئك السلاطين الذين نسمع عنهم في عصر المماليك والذين حكم الواحد منهم عاماً أو بضعة أعوام وإنما استطاع الناصر محمد أن يحتفظ بالحكم ستين طويلة ، مما مكن لأولاده وأحفاده في قلوب الناس . ثم إن الظروف التي أحاطت بعصر الناصر محمد وكيفية عزله مرتين وتوابعه الحكم على ثلاث دفعات ، وما انتاب البلاد والعباد أثناء الفترات التي اعتزل فيها الحكم من مجاعات وشدائد وخوف ونقص في الأموال والأقوات .. كل ذلك جعل المعاصرين يزدادون تعلقاً بالناصر محمد وبيت قلاوون ويرون في بقائهم في الحكم ضماناً كافياً للاستقرار والرخاء .

(١) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٢٧٣ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ .

ولعل هذا هو السر في بقاء السلطنة سنين طويلة في ذرية الناصر محمد - من أولاد وأحفاد - وهو أمر ليس له شبيه في تاريخ سلطنة المماليك .

ولم يكن السلطان الناصر محمد نفسه أقل رغبة في الاحتفاظ لذريته بالملك من بعده ؛ من ذلك أنه عهد بالملك لابنه الأمير ناصر الدين أنوك سنة ١٢٣١ فأنقذه الأمراء على ذلك ، وأذعنوا لذلك كلهم . وكان أن ركب أنوك بشعار السلطنة ووزعت الخلع على كبار الأمراء وكبار الموظفين . ولكن لم يلبث أن خير السلطان الناصر محمد رأيه ، ورسم أن يلبس أنوك شـمار الأمراء ، ؛ وربما كان السبب في ذلك صغر سنه إذ كان عندئذ في التاسعة من عمره (١) . وكيفما كان الأمر ، فإن أنوك لم يلبث أن توفي بعد بضعة سنوات في حياة أبيه سنة ١٢٤٠ ، في الوقت الذي اشتد المرض بالناصر محمد نفسه . فجمع كبار الأمراء وأوعاظم باختيار ابنه سيف الدين أبي بكر سلطانا من بعده ، فتعهدوا له بذلك (١) .

وبوفاة السلطان الناصر محمد سنة ١٢٤٠ دخلت دولة المماليك مرحلة جديدة في تاريخها ، يمكن تسميتها عصر أبناء الناصر محمد وأحفاده . وأهم ما يلاحظ على هذه المرحلة - التي استمرت حتى سقوط دولة المماليك البحرية وقيام دولة المماليك البرجية أو الشراكسة سنة ١٣٨٢ - هو ازدياد نفوذ الأمراء وتعاقب عدد كبير من أبناء السلطان الناصر محمد ثم أحفاده في منصب السلطنة ومعظمهم كانوا صغارا أو أحيانا مما جعلهم أنعوبة في أيدي كبار الأمراء .

أما أبناء الناصر محمد الذين ولوا منصب السلطنة على التوالي من بعده فعددهم ثمانية حكموا لأحدى وعشرين سنة (١٢٤٠ - ١٣٦١) وبذلك يكون

(١) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٣٤٣ .

(٢) تاريخ ابن الوردي ج ٢ ص ٣٣٠ .

متوسط حكم الواحد منهم عامين ونصف تقريباً ، مما يشهد على مدى عدم الاستقرار الذى شهدته البلاد فى ذلك العصر .

وكان أول أولئك السلاطين من أولاد الناصر محمد السلطان سيف الدين أبو بكر الذى تلقب بالمنصور (١٣٤٠ - ١٤٣١) . ولم يكد هذا السلطان بلى السلطنة بعد وفاة أبيه حتى دب الخلاف بينه وبين الأمير قوصون أنابك العسكر . وكان سيف الدين أبو بكر شاباً فى العشرين من عمره ، ليست له خبرة بأخلاق كبار الأمراء والأعيان ، فاستثار قوصون بقية الأمراء ضده ، وقال لهم ما نصه : هذا السلطان يريد أن يقتلكم ولا يغنى أحداً منكم ،^(١) وعندئذ استجاب الأمراء لقوصون الذى قبض على السلطان وفاء إلى قوصون حيث قتل بعد قليل ، قبل أن تمر ثلاثة أشهر على اعتلائه عرش السلطنة^(٢) .

وبعد قتل السلطان أبي بكر ، استحضرت قوصون أخاه علاء الدين كجك وولاه السلطنة بلقب الأشرف (سنة ١٣٤١) . وكان السلطان الأشرف كجك فى الخامسة من عمره ، ولذا لم يكن منمتظر أمه أن يكون له رأى مسموع فى إدارة شئون البلاد ، فظل فى السلطنة خمسة أشهر وعشرة أيام د لم يكن له فيها أمر ولا نهى . وتدير أمور الدولة كلها إلى قوصون ،^(٣) .

وكان أن خلع الأمراء كجك وعينوا بدله أخاه أحمد الذى لقب بالناصر (١٣٤٢) . وكان أحمد وقت تعيينه سلطاناً مقيماً بالكرك . فلم يكد يحضر إلى مصر حتى غلب فى العودة إلى الكرك مرة أخرى ، وفعلاً انتقل إليها وترك الدواوين فى مصر . وهكذا ساءت أوضاع البلاد بعد أن صار السلطان مقيماً فى الكرك فى جوف الصحراء تاركاً مصر والشام للأمراء الذين د شق عليهم غيبة

(١) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٦٦٨ — ٦٧٠ .

(٢) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٧٧ .

(٣) المقريزى : السلوك ، ج ٢ ص ٥٩٣ .

السلطان منها، واضطربت أحوال القاهرة وصارت غوغاء .. وعند ما طلب
الأمراء من السلطان الحضور إلى قاعدة ملكه بالقاهرة ، رد عليهم قائلاً :
« إننى قاعد فى موضع أشتهى ، وأى وقت أردت حضرت إليكم » (١) .

ولم يرض الأمراء عن ذلك الوضع فخلعوا الناصر أحمد من السلطنة - ثم
قتلوه فيما بعد - وأحلوا محله أخاه اسماعيل الذى لقب بالصالح (١٣٤٢-١٣٤٥) .
وقد وصف المقرئى السلطان الصالح اسماعيل بأنه « أعرض عن تدبير الملك
بإقباله على النساء المطربين » . ومع انخفاض إيرادات الدولة وقتئذ فإن العمار
والمنهآت ظلت تستأثر بمبالغ ضخمة من المال (٢) . ولاست هذه أهمية خاصة
لعمد الصالح اسماعيل سوى أنه شارك فى قتل أخيه السلطان السابق الناصر أحمد
بعد أن ساءت سيرته فى السكر . ولم يلبث الصالح اسماعيل نفسه أن مرض
وتوفى سنة ١٣٤٥ .

أما السلطان الكامل شعبان (١٣٤٥ - ١٣٤٦) ابن الناصر محمد الذى
تولى السلطنة بعد أخيه الصالح اسماعيل ، فلم يكن أقل من أخيه عبثاً وجوراً
واستهتاراً بمصالح الحكم ، فأغضب الأمراء ، وحاول قتل أخويه حاجى وحسين
ولكن الأمر انتهى بالقبض عليه وعندئذ قتله أخوه حاجى الذى تولى السلطنة
وتلقب بالمظفر (١٣٤٦-١٣٤٧) (٣) .

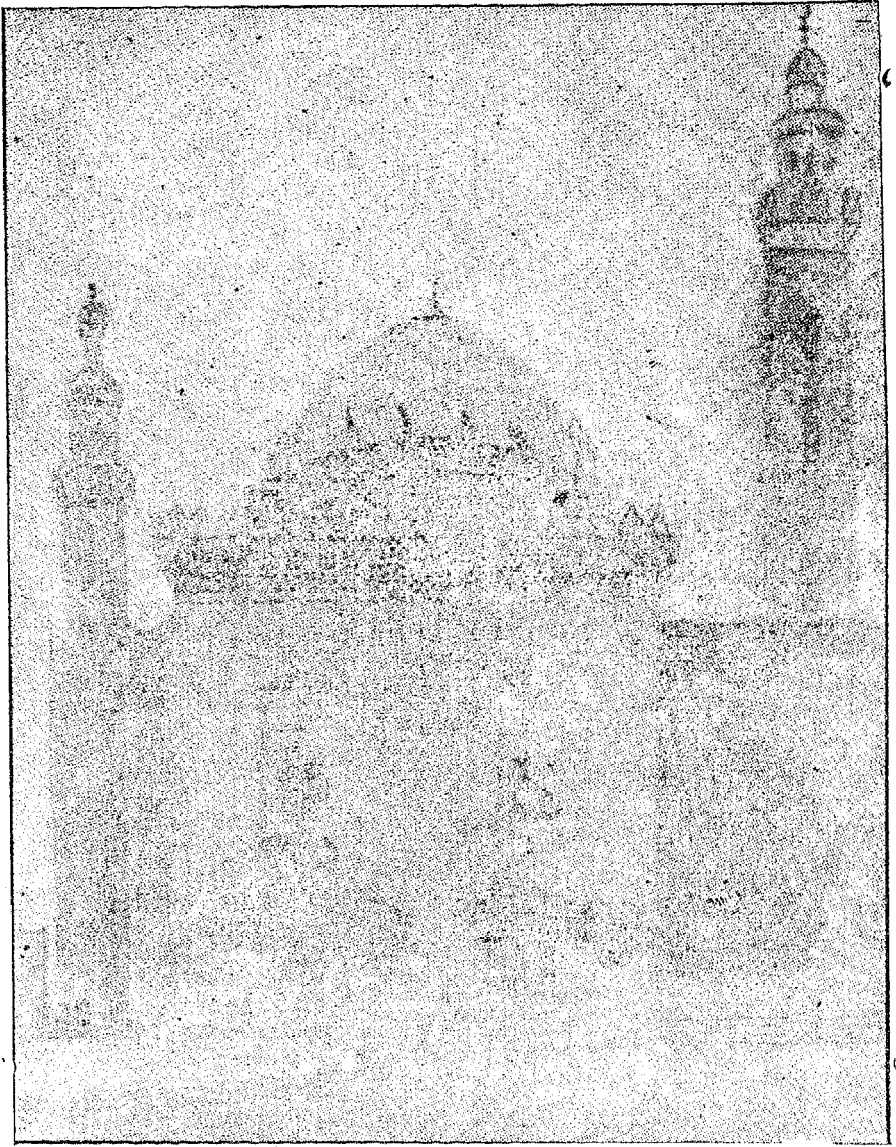
وكان المظفر زين الدين حاجى فى الحادية عشر من عمره عندما اعتلى عرش
السلطنة ، فانشغل باللعب واللهو ، وتشاغل بلعب الحمام مع « الأوباش » ، الأمر
الذى أغضب الأمراء فقتلوه قبل أن تمر سنة على اعتلائه العرش (٤) .

(١) أبو المحاسن : النجوم ج ١٠ ص ٦٩ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ٩ ص ٦٧٩ .

(٣) ابن لياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٨٦ - ١٨٨ .

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ١٥٨ ، ١٧٢ - ١٧٣ .



جامع السلطان حسن بالقاهرة

ولم يكن السلطان الناصر حسن (١٣٤٧ - ١٣٥١) الذي ولي السلطنة بعد ذلك أفضل حالا من إخوته ، إذ تولى السلطنة وهو في الحادية عشرة من عمره ، فظل ألوية في يد كبار الأمراء الذين رتبوا المصروف اليومي للسلطان بحيث لا يتعداه ، ولم يسمع بمثل ذلك أن يكون ملك يجلس على تخت الملك ، ويصرف الأمور بالعزل والولاية ، وتحمل إليه أموال مصر والشام ولا يتصرف منها في شيء ،^(١) وعندما حدث خلاف بين السلطان الناصر حسن والأمراء ، لم يصعب على الأمراء إلقاء القبض على السلطان وحبسه ، وتعيين أخيه الصالح صلاح الدين بدله سلطاناً (١٣٥١ - ١٣٥٤) . وقد وصف المؤرخ أبو الحاسن السلطان الصالح بأنه لم يكن له في سلطنته إلا مجرد الاسم فقط ، لغلبة (الأمراء) شيخون وطاوع وصرقتمش على الأمر ، لأنهم كانوا هم حل المملكة وعقدها وإليه أمورهم لا غيرهم ،^(٢) . وسرعان ما انتهى أمر السلطان الصالح إلى العزل والحبس بالقلعة ، وعندئذ أعاد الأمراء الناصر حسن إلى السلطنة^(٣) .

وقد قضى السلطان الناصر حسن في سلطنته الثانية أكثر من ست سنوات (١٣٥٤ - ١٣٦٠) بامر فيها شئون الحكم بنفسه لأنه كان قد بلغ سن الرشد . وقد أجمع المؤرخون على وصف السلطان الناصر حسن بالشجاعة والكرم والعقل فساكن محباً للرعية ، وفيه لين جانب ، حمدت سائر خصاله . كما اهتم بالعمارة وأنشأ كثير من المباني الفاخرة . ومع ذلك فإن الناصر حسن لم يكن بمنجاة من تدخل كبار الأمراء في شؤونه وبطشهم به ، حتى انتهى الأمر بأن قبض عليه الأمير يلبغا . وقد اختلفت الأقوال فيما حدث للناصر حسن بعد ذلك ، وإن كان الغالب أن عماليك يلبغا قتلوه من غير مشاورة بعضهم لبعض ،^(٤) .

(١) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٧٥١ .

(٢) أبو الحاسن : النجوم ج ٦ ص ١٠ ص ٢٨٧ .

(٣) ابن لباس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٩٤ .

(٤) أبو الحاسن : النجوم الزاهرة ج ١٠ ص ٣١٤ .

وبقتل الناصر حسن انتهى عصر أولاد السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وانتقل الحكم إلى أحفاد الناصر محمد منذ سنة ١٣٦١ .

الوباء الأسود :

ومن هذه الصورة القائمة التي يرسمها التاريخ لعصر أبناء الناصر محمد، يتضح لنا أن البلاد غدت نهياً لمجموعة من أمراء المماليك، يتلاعبون بالسلطتين الأحداث حسبما يحلو لهم. أما عامة الأهالي في مصر فكانوا يقفون غالباً موقف المتفرج، ليكون لمقتل سلطان ليقيموا الأفراح والزينات للسلطان الجديد. وهكذا عاش عامة أهل مصر والشام من الفلاحين والتجار وغيرهم في تلك الفترة بين تيارات داخلية متضاربة ومؤامرات بين الأمراء متعاقبة. وليس هناك ما يستحق الإشارة في تلك الفترة بالنسبة لأحوال البلاد الداخلية سوى انتشار الوباء الأسود في أنحاء الدولة سنة ١٣٤٩م (٧٤٩ هـ).

والمعروف أن العالم - مشرقه ومغربيه - شهد في العصور الوسطى كثيرًا من الأزمات الاقتصادية التي جاءت مصحوبة بانتشار الأوبئة نتيجة لعجز الإنسان عن التحكم في قوى الطبيعة من ناحية ولا انتشار الجمل وضعف وسائل العناية الصحية من ناحية أخرى. على أن وباء من الأوبئة لم يستأثر باهتمام المؤرخين مثلما استأثر الوباء الأسود، نظراً لقسوته وخطورة نتائجه واتساع انتشاره في بلاد الشرق والغرب جميعاً^(١). ويصف المؤرخ المقرئ كيفية انتشار هذا الوباء فيقول ما نصه : ولم يكن هذا الوباء كما عهد في إقليم دون إقليم، بل عم أقاليم الأرض شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، جميع أجناس بني آدم وغيرهم حتى حييتان

(١) من الوباء الأسود وأثره في أوروبا، انظر المؤلف:

أوروبا العصور الوسطى ج ١ ص ٦٠٩.

البحر وطير السماء ووحش البر ، ثم يشرح بعد ذلك كيف أصيبت بلاد المغول بالوباء الأسود حتى دانت خيولهم وصاروا كلهم جيفاً مرمية ، ثم أخذ الوباء يزحف شرقاً عن طريق بلاد المغول وغرباً عن طريق القسطنطينية ، حتى وصل إلى الشام ومنها إلى مصر . أما أعراض ذلك الوباء ، فكانت ظهور خراج صغير خلف أذن الإنسان ونحت لإبطه ، ولا يلبث بعد ذلك أن يصبق المصاب دماً ثم يموت بعد عدة ساعات .

وقد انتشر ذلك الوباء في مصر والشام انتشاراً فظائعاً فصار الناس يموتون كل يوم بالآلاف ، وغدت الأرض لا يوجد من يزرعها ووزهد أرباب الأموال في أموالهم وبذلوها للفقراء ، وكان انتشار هذا الوباء في سلطنة الناصر حسن الأولى ، فبادر السلطان والأمراء إلى النجاة بأنفسهم وخرجوا جهة سرياقوس ولا تخفى علينا الآثار الخطيرة التي ترتبت على انتشار ذلك الوباء ، إذ أفقرت الأرض لعدم وجود من يفلحها ، وأفقرت الأسواق من البائعين والمشتريين وانحلت إقطاعات كثيرة لوفاة أصحابها وتوقفت الأحوال بالقاهرة ومصر ... وأبطل كثير من الناس صناعاتهم وانتدبوا للقراءة أمام الجنائز ... وبطلت الأفراح والأعراس من بين الناس . وفي ذلك قال بعض الشعراء (١) :

فهذا يوصى بأولاده	وهذا يودع إخوانه
وهذا يهوى أشغاله	وهذا يجهز أكفانه
وهذا يصالح أعداءه	وهذا يلاطف جيرانه

وخلاصة القول أن انتشار الوباء الأسود في عصر أبناء السلطان الناصر محمد جاء ليزيد أحوال البلاد سوءاً فوق سوء .

عصر أمجاد الناصر محمد (١٣٦١ - ١٣٨٢) :

لم يكد الأمير يلبغا يعزل السلطان الناصر حسن ابن الناصر محمد ويقتله حتى اختار صلاح الدين محمد ابن المظفر حاجي ابن الناصر محمد سلطاناً سنة ١٣٦١ . وبذلك بدأ عصر أحفاد الناصر محمد ، وهم أربعة تعاقبوا في منصب السلطنة بين سنتي ١٣٦١ ، ١٣٨٢ . ولم يختلف عصر أحفاد الناصر عن عصر أولاده في صفاته العامة التي يمكن تلخيصها فيما يلي :-

١ - صغر سن السلاطين الذين تعاقبوا على دامت السلطنة ، وهي الحقيقة التي تتضح إذا عرفنا أن السلطان المنصور صلاح الدين محمد (١٣٦١ - ١٣٦٣) تولى السلطنة وسنه ١٤ سنة ، والسلطان الأشرف زين الدين أبوالمعالى شعبان (١٣٦٣ - ١٣٧٦) تولى السلطنة وسنه عشر سنوات والسلطان المنصور علاء الدين علي (١٣٧٦ - ١٣٨١) تولى السلطنة وسنه ست سنوات والسلطان الصالح زين الدين أمير حاج (١٣٨١ - ١٣٨٢) تولى السلطنة وسنه إحدى عشر سنة .

٢ - كانت النتيجة الطبيعية لصغر سن السلاطين هي ازدياد نفوذ كبار الأمراء واشتداد سطوتهم ، وتحكمهم في مصالح البلاد والعباد ، وتلاهم بالسلاطين الصغار - إما بال عزل أو بالتهيين - وفق أهوائهم .

٣ - اشتد الصراع بين كبار الأمراء بعضهم وبعض وازداد التنافس والعداء بين طوائف المماليك الذين انقسموا أشيعاً وأحزاباً يتقاتلون في شوارع القاهرة بين حين وآخر ، مما أغرق البلاد في حالة شديدة من الفوضى .

٤ - ازداد نفوذ طائفة المماليك الهرجية ، أو الجراكسة ازدياداً مضطرباً وهو الأمر الذي ستمرضى له بالتفصيل فيما بعد . وتكفي الإشارة الآن إلى أن طائفة الهرجية هي التي استطاعت أن تمسك الجولة النهائية في الصراع الذي

احتدم بين طوائف المماليك ، حتى تم لها انتزاع السلطنة سنة ١٣٨٢ وتأسيس دولة المماليك البرجية أو الجراكسة ؛ وبذلك انتهت دولة المماليك البحرية وانتهت أمرة قلاون .

- اشتد الانحلال الخلقي في ذلك العصر - عصر أحفاد الناصر محمد - بشكل واضح ؛ وكان السلاطين وكبار الأمراء هم مصدر البلاد فاشتهر سلاطين ذلك العصر بالإدمان في شرب الخمر ، [حتى] قيل عن السلطان المنصور صلاح الدين محمد (١٣٦١ - ١٣٦٣) إنه كان لا يفيق من السكر ساعة وعنده جوفة مغنيات نحو عشرة من الجواري يدقون بالطارات عند الصباح والمساء ، كما أنه كان يفسق في حریم الناس ويخل بالصلوات .. (١) .

محمد بطرسى لوزمجانلى على الاسكندرية سنة ١٣٦٥ :

وإذا كانت البلاد قد ابتليت في عصر أولاد الناصر محمد بانتشار الوباء الأسود - كما سبق أن أشرنا ، فإن عصر أحفاد الناصر محمد ابتليت فيه مصر بحملة صليبية كبرى خرجت من الإسكندرية سنة ١٣٦٥ ، وتعتبر هذه الحملة من الحلقات الأخيرة في سلسلة الحروب الصليبية .

والواقع إن الحروب الصليبية - كما سبق أن أشرنا - لم تنته بطرد الصليبيين نهائياً من الشام سنة ١٢٩١ ؛ وإنما استمرت ذبول تلك الحروب أمدا طويلا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر . وفي ذلك الدور الختامى من أدوار الحروب الصليبية ، استمرت دولة المماليك تنهض بدورها كاملا في تلقى الضربات الصليبية من ناحية وفي الدفاع عن الوطن الإسلامى في الشرق الأدنى ضد هجمات الصليبيين من ناحية ثانية ، ثم في الثأر من المعتدين وتأديبهم من ناحية ثالثة .

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٧٠ .

وكان لطرد الصليبيين كلية من الشام رد فعل عنيف في الغرب الأوربي ،
فنادى المتحمسون للحروب الصليبية — وعلى رأسهم البابوية — بأن دولة
المماليك هي السبب وأنه لا سبيل لاستعادة بلاد الشام إلا بإضعاف دولة المماليك
أولاً . ولما كان معروفاً أن دولة المماليك تستمد ثروتها وقوتها من احتكار
التجارة بين الشرق والغرب فقد نادى أصحاب المشاريع الصليبية في القرنين
الرابع عشر والخامس عشر بضرورة فرض حصار اقتصادي شديد على شواطئ
مصر والشام لمنع التجار الأوربيين من الوصول بسفنهم إليها والمتاجرة مع
دولة المماليك ، فتصاب تجارة المماليك بالكساد والبوار ، وبالتالي يفقدون
الأساس الأول لثروتهم وقوتهم (٢) .

وقد أصدرت البابوية عدة مراسيم تحرم على التجار الأوربيين الذهاب
بسفنهم إلى شواطئ دولة المماليك والمتاجرة مع المسلمين . ولكن كثيراً من
التجار الإيطاليين بصفة خاصة رفضوا تنفيذ الأوامر البابوية حرصاً على
مصالحهم الاقتصادية ، ومن ثم لم يعد هناك مفر أمام البابوية من إنشاء قوة
بوليسية بحرية في شرق البحر المتوسط قمم ذلك الغفر من التجار الأوربيين
الذين استمروا يفتنون دولة المماليك بأموالهم ، ضارين عرض الحائط
بنداءات البابوية وأوامرها (٣) .

ولم يكن هناك في شرق حوض البحر المتوسط أفضل من جزيرة قبرص
يتخذها الغرب الأوربي مركز المراقبة الشواطئ الإسلامية في مصر والشام من
جهة ، ولضرب المسلمين وشن إغارات على موانئهم من جهة أخرى . والمعروف
أن جزيرة قبرص دخلت دائرة الحروب الصليبية في أواخر القرن الثاني عشر

(١) سعيد عاشور . الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩١٩٩ - ١٢٠٨ .

(2) Heyd : Hist du Commerce, II, p. 580 & I p. 26 .

عندما استولى عليها ريتشارد قلب الأسد في الحملة الصليبية الثالثة . ومنذ ذلك الوقت وجزيرة قبرس — تحت حكم ملوكها الصليبيين من آل لوزجنان — تقوم بدور بارز في النشاط الصليبي في شرق حوض البحر المتوسط ، وهو الدور الذي ازداد قوة وبرزوا عقب طرد الصليبيين من الشام في أواخر القرن الثالث عشر ، إذ غدت قبرس منذئذ أكبر قاعدة صليبية في شرق البحر المتوسط (١) .

ذلك أن ملوك قبرس من آل لوزجنان لم يكتفوا بتقديم المضاريع الصليبية التي استهدفت خنق دولة المماليك ، ولم يقنعوا بجعل جزيرتهم مركزاً لتهديد التجارة المماليكية عن طريق إيواء القراصنة الذين دأبوا على مهاجمة السفن والموانئ الإسلامية من ناحية ، وفرض رقابة على السفن الأوربية لمنعها من الوصول من موانئ مصر والشام من ناحية أخرى .. لم يكتف ملوك قبرس من آل لوزجنان بكل ذلك ، وإنما شرعوا يهاجمون بأنفسهم المسلمين حينما وجدوهم في آسيا الصغرى والشام ومصر ، وبذلك بدأوا صفحة جديدة في تاريخ الحروب الصليبية أو آخر العصور الوسطى (٢) .

ومن أبرز الهجمات الصليبية التي شنّها ملوك قبرس على بلاد الإسلام في القرن الرابع عشر ، تلك الحملة الجريئة التي قام بها بطرس الأول لوزجنان ضد مدينة الإسكندرية سنة ١٣٦٥ . وقد مهد الملك بطرس لخطته برحلة واسعة زار فيها كثيراً من بلدان الغرب الأوربي فضلاً عن البابوية ، وحصل على مساعدات وإمدادات بشرية وحرارية وعادية كبيرة وأخير اجتمعت تلك الجهود في جزيرة رودس تمهيداً لاختيار أصلح نقطة في دولة المماليك يمكن أن يوجه إليها الصليبيون ضربتهم . وكان أن أشار أحد الصليبيين على ملك قبرس بأن توجه الحملة ضد

(١) سميح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٢٠ .

(٢) سميح عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ٤٦ .

الإسكندرية على أن يهاجها الصليبيون يوم الجمعة والمسلمون في المساجد^(١).

وكان أن وصلت السفن الصليبية إلى الإسكندرية بقيادة بطرس لورجنان ملك قبرس في أكتوبر سنة ١٢٦٥ ؛ في وقت كانت دولة المماليك تعاني خلافا واضحا واضطرابا كبيرا نتيجة لقيام سلطان قاصر — هو السلطان الأشرف شعبان حفيد الناصر محمد بن قلاوون — ووصى جائر متفطرس عسوف هو الأمير يلبغا الخاصكى^(٢). هذا في حين كان نائب الإسكندرية ، وهو الأمير خليل صلاح الدين بن عرام ، متغيبا في أداء فريضة الحج . وفي مثل تلك الظروف لم يصعب على الصليبيين إزال قواهم إلى الشاطئ ، فاحتلوا الإسكندرية يوم الجمعة ١٠ أكتوبر وانسابت قواتهم في شوارع المدينة يحرقون المساجد ويخربون الخانات ويدمرون المنازل ويعتدون على كل من صادفهم من النساء والأطفال والشميوخ ، وينهبون كل ما وصلت إليه أيديهم من بضائع وأموال^(٣).

وهكذا قضى الصليبيون في الإسكندرية نحو من ثلاثة أيام كانت من أسود الأيام في تاريخ المنفى ، ولم يغادروها إلى سفنهم إلا بعد أن أحسوا بقرب جيوش المماليك التي أسرعت من القاهرة لإنقاذ الإسكندرية . ويقال إن السفن الصليبية حملت معها عند رحيلها خمسة آلاف أسير منهم المسلم والمسلمة واليهودى واليهودية والنصراني والنصرانية ...^(٤) . هذا فضلا عن المنهوبات والبضائع المسروقة ، حتى ضاقت السفن بما فيها وثقلت بما عليها فاضطر الصليبيون إلى إلقاء بعض حمولتها في البحر لتخفف من كثرة الوسق^(٥).

(١) Machaut : La Prise de l' Alexandrie P. 91.

(٢) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ٦٢ .

(٣) النويرى السكندرى : الإلالم بالأعلام ج ١ ص ٢٢٦ — ٣٣٥ (مخطوط) .

ابن حبيب : درة الأسلاك في دولة الأتراك ج ٣ ورقة ١٣ وما بعدها .

(٤) المقرئى : السلوك ج ٤ ورقة ٤٧ (مخطوط) .

(٥) النويرى : الإلالم ج ١ ص ٣٣٣ (مخطوط) .

وأخيراً وصل يلبغا الخاصكى إلى الإسكندرية في جند كثيف كالجراد المنتشر ، بعد أن أخلاها الصليبيون ، فشهد ما حل بها من دمار وخراب ، ورأى جيش القتلى وقد انتفخت وجافت ، فأمر بدفن من استشهد من المسلمين وترميم ما خرب وأحرق (١) . وقد عاب المؤرخون المسلمون المعاصرون على ملك قبرس سرعة جلانه وعدم ثباته ودفاعه فوصفوه بأنه « دخلها لها وخرج منها لصاً » (٢) .

ثم إن بطرس لوزجنان لم يكتف بما فعله بالإسكندرية وإنما أغار على طرابلس بالشام سنة ١٣٦٧ ، وإن كانت تلك الإغارة قد منيت بالفشل (٣) . وهكذا تكرر عدوان الصليبيين على موانئ مصر والشام وسفن المسلمين في البحر المتوسط ، مما يدل على ضعف هيبة دولة المماليك في عصر أحفاد الناصر محمد بن قلاوون ، وعدم وجود قوة كبرى في ذلك الوقت تزود عن البلاد وتثار للعباد .

(١) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ٦٩ .

(٢) النويرى : الإسلام ج ١ ورقة ٥١٦ (مخطوط) .

(٣) المقريزى : السلوك ج ٤ ورقة ٦٠ (مخطوط) .

الفصل السادس

دولة المماليك الجراكسة

أصل المماليك البرجية ونسبهم :

إذا أردنا أن نختار صفة بارزة شاملة لعصر سلاطين المماليك، فلن نجد أبرز من صفة العصبية . فعصر المماليك كان عصر عصبيات، تقاسمت النفوذ والسلطان فيه عصبيات شتى ، لكل سلطان عصبية من المماليك السلطانية واسكل أمير عصبية من المماليك الذين ارتبطوا به ودانوا له بالفضل واعتبروه أستاذهم وولي نعمتهم . وبقدر ما تقوى عصبية السلطان ويزداد عدد مماليكه بقدر ما يستطيع الهمود في وجه منافسات الأمراء ومؤامراتهم وكذلك بقدر ما تقوى عصبية الأمير بقدر ما يتمكن من مغالبة زملائه وأقرانه من الأمراء ، بل من مغالبة السلطان نفسه وانتزاع دست السلطنة منه ، كما حدث في كثير من الحالات .

لذلك لا عجب إذا كثرت أسماء طوائف المماليك وعصبياتهم، فنسمع من الصاحبة والظاهرية والمنصورية والأشرفية .. ثم تعدد الأسماء في كتب التاريخ بتكرار ألقاب السلاطين فنسمع عن الأشرفية خليل والأشرفية برسباي . وهكذا . وإذا كان السلطان شديد اليأس كثير المماليك ، فإنه يستطيع أن يكتم أنفاس طوائف المماليك الأخرى المنسوبة إلى السلاطين السابقين أو الأمراء القائمين ، أما إذا كان السلطان ضعيفاً قليل الخيلة ، فعنى ذلك احتدام المنافسات بين طوائف المماليك بعضهم وبعض من ناحية ، أو بين بعضهم والمماليك السلطانية من ناحية أخرى ، وبذلك تستمر البلاد خارقة في حالة من الفوضى حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً . ولعل هذا هو السر في أن كل سلطان بعيد النظر، وكل

أمير حريص على تحقيق مهامه كان يدأب دائماً على الإكثار من شراء الممالك الصغار وتربيتهم والحنو عليهم ليصيروا في المستقبل عدته وأمله في البقاء والوصول .

ومن أولئك السلاطين الذين قدروا تلك الناحية وحسبوا لها حساباً ، السلطان المنصور قلاون ، الذي سبق أن تكلمنا بالتفصيل عن قوة شخصيته وطموحه قبل أن يلي السلطنة وبعد أن وليها ، كما شرحنا أعماله الحربية الضخمة ضد التتار والصليبيين وفي النوبة . ويهمنا الآن أن نشير إلى أن السلطان المنصور قلاون أراد أن يكون طائفة جديدة من الممالك ، تختصه بولائها وترتبط به دون غيره من الأمراء المنافسين ، وتختلف في أصولها عن الطوائف المماليكية الأخرى القائمة . وكان أن اختار قلاون أن ينشأ فرقته الجديدة من عنصر الجر كس — الذين كانوا ينتشرون شمالي بحرقزوين وشرقي البحر الأسود — حتى لا تربطهم روابط القرى والعصية بخيرهم من طوائف الممالك السابقة ، والذين كان معظمهم من الخوارزمية والأتراك (١) .

ولاندري بالضبط الدوافع التي دفعت السلطان المنصور قلاون إلى اختيار ممالك فرقته الجديدة من الجر كس بالذات ؛ فهل يرجع ذلك إلى توافرهم في أسواق الرقيق بعد أن شردهم المغول من بلادهم ، أم أن السبب هو ما اشتهروا به من شجاعة وقوة جعلت السلطان قلاون يتوسم فيهم الأداة الصالحة لتحقيق أغراضه ؟ وسواء كان السبب الذي دفع قلاون إلى اختيار ممالك الجر كس من عنصر الجر كس هو هذا أو ذلك من الأسباب ، فإن ثمة حقيقة هامة يجب ألا نسقطها من اعتبارنا هي أن الرقيق الجر كس كانوا عندئذ — بسبب كثرتهم وتحكم قانون العرض والطلب — أرخص سعراً من عناصر الرقيق الأبيض الأخرى ،

حتى قرر بعض الباحثين أن متوسط ثمن الرأس من الجراكسة بلغ وقتذاك ١١٥ ديناراً في حين أن متوسط ثمن الرأس من عنصر الترك بلغ ١٣٥ ديناراً (١).

ومهما يكن من أمر، فإن السلطان المنصور قلاوون بدأ في تنفيذ مشروعه حوالي سنة ١٢٨١، فأخذ يشتري أعداداً كبيرة من الجركس ليكوفوا مثل الحصون المانعة لى ولأولادى وللمسلمين (٢)، وأسكنهم بجواره في أبراج القلعة، ومن ثم أوقف هذه الطائفة في التاريخ تسمية «المماليك البرجية» (٣). ولم يلبث أن أكثر قلاوون من شراء الجراكسة حتى بلغوا في أواخر عهده أكثر من ثلاثة آلاف مملوك (٤)، حرص على الفصل بينهم وبين غيرهم من طوائف المماليك الأتراك، وأشرف بنفسه على تدريبهم على استخدام الرماح ورمي النشاب، كما حباهم بمطافه ولم يضمن عليهم بالمال الوفير والطعام الشهي والملبس الجليل، فضلاً عن أنه — هر وأبنائه من بعده — اختصهم بالعرفية إلى بعض الوظائف الكبرى في البلاط (٥).

وإذا كان السلطان المنصور قلاوون قد أعلنها في صراحة أنه كون فرقة المماليك البرجية لتكون حصناً مانعاً له ولأولاده، فإنه كان طبيعياً أن يتم أولاد السلطان المنصور بملك الطائفة التي أنشأها أبوهم لتكون حصناً لهم، وساعد على ذلك أن المنصور قلاوون لم ينجح فقط في تأسيس فرقة جديدة من المماليك، وإنما نجح أيضاً في تأسيس بيت مستمر يتوارث السلطنة نحو قرن من الزمان، وهو أمر فريد في تاريخ المماليك، ولو كان الملك انقرض في ذرية المنصور قلاوون لضعف

(١) Heyd : Hist. du Commerce, 2, p. 559.

(٢) المقرئى : المواظ والاعتبار ج ٢ ص ٢١٣.

(٣) المقرئى : السالك ج ١ ص ٧٥٦.

(٤) المقرئى : المواظ والاعتبار، ج ٢ ص ٢١٤.

(٥) ابن لباس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٢٠.

المقرئى : المواظ والاعتبار ج ٢ ص ٢١٤.

شأن المماليك البرجية ، واسمعنا في التاريخ أن الأمير الذي اعتلى دسست السلطنة بعد المنصور قلاوون أهمل طائفة البرجية وكون لنفسه فرقة جديدة ولكن الذي حدث هو أن المنصور قلاوون توفي ليخلفه ابنه الأشرف خليل فاتم بناء القوة التي أقامها أبوه المنصور — قوة المماليك البرجية — حتى أنه اشترى في حكمه القصير (١٢٨٩—١٢٩٣) ما يقرب من ألفي مملوك جركي . وهكذا أضحي المماليك البرجية أو الجراكسة على درجة من وفرة العدد وحسن التدريب وشدة التماسك ، مما جعلهم يشقون طريقهم في غير صعوبة كبيرة نحو السلطان .

ظهور المماليك البرجية على مسرح الحوادث :

والواقع أنه كان من المتعذر الاحتفاظ بالمماليك البرجية — بعد أن تكاثرت أعدادهم — بهيدين عن الحياة العامة . ونسمع أن السلطان خليل بن قلاوون سمح لهم — لأول مرة — بمغادرة أبراجهم وطباقتهم بالقاعة والنزول إلى القاهرة ومصر بشرط أن يتم ذلك أثناء النهار وأن يعودوا قبل الليل ليبيتوا في القلعة (١) وقد ترتبت على ذلك تقيمتان هامتان : الأولى انغماس المماليك البرجية في الحياة العامة ومشاكلها بعد أن خرجوا من عزلتهم واختلطوا بغيرهم من طوائف المماليك فضلا عن عامة الناس . والثانية أن المماليك البرجية أو الجراكسة لم يلبثوا أن استناروا حقد بقية طوائف المماليك الأتراك ، بسبب ما غدا فيه المماليك البرجية من نعمة وما حظوا به عند السلطان قلاوون وابنه خليل من مكانة .

وكيفما كان الأمر ، فإن هذين العاملين ترتب عليهما دخول المماليك البرجية دائرة الصراع والمنازعات التي كانت لا تهدأ لها فائز في ذلك العصر . وأول ما نسمعه من المماليك البرجية في ذلك الشأن ، غضبهم لمقتل أستاذهم وابن أستاذهم

الأشرف خليل، فثاروا بالقلعة عندما سمعوا الخبر ولم تهدأ تأثيرتهم إلا عندما انتقموا مقتل خليل بقتل بيدرا وغيره من زعماء المؤامرة؛ ثم بإعلان الناصر محمد بن قلاوون سلطاناً سنة ١٢٩٣ رغم صغر سنه (١).

ولم يكن في استطاعة الناصر محمد في سلطنته الأولى أن يصمد في وجه كبار الأمراء، فغدت البلاد مسرحاً لنزاع عميق بين الأميرين كتبغا وسنجر الشجاعى، وهو نزاع هدفه الحقيقي رغبة كل أمير في الاستئثار بالسلطنة وعزل الناصر محمد. وفي ذلك النزاع ظهرت الطائفية المالكية على أشدها، فاستعان كتبغا بالمماليك الأتراك واستعان سنجر الشجاعى بالمماليك البرجية أو الجراكسة، الذين أطلق عليهم أحياناً في بعض المراجع اسم الأشرفية نسبة إلى الأشرف خليل (٢).

وقد سبق أن ذكرنا كيف حاصر كتبغا القلعة وقطع عنها الماء، وعندئذ نزل البرجية من القلعة وأزلوها الهزيمة بالأمير كتبغا وأعوانه من الأتراك الذين فروا من وجوههم؛ وبذلك حقق البرجية نصراً جديداً أضفى عليهم أهمية خاصة ومهد لازدياد تدخلهم في مشاكل السياسة الداخلية في ذلك العصر (٣).

على أن أمراء البرجية لم يلبثوا أن اكتشفوا نوايا سنجر الشجاعى، وأنه لا يعمل من أجل ابن أستاذه وإنما يعمل من أجل نفسه، فانقضوا عنه، الأمر الذى أدى إلى رجوعهم كفة كتبغا مرة أخرى ومقتل الأمير سنجر الشجاعى. ويبدو أن كتبغا أحس عندئذ بخطور البرجية بعد أن أخذ درساً على أيديهم، فعمل على تشتيت شملهم وتفريق صفوفهم، وأنزل جماعات منهم من أبراج القلعة ووزعهم

(١) أبو المحاسن : التجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ١٩ — ٢٠ .

(٢) السكتى : عيون التواريخ ج ٥ ورقة ٩٩ — ١٠١ .

(٣) ابن القرات : تاريخ الدول والملوك ج ٨ ص ١٨١ .

المقرئى : السلوك ج ١ ص ٨٠٠ .

في نواحي متباعدة من القاهرة ، ولم يترك في القلعة إلا نحواً من أربعة آلاف منهم فرض عليهم رقابة شديدة^(١) . ولعل هذه الإجراءات التي اتخذها كتبغا ضد البرجية كان لها أثراً في إثارة أمراء البرجية ضد كتبغا والمماليك الترك جميعاً .

وهكذا تكررت ثورات المماليك البرجية المشردين في القاهرة ، وانخذلت هذه الثورات بصورة عدائية صريحة ضد الترك وكتبغا . ومن الواضح أن المعركة بالنسبة للبرجية كانت من أجل البقاء . إذ أروا في إنزالهم من القلعة وتفريقهم بين أنحاء القاهرة تفتيتاً لعصبيتهم وإضعافاً لقوتهم . وعيناً حاول البرجية أن يتمسحوا بالسلطان الناصر محمد بن قلاوون ، إذ كان الناصر محمد في سلطنته الأولى طفلاً صغيراً لم يتجاوز العاشرة من عمره ، وكان كتبغا - كما سبق أن فصلنا - هو كل شيء في الدولة . ولم يلبث أن اغتصب كتبغا السلطنة لنفسه (١٢٩٤ - ١٢٩٦) ثم أعقبه السلطان لاجين (١٢٩٦ - ١٢٩٨) ، وفي عهد هذين السلطانين المقتصبين اشتد الصراع بين البرجية من ناحية والترك من ناحية أخرى . ويبدو أن كلا من كتبغا ولاجين اعتمد على المماليك الأتراك في مقاومة نفوذ البرجية ولذلك دأب هؤلاء الآخرون على مقاومة الترك في شخص كتبغا ولاجين^(٢) .

وأخيراً استطاع الأمير سيف الدين كرجي أن يدبر مؤامرة لقتل السلطان لاجين ، ونجحت المؤامرة سنة ١٢٩٨^(٣) . ويبدو أن البرجية كانوا لا يزالوا عندئذ على ولائهم الشديد لبيت قلاوون ، أو ربما أحس البرجية عندئذ أن الأمور لم تنهياً بعد لاستئثارهم بالحكم ، فاختروا أن يعيدوا ابن أستاذهم السلطان الناصر إلى السلطنة وتم ذلك سنة ١٢٩٨ - ١٢٩٩ . وعندها عارض بعض أمراء البرجية - مثل

(١) ابن لمباس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٣٢ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٨٠٥ ، ٨٢٢ .

(٣) ابن لمباس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٣٧ - ١٣٨ .

كرجى وطنجى - إعادة الناصر محمد ، عارضهما جبهة البرجية وعلى رأسهم
بييرس الجاشنكير الذى أخذ نفوذه يزداد بين صفوف البرجية من ناحية ،
وفى سلطنة الناصر محمد الثانية من ناحية أخرى (١).

وهنا نلاحظ أن ثمة عوامل عديدة ساعدت على ازدياد نفوذ الممالك البرجية
فى تلك الفترة . فبالإضافة إلى الدور النشط الذى قاموا به فى السياسة الداخلية
وظهورهم أمام الناس فى صورة حماة عرش بيت قلاون والناصر محمد بوجه خاص
فى وقت اشتد تعلق الشعب بحكم الناصر محمد ، كما سبق أن رأينا ، فإن البرجية
أظهروا شجاعة كبيرة فى ذلك الدور فى دفع خطر التتار عن بلاد الشام الأمر
الذى جعل المؤرخ أبى المحاسن يهيد ببطولتهم فى واقعة شقج - قرب دمشق -
سنة ١٣٠٢ ، فيقول د وصرخ (سلار) فى بييرس الجاشنكير وفى البرجية فاتوه
دفعة واحدة . . وأبلى سلار فى ذلك اليوم هو وبييرس الجاشنكير بلاء حسناً
وسلدوا أنفسهم الدوت . . وكانت اسلار والجاشنكير فى ذلك اليوم اليد البيضاء
على المسلمين (٢) ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن كثيراً من الممالك الجرا كسة كانوا قد
أصبحوا أمراء فى ذلك الوقت - أى فى أوائل القرن الرابع عشر - أدركنا
فى النهاية سر مآصار لهم من نفوذ ، ذلك أن أية فرقة من فرق الممالك كانت تتألف
فى أول أمرها من رقيق أجلاب صغار ، يتعمدهم أستاذهم - سلطاناً كان أو أميراً -
بالرعاية والعناية كما تتعمد الدجاجة أفراسها الصغار ، وفى ذلك الدور الأول من
تكوين الطائفة أو الفرقة المماليكية لا تكون لهم قوة أو عصبية وإنما يعتمدون بحكم
طبيعة دور النشأة الذين يملكون به على أستاذهم فى حمايتهم ، وهكذا حتى يتراءون
ويتحرر الكبار منهم تدريجياً ليؤمروا أى يصنعوا أمراء ، وعندئذ تصبح

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٨٩٦

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٧٦٠ - ١٦١ .

لهم قيادة ذاتية تنبع من صفوفهم وتوجههم لتحقيق مصالحهم الخاصة وكانت طائفة البرجية أو الجراكسة عندما أسسها السلطان المنصور قلاون ، تتألف من عماليك صفار لاحول لهم ولا قوة ، ولكن مع مضي السنين والأيام تما هؤلاء الصفار وصار منهم الأمراء الكبار . وهكذا فسمع أن السلطان الناصر محمد هين في سلطنته الثانية أحد أمراء البرجية - وهو الأمير عز الدين أبيك المنصوري - في الوزارة^(١) . أما المقرئى ، فيقول في حوادث سنة ٦٩٨ هـ - أى في سلطنة الناصر محمد الثانية - ما نصه : وقويت شوكة البرجية بدار مصر ، وصارت لهم الحمايات الكبيرة ، وتردد الناس إليهم في الأشغال ؛ وقام بأمرهم الأمير بيبرس الجاشنكير وأمر منهم عدة... وصار في قبائله الأمير سيف الدين سلار ومعه الصالحية والمنصورية (من الترك) ؛ إلا أن البرجية أكثر وأقوى... ووقع الحسد بين الطائفتين وصار بيبرس إذا أمر أحدا من البرجية وفقت أصحاب سلار وطلبت منه أن يؤمر منهم واحدا...^(٢) .

على أن طبيعة البشر كثيرا ما تجمل أخلاقه ومبادئه تتغير بازدياد نصيبه من الدنيا . وهكذا كان البرجية قد أحسوا في دورهم الأول بأنهم أتباع بيت قلاون وأن واجبههم الأول هو حماية مصالح ذلك البيت ، إلا أن هذه النظرة المثالية أخذت تتبدل عندما أحس البرجية بأنهم هم الذين يحمون عرش بيت قلاون وليس عرش بيت قلاون هو الذي يحميهم . وبعبارة أخرى فإن أمراء البرجية أخذوا يعملون لحسابهم الخاص وبفسكرون في مصالحهم قبل مصالح السلطان الناصر محمد بن قلاون . وما دامت السلطة غدت ضعيفة ومطمعا لكثير من أمراء الترك ، فلماذا لا يشارك البرجية في تلك المطامع بعد أن غدا منهم الأمراء الكبار وبعد أن أحس الناس جميعاً بشجاعتهم وبسالهم .

(١) أبو الحسن: النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٤٠ .

(٢) المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ٨٧٥ - ٨٧٦ .

أما السلطان فقد أحس في سلطنته الثانية بتضييق زعماء الترك والجراكسة عليه . فأراد سنة ١٣٠٧ أن يعتمد على محبة الشعب له ويتخلص من سلاز عيم الترك ويبرس الجاشنكير زعيم البرجية جميعاً . وربما دفع هذا الخطر المشترك الأميرين سلاز ويبرس الجاشنكير إلى العمل معاً مما جعل مقاومة الناصر محمد تنهى بالفشل ^(١) . وعندما ينس الناصر محمد من التخلص من سيطرة الأميرين سلاز ويبرس الجاشنكير وتضيقهما عليه لجأ إلى التنازل عن السلطنة ، وآثر البقاء في الكرك ، كما سبق أن شرحنا .

وكان أن أدى تنازل الناصر محمد عن السلطنة سنة ١٣٠٨ إلى فتح الباب على مصراعيه أمام البرجية ، فاعتلى كبيرهم بيبرس الجاشنكير دمت السلطنة في تلك السنة ، وبذلك كان أول واحد من البرجية إلى هذا المنصب . على أن وصول أحد أمراء البرجية إلى العرش ، أثار أحقاد الترك الذين توجسوا خيفة من بطش الجراكسة ، فرفض كثير من نواب وأمراء الشام الاعتراف بالسلطان الجديد ، حتى قال بعضهم : إن هؤلاء الجراكسة متى تمكنوا منا أهلكونا وراحت أرواحنا معهم ، فقوموا بنا لنعمل شيئاً قبل أن يعملوا بنا . ^(٢) لذلك لم يوفق بيبرس الجاشنكير في سلطنته فنتيجة لمعارضة الترك له من ناحية وتآمر الناصر محمد ضده في الكرك من ناحية ثانية ؛ ثم كراهية الناس لبيبرس الجاشنكير لاسيما وأن سنة اعتلائه دمت السلطنة جاءت مصحوبة بانتشار الوباء وغلاء الأسعار وفشاور الناس بسلطنة المظفر بيبرس ، ^(٣) . وهكذا لم تطل سلطنة بيبرس الجاشنكير وتم للناصر محمد استرداد هرشه للمرة الثالثة سنة ١٣٠٩ ، كما سبق أن فصلنا .

(١) الميرزى : السلوك ج ٢ ص ٣٥ — ٣٦ .

(٢) أبو الهاسن : المنهل الصافي ج ١ ورقة ٣٥٩ (مخطوط) .

(٣) أبو الهاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٤٣ .

وقد اعتلى الناصر محمد العرش في تلك المرة بعد أن بلغ من العمر ما يمكنه من الوقوف على قدميه في وجه كبار أمراء الترك والجرأكة جميعاً ، فقبض على بيرس الجاشنكير وقتله ، واتبع سياسة صارمة تجاه الجرأكة جعلته يحرص على تقليص أظفارهم وعدم الإكثار منهم بالشراء . ولم تنجح مؤامرة الجرأكة للتخلص من الناصر محمد سنة ١٤٠٩ . إذ قضى السلطان على المؤامرة قبل أن تولد ونكل بزعمائها من البرجية تفكيلاً شديداً . ومن ذلك ما يرويه المقرئ في حوادث سنة ٧١٥ هـ من أن السلطان الناصر محمد دارت جمع ما كانت البرجية قد اشترته من أراضي الجيزة وغيرها ،^(١) أما العيني فيحكى أن السلطان الناصر محمد لجأ سنة ٧٢٢ هـ (١٣٢١ م) إلى تغريق من خشي خطره من البرجية في النيل^(٢) !

اندياد نفوذ الجرأكة:

ولكن إذا كان السلطان الناصر محمد قد استطاع في سلطنته الثالثة أن يقبض بيد من حديد على شئون الحكم وأن يقلم أظفار الجرأكة ويقف بالمرصاد لمطامعهم ، فإن خلفاء الناصر محمد - من أولاد وأحفاد - لم تكن لهم تلك القوة والعزيمة وقد رأينا أن معظم من ولي السلطنة من أبناء الناصر محمد وأحفاده كانوا أحدانا وأطفالا ، الأمر الذي جعلهم أداة سهلة في أيدي كبار الأمراء ، يلهمونهم وفقما شاءوا ويعزلونهم بنفس السهولة التي كانوا يولونهم بها . وهكذا أتيحت الفرصة للبرجية من جديد ، فظهروا على مسرح الحوادث . وفي تلك المرة تسكتلوا وازداد تعصبهم لجنسهم الجرأكي ، بعد أن تعرضوا لأخطار المقاومة والكبت والقمع في عهد الناصر محمد .

(١) المقرئ : السلوك ، ج ٢ ص ١٥٦ .

(٢) العيني : عقد الجان ج ٢٢ ورقة ٣٤٠ (مخطوط) .

وكان أن رفع الجراكسة رؤوسهم في عهد السلطان شعبان بن الناصر محمد فناروا سنة ١٣٤٥ برعاية الأمير غرلو الجركسى شاد الدواوين ، في عزل السلطان شعبان وتولية أخيه المظفر حاجى سنة ١٣٤٦^(١) . وقد أدى نجاح تلك الثورة إلى ازدياد نفوذ الجراكسة في الدولة ، الأمر الذى أثار حقد الترك ، فأوقعوا بهم عند السلطان وقتلوا الأمير غرلو الجركسى ليحلوا محله الأمير أرقطاي التركى فى نيابة السلطنة^(٢) . ولم يلبث أن أدى ذلك الانقلاب إلى زيادة نفوذ المماليك الترك . فحاول السلطان المظفر حاجى أن يستعين بالجراكسة مرة أخرى للحد من سطوة المماليك الترك ، ولكن محاولته جاءت بعد فوات الأوان إذ قبض عليه الترك وقتلوه سنة ١٣٤٧ وولوا بدله أخاه السلطان الناصر حسن .

وهكذا ساءت أحوال المماليك الجراكسة فى تلك الفترة نتيجة لرجحان كفة الترك وسيطرتهم على شئون الدولة ، بحيث لم يبق هناك أمل أمام الجراكسة إلا فى اختلاف أمراء الترك على أنفسهم . ومن أبرز أمراء المماليك الترك فى ذلك الدور الأمير يلبغا الخاصكى ، الذى زاد عدد مماليكه عن أربعة آلاف حتى غدا على جانب من القوة مكنته من قتل السلطان الناصر حسن سنة ١٣٦١ وتعيين ابن أخيه المنصور محمد سلطانا ، مما أدى إلى انتقال السلطنة من أولاد الناصر محمد إلى أحفاده^(٣) . غير أن السلطان المنصور محمد لم يستمر طويلا فى الحكم ، إذ عزله يلبغا لسوء خلقه - كما سبق أن شرحنا - وعين بدله الأشرف شعبان سنة ١٣٦٣ ، وسنه عندئذ عشر سنوات .

(١) المقرئى : المواعظ والاعتبار ج ٢ من ٢٤٠.

(٢) أبو المعاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٣٦٥.

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٤ ص ٢٧٨.

وهكذا صار يلبغا هو الحاكم الفعلي لدولة المماليك وييده الأمر والنهي ،
 في الوقت الذي ازداد عدد مماليكه وسيطر واعلى عدد كبير من الوظائف العسكرية .
 ولم يلبث طموح المماليك اليلبغاوية أن أدى إلى انقسامهم على أنفسهم ، مما أتاح
 فرصة للسلطان شعبان للتخلص من استبداد يلبغا الذي انتهى الأمر بقتله سنة
 ١٣٦٧ (١) . وقد أعقب مقتل يلبغا ثقتيت المماليك اليلبغاوية في أنحاء الدولة
 والتشكيل بهم . وهنا نلاحظ أن المماليك اليلبغاوية لم يكونوا من جنس واحد ،
 ولم يكونوا جميعا أتراك ، وإنما كان منهم الجر كسي ؛ لأن يلبغا عندما أخذ يديم
 قوته ويتوسع في شراء المماليك لم يراع الجانب العنصري ، فجاء في صفوف
 مماليكه الترك والجر كس وغير ذلك من الجنسيات . وقد استاء المماليك اليلبغاوية
 مما حل بهم من تشريد بعد مقتل أستاذهم يلبغا الخاضعي ، وازداد هذا الاستياء
 بصفة خاصة بين صفوف الجر كس من اليلبغاوية ، وهم الذين أصبح غضبهم
 مزدوجا لما حل بهم من اضطهاد بـ صفوف جر اكسة أولا وبلبغاوية ثانيا .
 وكيفما كان الأمر ؛ فإن المماليك اليلبغاوية لم يلبثوا أن عبروا عن سخطهم
 بتدبير مؤامرة لقتل السلطان الأشرف شعبان سنة ١٣٧٦ (٢) . ومن وراء
 هذه المؤامرة كان الأمير برقوق ، أحد كبار الأمراء اليلبغاوية ، وأصله
 من الجر كس .

برقوق ونائبه رونة المماليك الجر اكسة :

تزعّم الأمير برقوق المؤامرة التي عصفت بالسلطان الأشرف شعبان ، ومن
 ثم يرجع إليه الفضل في إمداد اليلبغاوية بفرصة جديدة للسيطرة على مقاليد الحكم
 في دولة المماليك . هذا إلى أن برقوق لم يهد لليلبغاوية فخسب ، بل مهد أيضاً

(١) أبو المحاسن : ج ١١ ص ٣٩ - ٤٠ .

(٢) العيني : عقد الجان ج ٢٤ ورقة ٩٢٠٦ .

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٧٦ .

لوصول الجركس إلى منصب السلطنة ، لأن برقوق نفسه كان جركسيا ، وهو أول من اعتلى دسست السلطنة من الجراكسة . الأمر الذي جعله المؤسس الحقيقي لدولة المماليك الجراكسة في التاريخ .

وتروى المراجع أن برقوق جركسى الجانس وأنه أحضر إلى مصر صحبة بعض تجار الرقيق ، فاشتراه الأمير يلبغا الخاصكى حوالى سنة ١٢٦٣ ، و أعتقه وجعله من جملة عايلكه (١) . ثم يروى أبو المحاسن أن برقوق استمر في خدمة يلبغا حتى ثار بعض المماليك اليلبغاوية على أستاذهم ، وعندئذ لايدرى أبو المحاسن دهل كان برقوق بمن هو مع أستاذه يلبغا أم كان عليه ؟ . ومهما يكن من أمر فإن برقوق تعرض بعد مقتل يلبغا لما تعرض له جمرة المماليك اليلبغاوية من اضطهاد وحبس بالسرك سنة ١٣٦٨ . وعند الإفراج عن برقوق سنة ١٣٧١ لم يسمح له بالعودة إلى مصر إلا سنة ١٣٧٣ ؛ وعندئذ أخذ يتحين الفرص لتحقيق أطماعه العريضة (٢) . وعلى الرغم من أن برقوق كان عندئذ أمير عشرة فحسب -- أى أميرا صغيرا -- ؛ فإنه أسهم بسهم وافر في المؤامرة التي انتهت بمقتل الأشرف شعبان وإعلان المنصور على سلطانا سنة ١٣٧٦ (٣) .

وقد أدرك برقوق أن انتصار اليلبغاوية ونجاحهم في التخلص من السلطان الأشرف وعائلته سيؤدى إلى صدام بين الأمراء اليلبغاوية وبعضهم وبعض ، لاسيما وأن السلطان المنصور على كان في السادسة من عمره ، مما أغرى كبار الأمراء اليلبغاوية على التنافس حول الاستئثار بالسلطة . وهنارسم برقوق لنفسه خطة ماكرة ، فانتقل إلى خدمة الأمير أينيك اليدرى ، حتى يبدو بعيدا عن حلقة الصراع ؛ وفي الوقت نفسه عول على ضرب كبار الأمراء بعضهم ببعض حتى

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢٢٣ .

(٢) المقريزى : المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٢٤١ .

(٣) العيني : عقد الجان ج ٢٤ ورقة ٢٠٦ وما بعدها (مخطوط) .

يصفوله الجوى وكان أخطر منافس للأمير أينبك البدرى هو الأمير قرطاي الطارى ، فاصطدم الأميران وتمكن أينبك من القبض على قرطاي ونفيه إلى غزه سنة ١٣٧٧^(١) . وظن أينبك بعد تلك الخطوة أن الأمور غدت مهيأة له للوصول إلى دست السلطنة ، فأخذ يرقى مالهيك وأتباعه ليخلق عصبية قوية ، ومن هؤلاء كان الأمير برقوق الذى رقى دفعة واحدة ، من أمير عشرة إلى أمير طبلخاناه^(٢) .

غير أن مطامع الأمير أينبك البدرى فى اغتصاب السلطنة أثارت مخاوف الأمراء اليلبغاوية فى الشام ، فأعلنوا الثورة على أينبك سنة ١٣٧٧ بزعامه الأمير طاشتمر الدوادار نائب دمشق وعندما سمع أينبك نبأ تلك الثورة استشار الأمير برقوق فيما يجب عمله ، فأشار عليه برقوق بالخروج فوراً على رأس حملة إلى الشام لإخماد الفتنة . ومن الواضح أن برقوق وجد فى تلك الحملة فرصة نادرة للتخلص من أينبك ، فرسم خطوط المؤامرة مع بعض الأمراء الذين قرروا أينبك استصحابهم معه فى حملته على الشام ، ومنهم يلغيا الناصرى وبركة الجويانى^(٣) . وكان أن خرجت الحملة إلى الشام وصحبها السلطان المنصور على الصغير ، وعندئذ بدأت أولى حلقات المؤامرة فتثار الجند على أينبك سنة ١٣٧٧ ولجأ أينبك إلى الفرار فى حين عاد الأمراء والسلطان الصغير بالعسكر إلى القاهرة ليترقى برقوق ويصبح أمير مائة مقدم ألف ، وهى أسى درجات الإمارة فى نظام الممالك^(٤) .

ومرة أخرى وجد برقوق نفسه أمام منافسين جدد ، هما يلغيا الناصرى وبركة الجويانى ، فلجأ برقوق إلى التظاهر ليستمعين به فى تحقيق مآربه ثم

(١) الميرزى : السلوك ج ٣ ورقة ٣٠٧ (مخطوط)

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١١ ص ٢٢٣ .

(٣) الميرزى : السلوك ج ٣ ورقة ٣٠٩ - ٣١٢

(٤) أبو المحاسن : النجوم ج ١١ ص ٢٢٣ .

يتخلص منه في نهاية الأمر وعند ما تخوف بعض الأمراء الترك من نوايا برقوق
رأشفقوا على مصير بيت فلاون ونادوا بتولية السلطنة أحد الراشدين من ذلك
البيت ؛ تحايل برقوق لإحباط تلك الدعوة بتولية الأمير طشتمر الدوادار أنا بكية
مصر (١) . ومن يدري ، فربما كان في حضور الأمير طشتمر إلى مصر فرصة
طيبة للتخلص منه ، فضلاً عما في اختيار طشتمر لذلك المنصب الكبير في القاهرة
من إرضاء للترك ، غير أن بركة وبرقوق لم يتركا طشتمر يحقق ما كان يطمح
فيه الأتراك من سطوة ونفوذ ، وإنما ضيقا عليه الخناق حتى وقع صدام بين
الطرفين سنة ١٢٧٧ انتهى بالقبض على طشتمر وحبسه بالإسكندرية ونفى عدد
كبير من أتباعه (٢) .

وهكذا خطا بركة خطوة جديدة نحو الإمام فتولى منصب أتابك العساكر
في مصر وأصبح زميله بركة رأس نوبة كبيراً أطابكا (٣) . أما يلبغا الناصري
فقد قبض عليه حينما أرسل إلى نياطة علي أبلس . ويصور أبو المحاسن الموقف
في ذلك الدور فيقول ما نصه : « والممول على الاثنين : برقوق وبركة ، حتى
طبعجت الناس بقولهم : برقوق وبركة ذهباً على الدنيا شبة » (٤) .

غير أن برقوق تعرض لثورة كادت تفسد عليه خط سيره ؛ إذ ثار أحد
الأمراء الجراكمة . . . هو إينال اليوسفي — سنة ١٢٧٩ ضد برقوق وبركة
جميعاً . وتتميل ذلك أن إينال كان يضم كرهاً شديداً لبركة ، وحاول بشتى
الطرق أن يؤلب برقوق ضد بركة ، ولكن برقوق كان شديد الحرص على

(١) السخاوي ، : الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع ج ٣ ص ١١ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ١٦٢ - ١٦٣ .

(٣) الأطابك هو أبو الأمراء ، وهو لقب شرفي .

القلشندبي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨ .

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ١٦٣ .

ألا يجعل الأمور، فرفض الاستماع لتأليب إينال وأخيراً أحرق إينال على بركة
وبرقوق جميعاً فانهز فرصة غيابهما عن القاهرة، وهاجم بيت برقوق ونهب
ما فيه كما خدع صفار بمالك برقوق بأن مناهم بالأمان المعسولة ليعاونه في
خطته^(١). ولكن برقوق عاد مسرعاً وتمكن من إخماد الثورة، ويقال إن بمالك
برقوق ما كادوا يروونه حتى سرت مما بقى في نفوسهم. نثر والاه طائعين، وتحولوا
ضد إينال الذي ولي الأديار. ولكن برقوق استطاع القبض على إينال وسجنه^(٢).

وكان لابد أن تصل العلاقة بين برقوق وبركة إلى درجة تجعل الأول
يفكر في التخلص من الثاني. وقد فكر برقوق في استئارة الرأي العام ضد
بركة، فخرجه على انتزاع بعض أراضي الأوقاف وتوزيعها على أتباعه، الأمر
الذي أثار شيخ الإسلام مراج الدين البلقين وجماعة العلماء والمسلمين^(٣).
وفي الوقت الذي ناز الرأي العام ضد بركة، أخذ برقوق يتقرب إلى الناس عن
طريق الإفراج عن بعض العامة الذين كان بركة قد حبسهم^(٤). وكان برقوق
يعرف جيداً أن استبعاد بركة يعني ثورة الترك الذين يتعصبون لزعيمهم، ولذلك
استعد برقوق للمعركة القادمة بتفوية جانب الجراكسة وتوحيد صفوفهم وهكذا
صار العسكر فرقتين فرقة جراكسة وهم أصحاب الأمير الكبير برقوق، وفرقة
ترك وهم أصحاب الأمير بركة، على قول المقرئ^(٥). ولم يكن هناك مناصاً
من الصدام بين هاتين الفرقتين، فوقع الصدام سنة ١٨٢٠ وانتهى بالقبض
على بركة وحبسها بالإسكندرية ومصادرة أمواله، حتى قتل بعد قليل^(٦).

(١) ابن أبياس: بدائع الزهور ج ١ ص ٢٤٧ — ٢٤٣.

(٢) ابن خلدون: المعبر، ج ٥ ص ٤٦٨.

(٣) المقرئ: السلوك ج ٣ ورقة ٢٣٦ (مخطوط).

(٤) ابن حجر: أنباء الغر ج ١ ص ١٠٩ — ١٢٦.

(٥) المقرئ: السلوك، ج ٣ ص ٦١٠ — ٦١١.

(٦) ابن حجر: أنباء الغر ج ١ ص ١٤٣.

ابن أبياس بدائع الزهور ج ١ ص ٢٥٢ — ٢٥٣.

ولم تمض على التخلص من بركة بضعة أشهر حتى توفي السلطان المنصور على سنة ١٣٨١ ، واسكن برقوق رأى أن يترث قليلا ، فأقام في السلطنة أخاه السلطان الصالح أمير حاج وكان في الحادية عشرة من عمره^(١) . ويبدو أن برقوق رأى أنه ليس من الحكمة أن يتمهل لإعلان نفسه سلطانا قبل أن يكسر شوكة المماليك الترك الذين عن عليهم ما حل بزعمهم بركة . لذلك ظل برقوق على حاله قبل مسك بركة وقتله وإليه حل المملكة وعقدها ، ولم يجسر على السلطنة^(٢) . وفي الوقت نفسه أخذ برقوق يطارد الترك ويشردهم ، فأنقرضت دولة الأتراك بأسرها وتبعوا بالأخذ فقتلوا ونفوا وسجنوا^(٣) .

وطبيعي أن السلطان الصالح أمير حاج كان لا يستطيع وحده تدبير أمور الدولة وهو طفل صغير في الحادية عشرة من عمره ، لذلك جاء كتاب ولايته السلطنة مقرّوا بشرط اشتراك الأمير برقوق معه في تدبير أمور الدولة ومعنى ذلك أن برقوق لم يعد مجرد أمير كبير أو موظف من كبار موظفي الدولة فحسب ، بل كانت له صفة عليا سامية في الوصاية على السلطان وتوجيهه وتوجيه أداة الحكم نيابة عنه . وكان أن استغل برقوق هذه الصفة وتلك السلطات الواسعة التي غدت في يده ليكن لنفسه ويملا الوظائف الكبرى باتباعه ومماليكه ، وهذا إلى أنه أخذ يتحجب إلى عامة الناس ويتقرب إلى قلوبهم عن طريق إلغاء بعض المكوس وتحسين النقد ، الأمر الذي أنعش الحالة الاقتصادية ، وجعل الناس يلمحون بشكره^(٤) . أما في الخارج فقد حدث سنة ١٣٨١ أن أغار التركان على حلب

(١) ابن خلدون : المبرج ٥ من ٤٧٣ — ٤٧٤ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١١ من ١٨٨ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ٣ ورقة ٦١٣ .

(٤) العيني : عقد الجمان ج ٢٤ ورقة ٢٦٨ .

المقرئى : المواعظ والاعتبار ج ١ من ١٠٦ .

أبو المحاسن : النجوم ج ١١ من ٢١٠ — ٢١١ .

ولكن برقوق استطاع صددهم وطردهم، الأمر الذى أظهره فى صورة الرجل القادر على الدفاع عن الدولة وحمايتها وتوفير الأمن لأهلها (١).

وفى تلك الأثناء كان المماليك الترك يرقبون ازدياد نفوذ برقوق بعين القلق، ويعلمون أنهم لن يبقى لهم ظل من النفوذ والسلطان إذا نجح برقوق فى اغتصاب السلطنة. وكان أن دبر الترك مؤامرة لاختيال برقوق، وكانت المؤامرة برعاية أيتمش الخاصكى وبطال الأشرفى. ولكن عين برقوق اليقظة اكتشفت خيوط المؤامرة قبل حبكها، فبادر برقوق بالقبض على زعماء المؤامرة ونفيهم وسجاء فشل هذه المؤامرة إعلاناً لزوال سلطان العنصر التركى وإيداناً بقيام دولة المماليك الجراكسة (٢).

وكان برقوق يدرك جيداً مدى ما بين أمراء المماليك من منافسات وأحقاد فاحتاط على نفسه، وبالغ فى التخوف، الأمر الذى دفع بعض المقربين إليه إلى أن يقدموا له النصيح « بأن يتملطن ويحتجب عن الناس ويستريح ويرجى من هذا الذى هو فيه من الاحتراز من قيامه وعوده » (٣). ولكن برقوق ظل متخوفاً من الإقدام على تلك الخطوة لأنه خشى وقوف كبار الأمراء فى وجهه وتخاف عاقبة ذلك. « أواعتذر بأنه يهاب قدماء الأمراء بالديار المصرية والبلاد الشامية ». وعندما لمس كبار الأمراء من أعوانه تخوفه، رأوا أن يبدأوا هم الخطوات السكينة بإجلاسهم على العرش. وساعد الحظ برقوقاً بوفاة اثنين من كبار الأمراء الذين كان يخشى سطرتهم ويحترم سمو مكانتهم وهما الأمير آقتمش وعبد الغنى والأمير أيدمر الشمسى. وعندما سمع برقوق بوفاة هذين الأميرين « طابت نفسه » واستجاب لمؤيديه، وإن ظل « يقدم رجلاً ويؤخر أخرى » (٤).

(١) المقرئى : السلوك ج ٣ ورقة ٤٠٤ (مخطوط).

(٢) ابن المياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٥٧.

(٣) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢١٤.

(٤) المرجع السابق ص ٢١٥.

وأخيراً صعد إثنان من أعوان برقوق وأخذوا السلطان الصالح أمير حاج من قاعة الملك وحملوه إلى أهله بالدور السلطانية بعد أن جرداه من شارات السلطنة . وفي الحال استعصر الخليفة العباسي المتوكل على الله وشيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقيني وغيرهما من العلماء والأمراء والقضاة فبايعوا برقوق الذي تلقب بالسلطان الظاهر (١) .

وباعتلاء برقوق منصب السلطنة سنة ١٣٨٢ انتهى ملك بيت قلاون ، كما انتهت دولة المماليك الترك ، وبدأت دولة المماليك الجراكسة التي استمرت في الحكم حتى الفتح العثماني سنة ١٥١٧ ، وقبل أن تتكلم عن سلطنة برقوق وغيره من مشاهير السلاطين في تلك الدولة الجديدة ، يصح أن نعرض بإيجاز لخصائصها العامة في التاريخ .

خصائص دولة المماليك الجراكسة :

امتازت دولة المماليك الثانية أو الجراكسة بأن سلاطينها جميعاً كانوا من أصل جركسي ، ما عدا إثنين هما خشقدم وتمرغا كانا من أصل يوناني

هذا إلى أن مبدأ الحكم الوراثي الذي حاول بعض سلاطين دولة المماليك الأولى تطبيقه في عناد وإصرار ، والذي ظهر بوضوح في بيت قلاون ، هذا المبدأ لا نجد له أثر في دولة المماليك الجراكسة . والواقع إن سلاطين دولة المماليك الثانية كانوا زعماء أو أمراء كبار أكثر منهم سلاطين . وكان نجاح السلطان في الحكم يتوقف على مدى توفيقه في توجيه كبار الأمراء ، وضرب طوائف المماليك بعضها ببعض . فإذا استطاع السلطان الاحتفاظ بمنصبه حتى الوفاة ، فإن ابنه كان يخلفه عادة ، ولكن لعدة أشهر فقط . ذلك أن اختيار ابن السلطان

(١) المبنى : عقد الجمان ج ٢٤ ورقة ٢٧٩ (مخطوط) .

الراحل لم يتم بناء على إيمان الأمراء بمبدأ الوراثة، وإنما كحل مؤقت حتى ينجلي الموقف بين كبار الأمراء ويظهر من بينهم أمير قوى يستأثر بالعرش لنفسه.

وكان عمر دولة المماليك الجرا كسة مائة وأربع وثلاثين عاماً، تعاقب فيها على دست السلطنة خمسة وعشرين سلطاناً. ومن هؤلاء السلاطين تسعة حكموا مائة وثلاث سنوات؛ في حين حكم الستة عشر سلطاناً الباقون نحواً من تسع سنوات فقط. أما هؤلاء السلاطين التسعة الذين ربطتهم تاريخ دولة المماليك الجرا كسة فهم: برقوق وفرج وشيخ ورسباى وجمقم وإبنال وخشقدم وقايتباى وقانصوه الغورى. ولا ترجع أهمية أولئك السلاطين إلى قوة بأسهم أو شجاعتهم بقدر ما ترجع إلى ذكائهم ومقدرتهم في الوصول إلى أهدافهم عن طريق ضرب خصومهم وطوائف المماليك بعضها ببعض^(١).

وعرف كثير من سلاطين دولة المماليك الجرا كسة بحبهم للأدب وعجائز العلم - مثل برقوق وشيخ وجمقم وقايتباى والغورى - كما بالغ بعضهم العناية بإنشاء المؤسسات الخيرية من مساجد ومدارس ومستشفيات وسبل وغيرها. وربما كان الهدف من المبالغة في إنشاء هذه المؤسسات والإنفاق عليها هو محاولة بعض السلاطين - مثل برقوق وقايتباى - التكفير عن ذنوبهم ومحو أثر ما قاموا به من أعمال وحشية ضد خصومهم ومنافسيهم.

ولاشك في أن البلاد قاست كثيراً في عصر دولة المماليك الجرا كسة من جراء المنازعات المستمرة بين طوائف المماليك وفرقهم، وما كان ينجم عن تلك المنازعات من حوادث وقتال في الشوارع، مما أوجد جواً من الرعب والفرع وعدم الاستقرار في البلاد. وزاد من البلاء أن السلاطين عجزوا في ذلك العصر عن كبخ جهاح مماليكهم، مما جعلهم لا يجدون وسيلة للاحتفاظ بمراكزهم

(1) Lane Poole : A Hist. of Egypt, pp, 325—326

سوى ضرب طوائف المماليك بعضها ببعض ، مثلما فعل السلطان خشقدم من ضرب الظاهرية بالأشرفية وضرب الناصرية بالمؤيدية ، وبذلك يخلو الجو للسلطان ومماليكه فيتحكمون في البلاد والعباد .

على أننا نلاحظ مع كل ذلك ، وعلى الرغم من كثرة الاضطرابات والفتن والثورات ، أن سلاطين دولة المماليك الجراكسة عملوا دائماً على حصر تلك المنازعات في دائرة داخلية بحتة ، بحيث لم يمكنوا قوة خارجية من التدخل في شؤون البلاد أو الانتقاص من سيادة الدولة . وهكذا استمرت دولة المماليك حتى نهاية القرن الخامس عشر محتفظة بهيبتها ومكانتها في المحيط الدولي ، بل لقد تمكن المماليك في ذلك العصر من إزال ضرب قاصمة بقمورلنك في وقت اهتزت جميع الأطراف الغربية من القارة الآسيوية من هول ضرباته . ولأقل من أن نتناول أعمال أهم السلاطين الجراكسة بدراسة سريعة ، لنقف على حقيقة الخصائص التي اتصف بها دولة المماليك في ذلك العصر .

السلطان الظاهر برقوق : (١٢٨٢ - ١٢٩٩)

كان برقوق أول سلاطين دولة المماليك الجراكسة . وكان منتظرا منه أن يبدأ حكمه باضطهاد المماليك الترك ، ولكنه أظهر حكمة كبيرة فحرص على استرضاء الترك في أول حكمه واختار الأمير سودون الفخري - وهو من الترك - نائبا للسلطنة في مصر كما عفا عن يلبغا الناصري وأقره في نيابة حلب (١) .

° على أن برقوق لم يستمر طويلا في تلك السياسة ، وإنما أخذ تدريجيا - بعد أن استتب له الأمور - يختص الجراكسة بالإقطاعات والوظائف الكبيرة على حساب المماليك الترك ، وبخاصة الأشرفية بماليك السلطان شعبان . وقد أدت

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢٣١ .

هذه السياسة إلى نشوب كثير من الثورات التي انصف بها عهد برقوق ، منها ثورة ألبانيا السلطاني نائب أبلستين سنة ١٣٨٢ ، وهو أمير تركي قاله لا أكون في دولة حاكمها جركسي ، مما يشهد على مدى العداوة بين الترك والجرأكسة في ذلك الدور (١) . ولكن تلك الثورة بادت بالفشل وفرار ألبانيا إلى بلاد التتار لعدم حصوله على ما كان يطمع فيه من تأييد نواب الشام .

ولم يكذب برقوق يستريح من ثورة ألبانيا حتى فوجيء بأن الخليفة العباسي المتوكل على الله يطمع في السلطنة ، وأن أمراء الترك في القاهرة دبروا مؤامرة لقتل برقوق وإعلان المتوكل سلطاناً . وقد اكتشف برقوق المؤامرة قبل الشروع في تنفيذها فعزل الخليفة المتوكل وأحل محله الخليفة الواثق بالله ، وبدأ منذ ذلك الوقت يتخذ سياسة عنيفة ضد الترك ، الأمر الذي جعل الأشرافية واليلبغاوية يتعاونون جميعاً لمواجهة ذلك التهديد . وقد ظهر هذا التحالف بين صفوف الترك — من أشرافية ويلبغاوية — في صورة ثورة كبرى اندلعت نازها سنة ١٣٨٨ وتزعها منطاش نائب ملطية — وهو زعيم الأشرافية — ، وبلغا الناصري نائب حلب ، وهو زعيم اليلبغاوية (٢) .

وكان أن ساء موقف برقوق عندما سمع بخروج مدن الشام من طاعته وأن جيوش الثوار انتقل من نصر إلى آخر في طريقها إلى مصر ، بعد أن حلت الهرطقة بجيوش السلطان في دمشق ، سنة ١٣٨٩ ، وفي تلك الأزمة أخذ برقوق يتخبط في تصرفاته ، فهو تارة يحاول كسب الرأي العام في مصر بإلغاء بعض المكوس وإعادة الخليفة المتوكل إلى منصبه ، وتارة أخرى يطلب من الناس أن يحصنوا

(١) أبو الحسن : النجوم ج ١١ ص ٢٢٩ .

(٢) ابن حجر : انباء الفجر ج ٢ ص ٢٠٠ .

(٣) المقرئ : السلوك ، ج ٢ ورقة ٤٨٩ وما بعدها (مخطوط) .

(١٩) — العصر المالكي

الدروب وأن يساعده في مقاتلة العدو الباغي، (١).

غير أن جميع هذه الإجراءات لم تفاح في دعم مركز برقوق ، بل لقد أخذ الأمراء والمماليك يتسربون من القاهرة لينضموا إلى جيش يلبغا الناصري . وكان ذلك في الوقت الذي انتشر الطاعون في القاهرة ، مما جعل البلاد تفرق في الفوضى . وأخيراً لم يجد برقوق مخرجاً أمامه فافجّر باكيّاً وسط جنوده ، وأمرع بالاختفاء في منزل خياط ، في الوقت الذي دخلت جنود يلبغا الناصري القاهرة وسيطرت على القلعة (٢) .

وكان منتظراً - حسب العادة عند المماليك - أن يعلن يلبغا نفسه سلطاناً ، بوصفه صاحب الدور الكبير في عزل برقوق ، ولكنه خشي معارضة المماليك الأشرفية الترك له بوصفه زعيم الطائفة اليلبغاوية ، فرشح الملك الصالح أمير حاجي ابن الأشرف شعبان ، وتلقب السلطان الجديد بالمنصور بعد أن كان في سلطنته الأولى يلقب بالناصر (٣) .

أما برقوق فقد ألقي القبض عليه ، وعندئذ خشي يلبغا انتقام المماليك الجراكسة إذا هو مس به بموء ، فاكتمى بنفسه إلى الكرك سنة ١٣٨٩ . ولم تلبث الأيام التالية أن أظهرت للناس فساد حكم يلبغا الناصري ، في الوقت الذي بدأ الشقاق بين يلبغا وحليفه منطاش (٤) . وفي الصراع الذي دار بين يلبغا ومنطاش حانت الفرصة لبرقوق ، فبايعه أهل الكرك بالسلطنة سنة ١٣٨٩ ، والتفت حوله الجراكسة من الشام ومهر فكون منهم جيشاً زحف به إلى دمشق (٥) .

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢٦٩ - ٢٧٠

ابن دقاق : الجوهر الثمين ، ج ٢ ورقة ١٨٣ هـ

(٣) ابن لباس : بدائع الزهور ج ١ ص ٣٧٣ - ٢٧٤

(٣) أبو المحاسن : مورد الطائفة ص ٩٦

(٤) ابن خلدون : المعبر ، ج ٥ ص ٤٨٧ - ٤٨٨

(٥) ابن لباس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٨١ هـ

أما منطاش الذى آلت إليه السلطة فى مصر عندئذ بعد انتصاره على يابغا الناصرى ، فقد وجد نفسه أمام خطر جسم ، فأخذ يتحایل على جمع المال بمختلف الطرق ليعد جيشاً يحارب به برقوق فى الشام (١) . وفى الموقعة التى دارت بين الطرفين عند دمشق سنة ١٣٩٠ ، لم ينفع منطاش وجود الخليفة والسلطان حاجى معه ، إذ وقع السلطان والخليفة فى قبضة برقوق ، مما صار له أبعاد الأثر فى نفوس رجال منطاش فخلع بهم الهزيمة . وكان أن تنازل السلطان حاجى لبرقوق عن السلطنة ، فى حين احتفى منطاش بدمشق ؛ فترك برقوق بلاد الشام وحاد إلى القاهرة بعد أن بايعه الخليفة بالسلطنة (٢) . وكان أن استقبل برقوق فى القاهرة أجمل استقبال ، وجددت البيعة له فى القلعة ، فى حين انزوى المنصور حاجى حتى دس له السم بعض جواريه فمات مسموماً .

وقد امتدت سلطنة برقوق الثانية من سنة ١٣٩٠ حتى سنة ١٣٩٩ ؛ وامتازت بجهود برقوق فى تثبيت حكمه عن طريق القضاء على معظم المماليك الترك والتخلص من خصومه وعلى رأسهم يلبغا الناصرى ومنطاش . وفعلوا قبض برقوق على يلبغا الناصرى وقتله سنة ١٣٩١ ، فى حين قتل منطاش فى حلب سنة ١٣٩٣ وحملت رأسه إلى القاهرة حيث طيف بها فى شوارعها ثم علقت على باب زويلة (٣) . هذا فى الوقت الذى استمر برقوق يتخلص من أمراء الترك واحد بعد آخر بعزلهم عما كانوا يلونه من وظائف ومصادرة إقطاعاتهم وتوزيع تلك الوظائف والإقطاعات على مماليك من الجراكسة (٤) .

(١) المقرئى : السلوك ج ٣ ورقة ٥٧٣ (مخطوط) .

(٢) أبو الهاسن : النجوم ج ١١ ص ٣٦٩ .

(٣) ابن حجر : الدهور السكينة ج ٤ ص ٣٦٦ .

(٤) أبو الهاسن : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٣٦ - ٣٩ .

على أن المتاعب الداخلية التي صادفها برقوق في سلطنته الثانية لم تمكن كلها من جانب الترك وأسرانهم ، وإنما أثار العربان في مصر والشام ثورة خطيرة سنة ١٣٩٤ . وأرسل زعيم العربان في مصر - وهو الشريف العنابي - إلى موسى بن محمد بن عيسى شيخ العربان في إقليم السكرك يطلب منه معاونته في الحصول على الخلافة والسلطنة جميعاً ؛ على أن يتم تنفيذ تلك الخطة عند خروج برقوق من مصر لمقابلة تيمورلنك . ولكن السلطان برقوق كشف المؤامرة ، فألقى القبض على الشريف العنابي وموسى بن محمد ، وحبسهما حتى ماتا في السجن ، كما أخضع عرب هوار في الصعيد^(١)

تيمورلنك ودولة المماليك :

وإذا كان السلطان برقوق قد نجح في القضاء على الأخطار الداخلية التي هددت حكمه من جانب الترك والعربان ، وبذلك دانت لسلطانه مصر والشام ، فإن ثمة خطر خارجي كبير هدد دولة المماليك في ذلك الدور — هو خطر تيمورلنك . هذا وإن كان الصدام بين المماليك وتيمورلنك قد تأخر إلى ما بعد عهد برقوق . .

وكان تيمورلنك يلتزم إلى بيت من أشرف التتار ، ولد في مدينة سمرقند وتلقى تربيته فيها واتخذها قاعدة لأعماله التوسعية التي مكنته من الاستيلاء على بلاد ماوراءالنهر وخراسان وطبرستان حتى استولى على مدينة تبريز سنة ١٣٨٦ كما خرب الرها في العام التالي^(٢) . ولم يلبث حكام ماردين وبغداد وغيرهما أن كتبوا إلى السلطان برقوق يستنجدون به ضد ذلك الخطر التتري الجديد . ولكن

(١) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٩ ص ٣٧٦ — ٣٧٧

المقريزي : السلوك . حوادث سنة ٨٠١ هـ (مخطوط) .

(٢) ابن عربشاه : عجائب المقدور ص ٤٩

تيمورلنك كان أسرع في العمل فاستولى على بغداد سنة ١٣٩٣ وخربها وقتل كثيرًا من أهلها (١).

وبوصول تيمورلنك إلى تلك المرحلة صار الصدام بينه وبين دولة المماليك أمرًا قريب الحدوث . وكان أن أرسل تيمورلنك رسالة إلى السلطان برقوق تحوى كثيرًا من التهديد والترغيب؛ ولكن برقوق قتل رسل تيمورلنك، وأخذ يعقد اتفاقيات مع التركمان وبنى عثمان لصد ذلك الخطر الجديد (٢).

ومهما يكن من أمر ، فإن هناك عوامل جديدة أجهلت الصدام بين تيمورلنك ودولة المماليك، أهمها رغبة تيمورلنك نفسه في تأجيل ذلك الصدام بسبب انشغاله بتوطيد نفوذه في دولته الواسعة من ناحية ، فضلاً عن أنه فتح جبهة جديدة لجيوشه عندما هاجم الهند من ناحية أخرى (٣) وكان كل ما فعله برقوق هو أنه استغل فرصة غياب تيمورلنك في الهند، وكتب لأحمد بن أويس تقليداً بقبيلة السلطنة في بغداد، وزوده بالمال والعتاد والمماليك والأمراء، ثم أرسله سنة ١٣٩٤ إلى بغداد ، حيث تمكن بفضل تلك المعونة من استرداد عرشه والتغلب على الحامية التي تركها تيمورلنك في بغداد (٤).

وبمقتضى التقليد الذي كتبه برقوق لأحمد بن أويس أصبح الأخير تابعا لسلطنة المماليك في مصر؛ ونائباً عن السلطان برقوق في حكم بغداد ، فضرب العملة باسمه . ولا شك في أن هذا الوضع الجديد قد أضفى مكانة كبيرة على سلطنة المماليك ، وإن كان تيمورلنك نفسه لم يرض عن ذلك الوضع فأسرع بالعودة من الهند سنة ١٣٩٩ ، في الوقت الذي توفي فيه السلطان برقوق .

(١) المقرئى: السلوك ج ٣ ورقة ٤١٦ وما بعدها (مخطوط) .

(٢) ابن حجر: إنباء النمر ج ١ ورقة ٣٦٧ — ٤٠٠ (مخطوط) .

(٣) أبو الحسن: النجوم الزاهرة ج ١٢ ورقة ٥٦ .

(٤) المقرئى: السلوك ج ٢ ورقة ٧٣١ .

مهسر أبناء برقوق :

وعندما أحس السلطان برقوق بدنو أجله ، جمع حوله الخليفة وكبار الأمراء والقضاة ، وطلب منهم أن يحلفوا بالسلطنة لأولاده من بعده - وهم فرج وعبد العزيز وإبراهيم - على التوالي واختار برقوق مجاساً للوصاية على أبنائه برئاسة الأمير أيتمش البجاسى أنابك العسكر ، يساعده الخليفة المتوكل وبعض كبار الأمراء . ولم يلبث برقوق نفسه أن توفى سنة ١٣٩٩ (١) .

غير أن المماليك لم يؤمنوا - كما سبق أن رأينا - بمبدأ وراثة العرش ، ولم يلبث كبار الأمراء أن رأوا فرصتهم سانحة في قيام فرج بن برقوق في منصب السلطنة وسنه عشر سنوات فبدأت المنافسات والمنازعات بينهم ، الأمر الذى جعل السلطان فرج يزهد في العرش ، فهرب الصبي من القلعة سنة ١٤٠٥ واختفى في أحد البيوت ، وعندئذ بايع الأمراء أخاه عبد العزيز بالسلطنة (٢) .

وليسبت هناك أهمية خاصة لسلطنة فرج الأولى سوى ما حدث عندئذ من عودة تيمورلنك من الهند ، ففر أحمد بن أويس من بغداد واحتتمى بحلب ، فى حين واصل تيمورلنك غزواته فاستولى على سيواس ومرعش وعينتاب وبذلك وصلت قواته إلى أطراف الشام (٣) . ولم يستجب المماليك للإنذار الذى وجهه تيمورلنك بضرورة تسليم حلب ، فتمجعت الجيوش من نيايات الشام استعداداً للمقاومة . ولكن تيمورلنك أنزل الهزيمة بقوات المماليك واقتطعت جيوشه حلب سنة ١٤٠٠ لتعمل فيها قتلاً وأسراً ونهباً (٤) . وقد اهتزت مهسر لأبناء تلك

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٢ ص ١٠٤

(٢) ابن حجر : إنباء القمر ج ١ ص ٦٨٨ (مخطوط) .

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٣٦ .

(٤) ابن عربشاه : عجائب المقدور ص ٨٨ وما بعدها .

الهنزية، وخرج السلطان فرج الصغير على رأس الجيش ومعه الخليفة والقضاة، ولكن تيمورلنك أنزل الهزيمة مرة أخرى بالماليك قرب دمشق في أواخر سنة ١٤٠٠. وبعد ذلك هادفرج إلى القاهرة ليستعد للقيام بمحاولة أخرى ضد تيمورلنك، في حين تمكن الأخير — عن طريق الحيلة — من دخول دمشق حيث أقام بها قرابة ثلاثة أشهر جمع فيها كثيراً من أموالها فضلاً عن أولى الخبرة من أصحاب الحرف والصناعات الذين بعث بهم إلى سمرقند.

ويبدو أن أخبار ما فعله تيمورلنك بدمشق جعلت السلطان فرج يرضى بالصلح معه، فتم الصلح سنة ١٤٠١. وبعد ذلك خرج تيمورلنك من الشام لينزل الهزيمة بالسلطان بايزيد العثماني في موقعة أنقرة سنة ١٤٠٢^(١). ولم يلبث أن توفي تيمورلنك بعد ذلك سنة ١٤٠٥ في سمرقند، ثم تعرضت دولته الواسعة للتمزيق بسبب النزاع بين ورثته، وبذلك خفت حدة خطر التنازع على دولة الماليك في مصر والشام.

أما ما كان من أحوال سلطنة الماليك في مصر، فقد رأينا كيف أن فرج ابن برقوق ترك العرش سنة ١٤٠٥ ليضغ الأمر لمحله أخاه عبدالعزيز. ولكن الصراع بين أمراء الماليك في تلك الفترة اتخذ صورة مؤازرة أحد أبناء برقوق ضد الآخر، فعندما أحس بعض الأمراء بأن الأمير يبرس الأتابك علت مكانته بهكم وصايته على المنصور عبد العزيز، سعوا لعودة فرج إلى العرش. وقد هاد السلطان فرج إلى السلطنة بعد شهرين من اختفائه، واستمر تلك المرة في الحكم نحواً من سبع سنوات (١٤٠٥ — ١٤١٢)، انتهت بالاضطراب والفوضى وسوء تدبير الحكم، ذلك أن فرج عرف بالقسوة والوحشية، فاستهل حكمه بقتل أخويه^(٢)، ولم يكن سكوت الأمراء عن فرج بدافع الرضى بحكمه، وإنما لأن

(١) ابن لياس: بدائع الزهور، ج ١ ص ٣٣٦.

(٢) ابن حجر: انباه الفهر ج ١ ص ٦٩٠ وما بعدها.

الموقف لم يصفر عن ظهور الرجل القوى بين صفوف الأمراء الذى يستطيع أن يضرب خصومه وينتزع السلطنة لنفسه .

وكان أن كثرت الفتن فى أنحاء الدولة — وبخاصة فى الشام — على عصر فرج بن برقوق . فى سنة ١٤٠٧ ثار جكم نائب حلب وأضفى على نفسه لقب سلطان وتلقب بالعدل ولكن جكم قتل بعد شهرين ، فتحالف نوروز نائب الشام والأمير شيخ نائب طرابلس وأعلنوا الثورة على السلطان فرج فى القاهرة ، بل لقد زحفوا بجيوشهما نحو مصر سنة ١٤٠٨ . وعندما خرج السلطان فرج إلى الشام لقمع تلك الثورة حلت به الهزيمة قرب دمشق سنة ١٤١٢ وقبض على فرج ليقتل قتلة شناعة ، فى حين أدى التنافس بين الأميرين شيخ ونوروز إلى اختيار الخليفة المستعين العياشى سلطاناً سنة ١٤١٢ (١) .

السلطان المؤيد شيخ الممحمودى : (١٤١٢ — ١٤٢١)

ومن الواضح أن اختيار المستعين للسلطنة لم يكن إلا إجراء شكلياً حتى يستقر الموقف بين الأميرين نوروز وشيخ . ولم يكن الأمير شيخ بطمئن على سلامة موقفه حتى عزل الخليفة بعد خمسة أشهر من سلطنته ، واحتل هودست السلطنة بعد أن تلقب بلقب المؤيد ، وكان من الطبيعى أن تكون المشكلة الأولى التى واجهت السلطان المؤيد شيخ هى التغلب على نفوذ نوروز الذى أبى الاعتراف بالسلطان الجديد ؛ ولكن شيخ خرج إلى الشام وحارب نوروز وقتله وبذلك تخلص من منافس هفيد (٢) .

وفى عهد المؤيد شيخ حاولت الإمارات التركمانية الواقعة على الأطراف

(١) العيسى : السيف المهند فى تاريخ الملك المؤيد ، ورقة ١٩٧ (مخطوط) .

(2) Wiet , L'Egypte, Arabe, pp. 542—548.

الشمالية لدولة المماليك الخروج عن تبعيتها للسلطنة المماليكية ، ولكن المؤيد شيخ خرج لإخضاعهم مرتين سنة ١٤١٥ ، سنة ١٤١٧ . ولما تمرد التركمان مرة أخرى بعد عودة السلطان شيخ إلى مصر ، أرسل المؤيد شيخ ابنه إبراهيم سنة ١٤١٩ لإخضاع دغاادر . فأوغل إبراهيم حتى قونية وضرب السكة باسم أبيه المؤيد شيخ وولى قيصرية حاكماً مالياً لسلطان المماليك من بيت دغاادر . وقد استقبل إبراهيم استقبالا حماسياً فى القاهرة ، ولكنه لم يلبث أن مات فى العام التالى ؛ وقيل إن أباه حقق عليه لما ناله من شهرة ومجد ، فدمس له السم (١) .

وقد توفى السلطان المؤيد شيخ سنة ١٤٢١ ، خلفه ابنه أحمد تحت وصاية الأمير ططر ، الذى لم يلبث أن انتزع السلطنة لنفسه ؛ ولكنه لم يبق فيها إلا أربعة وتسعين يوماً ثم خلفه محمد بن ططر . وقد قضى محمد هذا فى الحكم بضعة أشهر تحت وصاية الأمير برسباى ، الذى انتزع السلطنة لنفسه سنة ١٤٢٢ .

السلطان الأشرف برسباى وفتح قبرسى :

حكم السلطان الأشرف برسباى ما يزيد عن ستة عشر عاماً (١٤٢٢ - ١٤٣٨) امتازت بالاستقرار وقلة الاضطرابات على الرغم مما قاساه الناس فى ذلك العهد بسبب سوء الأحوال الاقتصادية وسياسة برسباى الاحتكارية التى سنشير إليها فيما بعد .

وقد مكن ذلك الاستقرار الذى نعمت به دولة المماليك السلطان الأشرف برسباى من القيام بمشروع حربى كبير هو غزو جزيرة قبرس وإدخالها فى نطاق التبعية لسلطنة المماليك فى مصر . وقد رأينا فيما سبق كيف أن القبارصة اتخذوا من جزيرتهم مركزاً لاثواب على الموانئ الإسلامية فى شرق البحر المتوسط وتهديد

(1) Lane — Poole : A Hist. of Egypt . p . 336 .

تجارة المسلمين ، حتى قام بطرس الأول لوزجنان ملك قبرس بحملة الصليبية الكبرى على الاسكندرية سنة ١٣٦٥ . وعلى الرغم من الصلح الذي تم بين جزيرة قبرس وسلطنة المماليك سنة ١٣٧٠ ، إلا أن الأتراك العدوانية التي تعرضت لها شواطئ مصر والشام لم تنقطع ^(١) . وليس من الضروري أن يكون أهل جزيرة قبرس بالذات هم الذين قاموا بكل الإغارات التي تعرضت لها شواطئ سلطنة المماليك في أواخر القرن الرابع عشر وأوائل القرن الخامس عشر ، ولكن كان يكفي أن القراصنة المسيحيين الذين دأبوا على مهاجمة النغور الإسلامية في تلك الحقبة اتخذوا جزيرة قبرس قاعدة لنشاطهم ، مما جعل من الصعب على المسلمين اقتفاء أثرهم والقبض عليهم .

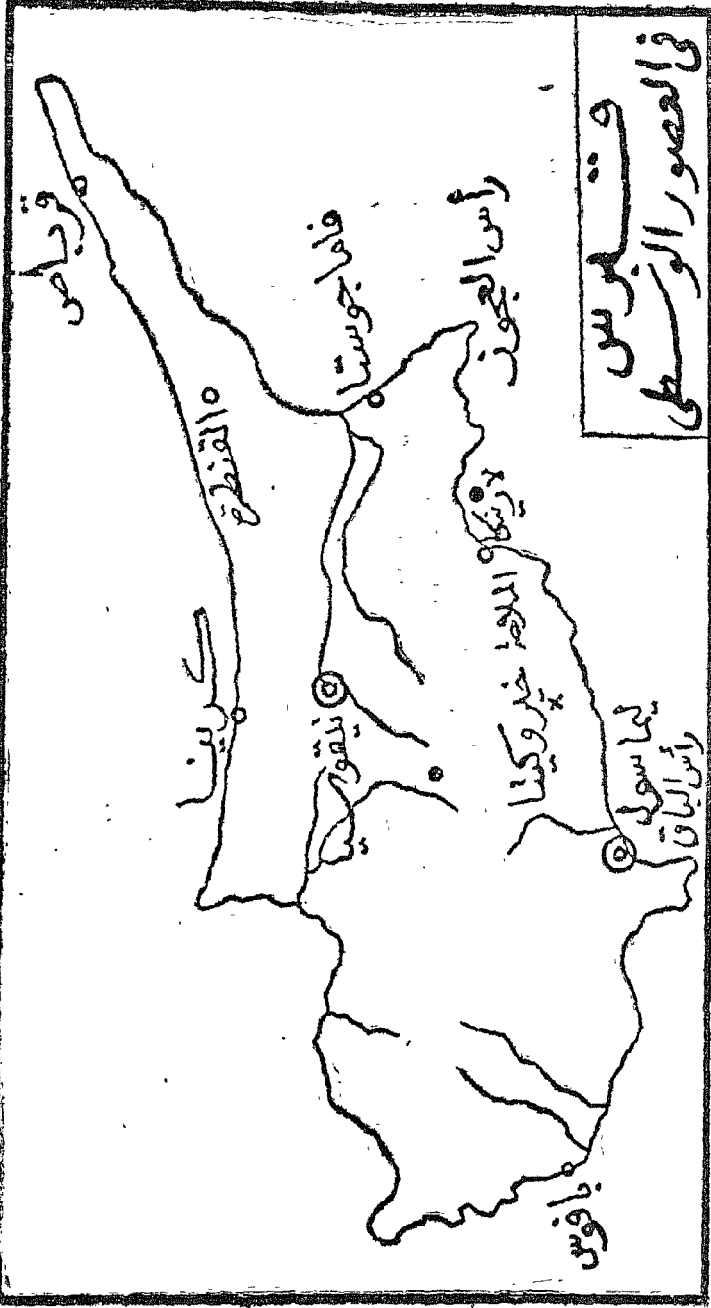
والواقع أن سلاطين المماليك في مصر حاولوا غزو قبرس أكثر من مرة لإحسانهم بخطرها ورغبتهم في دفع ذلك الخطر . وقدر أينا كيف حاول السلطان الظاهر بيبرس غزو قبرس سنة ١٢٧٠ ، ولكن محاولته باءت بالفشل ^(٢) . كذلك حاول يلبغا الخاصكي أن ينتقم مما حل بالأسكندرية سنة ١٣٦٥ على يد بطرس الأول لوزجنان ، فقامت دولة المماليك في عهد السلطان شعبان (١٣٦٣-١٣٧٧) ببعض إغارات على جزيرة قبرس ، ولكنها لم تتخذ شكل غزو شامل للجزيرة ^(٣) . وهكذا حتى كان اعتلاء السلطان برسباي دست السلطنة سنة ١٤٢٢ ، فرأى في الجهاد ضد قبرس وسيلة لتحقيق مآربه وصرف منافسيه من الأمراء عن خلق المشاكل والفتن الداخلية . ودفع برسباي إلى المضى في ذلك التفكير أن إغارات القبارصة لم تنقطع عن شواطئ دولة المماليك ، إذ اعتدى بعض القراصنة على مركب لأحد تجار دمياط سنة ١٤٢٣ ، وأسروه وساقوه

(١) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ٨٧

(٢) المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٥٩٣ .

(٣) النويري : الإعلام بالأعلام ج ١ ص ٧٦ ، ج ٢ ص ١٠٣ (مخطوط) .

في العصور الوسطى
البحر المتوسط



إلى قبرس^(١) ، ولم تجدد محاولات السلطان برسباي في عقد معاهدة مع جانوس ملك قبرس لضمان عدم التعدي على متاجر المسلمين ، إذ ظن جانوس أن حرص دولة المماليك على الصلح لا يعني سوى ضعف سلطان المماليك وتخوفه^(٢) .

وهكذا ظل سلاطين المماليك يتميزون غضبا ، حتى ورد الخبر على السلطان برسباي سنة ١٤٢٣ بأن الفرنج أخذوا مركبين من مراكب المسلمين قرب نقر دمياط فيهما بضائع كثيرة وعدة من الناس يزيدون على مائة رجل ، وبأن جانوس ملك قبرس استولى على سفينة محملة بالهدايا مرسله من برسباي إلى السلطان مراد العثماني^(٣) . وعند ذلك ثارت ثائرة السلطان فأمر بالاستيلاء على أموال التجار الفرنج المقيمين بالثغور المماليكية ومنعهم من السفر إلى بلادهم ، كما أخذ يعد الهدة لغزو قبرس .

وقد أرسل السلطان برسباي ثلاث حملات لغزو قبرس الأولى سنة ١٤٤٢ والثانية سنة ١٤٢٥ والثالثة سنة ١٤٢٦ . وكانت الحملة الأولى صغيرة ، هي في حقيقة أمرها حملة استكشافية غرضها تحديد مسؤولية قبرس عن ذلك النفر من القراصنة الذي كان يتحرم في البحر^(٤) . وقد أغارت تلك الحملة على النواحي القريبة من ليماسول . ثم عادت إلى مصر في أواخر سنة ١٤٢٤ بعد أن ختم المسلمون غنائم كثيرة ودمروا وأحرقوا ما صادفوه من سفن قبرسية^(٥) .

وربما كانت أهمية هذه الحملة الأولى هي أنها أهبطت السلطان برسباي

(١) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت من ٧١٩ — ٢٢٠ .

(٢) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية من ٨٨ .

(٣) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك من ١٣٨ .

(٤) المقرئى : السلوك ج ٤ ص ٣٦٢ (مخطوط) .

(٥) Makhtaras ; Recital Concerning the Sweet Land of Cyprus d.633.

فكرة واضحة عن ضعف جزيرة قبرس من ناحية ، وعن مدى مسئولية قبرس وملوكها عن أعمال القرصنة من ناحية أخرى . ولم يشأ برسباى أن يضيع الوقت أو يعطى خصومه فرصة للاستعداد ، فأخذ يستعد عقب عودة الغزاة لإرسال حملة جديدة لغزو قبرس ، ودأب السلطان على زيارة دارصناعة السفن ببولاك كل يوم ليتفقد سير العمل فى بناء السفن ^(١) . وما زاد من حماسة السلطان برسباى وتصميمه أن أعمال القرصنة لم تنقطع بل استمرت على ما هى عليه ، فهاجمت أربع سفن قبرسية مركبا قرب اللاذقية كان مهجونا بالمجاديف المرسلة إلى مصر ؛ ثم قتلت بحارها وأشعلت النار فيها ^(٢) .

وأخيرا غادرت حملة برسباى الثانية القواطين المصرية فى يوليو سنة ١٤٢٥ فانهضت إلى الشام ومنها إلى قبرس . وقد رست السفن الإسلامية أولا قرب فاما جوستا على شاطئ قبرس ، حيث هاجم الغزاة المناطق القريبة ودمروها وبعد ذلك أبحرت السفن إلى الملاحية فى حين سار شطر من جيش المماليك على القواطين . وقد أراد جانوس ملك قبرس أن يصد المسلمين فأرسل بعض السفن لمناوشة السفن الإسلامية ، من ناحية ، كما أرسل جيشا صغيرا ليقضى على القوة البرية المماليكية التى كانت تسير فى البر بجلاء السفن الإسلامية من ناحية أخرى . ولكن مهابة المسلمين أنزلوا الهزيمة بفارسان القبارصة ، فى حين فرت السفن القبرسية فى عرض البحر ^(٣) .

وبعد تلك الانتصارات السريعة ، أمر قائد الحملة - الأمير جرباش - بإزالة بقية القوات التى كانت بالسفن إلى البر ، فأخذ المماليك يهزقون القرى

(١) أبو المحاسن : الهجوم الزاهرة ج ٦ ص ٥٨٢ (طبعة كاليفرنيا) .

والعقبي : عقد الجان ج ٢٥ ق ٣ ص ٥٧٢ (مخطوط) .

(٢) سعيد طاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ٩٢ .

(٣) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ص ٢٢٣ .

ويعملون في الأهالي قتلا وأسرا ، حتى ضاقت مراكبهم عن حمل الأسرى وامتلات أيديهم بالغنائم (١). وبعد ذلك توجه المسلمون إلى ليماسول فوصلوها صباح أول أيام عيد الفطر (سنة ٨٢٨ هـ) ، فاستولوا هناك على أحد الحصون وأحرقوه ، ثم أخذوا يتأهبون للعودة إلى مصر بعد أن حققوا كثير من أغراض الحملة الاستكشافية الانتقامية وكان أن وصل الغزاة إلى القاهرة في سبتمبر سنة ١٤٢٥ ، فاستقبلوا استقبالا حافلا ، وشقوا طر يقهم إلى القلعة وصحبهم أكثر من ألف أسير ، فضلا عن الغنائم التي حملت على الجمال والبغال (٢) .

على أن السلطان برسباي لم يقنع بذلك ، لأنه عندما فكر في غزو قبرس من أول الأمر ، لم يكن هدفه إرسال حملة لجرد السلب والنهب والعودة بضع مئات من الأسرى وبعض أكوام من الغنائم . والواقع إن برسباي لم يكن يود أن تعود جيوشه من قبرس قبل أن تخضع الجزيرة نهائيا ، ولذلك بدا غير كافٍ بتلك النتائج التي حققتها جيوشه في الحملتين السابقتين ، وقرر إرسال حملة ثالثة إلى قبرس في العام التالي (٣) . وكانت هناك عوامل أخرى دفعت برسباي إلى الإصرار على إخضاع قبرس لسيادته ، منها استمرار تحرير بعض الجنود له ضد جانوس بسبب عداوتهم لملك قبرس ، ومنها استنجد بعض قوى المسلمين الأتراك على شاطئ آسيا الصغرى بدولة المماليك لحمايتهم من عدوان قبرس وملوكها . هذا فضلا عما وصل إلى مسامع السلطان برسباي من أن جانوس ملك قبرس استنجد بملوك غرب أوروبا ضد دولة المماليك (٤) .

(١) المقرئى : السلوك ج ٤ ورقة ٣٦٨ (مخطوط) .

(٢) أبو الحسن : النجوم ج ٦ ص ٥٩٣ طبعة (كاليفورنيا) .

(٣) سعيد هاشور : قبرص والحروب الصليبية ص ١٠٣ .

(٤) ابن حجر : انباء الفجر ج ٢ ورقة ١١١ .

وقد وجد السلطان برسباي في تلك العوالم مجتمعة حافزاً قويا لإرسال حملة كبرى ثالثة لفتح قبرس ، عهد بقيادة جيوشها الهربية إلى الأمير تغرى بردى المحمودى ، وبقيادة قواتها البحرية إلى الأمير ليناك الجيكرى ، وحدد اختصاصات كل منهما حتى لا يعارض أحدهما الآخر ، (١) . وفي أول يونيو سنة ١٤٢٦ أفلحت الحملة من الأسكندرية . وعندتها أكثر من مائة سفينة تحمل نحو أربعين خمسة آلاف مقاتل . ولم تسكد الحملة تصل إلى منطقة ليماسول حتى بدأت العمل فوراً ، فهاجم الغزاة مدينة ليماسول واستولوا عليها وعازوا فيها نهباً وهدماً واحراقاً (٢) .

وفي تلك الحملة لم يكتف المسلمون بحصر نشاطهم في الأقاليم الساحلية للجزيرة قبرس ، وإنما أوغلوا داخل الجزيرة حيث كان الملك جانوس قد جمع قواته في سهل خيروكيتا إلى الشمال الشرقى من ليماسول . وفي الموقعة الفاصلة التي دارت بين الطرفين في ذلك السهل حلت الهزيمة ساحقة بالقبارسة ، فظلت سيوف المماليك تعمل في صفوفهم ، وأسنة الرماح تطعن في أعضائهم فصاروا كثيرتهم قلة وقوتهم ضعفاء (٣) . وقد حاول جانوس ملك قبرس النجاة بنفسه عندما وجد ما حل بجهده ولكن المماليك تبعوه وقبضوا عليه مع جملة من الأسرى . وقد رأى قائد الحملة الأمير تغرى بردى المحمودى — أن يتبع تلك الهزيمة بالزحف على نيقوسيا عاصمة قبرس ، فدخلها المماليك دخول الظافر ورفعوا على مبانيها الرايات السلطانية ، وتقدم لهم هناك أعيان الجزيرة بالأموال الكثيرة للحصول على الأمان (٤) .

وأخيراً عاد الغزاة إلى مصر فشققوا القاهرة في موكب حافل وخلفهم الأسرى وقد امتطى الملك جانوس د بغلا أعرجاً . ويقال إن جانوس عندما

(١) السيوطى : غزوات قبرس ورودى ص ٩ ،

(٢) المقرئى : السلوك ج ٤ ورقة ٣٧٤ (مخطوط) ؛

(٣) المبنى : عقد الجان ج ٢٥ ق ٣ ورقة ٥٨١ .

(٤) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ١١٤ - ١١٥ ،

دخل على السلطان برسباى قبل الأرض وأخذ يستعطف السلطان ، حتى وافق برسباى أخيراً على إطلاق سراحه مقابل مائتى ألف دينار دفع منها جانوس الهدف عاجلاً على أن يرسل الباقي بعد عودته إلى بلاده (١) . كذلك اشترط السلطان برسباى أن تغل قبرس تابعة لسلطنة المماليك ، وأن يكون جانوس نائباً عنه في حكمها . وقد وافق جانوس على جميع تلك الشروط ، فأفرج عنه وسمح له بال سفر إلى جزيرته التي وصلها في مارس سنة ١٤٢٧ (٢) .

وبذلك يكون السلطان برسباى قد حقق نصراً كبيراً للدولة المماليك ، مما أضفى عليه وعلى حكمه أهمية كبرى على أنه لا يمكن أن نتخذ الهدوء والاستقرار اللذين سادا عهد برسباى بأنهما دائل على سعادة الشعب ، إذ الواقع أن الناس قاسوا كثيراً في ذلك العهد بسبب كثرة الاحتكارات والضرائب ، الأمر الذي جعل برسباى يموت غير مأسوف عليه سنة ١٤٣٨ (٣) .

السلطان الظاهر بقمقوش وشهزاد رومس : (١٤٣٨ — ١٤٥٣)

لم يستطع التقي يوسف بن برسباى (١٤٣٧ — ١٤٣٨) أن يحصى عرشه من أطماع الوصى عليه وهو الأمير جقمق ذلك أن العزيز يوسف كان في الرابعة عشرة من عمره ، فسهل على الأمير جقمق عزله بعد عدة أشهر — كما هي عادة المماليك — وتولى هو السلطنة بلقب الظاهر . وكان جقمق معتدلاً في حكمه ، إذا قيس بسلفه برسباى ، كما عرف عن جقمق تدينه وورعه فخره المعاصي وشرب الخمر (٤) .

(١) ابن حجر : أنباء الفجر ج ٢ ورقة ١١٢ .

(٢) Maktiaras op. cit, p. 673 .

(٣) Lane-poole : op. cit, p. 340 .

(٤) أبو الحسن : الهجوم والامارة : ج ٢ في ١ ص ٢٤٥ (طبعة كالموننيا) .

(١٢ — العصر المماليكي)

وكما اشتهر عهد السلطان برسباى فى التاريخ بغزو جزيرة قبرس، فكذلك اشتهر عهد السلطان الظاهر جقمق بغزو جزيرة رودس . والواقع ان جزيرة رودس كانت عندئذ مركزاً هاماً للصليبيين فى شرق البحر المتوسط ، بعد أن استولى عيافرسان الاستبارية سنة ١٣٠٨ واتخذوها قاعدة لنشاطهم وأعمالهم (١) . ولم يكن الاستبارية أقل تحملاً لحرب المسلمين من آل لوزجنان فى قبرس ، الأمر الذى جعل المماليك يفكرون جدياً فى غزو جزيرة رودس للقضاء على ذلك الخطر .

ولاشك فى أن الاستبارية فى رودس أحسوا بالخطر عقب نجاح المماليك فى فتح قبرس ، فأسروا بتقديم الهدايا للسلطان برسباى فى القاهرة ، وهرضوا عليه عقد معاهدة صداقة وعدم اعتداء ، ولكن ذلك لم ينس السلطان برسباى موقف رودس والاستبارية من المسلمين ، ولو طال به الأجل لقام فعلاً بغزو تلك الجزيرة ومن جهة أخرى يقال إن السلطان مراد الثانى العثمانى سمح بمحاولات لضم فرسان الاستبارية برودس إلى الحلف المسيحى الكبير الذى أوشك أن يتكون فى أوروبا لشن حرب صليبية كبرى ضد العثمانيين المسلمين ، فقام السلطان العثمانى بتحريض جقمق سلطان المماليك فى مصر على غزو رودس ليشغل الاستبارية عن الانضمام لذلك الحلف (٢) . هذا إلى أن إغارات القراصنة على شواطئ مصر لم تنقطع عقب استيلاء المماليك على قبرس سنة ١٤٢٦ ، مما يدفع بحالاً للشك فى أن أولئك القراصنة اتخذوا جزيرة رودس قاعدة لهم بعد أن سقطت أرمينيا الصغرى وقبرس من ذلك أن أربع سفن للصليبيين دخلت فرع رشيد سنة ١٤٣٩ ، وبعد أن نهبت ودمرت عادت أراجها ، مما أثار السلطان

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٢٣٣ — ١٢٣٤ .

(٢) محمد مصطفى زيادة : المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودس ، ص ١٩٨ .

جقمق (١). فإذا أضفنا إلى ذلك رغبة السلطان جقمق في أن يحدو حذو برسمباي ليحقق لنفسه مجداً يغطي به حقيقة اغتصابه للسلطنة من ناحية ، وبصرف أنظار المهايك عن المنازعات الداخلية ويوجه طاقتهم نحو الغزو والجهاد من ناحية ثانية ، أدركنا مجموعة الأسباب التي حركت جقمق لغزو جزيرة رودس .

وقد أرسل السلطان جقمق ثلاث حملات ضد رودس في سنوات ١٤٤٠ ، ١٤٤٣ ، ١٤٤٤ . وكانت الحملة الأولى صغيرة ، لم تستطع أن تقوم بعمل يستحق الانتباه ، بل على العكس تصدى لها أسطول الاستبارية برودس وأنزل بالسفن الإسلامية بعض الخسائر (٢). أما الحملة الثانية التي أرسلها جقمق بقيادة الأمير إينال الملائي ضد رودس فقد كانت أكبر توفيقاً . فدمرت بعض الحصون الساحلية في رودس ثم قفلت راجعة إلى مصر بعد أن اضطرت لها و اصف الشتاء إلى ذلك (٣). وأخيراً كانت الحملة الثالثة وهي كبرى حملات جقمق ضد رودس وأوفر مائدة وعناداً ، فاتجهت صوب مدينة رودس عاصمة الاستبارية وحاصرتها نحو من أربعين يوماً . ولكن على الرغم من مما أبداه المهايك من شجاعة نادرة ، فإنهم عجزوا عن الاستمرار في القتال بسبب شدة مقاومة الاستبارية الذين كانوا قد ألفوا أساليب المسلمين في الحرب ببلاد الشام . هذا فضلاً عن المساعدات التي تلقاها الاستبارية من العالم المسيحي الغربي ، وبخاصة برجنديا وقطالونيا . وهكذا رأى قائدا الحملة - وهما الأميران إينال الملائي وتما باي - الانسحاب والعودة إلى مصر حرصاً على سلامة قواتهما (٤) . ولم يلبث أن تم الصلح بين

(١) Wiet : L'Egypte, Arabe, p. 582 .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ق ١ ص ١٢٢ (طبعة كاليفورنيا) .

(٣) السيوطي : غروات قبرس ورودس ص ١٤ .

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ق ١ ص ١٣٦ (طبعة كاليفورنيا) .

الاستبصارية في ردوس والسلطان جقمق في مصر بعد أن تعهد الاستبصارية بعدم العدوان على السفن والمتاجر الإسلامية^(١).

هذا من نشاط السلطان جقمق في الميدان الخارجي . أما في الميدان الداخلي فقد امتاز عهده بالهدوء ، إذا استثنينا ثورتين في بداية حكمه قام بالاولى الأمير قرقاس الشيباني الناصري وقام بالثانية إينال الحكيم نائب دمشق . وقد نجح جقمق في القضاء على هاتين الثورتين في سهولة^(٢) . كذلك حدث في عهد جقمق أن دار النجيد السود في منطقة الجيزة سنة ١٤٤٢ وأقاموا عليهم سلطانا من بينهم ، ولما سكن السلطان جقمق قضى تلك الفتنة وباع من في القاهرة من النجيد السود ، في حين أرسل الباقين في سفينة إلى بلاد العثمانيين حيث بيعوا هناك^(٣) .

دولة المماليك في أواخر أيامها :

توفي السلطان جقمق سنة ١٤٥٣ وهو في الثمانين من عمره ، بعد أن أعلن أثناء مرضه - وهو على فراش الموت - ولاية العهد لابنه عثمان غير أن السلطان المنصور عثمان لم يستطع البقاء في الحكم أكثر من شهر ونصف ، فخلعه الجيش لأنه وزع عليهم النفقة بنقود مغمشوشة غير سليمة^(٤) .

وقد ولي السلطنة بعد المنصور عثمان السلطان الأشرف إينال (١٤٥٣ - ١٤٦٠) . ولعل أوضح ظاهرة اتصف بها تاريخ المماليك في ذلك الدور هي كثرة

(١) محمد مصطفى زيادة . المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودس من ٢٠٢ وما بعدها .

(٢) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ق ١ ص ٤٩ — ٥٨ (طبعة كاليفورنيا)

(٣) إبراهيم طرخان : مصر في عصر دولة المماليك الجراكمة ، ص ٣٥ .

(٤) Wiet : op . cit . , p . 587 .

ثورات الممالك الجلبان أو الأجلاب الذين كان يحاربهم كل سلطان جديد .
والمعروف أن سلاطين الممالك الأوائل اعتادوا منذ منتصف القرن الثالث عشر
أن يشتروا المالكين صغاراً لأطفالاً ويتمهدون تربيتهم ونشأتهم خاصة ،
فيشرب المملوك وقد اختص بولائه أستاذه الذي اشتراه وقام على تربيته وحباه
بمظفه . أما في ذلك الدور الأخير من تاريخ دولة الممالك - أى في القرن
الخامس عشر - فقد دأب السلاطين على شراء الممالك كباراً في سن البلوغ ،
مما جعل أولئك الجلبان لا يشربون روح النظام والولاء لأستاذهم في طفولتهم ،
فصاروا مصدر خطر على السلطان نفسه ، وتعددت ثوراتهم حتى صار
السلاطين أنفسهم العوبة في أيديهم . ولعل هذا هو السر فيما نلاحظه في ذلك
الدور بالذات من سهولة عزل السلاطين وإقامة غيرهم ، فلا يكاد السلطان يبق
في منصبه أياماً بل ساطت حتى يمزول ويتمام غيره . ومن وراء جميع هذه
الحركات الثورية والفتن والتفائل كان الجلبان في ذلك الدور الأخير من
تاريخ دولة الممالك الجراكسة (١) .

ولا أدل على مدى ما أصاب البلاد من اضطراب نتيجة لثورات الجلبان
في ذلك الدور ، من أن الجلبان ثاروا سبع مرات في عهد السلطان إينال البالغ
طوله ثمان سنوات (٢) .

ولم يستطع أحمد بن إينال البقاء في الحكم سوى أربعة شهور فقط ثم خلفه
سنة ١٤٦١ السلطان الظاهر خشقدم الذي امتاز عهده بالهدوء . ولم يعكر صفو
هذا الهدوء سوى المحاولة التي قام بها جاجم بك نائب الشام لانتزاع العرش .
ولكن خشقدم استطاع في سهولة أن يتخلص من مؤامرة جاجم بك وأعوانه ،
حتى قتله (٣) .

(١) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ق ١ ص ٣٩٠ وما بعدها (طبعة كاليفورنيا) .

(٢) ابن أبي راس : صفحات لم تقتصر من بدائع الزهور ص ٢٨ ، ٥٧ ، ٦٥ .

(٣) إبراهيم طرخان : مصر في عصر دولة الممالك الجراكسة ص ٣٩ .

وبعد خشف قدم تولى السلطنة قايتباى المجنون سنة ١٤٦٧ ، ثم الظاهر تمر بغا الرومى فى العام نفسه . ولم يستطع تمر بغا إرضاء المماليك الحشدية و زعيمهم خير بك فعزلهُ بعد شهرين . وذن الواضح أن خير بك عندما دبر عزل تمر بغا إنما كان يبغي الاستئثار بالعرش لنفسه ، وفعلا صعد خير بك إلى دست السلطنة أنفاه الليل و لاقب نفسه بالسلطان الظاهر تشبهاً باستاذ الظاهر خشف قدم . ولكن الأتابك قايتباى أسرع إلى القلعة وسيطر على الموقف ، وتولى السلطنة بعد عزل خير بك الذى أطلق عليه لقب « سلطان ليلة » ، لأنه لم يظل فى دست السلطنة سوى ليلة واحدة (١) .

ويعتبر السلطان قايتباى (١٤٦٨ — ١٤٩٦) من أبرز سلاطين دولة المماليك الجراكسة لأنه حكم مدة طويلة بلغت تسعة وعشرين عاماً ، وهى مدة لم يحكمها أحد من سلاطين المماليك ، عبد السلطان الناصر محمد . وفى تلك المدة أثبت السلطان الأشرف قايتباى أنه أمهر السلاطين الجراكسة فى ميدان الحرب ، وأوسعهم خبرة بشئون العالم ، وأكثرتهم مقدرة وشجاعة وحكمة ؛ حتى لقد وصفه المؤرخ ابن لباس بأنه كان « وافر العقل سديد الرأى ، عارفاً بأحوال الممالك ، يضع الأشياء فى محلها . . . موصوفاً بالشجاعة عارفاً بأنواع الفروسية . . . » (٢) حقيقة إنه تعسف — مثل غيره من السلاطين — فى جمع الأموال وفرض الضرائب ؛ ولكن آثاره ومنشأته العديدة تثبت أنه كان ينفق تلك الأموال فى المنشآت العامة أو فى حروبه الواسعة . ويعتبر مسجداً قايتباى بالقاهرة والوكالات التى شيدها من أجل المباني العربية فى ذلك العصر . هذا إلى أنه حرص على ترميم وإصلاح المنشآت التى أقامها أسلافه ، كما تشهد على ذلك السكتات العديدة

(١) ابن لباس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٨٩ وما بعدها .

(٢) ابن لباس : بدائع الزهور ، ج ٣ ص ٣٢٥ . (نصر محمد مصطفى) .

المدونة على جدران المساجد والمدارس والقلاع وغيرها^(١).

وقد عرف عن السلطان قايتباى حب الرحلات والأسفار ، فطاف بلاد الشام وشمال الفرات والوجهين البحرى والقبلى بمصر ؛ بالإضافة إلى الحج وزيارة الأماكن المقدسة بالحجاز وفلسطين . وكان أينما ذهب يخلد اسمه بإنشاء الطرق والجسور والمساجد والمدارس والتحسينات وغيره من الأعمال الخيرية والمرافق العمرانية^(٢).

على أن هناك مهاماً أخرى واجهت السلطان قايتباى ؛ أحطت بكثير من الإنشاء والتعمير . ذلك أن عدم استقرار الأوضاع على الحدود الشمالية سبب دائماً مصاعب جمّة لسلطين المماليك الجراكسة . وفى النصف الثانى من القرن الخامس عشر لم تقتصر المتاعب التى واجهت دولة المماليك فى تلك الجهات على الثورات التى قام بها التركان ، وإنما أدت القلاقل التى ظهرت فى تلك الجهات إلى تدخل قوة جديدة هى قوة العثمانيين الذين أخذ نفوذهم يزداد ويتضخم ، وخاصة بعد استيلائهم على القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م^(٣).

أما عن أحوال مصر فى أواخر عهد السلطان قايتباى فقد امتازت بكثرة الضرائب وجمع الأموال للحرب ، هذا عدا انتشار الوباء انتشاراً فتاكاً سنة ١٤٩٢ ؛ حتى أنه كان يموت فى القاهرة فى اليوم الواحد أكثر من عشرة آلاف شخص . وقد مات بسبب ذلك الوباء ثلث المماليك ، فضلاً عن زوجة السلطان قايتباى وابنته . ثم إن ذلك الوباء ترتب عليه القحط الشديد وانتشار طاعون الموشى ، مما أدى إلى ندرة القوت وغلاء الأسعار^(٤) . ولت المماليك قدرها

(١) Lane-poole: op. cit., p. 344 .

(٢) ابن لمباس : بدائع الزهور ج٣ ص ٣٢٩ (نشر محمد مصطفى) .

(٣) Wiet: op. cit., pp. 590-592 .

(٤) ابن لمباس : بدائع الزهور ج٣ ص ٢٨٧ (نشر محمد مصطفى) .

عندئذ خطورة تلك المحنة التي كانت تمر بها البلاد والعباد ، وإنما استمرت المنازعات والخلافات بين طوائفهم ، كما حدث سنة ١٤٩٥

وأخيراً سادت محنة السلطان قايتباي بعد أن جاوز الثمانين من عمره ، فتنازل عن السلطنة لابنه ، ثم أوفى في اليوم التالي مباشرة سنة ١٤٩٦^(١)

وقد تعاقب في منصب السلطنة بعد السلطان الأشرف قايتباي ابنه محمد (١٤٩٦ - ١٤٩٧) ثم قانصوه خمسمائة الذي لم يثبت في العرش سوى ثلاثة أيام ؛ ثم عاد محمد بن قايتباي مرة أخرى (١٤٩٧ - ١٤٩٨) ، ثم قانصوه الأشرفي (١٤٩٨ - ١٥٠٠) ؛ ثم جانبلاط (١٥٠٠ - ١٥٠١) ، ثم العادل طومان باي الأول (١٥٠١) . وجميع هؤلاء حكموا مدداً قصيرة مما يشهد على مدى حالة الفوضى وعدم الاستقرار التي سادت البلاد في ذلك الدور الأخير من حياة دولة المماليك^(٢) . ولا أدل على تلك الفوضى التي عصمت جهاز الحكم في الدولة من أن معظم السلاطين الذين تولوا السلطنة في ذلك الدور انتهى أمرهم بالقتل أو السجن أو الخنق ، مما جعل كبار الأمراء لا يرغبون في تولي منصب السلطنة الذي غدا ملطخاً بدماء الأبرياء . وعندما قتل السلطان العادل طومان باي سنة ١٥٠١ ، تمنع النوري — رغم أنه أقوى الأمراء — عن قبول المنصب بل إنه أخذ يبيح ، ويقال إن النوري قبل أخيراً أن يلي منصب السلطنة بعد أن « سجنوه وأجلسوه وهو يمتنع من ذلك ويبيح » ؛ ولكنه اشترط على الأمراء ألا يقتلوه ، وأن يصرفوه بالمعروف إذا أرادوا عزله ، فقال لهم : « قبل ذلك بشرط ألا تقتلوني ؛ بل إذا أردتم خلعي وافتكتم »^(٣)

(١) Lane-poole : op. cit., p. 349 .

(٢) ابن أبي راس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٣٣٢ - ٤٦٣ (نشر محمد مصطفى) .

(٣) ابن أبي راس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٤ (نشر محمد مصطفى) .

السلطان المنصور قانصوه الغورى (١٥٠١ - ١٥١٦)

أنبت السلطان قانصوه الغورى أنه رجل قوى صلب رغم أنه كان قد جاوز السنين من عمره عندما ولي منصب السلطنة . ذلك أنه عمل بسرعة على إعادة النظام والاستقرار إلى العاصمة ، وملأ مناصب الدولة بمن يثق فيهم من كبار الأمراء ، ثم اتجه إلى علاج الأزمة المالية المستعصية التي كانت تعانيها خزانة الدولة المفاصة .

وقد اتبع السلطان الغورى لإنعاش الخزانة العامة سياسة تصفية لم يسبقه إليها أحد من سلاطين المماليك . ذلك أنه جمع ضرائب ومكوس عشرة أشهر ، قدما دفعة واحدة ، ولم يكتف بفرض هذه الضرائب على الأراضي والحوانيت والعقارات ، وإنما تجاوز ذلك إلى الطواحين والمعديات والسفن ودواب النقل وخدم القصور ، بل حتى الأوقاف الخيرية . هذا إلى أنه ضاعف من الرسوم الجركية ، كما تلاعب في العملة لتستفيد الخزانة من الفارق ، مما أضر بالتجار ضرراً بليماً^(١) . وكانت النتيجة أن حقق الغورى أغراضه وحصل على ما كان يرغب فيه من أموال ، ولكن على حساب الشعب الذى ازدادت حالته سوءاً ، وأخذ يشن من قسوة الضرائب الباهظة .

وقد أنفق الغورى من تلك الأموال - التى جدد فى جمعها - على مالهيكه الذين أكثر من أعدادهم عن طريق الشراء ، كما شيد مسجداً ومدرسة فى الحلي الذى سمي بعد ذلك باسمه ، وهو حلى الغورية . كذلك عفى السلطان الغورى بطريق الخج ، فأقام به كثيراً من الاستراحات والآبار . هذا فضلاً عن حفر بعض الترع وتحصين الإسكندرية ورشيد وإصلاح القلعة . ومن المعروف عن السلطان

(١) ابن المياس: بدائع الزهور ج ٥ ص ٨٩ — ٩٠ (نصر محمد مصطفى) .

الغورى أنه عني بفخامة بلاطه وعظمة مظهره ، فأصبحت ماليكة وخيوله وجواهره ومطبخه السلطاني مضرِب الأمثال ، كما اشتهرت مجالسه الأدبية بمن ضمنهم من شعراء وأدباء وعلماء (١) .

ولم تحدث قلائل ذات أهمية في الفترة الأولى من حكم السلطان الغورى ، إذا استثنينا بعض الثورات من جانب المماليك الأجلاب والعربان . أما في الميدان الخارجى ، فكان الخطر الكبير الذى هدد مصالح البلاد في ذلك الدور الأول من حكم السلطان الغورى آتيا من فاحية البحر الأحمر . ذلك أن فاسكو دى جاما اكتشف طريق رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٧ ، وسرعان ما ثبت البرتغاليون أقدامهم في كل سنة ١٥٠٠ ، مما هدد مركز مصر الاقتصادى كطريق رئيسى للتجارة بين الشرق الأقصى والعرب الأوربي ، وأذن بانتقال زمام التجارة من أيدي المماليك إلى أيدي البرتغاليين (٢) . وإزاء هذا الخطر الجسيم ، امتنع دأمرأه المسلمون في الهند وجنوب شبه الجزيرة العربية بالسلطان الغورى ، الذى رأى في الخطر الجديد تهديداً مباشراً للمورد الأساسى الذى اعتمدت عليه دولته واستمدت منه قوتها .

وقد لجأ الغورى أولاً إلى الأساليب السياسية فوجه نداء إلى البابا يطلب منه منع البرتغاليين والأسبان من التعرض بشؤون المسلمين في الشرق والغرب ويبدو أن القوى الأوربية لم تتأثر بذلك التهديد الأجوف مما جعل الغورى يشيد أسطولا جديداً في البحر الأحمر . وفي الصراع الذى نشب بين المماليك والبرتغاليين في المحيط العربى — غربى الهند — انتصر المماليك في أول الأمر سنة ١٥٠٨ ، ولكن لم يلبث أن ثار البرتغاليون لأنفسهم في العام التالى في

(١) ابن لياس : بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ٨٩ ، ٩٤ ، ٩٥ (لعمري محمد مصطفى)

(٢) wiet : op. cit. p. 616 — 617.

موقعة ديو البحرية ، بل لقد هاجم البرتغاليون عدن نفسها سنة ١٥١٣ وهكذا ضاعت مكانة مهر في الوساطة التجارية بين الشرق والغرب ، الأمر الذي أدى إلى ذبول دولة المماليك ذبولا سريعا متواصلا (١) .

على أنه إذا كان الخطر الخارجى من جانب البرتغاليين قد ترتب عليه ذبول دولة المماليك ؛ فإن ثمة خطر خارجى آخر تفاقم فى أواخر عهد الخورى . وترتب عليه سقوط سلطنة المماليك نفسها . ونعنى بهذا الخطر الجديد ، خطر بنى عثمان .

سقوط دولة المماليك :

والواقع إن الدولة العثمانية وصلت فى أوائل القرن السادس عشر إلى نقطة يمكن تسميتها بمفترق الطرق ، بالنسبة لحركة التوسع الضخمة التى شرع فيها العثمانيون منذ عدة قرون . فى أوائل القرن السادس عشر كان العثمانيون قد عرفوا من احتلال آسيا الصغرى والبلقان ووصلوا إلى أواسط أوروبا ، وعندئذ صار أمامهم أن يختاروا بين أمرين ، إما الاستمرار فى التوسع فى أوروبا على حساب الأوروبيين المسيحيين مما أضفى على حركتهم التوسعية فى ذلك الاتجاه طابع الجهاد الدينى ؛ وإما الاكتفاء بما أصابوه من تقدم فى وسط أوروبا أو صلبهم إلى مدينة فيينا ذاتها ، والتوسع شرقا على حساب الدول الإسلامية المجاورة .

وكان أن اختار السلطان سليم العثمانى الاتجاه الأخير لاسيما وأن الخلاف المذهبى والسياسى كان على أشده بين العثمانيين السنيين من ناحية والنصوريين الشيعة فى فارس والعراق من ناحية أخرى . ولم يلبث السلطان سليم العثمانى أن حقق انتصارا كبيرا على القائد اسماعيل الصفوى فى موقعة جالدراب سنة ١٥١٤

(١) ابن لياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ٨٧ ، ٢٨٦ ، ٤٥٨ ، ٤٦٦ (نهر محمد مصطفى)

ومن الواضح أن انتصار العثمانيين على الصفويين، واستيلاء سليم الأول على الجزيرة والموصل وذيابكر، وغيرها من النواحي ذات العلاقات الاقتصادية والسياسية القديمة بدولة المماليك، جعل العثمانيين قاب قوسين أو أدنى من أطراف دولة المماليك في شمال الشام والعراق.

وقد امتدأ السلطان الغورى والأمرء لأخبار انتصار السلطان سليم العثمانى على الصفويين، وخشوا من سطوته وشدة بأسه لما يحدث منه بعد ذلك إلى جهة بلاد السلطان، (١) ولم يخفف من مخاوف السلطان الغورى ما تردد من أخبار بعد ذلك بأن الصفويين انتصروا على العثمانيين، لأنه أدرك أن بقاء دولة المماليك في ذلك الدور صار رهيناً باستمرار الصراع بين القوتين. لذلك حسم الغورى على الخروج إلى حلب، حتى يرى ما يكون من أمر الصفوى وابن عثمان، فإن كل من انتصر منهما على غريمه لابد أن يزحف على بلادنا... (٢).

ثم كان أن قضى سليم سنة ١٥١٥ على إمارة دلفادر، وهى الإمارة التركمانية المشمولة بحماية المماليك، الأمر الذى جعل السلطان الغورى يحس إحساساً قوياً بخطر العثمانيين الذى ازداد ملامسة لحدود دولته (٣). وكان أن اتخذ السلطان الغورى عدة خطوات إيجابية، فتحالف مع اسماعيل الصفوى من ناحية (٤)، كما أوى الأمير قاسم العثمانى - ابن أخى السلطان سليم - الذى فر من وجه عمه بعد أن قتل السلطان أباه أحمد (أبو القاسم وأخو سليم) (٥).

(١) ابن لياس: بدائع الزهور ج ٤ ص ٣٩٧، وكذلك ص ٢٧٨، ٣٩٦، ٤٠٠ (نشر محمد مصطفى).

(٢) المرجع السابق ج ٥ ص ٢٢.

(٣) ابن لياس: بدائع الزهور ج ٤ ص ٤٦٢ - ٤٦٣ (نشر محمد مصطفى).

(٤) المرجع السابق ج ٥ ص ٣٥، ويذكر ابن لياس أن الغورى أرسل للصفوى عدة أفيال يستعين بها في حرب سليم العثمانى وكان لإرسال هذه الأفيال فى الحفية فى خبر سر بينه وبين الصفوى.

(٥) ابن لياس: بدائع الزهور ج ٥ ص ٤٩ (نشر محمد مصطفى).

وهكذا أصبح الصراع المكشوف متوقفاً بين لحظة وأخرى بين دولتي المماليك والعثمانيين . وسرعان ما جاءت الأخبار إلى السلطان الغورى بعظم الحشود والاستعدادات التي يجريها السلطان سليم العثماني قرب حدود دولة المماليك ، ولم يصدق الغورى الإشاعات التي أطلقها السلطان سليم بأن تلك الاستعدادات إنما قصد بها محاربة الصفويين ، وإنما أوجس الغورى خيفة من نيات سليم وأخذ يحشد قواته على عجل لمواجهة الموقف . وفي تلك الأوقات الهشبة لم يتدخل المماليك عن عبثهم ولم يقدروا خطورة الموقف الذي أوشك أن يعصف بهم جميعاً ، فنار الجلبان في القاهرة لتأخر روانهم ، الأمر الذي أغضب السلطان الغورى فترك القلعة واعتزل في المقياس وقال للأمراء : أنا ما بقيت أحمل سلطاناً ، ولوا عليكم من تختاروه غيري . . . وقد استغل المماليك الجلبان تلك الفرصة ، فنادوا في العبيث ونهبوا الدكاكين في القاهرة ، واستمروا يشوشون على الناس ويخطفون العمام ... وجعل منهم الضرر الشامل ،^(١) وأخيراً استطاع كبار الأمراء أن يسترضوا السلطان الغورى ، فأنبأ المماليك قائلاً : : لا تسمعوا العدو فينا ، وابن عثمان متحرك علينا ،^(٢) وفي الوقت الذي أخذ الغورى يكمل استعداداته ويصدر أوامره إلى الخليفة العباسي المتوكل والقضاة الأربعة بالتأهب لمصاحبتة على رأس الجيش إلى حلب لمواجهة تهديد بني عثمان ، إذا برسالة تصل من خاير بك نائب حلب تطمئن السلطان الغورى وتخبره أنه مخدوع فيما لديه من أخبار بسدد الاستعدادات العثمانية ، لأن تلك الاستعدادات إنما قصد بها حرب الشاه اسماعيل الصفوي . واستكشف الأحداث فيما بعد عن خيانة خاير بك هذا إذ أنه في الواقع كان متصلاً بالعثمانيين منذ وقت مبكر وقام بدور خطير

(١) ابن لياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ٤٨٤ (نشر محمد مصطفى) .

(٢) المرجع السابق ج ٥ ص ٧ .

في تسهيل مهمة العثمانيين في احتلال الشام ، ولكي يسبك خاير بك أكذوبته ، فإنه أخذ يروى في رسالته إلى السلطان الغوري تاريخ الحرب بين العثمانيين والصفويين (١) ، كما انصل بالأمير سيباى نائب الشام وطلب منه أن يطمئن السلطان الغوري ، فكتب سيباى إلى الغوري يخبره أن الأحوال الاقتصادية في الشام سيئة بحيث لا تحتل البلاد بجيـء السلطان ومعه جيشه الغفير ، لاسيما وأن العثمانيين لم يتحركوا على الحدود ، وإن كان العدو متحرك فتدفع له كفاية (٢) .

ولكن السلطان الغوري لم يأخذ بكلام خاير بك الخائن ومضى في استعداداته فحشد الجند والأمراء في الريدانية استعداداً للخروج إلى الشام . وفي تلك المرحلة وصلت السلطان الغوري رسالة ثانية من خاير بك يقول فيها إن رسولا جاءه من قبل السلطان العثماني لمفاوضته في الصلح ، ومع رسالة خاير بك رسالة من السلطان سليم نفسه إلى الغوري ، كلها ألفاظ معسولة لمحاولة بث الطمأنينة في قلبه وصرفه عن الاستعداد للحرب ، إذ يقول السلطان سليم للغوري في رسالته : ... أنت والدي وأسالك الدماء ... وجميع ماترونه ويريده السلطان فعلمناه (٣) ... ومرة أخرى لم ينخدع الغوري بتلك الحيلة ، فلم يهض على تسلمه رسالة السلطان سليم يومان حتى خرج على رأس جيشه إلى الشام ، بعد أن أناب عنه أثناء غيبته الأمير طومانباى .

وعند غرة سبعم السلطان الغوري لأول مرة بخيانة خاير بك ، ولكنه رفض تصديق التهمة ، ومضى في طريقه حتى وصل حلب في يوليو سنة ١٥١٦ (٤) .

(١) ابن لباس : بدائع الزهور ج ٥ ص ٢٣ (نشر محمد مصطفى)

(٢) ابن لباس : بدائع الزهور ج ٥ ص ٢٦ (نشر محمد مصطفى) .

(٣) المرجع السابق ج ٥ ص ٤٥ (نشر محمد مصطفى)

(٤) ابن زنبيل : آخره المالك ص ١٥ .

وهناك في حلب اعتدى جيش الغورى على الأهالى وأخرجوا الناس من بيوتهم وسبوا حريمهم وأولادهم وكان ذلك سببا (فبما بعد) لقيام أهل حلب مع السلطان سليم على الجراكمة ، لشدة ما حل بهم من الضرر منهم ،^(١) وكان أن وصل معسكر الغورى في حلب رسولان من قبل السلطان سليم المماليك يطلبان المفاوضة في الصلح ، وذلك بقصد خديعته وإحاطته بجو من السلامة والطمانينة حتى يأخذه سليم على غرة . وقد تمادى الرسولان في التمويه على الغورى فقالا له : نحن فوض لنا أستاذنا الأمر ، وقال مهما اختاره السلطان فاعملوه ولا تشاوروني . ويرى ابن إياس أنه من جملة مخادعة ابن عثمان رأى السلطان أنه أرسل يطلب منه سكر وحلوى فأرسل إليه السلطان مائة قنطار سكر وحلوى في طلب كبار ، وكل ذلك حيل منه ،^(٢) ومع أن الغورى استقبل الرسولين استقبالا حسنا وأرسل بدوره للسلطان سليم يؤكد رغبتة هو الآخر في الصلح ، إلا أن سلطان المماليك كان يحس بنية العثمانيين بتلويث الغورى استدعى أمراءه جميعا — ومن جملةهم خير بك — وحلفهم على القرآن في حضرة الخليفة العباسى بأنهم لن يخونوه في ساعة الشدة ، مما يدل دلالة واضحة على أنه توقع الشر من سليم^(٣) .

ولم تلبث أن تحققت مخاوف الغورى ، إذ لم تكبد تصل الإمدادات بقيادة الصدر الأعظم سنان باشا إلى سليم ، حتى أساء معاملته الرسول الذى أوفده الغورى إليه ورفض الحديث معه في الصلح وقال له دقل لأستاذك يلاقينا على مرج دابق ، وهكذا درسول الغورى إليه وهو فى حال نحس ، ليخبره بما حدث ، وبأن العثمانيين تحرروا فعلا واستولوا على ملطية وكركر وبنسفا

(١) ابن زنبيل : آخره المماليك ص ٢٢

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ٦٠ (نشر محمد مصطفى) .

(٣) ابن زنبيل : ص ٢٤

وغیرهامن القلاع^(١) وفي ذلك الموقف أدرك الأمير سيباى نائب الشام أن خاير بك غرر به عندما استعذته على الكتابة للسلطان الغورى في مصر يطأ له من ناحية سليم ، فجهم سيباى على خاير بك وأمسك به صائحا « يامولانا السلطان إن أردت أن تنتصر على عدوك بإذن الله ، فاقتل هذا الفادر الخائن في الحال ١ ، »^(٢) ، ولكن خاير بك لم يكن وحده في الحياطة إذ كان له شريك هو الأمير جابر دى الغزالي نائب حماه ، الذى أسرع بالتدخل وأقنع السلطان بعدم السماع لتلك التهم حتى لا يودى ذلك إلى بعثرة الجيود ورفرة الصفوف وبذلك ترك خاير بك - عراً طليقاً ليتم الدور الذى بدأه^(٣) .

وكان أن خرج الغورى على رأس جيشه متجهماً شمالاً لملاقاة العثمانيين . وعند دابق - إحدى قرى بلدة عزاز - أخذ الغورى ينظم جيشه ويصدر تعليماته النهائية استعداداً للمعركة المقبلة ولم تلبث أن لاحقت مقدمة الجيش العثماني ثم دارت المعركة بين الطرفين في أغسطس سنة ١٥١٦ . وفي تلك المعركة أبدى المماليك وسلطانهم الغورى شجاعة نادرة أفاضت في وصفها كتب التاريخ ، فقتلوا كثيراً من العثمانيين واستولوا على بعض عدهم وأعلامهم ، حتى لقد فسكر السلطان سليم نفسه في « الهروب أو طلب الأمان ، على أن يتمكن من إعادة تنظيم صفوفه »^(٤) وفي تلك الساعة الحرجة ظهر خاير بك ليتم دوره الأهم فأخذ يطلق الإشاعات الكاذبة بين صفوف المماليك المقاتلين ، فهو حيناً يشيع إن السلطان الغورى أمر مماليكه بالاجلاب ألا يتقدموا ، الأمر الذى جعل بقية طوائف المماليك يستاءرون من السلطان ويظنون أنه إنما يبغي أن يجعلهم وحدهم

(١) ابن لباس : بدائع الزهور ج ٥ ص ٦٤ ، ٦٨ .

(٢) ابن زنبيل : آخره المماليك ص ٢٥ .

(٣) زيادة : نهاية السلاطين المماليك في مصر ص ٢١٨ .

(٤) ابن لباس : بدائع الزهور ج ٥ ص ٦٩ (نهر محمد مصطفى) .

وقود تلك الحرب ويحفظ بماليكه سلاماً معافين^(١) ، وحينئذ آخر بشيع
خاير بك أن السلطان الغورى سقط قتيلاً في المعركة وبقراجم هو وجنوده
مولين الاديان ، ليحذو حذوهم بقية الجيش الماليكى^(٢) .

وأخيراً أدرك السلطان الغورى حقيقة اخيانه ، بعد أن وجد معظم جيشه
ولى الفرار وهشأ حاول الغورى أن يستحث جيشه على الثبات ، فأخذ يصيح
« يا أغوات ! هذا وقت المروءة هذا وقت النجدة ! يا أغوات ! تشجاعة !
صبر ساعة ! »^(٣) ، وكان أن تقدم الأمير ثمر الزردكاش إلى السلطان وأخذ
العلم السلطانى وطواه خشية أن يقع في يد الأعداء ، ثم نظر إلى السلطان
الغورى وقال له « يامولانا السلطان ! إن عسكر ابن عثمان قد أدركنا ، فانج
بنفسك وامرّب إلى حلب ! » ويقال إن الغورى لم يحتمل قسوة الموقف
فأصيب بفالج وطلب بعض المساء ليشرّب ، ثم سقط من فوق فرسه ميتاً
على الأرض^(٤) .

وهكذا انتهت موقعة مرج دابق ، وهى الموقعة الفاصلة بين الماليك
والعثمانيين التى حددت مستقبل مصر والشام لعدة قرون تالية ذلك أن لول
الجيش الماليكى أمرهت إلى حلب ومنها إلى دمشق فمصر دوم فى آنحس حال ،
فوصلوا القاهرة فى أكتوبر سنة ١٥١٦ ، وعندما تأكد أهل القاهرة من خبر

(١) ابن زبيل : آخره الماليك س ٢٨ .

(٢) ويفهم من كلام المؤرخ ابن لياس (ج ٥ ص ٧٦) أن خاير بك لم يكن وحده فى
جريمة الخيانة ، ولما وجد كثيرون من أمراء الغورى وخصيانته كانوا موالين عليه ... وكانوا
مع ابن عثمان فى الباطن وإكثارونه بأحوال السلطان وما يقع من أخبار المملكة . ويشهد
هذا على مدى انحلال الماليك فى أواخر أيامهم .

(٣) ابن زبيل آخره الماليك س ٣٠ .

(٤) ابن لياس : بدائع الزهور ، ج ٥ ص ٧٠ (نهر محمد مصطفى) .

(٥) ويروى ابن لياس أنه لم يضر على أثر لجنة السلطان الغورى فيما بعد « فسكان
الأرض انشدت وابتهت فى الحال » ، فى حين روى ابن زبيل (ص ٣١) أن بعض أمراء
الماليك قطعوا رأس الغورى ورموا بها فى حب حتى لا يعرف مسلم جثته (فيبحث بها .
(١٣) - - المصر الماليكى)

الجزية بعد أن رأوا بأعينهم فلول المماليك وقد عادوا في حالة سيئة من الكسرة والجزية ، سرت فيهم موجة من الرعب والخوف ، فقام العزاء والصراخ ... ورجت القاهرة في ذلك اليوم وكثر الاضطراب والقال والقليل ... ، ولم تكن هناك فسحة من الوقت للبحث والنقاش ، فأسرع الأمراء في مصر باختيار طومان باي - نائب السلطنة - سلطاناً خلفاً للغوري فتمنع طومان باي في أول الأمر غاية الامتناع حتى قال له الأمراء : ما عندنا من سلطان إلا أنت طوهاً أو كرهاً ^(١) . ومن الواضح أن منصب السلطنة في تلك الظروف كان غير مرغوب فيه ، مما جعل كبار الأمراء يترددون فيه . هذا إلى أن طومان باي - وهو أحد أمراء المماليك - كان يعرف ما اعتري أخلاف المماليك في ذلك الدور من تدهور وفساد ، فلم يقبل السلطنة إلا بعد أن أحضر مصحفاً شريفاً وحلف الأمراء بأنهم إذا سلطنوه لا يخونونه ولا يهدرونه ولا يهضمون عليه ويرضون بقوله وفعله ^(٢) .

ولم تلبث أن جاءت الأخبار بأن العثمانيين استولوا على الشام فقال الناس : ما بقي بعد أخذ الشام إلا مصر ، فاشتد الهلع وأخذ كثيرون يفكرون في الهروب إلى الصعيد ، في الوقت الذي كان الناس : جرحهم طارى بسبب موت السلطان (الغوري) وكسرة المسكر (مرج دابق) .

وفي تلك الأزمة الخطيرة لم يقدر جنود المماليك الموقف ، فاشتروا على طومان باي للخروج والحرب مصاريق باهظة ، في الوقت الذي استولى العثمانيون على دمشق ودخلوا فعلاً غزة ، وأحرقوا منها بعض بيوت ، وأن نائب غزة هرب . وهكذا أخذ طومانباي يستحث العوام من الذعر والصبيان

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ٨٥

(٢) المرجع السابق ص ٨٦

والشطار ، حينئذ ؛ ويتوسل إلى المماليك أحياناً ويقول لهم : اخرجوا وقاتلوا
عن أنفسكم وأولادكم وأزواجكم ؛ فإن بيت المال لم يبق فيه درهم ولا دينار ،
وأنا واحد منكم ؛ إن خرجتم خرجت معكم ، وإن قعدتم قعدت معكم ؛
وما عندي نفقة أنفقها عليكم ^(١) . ١١١ .

ولم يتحرك المماليك لدفع خطر الأعداء عن حدود مصر إلا في ديسمبر
سنة ١٥١٦ ، فخرجت حملة على رأسها جان بردى الغزالي - وهو الأمير الخائن
ومريك خاير بك . وقد رأى جان بردى الغزالي أن يسبك دوره في الحياة ،
فلما رأى أن العثمانيين استولوا على غزة خرج عنها واتجه شمالاً حيث تظاهر
باشتبك مع العثمانيين في معركة تمثيلية قرب بيسان ، وانهمم فيها ^(٢) .

وفي أوائل سنة ١٥١٧ تسلم طومان باي رسالة من السلطان سليم العثماني
يعبره فيها بأصله المماليكي ، ويقول له : إنك مملوك تباع وتشترى ولا تصح
لك ولاية ملك ، ويطلب منه أن يكون نائباً عنه في مصر ، ويهدده إذا رفض
ذلك بأنه سيدخل مصر ويقتل جميع من فيها من المماليك « أشق بطون الحوامل
وأقتل الجنين الذي في بطنها من الأتراك » ^(٣) . وفي الوقت الذي أرسل السلطان
سليم رساله وسفراءه لمطالبة طومانباي بالدخول في طاعته ، دأب خاير بك
الخائن على تسهيل مهمة العثمانيين ، فواصل لإرسال السكتب إلى أمراء مصر
« يرغبهم في الدخول تحت طاعة ابن عثمان ويطنب في محاسنه وهدله في الرعية » ^(٤) .

(١) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ١١٩ — ١٢١ (نمر محمد مصطفى) .

(٢) ابن زنبيل : آخرة المماليك ص ٤٥ — ٤٦ .

محمد مصطفى زيادة : نهاية سلاطين المماليك ص ٢٢١ .

(٣) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ١٢٥ .

(٤) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ١٢٥ .

وبروي ابن زنبيل (ص ٤٢) أن السلطان سليم لم يكن في نفسه أن يشزو مصر
وأنه بعد أن استولى على حلب والشام فكر في العودة إلى بلاده ولا خاير بك الذي حرضه على —

وقد أحس السلطان طومان باى بخرج موقفه وعظم الخطر الذى يهدده ويهدد مصر ، حتى يقال إنه عندما تسلم رسالة سليم العثمانى د بكى وحصل له غاية الرعب ، ومع ذلك فقد صمم طومان باى على الخروج لدفع العثمانيين ، ولكنه لم يجد استجابة من المماليك الذين تخاذلوا ورفضوا الخروج ، بل تناولوا على السلطان طومان باى وقالوا له : إن رحمت لعنة الله عليك ؛ غيرك يحى يعمل سلطاناً (١) ، وعندئذ لم يسع طومان باى سوى الوقوف عند الريدانية - قرب العباسية بظاهر القاهرة - واتخاذ تلك البقعة مركزاً للدفاع ضد الغزو العثمانى للبلاد ، ولكن العثمانيين الذين وصلوا عن طريق الشرقية فى أواخر يناير سنة ١٥١٧ حاولوا دخول القاهرة وتحاشى الاصطدام بالمماليك ، فلحق بهم طومانباى وأظهر دهمة عالية ، ودارت معركة عنيفة بين الطرفين قتل فيها سنان باشا الصدر الأعظم ، واستمر طومانباى يقاوم فى شجاعة نادرة ؛ حتى ألقى نفسه وحيداً فى نهاية الأمر ، فاضطر إلى الفرار (٢) . والواقع أنه لم يكن هناك ثمة مناص من هزيمة الريدانية ، لأن الأمير جان بردى كان متصلاً بشريكه الخائن خاير بك ، ولم يقنع بإفشاء خطة المماليك عن طريق خاير بك إلى السلطان سليم مما أدى إلى تجنّب العثمانيين تحصينات الريدانية ؛ بل نجح فى إقناع طومانباى بضرورة إخفاء الطوارق والمكاحل حتى المرحلة الأخيرة من مراحل القتال ، مما كان له أسوأ الأثر فى الجند حين وجدوا أنفسهم وراء الخندق معرضين لبنادق العثمانيين (٣) .

ومن الواضح أن هزيمة المماليك فى الريدانية جعلت القاهرة تحت رحمة

من مصر ، وقال له : « نركب إلى مصر نأخذها ، ونقطع هذه الطائفة الجراكسة من أرض مصر جلة واحدة ، وأنا ضامن لك هذا الأمر بمنابة افقأ »

(١) ابن لياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ١٢٦ .

(٢) محمد مصطفى زيادة : نهاية السلاطين المماليك ص ٢٢٤ .

(٣) ابن لياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ١٤٥ — ١٤٦ (نفس محمد مصطفى) .

العثمانيين ، فدخلت الجيوش العثمانية مدينة القاهرة في اليوم التالي لموقعة الريدانية - وهو يوم الجمعة ٢٣ يناير سنة ١٥١٧ - دون أن تلقى مقاومة ، وفي ذلك اليوم بالذات دعى في خطبة الجمعة في مساجد القاهرة للسلطان ، الملك المظفر سليم شاه ، وكان طبيعياً أن يعمل العثمانيون السيف في كل من صادفوه من المماليك في شوارع مصر ، كما استباحوا لأنفسهم نهب القاهرة ، وافتتحت للعثمانية كنوز الأرض بمصر من نهب قماش وسلاح وخيول وبغال وجوار وهبيد وغير ذلك من كل شيء فاخر ... (١) . أما طومانباي الذي فر من الريدانية فإنه لم يلق السلاح في سهولة ، وإنما استمر يقاوم المعتدين ، واشتبك معهم في معركة الصليبة ، ولكنه هزم وفر إلى الهلسا بالصعيد حيث فكر في الصلح مع سليم ؛ (٢) فأرسل يعرض عليه أن يكون نائباً عنه في حكم مصر ويحمل الخطبة والسكة بإسمه ، ويحمل له خراج البلاد ؛ بشرط أن يرحل سليم وجنوده عن مصر ، وإن كنت ما ترضى بذلك فاخرج ولا تقبض في الجزيرة (٣) ، وكان طبيعياً أن يرفض سليم العثماني الجلاء عن البلاد بعد أن تمكن منها ، فعاد طومانباي إلى الجزيرة حيث دارت اشتباكات بينه وبين العثمانيين عبر النيل ؛ ثم التقى الفريقان في معركة عنيفة هدد وردان في أول أبريل سنة ١٥١٧ ، ولكنه انتهت أيضاً بانتصار العثمانيين .

وهكذا لم يأس طومانباي من المقاومة واستمر في ذلك الدور ينزل أفدح الحصائر بالعثمانيين ، الأمر الذي أفاظ السلطان سليم ، فصب جام غضبه على خاير بك الذي حرّضه على فتح مصر ، وقال له : أنت أفررتني وطمعتني في أخذ

(١) ابن لباس : بدائع الزهور ج ٥ ص ١٥١ — ١٥٥ .

(٢) المرجع السابق ص ١٥٩ — ١٦٣ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٦٦ .

هذا الإقليم ، فانظر كيف تصنع ودبر نفسك كيف تعرف ، وإلا فهيا برأسك ١١ ، (١) .

أما طومان باى فقد تعرض في ذلك الدور لعقبات شديدة بسبب تفرق رجاله وانفصاحهم عنه ، فضلا عن خيانة البدو والأعراب الذين دأبوا على مهاجمته مما أوقعه بين نارين . وأخيراً وجد طومان باى نفسه وحيداً عاجزاً عن المقاومة ، فجمع من حوله من أنصار الممالك وقال لهم : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ١١ اعلوا يا أغوات أن دولتنا قد دالت وآجالنا قد مالت ، وما بقي لنا في هذه الديار نصيب ١١ ، ولم يجد طومان باى مغرباً سوى أن يحتوى في مدينة سنجا بالشيخ حسن بن مرعى . أحد مشايخ العربان وكان بينه وبين طومان باى صداقة قديمة . ولكن الشيخ خافه ، وأرسل إلى سليم وسلمه إليه (٢) . وما كاد السلطان سليم يتحقق من خبر القبض على طومان باى حتى فرح فرحاً شديداً وقال : الآن ملكنا ملك مصر ١ ، (٣) . وكان أن أحضر طومان باى مقيداً بالجديد في حضرة السلطان سليم الذى أخذ يوبخه ويقرعه على مقاومته وأعماله ، ولكن طومان باى لم يفقد رباطة جأشه ووقف أمام سليم ليدافع في شجاعة عن سلوكه ويعلن في صراحة أنه لم يفعل إلا ما عليه عليه واجبه وشرفه ، وما يؤثر عن طومان باى في ذلك الموقف أنه قال للسلطان سليم العثماني : الأنفس التي تربت في العز لا تقبل الذل ، وهل سمعت أن الأسد يخضع للذئب ؟ لأنتم أفرس منا ولا أشجع منا ، وليس في مسرك من يقايسني في حومة الميدان ١١ ، ويذكر ابن إياس أن السلطان سليم أعجب فعلاً بشجاعة غريمه فأشار إلى طومان باى وقال : والله مثل هذا الرجل لا يقتل ، وأوشك

(١) ابن زنبيل : آخره الممالك ص ٧٠ .

(٢) ابن زنبيل : آخره الممالك ص ١٢٢ - ١٣١ .

(٣) ابن زنبيل : آخره الممالك ص ١٣٢ .

أن يبقى على حياته فيرسله منفياً إلى مكة أو يسطرحه معه إلى القسطنطينية ،
لولا تهرىض الخائفين خاير بك وجانيردى للسلطان سليم ، مما جعله يأمر
بإعدام طوما بباى (١) .

وقد تلقى آخر سلاطين المماليك القرار بإعدامه في مصر وثبات ، فحمل
إلى باب زويلة في اليوم المحدد لإعدامه ، وأخذ يسلم على الناس على طول
الطريق ، حتى أرخى له المشاعلى جبل المشنقة ، وعندئذ طلب طومان باى
من الناس أن يقرأوا له الفاتحة ثلاث مرات ، وبسط يديه إلى السماء وقرأ
الفاتحة عن نفسه في صوت مسموح ، ثم التفت إلى المشاعلى وقال له : احمل
شغلك ، فوضع الحبل في رقبتة ، وما هى إلا لحظات حتى سقط آخر سلاطين
المماليك ميتاً على عتبة باب زويلة . وبذلك انتهت سلطنة المماليك لتظل مصر
والهام بهضمة قرون تحت السيادة العثمانية (٢) .

(١) ابن لياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ١٧٥

ابن زبيل : آخر المماليك ص ١٣٦ .

(٢) ابن لياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ١٧٦ .

الفصل السابع

بلاد الشام في عصر سلاطين المماليك

اعتماد نفوذ المماليك على الشام :

رأينا عند كلامنا على قيام دولة المماليك ، كيف أن بنى أيوب لم يرضوا عما فعله المماليك في مصر من قتل توران شاه واغتصاب حكم مصر من أصحابها الشرعيين من بنى أيوب . وقد حاول الملك الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب ودمشق غزو مصر والقضاء على المماليك سنة ١٢٥٠ ، ولكن أقطاي هزمهم عند غزة . وعندما تكررت المحاولة في نفس العام ، أنزل أيلك هزيمة كبرى بالجيوش الأيوبية عند العباسية قرب الساحلية (١) .

والواقع أنه لم يخفف من حدة الصراع في ذلك الدور بين الأيوبيين في الشام والمماليك في مصر سوى اشتداد خطر التتار بزمامة هولاكو على الوطن العربي في الشرق الأدنى . وكانت الخلافة العباسية في بغداد أشد إحساساً بذلك الخطر ، بحكم تطرف العراق نحو الشرق ، فأسرع الخليفة العباسي بإصلاح ذات البين بين الأيوبيين بالشام والمماليك بمصر . حتى تم المصالح بين الطرفين في أبريل سنة ١٢٥٣ ، وبمقتضى ذلك الصلح تم الاتفاق على أن يكون اسلطنة المماليك نهر الأردن بما في ذلك غزة والقدس ونابلس والساحل ، في حين تكون بقية بلاد الشام للأيوبيين (٢) .

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٣٧٢ - ٣٧٤

أبو الفدا : المختصر ، ج ٣ ص ١٨٤ .

(٢) المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ٣٨٥ .

وترجع أهمية ذلك الصلح إلى أنه جاء بمثابة اعتراف رسمي من الأيوبيين وعلى رأسهم الملك الناصر يوسف الأيوبي بدولة المماليك . وليس معنى ذلك أن الأيوبيين رضوا عن حقيقة قيام دولة المماليك على حساب جزء من ممتلكات بني أيوب ، بل ظل الأيوبيون رغم صلح سنة ١٢٥٣ في حالة قلق وعدم رضى ، بدليل أنهم انتهزوا فرصة هرب بعض زعماء البحرية إلى الشام عقب مقتل أقطاي وقاموا بمحاولة جديدة لهدم دولة المماليك والاستيلاء على مصر سنة ١٢٥٥ (١) . ومرة أخرى أسرع الخليفة العباسي إلى التوفيق بين الطرفين ، وتجديد الصلح بين الناصر يوسف والمعز أيك . هذا وإن كان زعماء البحرية بالشام قد حرضوا الملك المنيف عمر الأيوبي في الكرك على مهاجمة مصر ، ولكن المحاولتين اللتين قام بهما المنيف عمر سنة ١٢٥٧ ، ١٢٥٨ باءتا بالفشل (٢) .

ثم كان أن حدث ماوقعته الخلافة العباسية ، فاجتاح التتار العراق وسقطت بغداد في أيديهم سنة ١٢٥٨ ، وبعد ذلك جاء دور الشام ومصر . وفي تلك الأزمات التي ألمت بالوطن العربي في الحرق الأدنى أظهر الأيوبيون تحاذلا واضحا ، فأرسل الناصر يوسف ابنه العزيز إلى هولاكو يطلب منه مساعدته في القضاء على دولة المماليك وفتح مصر . حقيقة إن الناصر يوسف عاد فأحس بخطر التتار على ممتلكاته في بلاد الشام ، ولكن ذلك كان بعد فوات الأوان ، فنجح هولاكو في امتلاك حلب ودمشق ، وزحف التتار جنوبا في فلسطين صوب مصر (٣) .

ومن المعروف أن الوظيفة الأولى لأمير حاكم أو أية حكومة هي توفير الأمن

(١) أبو الفدا : المختصر ، ج ٣ ص ١٩٠ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٤٥ .

(٣) أبو الدا : المختصر ، ج ٣ ص ١٩٩ .

العزيزي : السلوك ج ١ ص ٤١٩ .

والسلام والاستقرار للرباب وحمايتهم من الأخطار الخارجية والداخلية التي قد يتعرضون لها . فإذا فشل الحاكم أو فشلت الحكومة في تحقيق ذلك الغرض فقدت أهميتها التي قامت من أجلها ، وبدأت في نظر الشعب في صورة غير شرعية فلا داعي لتقديم الولاء والطاعة لحاكم ليس أهلاً للنهوض بالمهمة الأساسية التي رشخته الأحداث لها . ومعنى ذلك أنه إذا كان ملوك البيت الأيوبي بالشام قد نادوا دائماً بأنهم ورثة صلاح الدين وأنهم هم أصحاب الحق الشرعي في حكم مصر والشام ، فإن هذه الدعوى لم يجد لها سند واضح بعد أن عجز الأيوبيون عن دفع خطر التتار ، فسقطت بلاد الشام مدينة بعد أخرى في قبضة رجال هولاكو ، بل لقد انضم بعض ملوك بني أيوب إلى صفوف التتار وعاونوهم في زحفهم . وتروى لنا المراجع أن حلب لم تكف تسقط في أيدي التتار حتى أسرح الأشراف موسى الأيوبي صاحب حصص إلى حلب ليقدّم فروض الطاعة لهولاكو ، في حين فر الملك المنصور صاحب حماء إلى مصر ومعه حريمه وأولاده تاركاً حماء وشأنها (١) . أما الناصر يوسف فقد فر من دمشق إلى غزة عن طريق نابلس بنية الهروب إلى مصر وترك دمشق خالية (٢) . ولكن الناصر يوسف لم يلبث أن وقع في قبضة التتار فمغاضه هولاكو ووعدّه بإعطائه حكومة الشام بعد أن يستولى التتار على مصر ، فاستمر الناصر يوسف تابعاً لهم ووثق معهم في ذل وهوان إلى أن قتل (٣) . كذلك وقع الملك السعيد - ابن الملك العزيز عثمان الأيوبي - في قبضة هولاكو الذي ولاه على الصببية وبانياس . ولم يجعل الملك السعيد بعد ذلك من معاونة التتار ومصاحبتهم دافعا لهم وأعلن الفسق

(١) المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ٤٢٢ .
أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٥٨ هـ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٤٢٣ .

(٣) أبو الحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٧٧ .

والفجور وسفك دماء المسلمين .. (١) .

ولاشك في أن ذلك السلوك الشائن الذي سلمه ملوك الأيوبيين في الشام جاء بمثابة فصل الختام لدولتهم ، وإعلانا لتنازلهم عن حقوقهم في الملك بعد أن تقاعسوا عن حماية ذلك الملك . وصار منطق الأحداث يحتم أن تدول دولة بنى أيوب ليرثهم في ملكهم إما التتار وإما المماليك ، حسبما تقرره المعركة المنتظرة بين هاتين القوتين (٢) .

وفي الوقت الذي أثبتت الأحداث ضعف الأيوبيين وعجزهم عن حماية المسلمين في بلاد الشام من خطر التتار ، لذا بالمماليك يظهرون على المسرح لينزلوا بالتتار ضربة كبرى في موقعة عين جالوت سنة ١٢٦٠ ، وبذلك ظهر المماليك في صورة القوة الكبرى في الشرق الأدنى التي استطاعت أن تحمي كيان أهل مصر والشام من ذلك الخطر الوثنى الرهيب . ولاشك في أن فعل الأيوبيين في صد خطر التتار ، ونجاح المماليك في القضاء على ذلك الخطر ، جاء بمثابة فصل الخطاب بين المماليك والأيوبيين ، وخاتمة لحركة التنافس بين هاتين القوتين على مسرح الشام ، بعد أن صار من الواضح أن قوة الأيوبيين المتداعية لن تستطيع بحال الصمود في وجه فورة التتار .

وكان أن استطاعت جيوش المماليك بعد عين جالوت إجلاء التتار عن دمشق وحماه وحلب ومطاردتهم حتى أطراف بلاد الشام . ومعنى ذلك أن نفوذ المماليك امتد إلى بلاد الشام فجأة بعد عين جالوت ، فأناط السلطان المظفر قطار الأمير سنجر الحلبي في دمشق ، وإذا كان المظفر قطار قد أقر بعض ملوك بنى أيوب في حكم بلاد الشام — مثل الأشرف موسى صاحب حمص والملك المنصور

(١) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٠٨ هـ

المقريزي السلوك ج ١ ص ٤٢٠

2) Grousset : Hist des Croisades, III, p. 586 - 587

صاحب حماه — فإن هؤلاء الملوك الأيوبيين تغير وضعهم وأصبحوا تابعين لسلطان المماليك في مصر (١). ولم يبق من ملوك الأيوبيين بالشام من ظل خارجا عن نفوذ سلطنة المماليك سوى الملك المنيف عمر صاحب السكر والشوبك ، فأرسل السلطان الظاهر بيبرس سنة ١٢٦١ من نوابه من أسلم الشوبك من الملك المنيف . كما قبض على الملك المنيف نفسه سنة ١٢٥٣ واعتقله في قلعة الجبل وعين أحد أمرائه نائبا للسكر (٢).

وإذا كان المماليك قد ظهروا في صورة ورثة الأيوبيين في حكم مصر والشام ؛ فإن معنى ذلك أن المماليك لم يرثوا الأيوبيين في ملكهم العريض لحسب ، بل أيضا في سياستهم الخاصة بالجهاد . هذا بالإضافة إلى أن المماليك كانت عندهم عقدة كبيرة من ناحية أصلهم غير الحر ، فضلا عن اغتصابهم الحكم من أصحابه الشرعيين وهم الأيوبيون ، ولذلك حرص المماليك منذ أن استقرت لهم الأرض في مصر والشام على أن يظهروا أمام أهل مصر والشام في صورة حماة المسلمين وزعمائهم في حركة الجهاد ضد الصليبيين . ولم يلبث سلاطين المماليك أن استأنفوا سياسة الأيوبيين ، بحيث أنه لم يكذب بمضى على قيام دولة المماليك نحو من أربعين سنة حتى تم طرد الصليبيين نهائيا من بلاد الشام ، وبذلك أصبحت لا توجد قوة تهيمن على بلاد الشام غير قوة المماليك .

ذلك أن السلطان الظاهر بيبرس استولى على قيسارية سنة ١٢٦٥ ، ثم استولى على أرسوف بعد قليل وعلى صفد في العام التالي (٣). ولم يلبث أن أخذ يتابع اقتصاراته في سرعة مذهلة ، فاستولى على طبرية وعلى قلعة يافا سنة ١٢٦٨

(١) الميرزى السلوك ج ٩ ص ٤٣٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٤٧ .

ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ورقة ٤١٣ (مخطوط) .

(٣) ابن أبي الفضائل : النهج السديد ص ١٣٢ ، ١٤٨ .

ثم على العقيف ، حتى توج انتصاراته على الصليبيين بالاستيلاء على أنطاكية
— كبرى المدن الصليبية في شمال الشام — في مايو سنة ١٢٦٨ (١) .

ولم يكن خلفاء بيبرس من سلاطين المماليك أقل حماسة لمحاربة الصليبيين
فاستطاع السلطان المنصور قلاوون الاستيلاء على طرابلس سنة ١٢٨٩ ،
وبذلك لم يبق للصليبيين من ملكهم العريض ببلاد الشام سوى عكا وصيدا
وصور وعكا ، وقد استولى السلطان الأشرف خليل بن قلاوون على عكا
سنة ١٢٩١ ، ولم تنكسر فتية تلك السنة حتى استسلمت آخر البقايا الصليبية
بالشام وبذلك تم طرد الصليبيين نهائياً من تلك البلاد (٢) .

وبتطهير بلاد الشام من الغزو والصليبيين جميعاً ، استقرت الأمور نسبياً
للمماليك في بلاد الشام كما أن تلك البلاد دخلت دوراً جديداً في تاريخها
يتناسب وأهميتها الجغرافية والسياسية والاقتصادية من ناحية ، فضلاً عن
أهميتها بوصفها إقليماً هاماً من الإقليمين الكبيرين اللذين تألفت منهما دولة
المماليك من ناحية أخرى .

التقسيم الإداري لبلاد الشام في عصر المماليك :

قسم المماليك بلاد الشام من الناحية الإدارية إلى ستة أقسام تسمى نيايات ؛
تخضع للحكومة المركزية في القاهرة . أما هذه النيايات فهي نياية دمشق ونياية
حلب ونياية طرابلس ونياية حماه ونياية صفد ونياية الكرك ، ويبدو أن
هذا التقسيم في حد ذاته كان ضرورياً لأنه يتفق مع طبيعة بلاد الشام
الجغرافية حتى أن معظم تلك النيايات التي نراها في بلاد الشام على عصر
سلاطين المماليك ، إنما كانت في حقيقة أمرها أقساماً إدارية واضحة في

(١) ضميمه حاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٤

(٢) أبو اللدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٩٠ هـ .

المصور السابقة ، بل لقد وصل بعضها فعلا - قبل عصر المماليك - إلى درجة الدول المستقلة ، مثل طرابلس ودمشق وحلب^(١) على أنه ينبغي من باب الدقة التاريخية أن نشير إلى أثر عصر الحروب الصليبية بالذات في إبراز أهمية بعض أقاليم الشام ، مما تطلب جعلها نيابات^٢ ، وذلك مثل نيابة الكرك ذات الموقع الهام على ملتقى الطرق البرية بين مصر والشام والحجاز ، مما جعلها تقوم بدور خطير بالنسبة لمواصلات المسلمين على عصر الحروب الصليبية .

وثمة ملحوظة أخرى هي أن تلك النيابات الست لم تنشأ في وقت واحد أو سنة واحدة ، لأن طبيعة انتشار النفوذ المماليكي على بلاد الشام انصرفت بالتدرج ، الأمر الذي جعل ظهور التقسيم الإداري لبلاد الشام في عصر المماليك يأتي على مراحل . من ذلك أن تاريخ إنشاء نيابة دمشق وحلب يأتي سنة ١٢٦٠ عقب هزيمة التتار في عين جالوت مباشرة أما حماه - فكما سبق أن ذكرنا - اختار المماليك عقب عين جالوت أن يبقوا على الأيوبيين فيها ، فعفا السلطان قطر عن الملك المنصور الثاني الأيوبي صاحب حماه وأقره على حكمها^(٣) ، وبذلك لم تصبح حماه نيابة في عصر المماليك إلا سنة ١٣٤١ ، أي بعد وفاة المؤيد على آخر ملوكها من بني أيوب . وأما نيابة الكرك فيبدأ تاريخها في عصر المماليك سنة ١٢٦٣ على عهد السلطان بيبرس أيضاً ، ومثلها نيابة صفد التي ترجع إلى سنة ١٢٦٦ ، أما نيابة طرابلس^٤ فترجع نشأتها إلى عهد السلطان قلاوون الذي استولى على تلك المدينة من الصليبيين سنة ١٢٨٩^(٥) .

Demombynes : La Syrie a l'époque des Mamelouks, (١)
p. 106.

(٢) المهریزی : السلوك ج ١ ص ٤٣٣ .

(٣) المهریزی : السلوك ج ١ ص ٧٤٧ ، أبو الحسن : النجوم ج ٧ ص ٣٢١ .

ولما كانت كل من هذه النيابات الشامية لها وضعها الخاص ، وتمتد لتشمل مساحة كبيرة ، ويتبعها من الناحية الإدارية عدد من المدن أو الموانىء أو القلاع الهامة ؛ فإنه روعى أن تقسم كل نيابة منها إلى أقسام إدارية صغيرة هي التى أطلق عليها القلقشندى اسم «النيابات الصغار»^(١). ولكى تتضح صورة كل نيابة من هذه النيابات فى عصر المماليك يحسن تناوّلها بكلمة موجزة :-

أولا : نيابة دمشق . . . وهى كبرى نيابات الشام فى عصر المماليك ، حتى أطلق عليها القلقشندى اسم « نيابة الشام » ، أو «مملكة الشام» ؛ ووصفها بأنها «أجل نيابات المملكة الشامية وأرفعها فى الرتبة»^(٢). وقاعدة هذه النيابة مدينة دمشق التى اختصها سلاطين المماليك بعنايتهم وأقاموا فيها كثيرا من المنشآت . من ذلك ما يقال من أن الظاهر بيبرس جدد شرفات قلعة دمشق ورءوس أبراجها التى كان التتار قد هدموها ، وبنى فيها حماما ، كما جدد مشهد زين العابدين رضى الله عنه بجامع دمشق ، وأمر بتزخيم الحائط الشمالى وتحديد باب البريد وفرشه بالبلاط . هذا كله عدا القصر الأبقى الذى شيده بيبرس بالميدان فى دمشق ، وما حوله من العمار^(٣).

وكان يتولى أمر مدينة دمشق والى ينظر فى شئون المدينة ويتحدث فى أمر الشرطة ، فى حين كان يتولى أمر ضواحي دمشق - وهو الإقليم الذى يعرف باسم البر - والى آخر^(٤). وكان يقع نيابة دمشق هذه نيابات صغرى وولايات . أما النيابات الصغرى فأهمها غزة والقدس وصرخند وعجلون وبعبك وحمص ومصياف والرحبة ؛ مع ملاحظة أن غزة صارت أحيانا نيابة قائمة بنفسها

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٢ ص ٩ .

(٢) المرجع السابق : ج ٤ ص ١٨٠ ، ١٨٤ .

(٣) ابن شاکر السكيتى : فوات الوفيات - ترجمة بيبرس .

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨٧ .

في القرن الرابع عشر^(١). وأما ولايات نيابة دمشق فعديدة أهمها الرملة وبيسان والبقاع وبيروت وصيدا وقارا وغيرها .

ثانيا : نيابة حلب ؛ وكانت تتمتع هي الأخرى بأهمية خاصة في عصر المماليك نظراً لخطورة موقعها على الأطراف الشمالية لدولة المماليك مما جعلها محورا لكثير من أحداث العلاقات المضطربة بين المماليك من ناحية وجيرانهم مثل التتار والتركمان والعثمانيين من ناحية أخرى . لذلك اشتملت نيابة حلب على عدد كبير من النيابات الصغرى ليس له مثيل في بقية نيابات الشام ؛ ومن هذه النيابات الصغرى التابعة لنيابة حلب نيابة قلعة الروم أو قلعة المسلمين غرب الفرات في مواجهة البيرة ، ونيابات الكفتا وكركر وبهمنسى وميمساط وعيتاب ودر بساك والراوندان وبنارس والقصور والشغور وبكاس . هذا فضلا عن عدد آخر من النيابات الصغرى كانت تقع خارج حدود الشام ولكنها تتبع نيابة حلب بحكم ملكية دولة المماليك لها . ومعظم هذه النيابات الصغرى الأخيرة كانت داخل بلاد الأرمن ، مثل ملطية وديركي ودرنده والأبلستين وإياس وطر سورس وأذنه وغيرها^(٢).

أما ولايات النيابة الحلبية فأهمها بر حلب وكفر طاب وعزاز وتل باشرو ومنبج وتيزين والباب وبزاعا وأنطاكية^(٣).

ثالثا : نيابة طرابلس ؛ وكانت تشمل من النيابات الصغرى نيابة حصن الأكراد ونيابة حصن عكار ونيابة بلاطاس ونيابة صهيون ونيابة اللاذقية ؛ هذا فضلا عن سبع نيابات صغرى أخرى أسماها الفلقه مندى ونيابات قلاع

(1) Demombynes, op cit., p 174

ابن فضل الله العمري : التعريف ص ١٧٧ .

(٢) الفلقه مندى : صبح الأعشى ص ٢٢٦ وما بعدها .

(٣) للمرجع السابق ج ٤ ص ٢٣ .

الدعوة ، ؛ أى أنها كانت مراكز جماعة الاسماعيلية الباطنية ، وهى نيابة الرصافة ونيابة الخوازي ونيابة القندهوس ونيابة الكهف ، ونيابة المنيفة ونيابة القلعة .

أما الولايات التابعة لنيابة طرابلس فعددتها ست هي : أنطوطوس ، وجبة المنيطرة ، والظنين ، وبشرية ، وجبة وأنفة (١) .

رابعا : نيابة حماء ؛ ومركز هذه الولاية مدينة حماء ، ولا تتبعها نيابات صغرى ، وإنما يتبعها ثلاث ولايات هي : ولاية برحماء ، وولاية بارين ، وولاية المعرة (٢) .

خامسا : نيابة صفد ، وهى المدينة الحصينة التى ترتفع عن سطح البحر نحو من ألف وستمائة قدم ، والتى جدد بيبرس قلعتها بعد أن استولى عليها من الصليبيين ، وليس لهذه النيابة نيابات صغرى - مثل نيابة حماء - وإنما تتبعها إحدى عشرة ولاية هى ولاية برصفد ، وولاية الناصرة وولاية طبرية ، وولاية تبذين وهونين وولاية عثليث وولاية عكا ، وولاية صور وولاية الشاغور وولاية الإقليم ، وولاية الشقيف ، وولاية جينين (٣) .

سادسا : نيابة الكرك ، وليس لها نيابات صغرى هى الأخرى وإنما تتبعها أربع ولايات هى ولاية ير الكرك ، وولاية الشوبك ، وولاية زغر ، وولاية معان (٤) .

(١) القلعة شندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٣٥ - ٢٣٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٣٩ .

(٣) القلعة شندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٤٠ - ٢٤١ .

(٤) المرجع السابق ص ٢٤٢ .

وبعد ، فهذا عرض مريع لنيابات الشام في عصر المماليك أمام أنظمتهم
الحكم في تلك النيابات ، وأول ما يلاحظ عليها أن كلا منها كانت صورة مصغرة
لسلطنة المماليك الكبرى في مصر . حتى لقد أطلق القلقشندي على تلك النيابات
اسم « الممالك الشامية » ، وقال إن « كل مملكة منها قد صارت نيابة سلطنة
مضاهية للمملكة المستقلة » .

ولتفصيل ذلك نقول إن كل نائب من حكام النيابات الشامية كان في
حقيقة أمره « سائداً مختصراً » ، مع تبعية لسلطان مصر ، فكان لكل نائب
خاصيته ومماليكه وأتباعه ، وأطلق عليه أحياناً اسم « ملك الأسراء » لقيامه
مقام السلطان في التصرف وقيام الأسراء على خدمته كخدمة السلطان (١) .

وكان لكل نائب من نواب الشام بيوت خدمة مثل بيوت خدمة السلطان ،
كأشراف خاناء ، والفراش خاناء ، والزراد خاناء ، والطبلخاناء . وغيرها .
وأحتوت بيوت نواب الشام على وظائف مثل وظائف بيوت السلطان مثل
رأس نوبة وأمير مجلس وأمير أخور وأمير جانداز... وغير ذلك . كذلك كان
للكل نيابة من النيابات الشامية وزير يتمتع بما يتمتع به الوزير في مصر ، هذا
وإن لم يسمح للوزير في نيابات الشام بلقب وزير إلا إذا كانت قد سبقت له
ولاية الوزارة بمصر ، أما إذا لم يكن قد سبق له تولى منصب الوزارة في مصر ،
فإنه كان يلقب بلقب « ناظر للنظار » (٢) .

كذلك كان في كل نيابة من نيابات الشام أربعة قضاة يمثلون المذاهب
الأربعة ، مهما كان الحال تماماً في مصر منذ أيام الظاهر بيبرس . هذا فضلاً عن
الوظائف الأخرى المتعددة التي وجدت في كل نيابة من نيابات الشام والتي كان

(١) القلقشندي : صيغ الأعشى ج ٥ ص ٤٥٥ .

(٢) المرجع السابق ج ٥ ص ٤٦٥ .

بعضها يتعلق بأرباب السيوف والبعض الآخر يتعلق بأرباب الفلم، والقسم الثالث يشمل الوظائف الدينية .

أما الدواوين التي وجدت في كل نيابة من نيابات الشام . فكان أهمها ديوان الإنشاء وديوان النظر وديوان الجيش وقد اختص ديوان الإنشاء بجميع المراسلات التي ترد إلى النائب أو تصدر منه . ونائب صاحب ديوان الإنشاء يحكم نائب السر . ويبدو أن كاتب السر في النيابات النامية كان يقوم أيضا بمهمة التجميس على النائب لحساب السلطان ، ويطلع الأخير على ما قد يخفيه النائب هذه (١) . وأما ديوان النظر فكان يمثل الإدارة المالية في النيابة ، بحيث له الإشراف التام على المصروفات والإيرادات . وأما ديوان الجيش . فكان يتعرف على جيش النيابة وتوزيع الأقطاعات وترتيب الجوامك الخاصة بالمماليك . ومن الثابت أن أراضي الشام قد مسحت وقسمت من جديد سنة ١٣١٣هـ ؛ وهذا ما يحمى الروك الناصري ببلاد الشام ، نسبه إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون . أما عن عدد الجند ببلاد الشام فقد ذكره خليل بن شاهين الظاهري على الوجه التالي : —

أجناد الحلقة بدمشق وماليك الكافل والأسماء	١٥٠٠٠
أجناد الحلقة بحلب وماليك الكافل والأسماء	٨٠٠٠
أجناد الحلقة بطرابلس وماليك الكافل والأسماء	٥٠٠٠
أجناد الحلقة بصدد وماليك الكافل والأسماء	٢٠٠٠
أجناد الحلقة بحماه وماليك الكافل والأسماء	١٠٠٠

على أن هذه الأعداد لم تكن ثابتة وإنما تعرضت للتغيير والتبديل في عصر المماليك ، وكذلك عدد الأقطاعات وتوزيعها ببلاد الشام (٢) .

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨٩ .

(٢) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٠٣ - ١٠٦ .

ويلاحظ أن خليل بن شاهين أغفل ذكر عدد الأجناد بنبابة السكرك .

وإذا كان هذا هو الوضع بالنسبة لكافة النيابات الشامية في عصر المماليك فإننا نحب أن نؤكد مرة أخرى أن نائب دمشق بالذات تمتع بأهمية خاصة فاقت أهمية بقية النواب في النيابات الشامية الأخرى؛ حتى لقد قال القلقشندي عن نائب دمشق إنه «قائم بدمشق مقام السلطان في أكثر الأمور المتعلقة بنيابته، ويكتب عنه التواقيع الكريمة، ويكتب عنه المراسلات بتعيين وإقطاعات الجند، وتجهز إلى الأبواب الشريفة فيشمها الخط السلطاني الشريف» (١).

ومن الواضح أن تلك المكانة الضخمة التي تمتع بها نائب دمشق في عصر المماليك كان من الممكن أن تصبح مصدر خطر على السلطان نفسه، كما حدث في بعض الحالات. لذلك حرص سلاطين المماليك على فرض رقابة خفية على نوابهم في الشام عامة وفي دمشق خاصة، فكان السلطان يحرص أحياناً على التدخل في شئونهم لاشعارهم بوجوده. وهذا إلى أن السلطان لم يستف بأن يكون صاحب ديوان الإنشاء عينا له على النائب، وإنما كان السلطان أيضاً يجعل من نائب القلعة أو الحصن الموجود في الأقليم عينا له على النائب، ويقاومه إذا حدثته نفسه بالخروج على السلطان (٢). ولهذا السبب كان لنائب القلعة أجنادا مقيمون معه ولا يتصلون بدار النيابة في المدينة (٣).

والواقع أنه على الرغم مما تمتع به نواب النيابات الشامية من سلطان ونفوذ كبير، إلا أنهم كانوا قبل كل شيء تابعين لسلطنة المماليك في القاهرة؛ وبالتالي فإنهم لم يكونوا مطلقاً التصرف في كثير من النواحي. من ذلك أن سلطان

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨٤.

(2) Demombynes : op. cit., p. 108.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨٥.

المعري: التعريف ص ١٤٨.

المماليك احتفظ بحقه في شغل الوظائف الكبرى بالنيابات الشامية ؛ فكان النواب يعيشون في وظائف السيوف من إمرة عشرة فإدونها ، في حين كان التعيين في الوظائف من إمرة طلبة ناه فإدونها من حق السلطان . أما وظائف أرباب آتقلم فكان النواب لا يمينون إلا صغار الموظفين مثل كتاب الدرج ، في حين كان السلطان يعين كبار الموظفين مثل الوزارة وكتابة السر ونظر الجيش ونظر المال وغيرها . كذلك في الوظائف اليدوية كان من حق السلطان وحده أن يعين كبار الموظفين مثل قضاء القضاة ، في حين ترك للنواب تعيين صغار الموظفين ، كالذين يقومون بالخطابة في الجوامع الصغيرة (١) .

وهكذا ظل سلطان المماليك هو القوة الكبرى التي تسيطر على مصر والشام وتشرف إشرافا تاما على سير الأمور في مختلف أرجاء الدولة المماليكية الواسعة .

المجتمع الشامي في عصر المماليك :

كان أهل الشام في عصر المماليك لا يختلفون عن أهل مصر من حيث أنهم مغلوبون على أمرهم ، يخضعون لارستقراطية حاكمة استأثرت بالحقم وبالوظائف وحرمتهم من المشاركة كذات قيمة في أمر من أمور بلادهم . وهكذا كان المماليك في بلادهم الشام هم أصحاب السيادة والطبقة المسيطرة ذات النفوذ والسلطان ، في حين خضع أصحاب البلاد الأصليين من أهل الشام للأمر الواقع ، ورضوا بما فعله المماليك بهم .

وقد انقسم أهل بلاد الشام الأصليون إلى حضر وبدو ، فالحضر هم أهالي المدن والقرى الشامية ، وقد اشتغلوا بالنشاط الاقتصادي من صناعة وتجارة

(١) الفلشندي : صبح الأعشى ج ١٢ ص ٦ - ٧ .

وزراعة . وكان كل ما يطعمون فيه هو أن يلى أمرهم نائب عادل من المماليك يحسن معاملتهم ولا يجردهم حقوقهم . ومن الواضح أن النشاط الاقتصادي الذي نهض به الخضر من أهل الشام نطلب نوعا من الاستقرار والهدوء ، مما جعلهم ينجحون إلى مسألة المماليك ولا يحاولون الخروج عن طاعتهم أو المشاركة في الثورات التي اعتاد أن يقوم بها بعض نواب الشام بين حين وآخر ، وبخاصة عند قيام سلطان جديد في مصر ،

أما البدو : فقد تألفوا من العشائر المنتشرة في بادية الشام ، وكان لكل عشيرة ألقاؤها وبطونها . وعلى رأس تلك العشائر كان آل فضل ، من ربيعة ، الذين امتدت منازلهم من حمص إلى قلعة جسر إلى الرحبة ، بمعنى أنهم انتشروا بين العراق والشام على جانبي نهر الفرات^(١) . ومن الواضح أن آل فضل اضطروا — بحكم موقع منازلهم — إلى توزيع ولائهم بين أقوى العديدة التي تقاسمت السلطان في شمال العراق والشام . ومن ذلك ما نسلمه عن زعيمهم عيسى بن مهنا الذي داب على مناصرة التتار حينما والمماليك أحيانا حتى ضاق السلطان الناصر محمد بن قلاوون ذرها بآل فضل وطردهم ليحل لهم إخوتهم من آل علي ، ؛ ولكن الناصر محمد عاد فعفا عن آل فضل وردم إلى بلادهم واقطاعهم^(٢) .

وبلاحظ أنه إذا كانت عشائر البدو الضاربة على أطراف دولة المماليك بالشام قد لجأت أحيانا إلى الخروج عن سلطان الدولة ، فإنه وجد قسم آخر من تلك العشائر انتشرت في داخلية بلاد الشام ، وهذه كانت أكثر ارتباطا بعمور الولاء للدولة وخضوعا لسلطانها . ومن هذه العشائر آل مرة في حوران

(١) نقاشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٠٤ .

(٢) المرجع السابق ج ٤ ص ٢٠٦ .

وآل على في المرح والغوطة حول دمشق ؛ وغيرهم كنيوز (١) ، وقد حاول سلاطين المماليك إدخال عشائر البدو ببلاد الشام في النظام الإقطاعي ، فأضافوا على زعماء تلك العشائر ألقاب الإمارة وأقطعتهم الإقطاعات ، وفرضوا عليهم التزامات معينة أهمها الولاء للدولة وحراسة الطرق والدروب الصحراوية وتقديم الرجال وقت الحرب . ولكن عشائر البدو أنفقت الخضوع لذلك النوع من التنظيمات الحكومية التي تفقدها كثيراً من حريتها فأخذت ما في النظام من مميزات ، وفي الوقت نفسه تخلصت مما فيه من التزامات .

وبالإضافة إلى العصبية العنصرية التي وجدت ببلاد الشام على حصر سلاطين المماليك — مثل الأكراد والتركمان والأرمن — فإنه وجدت ببلاد الشام في ذلك العصر عصبية عديدة مذهبية ودينية كان لها دور كبير في الأحداث التي شهدتها بلاد الشام . ونستطيع أن نلخص أهم هذه الطوائف أو العصبية فيما يلي :

أولاً : الكسروانيون : وهم أهل جبل (جبال) كسروان وكانوا من النصرانية والعلميين والمتأولة (٢) . ويبدو من خلال ما ذكرته المراجع أن الكسروانيين وقفوا موقفاً عدائياً من المماليك ، وبخاصة أثناء الصراع بين هؤلاء الأخيرين والصليبيين بالشام . من ذلك ما حدث أثناء حصار السلطان المنصور قلاوون لمدينة طرابلس سنة ١٢٧٩ ، إذ خف الكسروانيون لنجدة بوهيموند السابع أمير طرابلس . وقد أغضب ذلك السلطان قلاوون ، فزحف المماليك على جبل كسروان لتأديب أهله ونجحوا في كسر شوكتهم (٣) .

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٠٨ — ٢١٠ .

(2) Lammens ; La Syrie, 2, p. 18.

(٣) محمد كرد علي : خطط الشام ج ٢ ص ١٢٦ .

وعند ما استولى السلطان الأشرف خليل على عكا وغيرها من البقايا الصليبية بالشام ، لجأ بعض الصليبيين إلى جبل كسروان وحاولوا استثارة أهله ضد سلطنة المماليك ، فبادر السلطان الأشرف خليل بإرسال حملة في بداية ١٢٩٢ بقيادة الأمير بدر الدين بيدرا ؛ ولكن الكسروانيين أنزلوا الهزيمة بالمعسكر المماليكي في تلك الواقعة ، الأمر الذي زاد من نفوذ الكسروانيين وبطشهم^(١) وفي سنة ١٣٠٠ - أي في سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثانية - سار أقوش الأفرم من دمشق إلى جبال كسروان لقتال أهلها عقوبة لهم عن موقفهم من دولة المماليك ، بعد أن كان د ضررهم اشتد . وقد تحصن الكسروانيون بمجملهم المنيع ، واجتمعوا - نحو اثني عشر ألف رام - لقتال المماليك ، فاستمر القتال بينهم وبين المماليك ستة أيام ألقى الكسروانيون بعدها السلاح وغادوا الأمان . وكان أن فرض عليهم أقوش (أفش) الأفرم مبلغ مائة ألف درهم جبوها بعد أن تعهدوا بالطاعة^(٢) .

ونمة أهمية أخرى لتلك الحملة هي أن التتوخيين علونوا جيش الأفرم ، الأمر الذي أثار العداء بين الكسروانيين والتتوخيين . وقد أرسل الأمير الأفرم نائب دمشق إلى الكسروانيين يأمرهم بأن يصلحوا شئونهم مع التتوخيين ويدخلوا في طاعتهم بوصفهم أصحاب الأراضي والإقطاعات ، ولكن الكسروانيين رفضوا تلك الدعوة . ونتيجة لذلك خرج الأمير أقوش الأفرم في جيش كبير بلغ خمسين ألفاً من الرجال سنة ١٣٠٥ (٥٧٠٥ هـ) ، فهاجم الكسروانيين وخرّب ضياعهم وقطع كرومهم ومزقهم بعد ما قاتلهم أحد عشر يوماً ... وملك الجبل عنوة ، ووضع فيهم السيف وأمر ستمائة رجل ، وغنمت المساكن منهم ما لا عظماء ...^(٣) . وقد ساعد

(١) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ص ٣٠ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٩٠٢ - ٩٠٣ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ١٥ .

الأفرم في جهوده لإخضاع الكسروانيين الأمير اسندمر نائب طرابلس ،
الذى تذكر عنه المراجع مبالغته في التثكيل بالكسروانيين وقتلهم^(١) ، ويبدو
أن حملات الأمير أفوش الأفرم على جبال الكسروانيين نجحت في إخضاعهم
والقضاء على كياناتهم وعصبيتهم ، فيروى المقرئى أن السلطان الناصر محمد أقطع
« جبال كسروان بعد فتحها » لبعض أمراء المماليك ، فذهبوا إليها وفزعها
لهم الجبلية ورفعت أيدي الرقصة عنها^(٢).

ثانياً : التنوخيون ؛ وهم عشائر كثيرة اعتنقت الدرزية والانشرواني جهات
متفرقة من لبنان ، وظلوا يتأرجحون بين الولاء للصليبيين حيناً والمسلمين
أحياناً ؛ كما تأرجحوا بين الولاء للمماليك من ناحية وخصوم المماليك من أيوبيين
وتتار من ناحية أخرى . وكان من أشهر عشائر التنوخيين جماعة البحريين
الذين غضب عليهم السلطان الظاهر بيبرس بسبب نقلابهم ، فاعتقل
بعض زعمائهم في مصر ورفض أن يطلق سراحهم حتى ينتهى من حروبه ،
حتى إذا ماتم للسلطان بيبرس فتح أنطاكية أطلق سراحهم . ومع
ذلك فقد ظل بيبرس يشكك في ولاء البحريين ، حتى أرسل ضدهم حملة
قوية اجتاحت بلادهم وعاقبتهم في عنف^(٣) . وبعد بيبرس لجأ السلطان
قلاون إلى اضطهاد البحريين عاقبة عنسادم فسادوا إلى الولاء لدولة
المماليك ، وعندئذ ردت إليهم الدولة لإقطاعاتهم وعهدت إليهم بحراسة
بيروت وشواطئها ؛ وكان ذلك سنة ١٢٩١ على عهد السلطان الأشرف
خليل بن قلاون . كذلك ساعد البحريون المماليك في قتال غازان خان

(١) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ص ٣٢-٣٣

أبو القدا : المختصر حوادث سنة ٧٠٥ هـ

(٢) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ١٦٠ .

(٣) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ص ٧٥ .

تتار فلوس ، وذلك على عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون (١) .
 وثمة فريق آخر من التتوخيين ، هم الارسلانيون وسركوهم قرب بيروت
 وكانوا مواليين لدولة المماليك ، واشتهروا بمواقفهم ضد الصليبيين ، الأمر الذي
 جعلهم يظفرون برضا سلاطين المماليك (٢) .

ثالثاً : بنو مهن أو المهنيون ؛ وقد بدأ ظهورهم في القرن الثاني عشر ، حين
 نديهم أمراء السلاجقة لقتال الصليبيين على الساحل السوري ، فأبوا في ذلك
 بلاء حسناً ؛ كوفئوا عليه بمنحهم إقليم الشوف ، وقد حالقوا أقرباءهم التتوخيين
 في الغرب والشهابيين في وادي التيم (٣) .

رابعاً : الشهابيون الدروز ؛ وكانت منازلهم في وادي التيم منذ سنة ١١٧٣
 واشتركوا بنجاح في قتال الصليبيين ثم التتار ، وبخاصة أثناء إخراجهم على
 بلاد الشام في عهد السلطان المنصور قلاوون سنة ١٢٨١ . وقد حالف الشهابيون
 بني مهن وأصهروا إليهم .

خامساً : المتأولة ؛ وهم فرقة من غلاة الشيعة ، كانت رحلتهم في الجهات
 الشمالية من لبنان لبني حمادة . ويبدو أن التنافس كان قويا بينهم وبين الشهابيين
 الدروز حول الزعامة على لبنان (٤) . وقد حنق المماليك على المتأولة بسبب
 شذوذهم المذهبي ، مما جعلهم يتعرضون لبعض الاضطهاد في ذلك العصر .

سادساً : النصيرية أو العلويون ؛ وقد عاشوا في شبه عزلة في القسم الشمالي
 من جبل لبنان تحت زعامة شيوخهم (٥) .

(١) أحمد عزت عبد الكريم : التقسيم الإداري لسورية في العصر العثماني ص ١٣٦ .

(٢) الشدياق : أخبار الأعيان في جبل لبنان ص ١٧٤ .

(٣) أحمد عزت عبد الكريم : التقسيم الإداري ص ١٣٦ .

(٤) Lammens : op. cit., vol. 2, p. 13.

(٥) Demombynes : op. cit., p. 227.

صاحباً. الإسماعيلية؛ وكانوا يعرفون أيضاً باسم الباطنية، وكانت لهم قلاع عديدة أهمها مصياف (أو مصياب) والقدموس والكهف والحواش والمنيفة والوصافة. وقد قام الإسماعيلية الباطنية بدور مشهور في تاريخ بلاد الشام على عصر الحروب الصليبية^(١)؛ ولم يتورعوا عن اغتيال كثير من الشخصيات الإسلامية والصليبية سواء. ولم يرض المماليك عن الباطنية بسبب شذوذهم المذهبي من ناحية، ثم بسبب موقفهم المانع بين الصليبيين والمسلمين من ناحية أخرى. لذلك فرض السلطان الظاهر بيبرس ضرائب باهظة على الهدايا التي اعتاد أن يبعث بها الصليبيون إلى شيخ الباطنية، وذلك لإفساداً لنواميس الإسماعيلية وتمجيزاً لمن اكتفى شرهم بالهدية^(٢). ثم إن السلطان الظاهر بيبرس لاحظ أن طائفة الإسماعيلية لجأت — عندما أخذ نفوذها يضعف في بلاد الشام — إلى دفع الأموال للصليبيين، وبخاصة الاستنارية في حصن الأكراد. لذلك انتهز السلطان فرصة الصلح الذي عقده مع الاستنارية سنة ١٢٦٧ واشترط عليهم الامتناع عن أخذ الجزية التي كان يدفعها لهم الإسماعيلية الباطنية. ويروي المقرئ أن رسل الإسماعيلية وفدوا على السلطان الظاهر بيبرس سنة ١٢٦٧ ومعهم جملة من الذهب وقالوا: هذا المال الذي كنا نحمله قطعة للفرنج قد حملناه لبيت المسلمين لينفق في المجاهدين^(٣).

على أنه يبدو أن الإسماعيلية ببلاد الشام لم يلبثوا أن ضاقوا بالجزية التي كانوا يدفعونها للسلطان الظاهر بيبرس، بدليل أن نجم الدين حسون بن الشمراني مقدم الإسماعيلية ببلاد الشام أرسل مبعوثاً إلى السلطان سنة ١٢٦٩ يطلب منه إنقاص المال الذي كان يحمله الإسماعيلية إلى بيت المال. وفي ذلك الوقت كانت العلاقة سيئة بين السلطان وأحد زعماء الإسماعيلية — وهو صارم الدين مبارك

(١) سعيد عاشور: الحركة الصليبية ج ١ ص ٥٥٠ وما بعدها.

(٢) العيني: عقد الجاني ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٢٩.

(٣) المقرئ: السلوك ج ١ ص ٥٥٧.

ابن الرضى صاحب العليقة - فتوسط صارم الدين للسلطان حتى رضى عنه بيبرس؛ وعندئذ قلده زعامة الإسماعيلية بدلا من نجم الدين الشمراني . وكان أن توجه صارم الدين إلى مصياف - المركز الرئيسى للدعوة الإسماعيلية ببلاد الشام - حيث أخذ يباشر مهام منصبه^(١) .

وبدل ذلك على مدى ما صار لسلاطين المماليك من هيمنة على الإسماعيلية ببلاد الشام على عهد بيبرس ، بل إن السلطان بيبرس اشترط على الإسماعيلية أن تكون مصياف وبلادها للسلطان ؛ وأرسل صحبة صارم الدين نائبا عن السلطان بمصياف ولم يكن صعبا على بيبرس بعد ذلك أن يستولى على حصون الإسماعيلية ببلاد الشام واحدا بعد آخر ، حتى استولى عليها جميعا (١٢٧٠ - ١٢٧٣) ؛ وعندئذ انتهى أمرهم ببلاد الشام ، وأقطعهم السلطان بدلا من قلاعهم الشامية بعض الجهات في مصر ليعيشوا فيها^(٢) .

تورات الشام في عصر المماليك :

لم تكن الشام في عصر المماليك مجرد إقليم من أقاليم الدولة ، وإنما كانت أم من ذلك بكثير . لقد كانت بلاد الشام الجناح الايمن الذى بدونه يتعذر على دولة المماليك الاحتفاظ بكيانها وتوازنها ، والثبات في وجه الاخطار الاسبوية الضخمة التى هددت تلك الدولة ، حينما من جانب الأيوبيين والتتار والصليبيين ، وأحيانا من جانب الأرمن والتركانيين . وهكذا أدرك سلاطين المماليك منذ أن أقاموا دولتهم في مصر أنه لا بقاء لهم ولا دولتهم إلا فى ظل وحدة تربط بين الشام ومصر تحت حكمهم ، وتضمن لهم مراقبة التيارات العديدة التى يمكن

(١) - سعيد عاشور : الظاهر بيبرس : ص ٨٢ .

(٢) - المقرئى : السلوك ج ١ ص ٦٠٨ .

أن تؤثر في كيانهم ، فضلا عن مراقبة الطرق الرئيسية التي سلكها الأعداء في تهديدهم لمصر والشام في العصور الوسطى .

وإذا كان سلاطين المماليك قد نظروا إلى بلاد الشام نظرة خاصة ، فوضعوها لها تقسيما إداريا يشهد على مدى إدراكهم لأهمية تلك البلاد ، فإننا نلاحظ في نفس الوقت أن نواب الشام وأمراء المماليك في تلك البلاد أدركوا أهميتهم ، واستغلوا موقع البلاد من ناحية وبعدها عن مركز السلطنة من ناحية أخرى في محاولة فرض إرادتهم وإملاء كلمتهم على السلاطين وكثيرا ما أحس أمراء المماليك في الشام بنفوذهم وقوتهم فأعلنوا الثورات في وجه السلاطين في مصر ، بل لقد طالب بعض أمراء الشام بالسلطنة لأنفسهم معتمدين على ما عرف عن المماليك من بغض للنظام الوراثي وإيمان بأن الملك للأقوى . ولم ير بعض أمراء الشام - عندما استفحل النزاع أحيانا بينهم وبين سلاطين المماليك - مانعا من الاتصال بأعداء الدولة من تتار وعثمانيين ، مما عرض دولة المماليك لكثير من الأخطار . هذا كله فضلا عما نلصقه في عصر المماليك من فرار كثير من خصوم السلاطين ومنافسيهم من مصر إلى الشام ، حيث يجدون ملاذا ويعملون على تأليب الأعداء وإثارة المتاعب في وجه السلاطين .

ومع قيام سلطنة المماليك عند منتصف القرن الثالث عشر انطلق أول صوت للمعارضة من دمشق ، حيث رفض المماليك الأكراد (القيميرية) أن يقسموا يمين الولاء للسلطان شجر الدر ، كما امتنع الأمير جمال الدين يغمور - نائب السلطنة بدمشق - عن الاعتراف بشجر الدر . وكان من الطبيعي أن ينضم أولئك المتمردون إلى جانب الملك الناصر يوسف الأيوبي ، مما سبب لسلطنة المماليك في مصر كثيرا من المتاعب في دورها الأول ، ولم يخفف من حدة هذه المتاعب سوى الأصوات التي ارتفعت للمطالبة بتوحيد الكلمة في وجه خطر التتار (١) .

(١) المقريري : السلوك ج ١ ص ٣٦٦ وما بعدها .

على أنه حدث في ذلك الدور - وقبل أن يواجه المماليك خطر التتار - أن انقسم المماليك في مصر على أنفسهم ، فاجأ السلطان أيك إلى قتل أنطاي زعيم المماليك البحرية ، مما جعل هؤلاء يفرون إلى الشام وعلى رأسهم من زعمائهم بيبرس وفلاون وسنقر ويصري وغيرهم من الأمراء . وقد ظل زعماء البحرية في الشام ثلاث سنوات (١٢٥٤ - ١٢٥٧) يسيرون المتاعب لسلطنة المماليك في مصر ؛ حتى كان سقوط الخلافة العباسية على يد التتار سنة ١٢٥٨ وظهور خطر التتار في صورة جديدة على الشام ومصر ؛ وعندئذ دخل البحرية في طاعة السلطان فطن ليواجهوا جميعاً الخطر الجديد (١) .

والواقع إن سيادة سلطنة المماليك لم تمتد على بلاد الشام إلا بعد موقعة عين جالوت سنة ١٢٦٠ كما سبق أن رأينا . ومنذ تلك السنة أصبحت المتاعب التي صادفها سلاطين المماليك في بلاد الشام لاثني من جانب الأيوبيين والتتار والصليبيين لحب ، بل أيضاً من جانب أمراء المماليك أنفسهم بالشام . من ذلك أن الأمير علم الدين سنجر الحلبي نائب دمشق ثار في وجه بيبرس سنة ١٢٦٠ ، أي بعد شهر واحد من توليته السلطنة ، بل إن الأمير سنجر طالب لنفسه بمنصب السلطنة ، فلقب بالملك المجاهد ووضع اسمه على النقود ودعا لنفسه في خطبة الجمعة ، وصار يركب في دمشق بشعار السلطنة (٢) . ولكن الظاهر بيبرس أخذ حركة الأمير سنجر عن طريق الحيلة ، وذلك بعد أن حرص أمراء الشام فانفضوا عن سنجر وقاوموه ، ثم قبض عليه بعد ذلك . كذلك ثار الأمير شمس الدين أقوش البرلي ووطد مركزه في حلب ، ولكن السلطان الظاهر أحمد حوكتبه (٣) .

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ورقة ٣٩٤ (مخطوط) .

(٢) المقربزي : السلوك ج ١ ص ٤٣٩ .

(٣) أبو الفدا : المختصر ج ٣ ص ٢٠٩ - ٢١١ .

ولم تكن المتاعب التي صادفها بيرس في بلاد الشام في ذلك الدور التأسيسي لدولته كلها ناشئة من جانب أمراء المماليك، وإنما ظل بعض بقايا ملوك بني أيوب يشكون خطراً على سلطان دولة المماليك . من ذلك أن الملك المغيب صهر الأيوبي صاحب الكرك استعان بجموع الأكراد الفارين من وجه التتار وأخذ يغير على القو بك وغيرها من المناطق القريبة التابعة لسلطنة المماليك . ولم يبدأ بيرس إلا بعد أن قبض على المغيب صهر سنة ١٢٦٢ واعتقله بقلعة الجبل إلى أن قتل بعد ذلك (١) ،

ولما اعتلى المنصور قلاوون دسست السلطنة سنة ١٢٧٩ ، خرج عليه شمس الدين سنقر نائب الشام وامتنع عن مبايعته ، بل إنه دعا أهل دمشق إلى طاعته وتلقب بالملك الكامل وخطب له في الجامع الأموي . وفي أثناء النزاع بين السلطان قلاوون والأمير سنقر لم ير الأخير حرجاً في الاتصال بالتتار ، فاتصل بخان مغول فارس — وهو أبغا بن هولاكو — وحرصه على مهاجمة بلاد الشام ، ثم انتهى الأمر بفرار الأمير سنقر إلى صهيون (٢) . ولم تنته المتاعب التي واجها السلطان قلاوون في بلاد الشام عند ذلك الحد ، إذ حدث سنة ١٢٨١ ، والسلطان قلاوون مشغول بمحاربة الصليبيين ، أن دبر الأمير سيف الدين كوندك وجماعة من الأمراء الظاهرية وبعض التتار مؤامرة لاختيال السلطان (٣) . ولم يتردد المتآكرون في الاتصال بالصليبيين ، ولكن المنصور قلاوون علم بالمؤامرة في الوقت المناسب فأحبطها وأعدم رعاها وفر عدد كبير من أتباعهم إلى صهيون للاحقوا بالأمير شمس الدين سنقر الأشقر (٤) .

(١) ابن شاكر الكنتبي : عيول التواريخ ج ٢ ورقة ٢٣٠ — ٢٣١ .

(٢) النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٩ ورقة ١٧٠ أ .

(٣) مفضل بن أبي الفضائل : المنهج السديد ج ٢ ص ٣٢٢ .

(٤) النويري : نهاية الأرب ج ٢٩ ورقة ٢٧٨ ب .

والملاحظ أنه لم تحدث اضطرابات في الشام عقب وفاة السلطان قلاون وقيام ابنه الأشرف خليل في السلطنة سنة ١٢٩٠ ، أو عقب مقتل الأشرف خليل وقيام أخيه الناصر محمد بن قلاون في السلطنة سنة ١٢٩٣ . وفي الفترة المضطربة التي أعقبت وفاة المنصور قلاون وامتدت حتى قيام الناصر محمد في السلطنة المرة الثالثة سنة ١٣٠٩ ، شهدت بلاد الشام بعض الأحداث ، من ذلك أن السلطان كتبغا الذي اغتصب السلطنة سنة ١٣٩٤ زار بلاد الشام حيث عزل الأمير عز الدين أيك الحموي نائب دمشق وعين بدله الأمير سيف الدين أغرلو المادلي . ولم يكد السلطان كتبغا يعود إلى مصر حتى عزله حسام الدين لاجين وولى السلطنة بدله سنة ١٢٩٦ ، وعندئذ هرب كتبغا إلى دمشق (١) .

وقد لجأ السلطان المنصور لاجين إلى تعيين الأمير سيف الدين قبجق نائباً بالشام ، كما أرسل السلطان السابق الناصر محمد بن قلاون إلى الكرك ليأمن خطره (٢) . غير أن السلطان لاجين أوفر صدور أمراء مصر والشام عليه بسبب سياسته . فخرج عليه الأمير قبجق بالشام (قبجق) ثم رحل أفجق إلى بلاد التار حيث رحب بهم غازان محمود (٣) .

ولم يلبث أن عاد السلطان الناصر محمد إلى عرشه سنة ١٢٩٨ ليضيق عليه الأميران بيبرس الجاشنكير وسلار ، الأمر الذي جعل الناصر محمد يتظاهر بالخروج إلى الحجاز ، حتى إذا بلغ الكرك أعلن تنازله عن السلطنة . وإزاء إصرار الناصر محمد على رغبته ، اختار الأمراء بيبرس الجاشنكير سلطاناً سنة ١٣٠٨ . غير أن أمراء الشام لم يرضوا جميعاً بحكم السلطان الجديد ، فأقسم بعضهم بمن الولاء

(١) أبو الحسن : التاجوم ج ٨ ص ٦٣ ، ٦٤ .

المرزبي : السلوك ج ١ ص ٨١٩ — ٨٢٢ .

(٢) الزيري : نهاية الأرب ج ٢٩ ورقة ٣١٥ .

(٣) محمد جمال الدين سرور : دولة بني قلاون في مصر ص ٤٠ .

ليبرس الجاشنكير ، في حين راسل البعض الآخر الناصر محمد وأفهموه أنهم على ولائهم له .

ورداد الموقف في بلاد الشام تعقيداً ، أن يبرس الجاشنكير أخذ يضيق الخناق على الناصر محمد بالسكر ، الأمر الذي جعل الأخير يكتب إلى نواب الشام يذكّرهم بأنهم ممالك أبيه وأنه طالما أحسن إليهم ، فلا أقل من أن يساعده في استعادة عرشه وإلا فإنه سيلجأ إلى التتار ، ويطلب مساعدتهم . وبفضل مساعدة أمراء الشام تمكن الناصر محمد من العمل لاستعادة عرشه ، فسار إلى دمشق حيث استقبله أهلها استقبالا طيباً ، وأقيمت له الخطبة وقدم له أسراء الشام فروض الولاء (١) . وبعد ذلك عاد الناصر محمد إلى مصر حيث اعتلى دست السلطنة للمرة الثالثة سنة ١٣٠٩

وكان أن عين الناصر محمد الأمير قراسنقر المنصورى نيابة السلطنة بالشام ، فأغضب ذلك الممالك الأشرفية لاتهامهم الأمير قراسنقر هذا بالمشاركة في قتل السلطان الأشرف خليل . وقد أحس الأمير قراسنقر بأن الممالك الأشرفية يوغرون صدر السلطان الناصر ضده ، فاتفق مع بعض أمراء الشام - مثل الأمير أقوش الأفوم نائب طرابلس - إلى بلاد التتار ، حيث رحب بهم أولجاتيو ليلخا التتار في فارس (٢)

ولم يلبث أن عين السلطان الناصر الأمير تنكز الحسامى الناصرى نيابة الشام سنة ١٣١٢ ، ثم ولاء جميع بلاد الشام وكتب إلى كل من نائب حماه وحمص وطرابلس وصفد بالرجوع إليه ولم يلبث أن ازداد نفوذ تنكز في الدولة ، وبخاصة بعد أن ارتبط مع السلطان الناصر محمد برباط المصاهرة ؛ ويروى

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٦٠ - ٢٦٥ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٣١ - ٣٢ .

(٣) - المصدر المالكي ،

أبو المحاسن أن تذكر طلب من السلطان عزل يلبغا نائب حلب فعزله هلى الفور (١). غير أن الناصر محمد لم يلبث أن أوجس خيفة من ازدياد نفوذ تنكز لحقد عليه وعزله وتخلص منه وأحل محله فى نياية الشام الأمير الطنبغا الصالحى (٢).

وإذا كانت سلطنة الناصر محمد الثالثة قد امتازت بطول المدة الزمنية (١٣٠٩ - ١٣٤١) والاستقرار النسبى فى أوضاع الدولة الداخلية ، فإن عصر أولاد الناصر محمد وأحفاده شهد كثيراً من التقلبات والثورات فى مصر والشام جميعاً من ذلك أنه حدث فى عهد الملك الصالح صلاح الدين (١٣٥١ - ١٣٥٤) ، أن خرج عن طاعته معظم نواب الشام مثل نائب حلب ونائب طرابلس ونائب حماه ونائب صفد ، وبذلك لم يبق على طاعة السلطان سوى أرغون الكامل نائب دمشق الذى اضطر إلى الحرب إلى غزوة فاستولى ببغا أرس نائب حلب على دمشق ، حتى فتح السلطان فى القضاء على الفتنة (٣).

وفى عهد المنصور صلاح الدين محمد بن حاجى (١٣٦١ - ١٣٦٣) أعلن الأمير بيدمر الخوارزمى نائب دمشق العصيان وملك قلعة دمشق وقتل نائب القلعة ، وشاركه فى حركته جماعة من نواب الشام ، وخرج السلطان إلى الشام سنة ١٣٦١ وقبض على بيدمر وأرسله مقيداً إلى الاسكندرية وعين اثنين من أمرائه نواباً على دمشق وحلب ثم رجع إلى القاهرة (٤).

وفى عهد المنصور على بن الأشرف شعبان (١٣٧٦ - ١٣٨١) خرج الأمير بيدمر نائب دمشق عن الطاعة مرة أخرى ولكن نائب قلعة دمشق تمكن من القبض عليه (٥).

(١) المرجع السابق ج ٩ ص ١٢٩.

(٢) أبو المحاسن : النجوم ج ٩ ص ١٤٥ - ١٤٧ .

(٣) المرجع السابق ج ١٠ ص ٢٧١ - ٢٧٧ .

(٤) ابن ذباب : بدائع الزهور ج ١ ص ٣١١ (بولاى) .

(٥) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ١ ص ٥١٣ - ٥١٤ .

وقد استمرت بلاد الشام في عصر دولة المماليك الجراكمة مسرحاً لكثير من الثورات والحركات التي قام بها بعض الأمراء ضد السلطة ، ففي الأحداث التي أدت إلى انتقال الحكم من المماليك الترك إلى المماليك الجراكمة ، لسمع كيف ثار الأمير طشتمر الدوادار نائب دمشق الذي سبق للبلغاوية إبعاده إليها ، وإن كانت الأمور قد هدأت بسرعة في الشام سنة ١٣٧٧ ، وفي النزاع الذي دب سنة ١٣٧٧ بين الأميرين برقوق وبركة من ناحية وطشتمر من ناحية أخرى ، لجأ برقوق وبركة إلى العمل على إضعاف شأن طشتمر بنقل أنصاره إلى وظائف النيابة بالشام .

ثم كان نجاح برقوق في القضاء على سلطنة الترك وإقامة دعائم دولة المماليك البرجية سنة ١٣٨٢ ، ليجعل بلاد الشام مسرحاً جديداً للنزاع بين الترك والجراكمة ، إذ سار ألتينغا التركي نائب أبلستين ضد برقوق سنة ١٣٨٢ ، وإن كان نواب الشام لم يؤيدوه في ثورته مما اضطره إلى الفرار إلى بلاد التتار^(١) . ويفهم من المراجع أن الأمير يلغا الناصري نائب حلب وقف موقفاً عدائياً من برقوق ، فحرص على الاحتفاظ بصداقة سولي بن دلفادر التركاني - وهو أحد أعداء دولة البرجية - مما جعل برقوق يعزل يلغا نائب حلب سنة ١٣٨٥^(٢) . غير أن برقوق لم يكبد يفرغ من أمر يلغا حتى سمع بمؤامرة جديدة في دمشق سنة ١٣٨٦^(٣) . وفي الوقت نفسه أخذ منطاش نائب ملطية يجمع عناصر المقاومة ضد برقوق ، الأمر الذي جعل الأخير يعيد يلغا الناصري إلى نيابة حلب ليتخذ أداة في محاربة منطاش . على أن يلغا للناصرى لم يقف موقفاً حاسماً من منطاش ، الأمر الذي دعم نفوذ الأخير وزاد من خطورة حركته^(٤) .

(١) أبو الحسن : النجوم ج ١١ ص ٢٢٩ .

(٢) ابن حبير : أنباء الفرج ج ١ ص ٢٢٤ - ٢٢٥ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ٣ ورقة ٤٧٠ .

(٤) العيني : عقد الجمان ج ٣٤ ق ٢ ورقة ٢٢٨ .

ولم يلبث الأمير بلبغا الناصري أن أعلن ثورته علناً على السلطان في حلب ، فاستمال منطاش إليه ، وسيطر على شمال الشام . وفي ذلك الوقت جاءت الأخبار إلى السلطان برقوق من دمشق بأن بعض الأمراء الترك في الشام هاجموا طرابلس وقتلوا من فيها من أمراء مواليين لبرقوق (١) . وهكذا لم تكن تذهب سنة ١٣٨٩ حتى كانت معظم مدن الشام - فيما عدا دمشق وبعلبك والكرك - قد دخلت في طاعة بلبغا الناصري . وقد بادر السلطان برقوق بإرسال جيش إلى دمشق لمحاربة بلبغا الناصري ، ولكن الهزيمة حلت بجيش السلطان قرب دمشق ، مما مكن بلبغا الناصري من دخول دمشق والاستيلاء على قلعته (٢) .

وهكذا غدت بلاد الشام في ذلك الدور مسرحاً لنزاع مرير ، هو في حقيقة أمره صراع بين المماليك الترك والمماليك الجراكسة حول السلطنة ، أما بلبغا الناصري ، فإنه لم يضع الوقت ، وإنما دحف إلى غزوة ومنها دخل أرض مصر إلى الصالحية ، الأمر الذي جعل برقوق مضطراً إلى التنازل عن السلطنة ؛ فنفي إلى الكرك سنة ١٣٨٩ (٣) .

غير أن برقوق استغل وجوده في بلاد الشام ليجمع الأنصار ، في الوقت الذي اشتد النزاع في مصر بين بلبغا الناصري ومنطاش . ولم يلبث أن خرج برقوق من الكرك إلى دمشق . وقوى مركز برقوق في حصاره لدمشق انضمام الأمير كمشبا الحموي نائب حلب إليه ، الأمر الذي جعل برقوق يطمئن إلى جبهته الشمالية ، ويترك حصار دمشق ليتفرغ لمواجهة الجيش الكبير الذي خرج من مصر بقيادة منطاش لمحاربتة . وفي المعركة التي دارت بين الطرفين سنة ١٣٩٠

(١) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢٥٩ .

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٥ ص ٤٧٥ .

(٣) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٤ ص ٤٤١ .

تغلب برقوق وإن لم يستطع دخول دمشق ، فوحف على مصر ليدخل القاهرة ويسترد عرشه (١). وسرحان ما استطاع برقوق بعد ذلك توطيد نفوذه بالشام ، وإن كان ذلك لم يتم إلا بعد أن غدت بلاد الشام مسرحاً لصراع مرير بين بليغا الناصري ومنطاش سنة ١٣٩١ ، مما أثر تأثيراً سيئاً في أوضاعها الاقتصادية (٢).

وإذا كانت الأمور قد استقرت نسبياً في بلاد الشام في أواخر عهد برقوق ، فإن ثورة الأمراء لم تلبث أن تجددت بعد وفاته . من ذلك ما نسمعه عن ثورة الأمير تيم نواب الشام في عهد السلطان فرج بن برقوق سنة ١٤٠٠ ؛ وانضم إليه في ثورته نواب همدون طرابلس وسماه وحلب (٣). وقد استطاع السلطان لخماد هذه الثورة ؛ ولكن ذلك الانتصار لم يكن معناه استقرار الأمور في بلاد الشام ، إذ حدث بعد قليل أن تعرضت بلاد الشام لغزو التتار بزعامة تيمورلنك ، الذي أباد جيش المماليك عند حلب سنة ١٤٠٠ واستولى على حلب ، ثم أنزل الهزيمة بالسلطان فرج عند دمشق في أواخر سنة ١٤٠٠ ودخل دمشق نفسها (٤). والمعروف أن تيمورلنك جمع مهرة صناع وأرباب الحرف في الشام ورحلهم إلى سمرقند ، مما أضر بحضارة الشام ضرراً بليغاً .

وامتدحت أحوال بلاد الشام في اضطراب بعد الصلح مع تيمورلنك والمماليك ، إذ ثار نائب غزة ونائب طرابلس ضد السلطان فرج سنة ١٤٠٥ . وفي عهد السلطنة البائية للسلطان فرج ثار نائب حلب الأمير جكم سنة ١٤٠٧ وأعلن سلطنته وتلقب بالملك المادل ، وضرب السكة باسمه ولم يكده يقتل جكم بعد

(١) أبو المعاسن : التجوم الزاهرة ج ١١ ص ٣٧٨ - ٣٧٩ .

المريزي : السلوك ج ٣ ص ٦٣٤ - ٦٣٥ .

(٢) المريزي : السلوك ج ٣ ص ٦٦٦ وما بعدها .

(٣) ابن لمباس : بدائع الزهور ص ١ ص ٣١٩ - ٣٢٤ (بولاق)

(٤) ابن عربشاه : عجائب المفرد في أخبار بيمور ص ٩٨ وما بعدها .

شهرين حتى انضم نوروز نائب الشام إلى شيخ نائب طرابلس واستبدا ببلاد الشام ، بل لقد زحفا على مصر سنة ١٤٠٨ . وقد حلت الهزيمة بالسلطان فرج قرب دمشق سنة ١٤١٢ ، ثم قبض عليه وقتل بعد قليل (١) .

وهكذا ظلت بلاد الشام مسرحا لكثير من الفتن والمؤامرات والثورات طوال عصر المماليك . وقد درس الأستاذ جاستون فييت تراجم أربعة وسبعين نائباً لنيابة دمشق في عصر المماليك ، فبين له أن تسعة وعشرين منهم خرجوا على السلطنة وأعلنوا الثورة ، واستطاع اثنان منهم — هما لاجين وشيخ — أن يوصلا إلى السلطنة ، وتمكن اثنان من الهرب إلى خارج الدولة ، وحصل خمسة على عفو السلاطين ، وبجئ خمسة ثم أفرج عنهم ، في حين أعدم خمسة عشر (٢) ، هذا في دمشق فقط وهي لأحدى نيابات الشام ١

أثر نيابات الشام في أهوال دولة المماليك :

أما عن نصيب نواب الشام في سياسة دولة المماليك العامة ، فيلاحظ أنهم كانوا قوة ينحشها السلاطين في مصر ، حتى أن كل سلطان جديد من سلاطين المماليك كان عليه أن يفكر في مدى إخلاص نواب الشام له . ولعل هذا هو السر فيما لجأ إليه سلاطين المماليك من كثرة تغيير نواب الشام بين حين وآخر وبخاصة في أوائل حكم كل سلطان .

ولا أدل على قوة نواب الشام ومدى إدراك سلاطين المماليك لخطورتهم من أن السلطان بيبرس الجاشنكير لم يتمالك نفسه من الفرح عندما حلف له نواب الشام عقب توليته السلطنة سنة ١٣٠٨ ، وقال ، « الآن تم لي الملك » (٣)

(١) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٣٥٣ — ٣٥٥ .

(٢) Hauteceour et wiet : les mosques du caire p.56. (٢)

(٣) أبو المعاسن : التجويد الزاهرة ج ٨ ص ٢٤٢ .

ثم إن كل سلطان جديد من سلاطين المماليك كان يحرس بمجرد اعتلائه
دست السلطنة ، على أن يرسل خبر سلطنته إلى الشام ليطمئن إلى أن نواب
الشام وأمرائها جميعا يؤيدونه .

وهناك أربع حالات في دولة المماليك الترك اشترك فيها أمراء الشام مع
بعض أمراء مصر في خلع أربعة سلاطين وتولية غيرهم من الأمراء الموالين
لهم . وأول هؤلاء السلاطين هو بركة خان بن بيبرس ، وسبب خلعها قيام
خلاف بينه وبين أمراء الشام ومصر . ويقال إن بركة خان كان بالشام سنة
١٢٧٨ عندما علم بمؤامرة أمراء الشام ضده ، فأرسل إليهم ملتصسا منهم العقو
متطلفا إليهم بأنواع الخشوع (١) . ولكن الأمراء لم يهتموا بكلامه وساروا
إلى مصر ليعملوا على خلعها ، وعندئذ حل بركة خان عن دمشق قاصدا مصر حيث
حاصره الأمراء حتى اضطروه إلى التنازل عن السلطنة . ويقول النويري إن
بركة خان أرسل إلى الأمراء أثناء الحصاره وسألهم أن يسكون الشام بكماله
لهم ، فأبوا ذلك إلا أن يخلع نفسه (٢) .

أما السلطان الثاني الذي خلع عن السلطنة عندما غضب عليه أمراء الشام
فهو كتيبا (١٢٩٤ — ١٢٩٦) ، الذي استنار أمراء الشام عندما عزل الأمير
أيبك الحوى نائب دمشق وعين بدله مملوكا أغرلو العادلي ، فضلا عن أنه لم
يمنح أمراء الشام الإقطاعات والهدايا عند زيارته الشام لأول مرة ، كما جرت
بذلك عادة السلاطين في مصر المماليك (٣) .

وأما السلطان الثالث الذي خلع عن السلطنة بسبب غضب أمراء الشام
عليه ، فهو بيبرس الجاشنكير (١٣٠٨ — ١٣٠٩) الذي لم يرض عنه نواب

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ ورقة ٦٨ (مخطوط) .

(٢) النويري نهاية الأرب ج ٢٨ ورقة ١٢٦ .

(٣) تاريخ ابن الوردي ج ٣ ص ٢٤٠ .

الشام وكانوا الناصر محمد في السكرك يخبرونه بتأييدهم له حتى يسترد ملكه (١) وكان أن خرج الناصر محمد من السكرك إلى دمشق — كما سبق أن ذكرنا — ونفرت معه مساكر دمشق إلى طاعته وملكه ، وبفضل هذه المعونة تمكن الناصر محمد من استعادة عرشه سنة ١٣٠٩ (٢) .

وأخيرا فإن السلطان الرابع الذي خلع بسبب قيام أمراء الشام ضده هو علاء الدين كجك بن الناصر محمد سنة ١٣٤١ ؛ وقد أسلم بعد أخوه أحمد (٣)

ومهما يكن من أمر ، فإن قيام بعض الحركات في الشام لمساعدة سلطان أو عزل آخر لا ينبغي أن تجعلنا ننسى إطلاقا المساعدات القيمة التي أمدت بها نيابات الشام مصر في أوقات الحرج أثناء حروبها الطويلة ضد الصليبيين والتتار . ولا شك في أن الملاحظة الهامة التي يخرج بها الدارس لتاريخ عصر سلاطين المماليك في مصر والشام هي أن أمراء المماليك — في مصر والشام — كانوا غالبا ما يتناسون ما بينهم من خلافات لمواجهة الاخطار الخارجية ، وأن وحدة مصر والشام كانت ضرورة حتمية لمواجهة خطر الأعداء الذين هددوا كيان المروبة في الشرق الأدنى في ذلك العصر .

(١) أبو المعاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٤١ .

(٢) أبو القدا : المختصر في أخبار البشر ج ٤ ص ٥٦ — ٥٨ .

(٣) أبو المعاسن : النجوم الزاهرة ج ١٠ ص ٢١ وما بعدها .

الفصل الثامن

العلاقات الخارجية

استطاعت دولة المماليك التي قامت في مصر والشام سنة ١٢٥٠ أن تثبت أنها أعظم قوة معاصرة في الوطن العربي من المحيط إلى الخليج ؛ فنظر إليها بحكام وشعوب الدول الإسلامية والعربية نظرة إكبار وإجلال ، في حين نظرت إليها القوى الأخرى — خارج المحيطين العربي والإسلامي — نظرة خوف واحترام . وحسب دولة المماليك أنها استطاعت أن تواجه الأخطار الخارجية التي هددت الوطن العربي في الشرق الأدنى في شجاعة وبأس ، لحمت الشام ومصر من خطر التتار ، وطردت الصليبيين كلية من أرض الشام بل لاحقتهم في مراكزهم القريبة مثل أرمينية الصغرى وقبرس ورودس . هذا فضلا عن أن تنجح سلاطين المماليك في إحياء الخلافة العباسية في مصر . بعد سقوطها في بغداد - جعل لهم ولدولتهم مكانة مرموقة في العالم الإسلامي أجمع ، إذ جعلهم يبدون في صورة الزعماء الحقيقيين للعالم الإسلامي أجمع بوصفهم حماة الخلافة المتمتعين ببيعتهما .

وهكذا خدعت القاهرة في عصر سلاطين المماليك قبله الأصدقاء والأعداء جميعا ؛ الأصدقاء يطلبون تأييدها وينشدون مساعدتها ، والأعداء يبغون ملاحقتها ومساومتها ، أو مهادنتها أثناء لبطشها . وبين هذا وذاك من التيارات السياسية ظهر تيار التجارة والمال أشد ما يكون قوة وانطلاقا في ذلك العصر ليجعل التجار والسفراء يترددون على مصر بين فيئة وأخرى ، يبغون عقداً اتفاقية تجارية أو إلغاء مكس أو تخفيف ضريبة . وبذلك شهدت القاهرة نشاطا دبلوماسيا ضخما في عصر المماليك ، وصارت مركزا لشبكة واسعة من العلاقات

الخارجية مع الدول الصديقة وغير الصديقة ، بحيث أننا لا نبالغ إذا قلنا إن ديوان الإنشاء في عصر المماليك قدما يمثل أضخم وزارة خارجية شهدها العالم أجمع في ذلك العصر ، ولا أقل من تتبع هذا النشاط بإلقاء نظرة سريعة على العلاقات بين سلطنة المماليك في مصر والشام من ناحية وأهم الدول التي ربطتها بها علاقات دبلوماسية من ناحية أخرى (١) .

المماليك ومغول القفجاق :

عندما قسم جنكيز خان دولته الواسعة بين أبنائه الأربعة كانت الأجزاء الواقعة قرب بحر قزوين وفي حوض نهر الفولجا من نصيب جوجي ابن جنكيز خان ، فأقام هناك دولة عرفى باسم دولة مغول القفجاق أو القبيلة الذهبية نسبة إلى اللون الذهبي الذي اشتهرت به عيانتها ، ولم يلبث الإسلام أن انتشر بين ذلك الفرع من التتار ، وذلك بعد أن اعتنق رئيسهم بركة خان الإسلام ، الأمر الذي ترتب عليه ازدياد أواصر التقارب والصداقة بين مغول القفجاق والقوى الإسلامية المجاورة وبخاصة دولة المماليك من ناحية ، وازدياد العداء والتنافس بين مغول القفجاق وبقية طوائف المغول الوثنيين وبخاصة مغول فارس من ناحية أخرى .

وفي موجة العداء بين سلطنة المماليك في مصر وتتار فارس ، كان طبيعياً أن يزداد التقارب بين المماليك وتتار القفجاق المسلمين من ذلك أن السلطان الظاهر بيبرس لم يكذب يعلم بإسلام بركة خان حتى كتب إليه د يفريه بقتال هولاءكو ويرغبه في ذلك (٢) . ثم إن الظاهر بيبرس أخذ يكرم وفود المغول

(١) استبعدنا من هذه الدراسة الدول التي لم تربطها بدولة المماليك سوى علاقات حربية واضحة مثل مغول فارس وأرمينية الصغرى وقبرس ورودوس وغيرها ، وقد سبق الكلام ما كان بين دولة المماليك وتلك الدول من علاقات يثقل عليها الطابع الحربي .
(٢) المقرئى : السلوك ١٧ ص ٤٦٥ .

الوافدين على بلاده من القبيلة الذهبية ، وكان بعض هؤلاء خاضعين لـهولاكو
ففرروا إلى الشام عندما لمسوا العداء المستحكم بين زعيمهم بركة خان وحاكمهم
هولاكو (١) .

ولم يلبث أن وفد على مصر سنة ١٢٦٣ رسل بركة خان يحملون رسالة
للسلطان بيبرس جاء فيها : فليعلم السلطان أني حاربت (هولاكو) الذي منى
لحي ودمي لإعلاء كلمة الله العليا تمصباً لدين الإسلام لأنه باغى والباغى كافر
بأقبه ورسوله ... (٢) ، وكان أن رد الظاهر بيبرس على بركة خان برسالة طويلة
جمع فيها : من الترغيب والاستمالة والإغراء على هولاكو وإظهار الميل
إليه ... (٣) ، ولم يكتف بيبرس بتلك الرسالة ، وإنما أمر بالداء لبركة خان
بعد الداء للسلطان على منابر مكة والمدينة والقدس والقاهرة ، كما أرسل
صحبة الرسل هدية ثمينة للملك بركة ، من جملة ما فيل وزرانة ، ويقال إن
رسل بيبرس قوبلوا بالحفاوة البالغة في بلاده بركة خان ، وحكوا عند عودتهم
إلى مصر أن لكل أمير وأميرة في بلاط بركة خان إماماً ومؤذناً خاصاً ،
وأن الأطفال كانوا يحفظون القرآن في المدارس (٤) .

(١) توماس أرونوك : الدعوة إلى الإسلام ص ٢٥٩

المقريزي : المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ١١٧ - ١٩٨ .

(٢) الميني : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٤٩٤ .

(٣) ابن واصل . مفرج السكروب ج ٢ ص ٤٢٢ (مخطوط) .

(٤) توماس أرونوك : الدعوة إلى الإسلام ص ٢٦٠ .

ويلاحظ أن بعض الكتاب ذكروا أن الظاهر بيبرس تزوج من ابنة خان ملك
القفجاق (انظر مثلاً جمال الدين سرور : دولة الظاهر بيبرس في مصر ، ص ١٠٦) ، وأخذوا
هذا الرأي من : Lane - Poole : op-Cit.p266

ولكن هذا الرأي يبدو لنا خاطئاً ، إذ لا يوجد في المراجع المعاصرة أدنى إشارة إلى
ارتباط الظاهر بيبرس بملك القفجاق بركة خان بصفة المصاهرة . وربما كان سبب ذلك الخطأ الذي وقع
فيه لين بول ومن أخذ منه ، أن المراجع عندما ذكرت زوجات الظاهر بيبرس قالت إل أولى
زوجاته هي ابنة حسام الدين بركة خان التتري وأنها كانت خوندالكبرى في حريم بيبرس وأم
ولده وولي عهده السعيد بركة خان . ولكن الأمير حسام الدين بركة خان غير بركة خان ملك

ومهما يكن من أمر ، فإن العلاقة بين الظاهر بيبرس في مصر وبركة خان ملك مغول القفجاق لم تكن مجرد علاقة شخصية بين رجلين وإنما كانت علاقة بين دولتين ربطت بينهما روابط روحية قوية وأحسنتا بخطر واحد مشترك هو خطر مغول فارس . وهكذا لم تؤد وفاة بركة خان سنة ١٢٦٧ إلى انقطاع صلات الود بين مغول القفجاق ودولة المماليك ، إذ تبودلت السفارات والكتب بين بيبرس ومنسكوتغر — خليفة بركة خان — بقصد ترجيع القوي ضد مغول فارس ووزعيمهم أبقا^(١) . واستمرت هذه السياسة نافذة بعد بيبرس ، إذ حدث سنة ١٣٠٤ أن أرسل طقطاي ملك القفجاق سفارة إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون تحمل هدية ورسالة خلاصتها استعداد له لمشاركته في محاربة غازان إيلخان مغول فارس ؛ فأجابه الناصر محمد بأن الله قد كفاهم شر غازان وأن أخاه أوجلاتيو رضى بالصالح^(٢) .

وقد أراد السلطان الناصر محمد بن قلاوون أن يدهم الصلات بين دولتي المماليك والقفجاق ، فواصل إرسال الرسل والهدايا إلى أريك خان ؛ بل لقد أرسل سفارة سنة ١٣١٦ إلى أريك خان لطلب الزواج من « بعض الجهات الجنكزية ، أي أميرة من بيت جنكوز خان » ، وذلك توثيقا لصلات الود بين سلطنة المماليك ومغول القفجاق . ولكن يقال إن رجال أريك خان تمنعوا في أول الأمر ، واشتطوا في طلب المهر وطول المدة وكثرة الشروط^(٣) ، الأمر الذي جعل السلطان الناصر محمد يعدل مؤقتا عن ذلك المشروع حتى عاد

== القفجاق ، ولا يمدد الأمر مجرد تعاقبه في الاسم أوجد ذلك الخطأ (المقرئى : السلوك ج ١ ص ٦٤٠ — ٦٤٤) .

(١) العيني : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٣٠٧ .

(٢) المقرئى : السلوك ، ج ٢ ص ٩٧ .

محمد جمال الدين سرور : دولة بني قلاوون في مصر ص ٢١٨ .

(٣) النوبرى نهاية الأب ج ٢٠ ورقة ١٣٧ .

المقرئى : السلوك ، ج ٢ ص ٢٠٤ .

أرسله خان إلى تلبية رغبة السلطان الناصر فقال : قد جهزت لأخي السلطان الملك الناصر ما كان قد طلب وعينت له ابنة من البيت المذكور خاتى ، وفى سنة ١٣٣٠ وصلت الأميرة التتارية واسمها دلتينية — ويقال طولونية — إلى الإسكندرية عن طريق البحر فاستقبلت أحسن استقبال ، ودخل بها السلطان الناصر بعد أيام^(١) .

وهكذا استمرت العلاقات أقوى ما تكون صفاء بين سلطنة المماليك فى مصر ودولة مغول القفجاق . ويفهم مما ذكره القلقشندى أن المراسلات استمرت بين السلطان الحسن ابن الناصر محمد وجانى بك ابن أربك ، وأن جانى بك كان يحاطب فى رسائل المماليك بعبارات التثنية والتقدير والمبالغة فى الاحترام^(٢) . ويبدو أن انحلال إيلخانية مغول فارس بعد ذلك قلل من إحساس كل من مغول القفجاق والمماليك فى مصر والشام بذلك الخطر المشترك . هذا إلى أن دولة مغول القفجاق نفدها أخذت فى الانحلال والضعف البطيء ، فى الوقت الذى شغلت سلطنة المماليك بأعداء جدد بما أضعف صلاحها مع مغول القفجاق .

المماليك والدول الاسلمية فى آسيا :

حرصت مصر فى عصر المماليك على بسط نفوذها السياسى والدينى على الحجاز ، أسوة بما كان عليه الوضع منذ أيام الطولونيين . وكان شرفاً عظيماً ودعامة كبرى لكل حاكم مسلم أن يظهر أمام المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها فى صورة حامي الحرمين والمدافع عن الحجاز وأرضه الطيبة . ومنذ قيام سلطنة المماليك فى مصر ، وسلاطين المماليك يبدون اهتماماً خاصاً بالحجاز وعناية كبرى بشئونه . ولم يقتصر ذلك الاهتمام وتلك العناية على العناية بهجرة الحرم النبوى وإرسال

(١) الميرزى : السلوك ج ٢ ص ٢٠٤ — ٢٠٥ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٧ ص ٢٩٥ — ٢٩٦ .

المنسوبة إلى الحجاز^(١)؛ وإنما امتدت تلك العناية إلى بسط نفوذ المالك السياسي على الحجاز. ومن ذلك ما يقال من أن السلطان الظاهر بيبرس إنما قصد بإحياء الخلافة العباسية في مصر، أن يستغل هذه القوة الجديدة في بسط سيادته على الحجاز مثلاً كان الحال أيام الأيوبيين^(٢).

والواقع إن الخلافات بين أشراف الحجاز هي التي أتاحت فرصة طيبة لسلطين المالك لتحقيق أغراضهم. ذلك أنه حدث سنة ١٢٦٦ أن قدم إلى مصر الشريف بدر الدين مالك بن منيف بن شبيحة ليشكو إلى السلطان بيبرس من أن الشريف حمزة أمير المدينة حرمه من المشاركة في الإمرة التي كانت مناصفة بين أبيه ووالد حمزة. وهكذا وجد السلطان فرصة طيبة للتدخل، فسكتب إلى حمزة يطلب منه تسليم بدر الدين نصف الإمرة، وتسلم الشريف بدر الدين تقليداً بذلك من بيبرس، «فامتثل حمزة».

ثم حدث سنة ١٢٦٨ أن وقع خلاف في مكة بين الشريف نجم الدين أبي حمزة وبين عمه وشريكه في إمارة مكة الشريف بهاء الدين إدريس. وقد انتهز السلطان بيبرس تلك الفرصة لتسوية النزاع بينهما وتأكيده سلطانه عليهما جميعاً، فرتب السلطان لهما عشرين ألف درهم كل سنة، بشرط ألا يجتمعا من أحد مكوساً وألا يمنع أحد من زيارة البيت والأيتام والفقراء. وأمر من هذا كله، فإن السلطان بيبرس اشترط على أميرى مكة أن يخاطب باسمه في الحرم والمشاعر، وأن تضرب السكة باسمه، مما يتضمن له سيادة سياسية فعلية على الحجاز. وبعد أن وافق أميرا مكة على كل ذلك، كتب لهما بيبرس تقليداً بالإمارة وصلت لهما أوقاف الحرم التي بمصر والشام^(٣).

(١) القرينى: السلوك ج ١ ص ٤٤٥.

(٢) Van Berchem: Titres Califiens pp. 286—292.

(٣) القرينى: السلوك ج ١ ص ٥٦٠، ٥٦٩.

ولم يبق بعد ذلك أمام بيرس سوى أن يذهب بنفسه إلى الحجاز لتأكيد سلطانه على تلك البلاد من ناحية ولتأدية فريضة الحج من ناحية أخرى ، وكان أن تفد بيرس حرمه سنة ١٢٦٩ (١٨٦٧ هـ) فزار المدينة ، وغسل السكبة بيديه . وانتهت تلك الفرصة ليعين أحد أمرائه — وهو الأمير شمس الدين مروان — نائباً عنه في مكة ليكون الحل والعقد على يديه^(١) . على أنه يتضح من خلال أحداث زيارة بيرس للحجاز أن العلاقة بينه وبين أشرف الحجاز لم تكن على ما يرام ، بدليل أن أميري المدينة جواز ومالك رفضاً مقابلة السلطان بيرس ، وفراسته ، مما يشهد على أن أمراء الحجاز أحسوا بنقل وحناء حكم بيرس عليهم^(٢) .

ولم تستقر الأوضاع لدولة المماليك في الحجاز بعد عهد بيرس ، إذ استمرت الخلافات بين الأشراف في مكة والمدينة تثير مشاكل عديدة في وجه دولة المماليك . من ذلك ما حدث في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون من استنجد الشريف منصور ضد ابن أخيه ماجد بن مقبل الذي انتزع منه إمارة المدينة ، فأرسل السلطان الناصر محمد بعضاً من جنده لمعاونة الشريف منصور^(٣) .

أما في مكة فقد عانت الشكوى من الأخوين حمضة وأسد الدين رمينة ، مما جعل السلطان الناصر محمد يرسل حملة سنة ١٣١٤ لإحلال أخيهما أبي الفيث محلهم في الحكم^(٤) . ولم يكتف أمراء مكة بالاستعانة بسلطنته المماليك في مصر لفض ما بينهم من منازعات ، بل بلغ الأمر ببعضهم أن فرلوا ولجأوا إلى بلخان

(١) العيني ، عقد الجان ج ٢٠ مجلد ٣ ورقة ٥٥١ (مخطوط)

التويزي . نهاية الأرب ج ٢٨ ص ٥١ — ٥٢ (مخطوط)

(٢) المقرئزي . السلوك ج ١ ص ٥٨٠ — ٥٨٢

(٣) محمد جمال الدين سرور . دولة بني قلاوون في مصر ص ١١٨

(٤) أبو الفدا . المختصر ج ٤ ص ٧٣ .

المغول في فارس اطلب النجدة منه^(١) . وهكذا ظلت مكة مسرحاً
لمنازعات عديدة الأمر الذي جعل سلاطين المماليك يرسلون بين حين وآخر
بعض القوات إلى هناك لإقرار الأمور أو لمناصرة أمير على آخر. هذا إلى أن
سلاطين المماليك كثيراً ما قصدوا الحجاز لأداء فريضة الحج ، وعندئذ كانوا
يفتتحون فرصة وجودهم هناك لبحث المشاكل التي يعاني منها أهل الحرمين ،
وتوزيع القمح والعلال على المحتاجين ، فضلاً عن إقرار الأمن والنظام
بالأراضي المقدسة^(٢) .

أما بلاد اليمن فقد ارتبط حكمها من بني رسول بعلاقات الود مع
سلاطين المماليك في مصر ، ويفهم من المراجع أن عدة سفارات أتت من اليمن
تعمل الهدايا إلى السلطان الظاهر بيبرس سنة ١٢٦٨ ، ١٢٧٠ ، ١٢٧٥ ، ١٢٦٦ ،
١٢٦٩ ، ١٢٧٤) ومن هذه الهدايا التحف والفيلة والحيوانات والطيور .
وكان السلطان الظاهر بيبرس يحسن استقبال تلك السفارات ويرد على تلك
الهدايا بأحسن منها^(٣) .

ويبدو أن ملوك اليمن من بني رسول كانوا يحشون سطوة سلاطين
المماليك في مصر ، لأنه كان من المفروض أن تظل بلاد اليمن تابعة لمصر منذ
أن فتحها توران شاه أخو صلاح الدين الأيوبي سنة ١١٧٣ . هذا إلى أن قيام
الحلافة العباسية في مصر جعل لسلاطين المماليك نواها من الولاية على بقية
ملوك العالم الإسلامي ، وبخاصة البلاد التي ورد ذكرها في التقليد الذي منحه
الخليفة المستنصر بالله العباسي للسلطان الظاهر بيبرس ، وهي « الديار المصرية
والبلاد الشامية والديار بكرية والحجازية واليمنية والفراتية » . ولعل هذا هو
السبب في حرص ملوك بني رسول باليمن على علاقاتهم الودية مع سلاطين المماليك

(١) النويري . نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ٨٩

Howorth : Hist. of the Mongols, III, p. 572.

(٢) الفريزي ، السلوك ج ٢ ص ١٩٧ ، ص ٢٣٨ .

(٣) المرجع السابق ج ١ ص ٥٦٣ ، ٥٩٠ ، ٩٢١ .

في مصر ، فأرسل المظفر شمس الدين على سفارة سنة ١٢٨١ إلى السلطان المنصور قلاوون تحمل هدية قيمة من العنبر والعود والصيني وغيرها . وقد ألح ذلك الوفد في الحصول على أمان من السلطان قلاوون لملك الين ، فلبى السلطان رغبتهم وأعطاهم أمانا نص فيه على ألا يتناله من ماضية مدي الدهر وأعمارنا ، ما دام ملازما لشروط مودتنا . . . (١) .

وفي الوقت نفسه حرص سلاطين المماليك في مصر على إرسال الرسل إلى الين لينذروهم على أهلها ما أحرزه سلاطين مصر من انتصارات باهرة رفعت شأن الإسلام والمسلمين . من ذلك أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون أرسل أحد أسراته إلى الين لينبش بانهضاره على التتار في موقعة مرج الصفر سنة ١٣٠٢ (٢) .

على أنه حدث سنة ١٣٠٢ أن تولى ملك الين المؤيد هزير الدين داود ، الذي لم يتبع أسلافه من ملوك الين في التودد إلى سلاطين مصر ، بل على العكس مضائق التجار المصريين وامتنع عن إرسال المال المقرر إلى مصر . لذلك أرسل إليه كل من السلطان الناصر محمد والخليفة المستنصر بالله يندرونه ويهددونه ؛ بل لقد أخذ الناصر محمد يعد للعداء لإرسال قوة حربية لتأديب صاحب الين ، لولا اضطراب الأحوال الداخلية في مصر مما حال دون تنفيذ ذلك المشروع (٣) .

على أن الأمور لم تلبث أن انتظمت بين سلطنة المماليك من ناحية وملوك الين من ناحية أخرى . ومن الثابت أن المنازعات بين أمراء الين بعضهم

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ١٢٣ (مخطوط) ؛

(٢) محمد جمال الدين سرور : دولة بني قلاوون في مصر ص ١٣٠ .

(٣) المظفر بنى : السلوك ج ٢ ص ٢٤ - ٢٨ .

وبعض من جهة ، أو بين الأمراء والأئمة الزيدية من جهة أخرى . أتاحت لسلطان الممالك فرصة دائمة للتدخل بين حين وآخر في شئون اليمن وادعاء هيمنتهم على ملوكها . من ذلك أن الملك المجاهد سيف الدين طلب من السلطان الناصر محمد سنة ١٣٢٥ أن يمدّه بقوة تنصره على ابن عمه عبد الله ابن المنصور الذي سيطر على معظم أنحاء اليمن ، فأمدّه السلطان الناصر محمد بمهمة كبيرة تحت قيادة الأمير ركن الدين يبرس الحاجب (١) . وهكذا ظل ملوك اليمن يعترفون بالولاء لسلطان الممالك في مصر ويحرصون على إرضائهم بما حققوا لولا تلك السلطان سيادة على أهم أجزاء شبه الجزيرة العربية .

وتمت دولة إسلامية أخرى في آسيا ربطتها بسلطنة الممالك علاقات المودة والصداقة ، هي دولة هندستان . وقد نجح محمد بن تغلق ملك هندستان و سلطان دهل (١٣٢٥ — ١٣٥١) في توطيد دعائم دولته عن طريق التوسع على حساب الصين وخراسان من جهة ، ومحالفة سلطنة الممالك في مصر بوصفها أكبر دولة إسلامية مناهضة لمغول فارس من جهة أخرى (٢) . ولهذا الغرض أرسل محمد بن تغلق في أوائل حكمه سفارة مزودة بالهدايا الثمينة ، وإن كانت هذه السفارة لم تصل إلى مصر بسبب ما دب بين أعضائها من نزاع مما مكن الملك المجاهد صاحب اليمن من الاستيلاء على ما معهم من هدايا . ولما سمع محمد بن تغلق بما حدث لسفارته الأولى ، عاد وأرسل إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ١٣٣١ يطلب معولته ضد المغول (٣) .

ثم إن محمد بن تغلق لم يكتف بالسمي لكسب تأييد لسلطان الناصر

(١) الفريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٢٥٩ — ٢٦٥ .

(٢) Lane — Poole : Med. India under Mohammedan Rule , pp. 116—120:

(٣) محمد جمال الدين مرزوق : دولة بنى قلاوون ص ١٤٠ — ١٤١ .

محمد ، بل حاول أيضا الحصول على تقليد بولايته على بلاده من الخليفة العباسي بالقاهرة ، فأجابه الخليفة المستكني بالله العباسي إلى رغبته . وقد حرص فيروز شاه الثالث - الذي خلف محمد بن تغلق في الحكم سنة ١٣٥١ - على اتباع نفس السياسة ، فطلب إيعوضا من الخليفة العباسي ، وأرسله له الخليفة المعتضد بالله سنة ١٣٥٩^(١) .

وهكذا يتضح لنا كيف أن سلطنة المماليك أيام ذروة مجدها حققت لنفسها من اتساع النفوذ وهيبة السلطان ما جعل حكام الدول الإسلامية حتى بلاد الهند شرقا يخطبون ودها ويسعون لكسب تأييدها .

سلطنة المماليك والدول الإسلامية في شمال أفريقيا :

أما الدول الإسلامية بشمال إفريقيا فقد ربطتها بسلطنة المماليك في مصر علاقات قوية أدت إليها رابطة الجوار والإسلام من جهة ، ورابطة الخلافة من جهة ثانية ، ورابطة الخطر المشترك الذي هدد العالم الإسلامي من جانب الغرب الأوروبي من جهة ثالثة ، ثم رابطة الحج ، نظرا لأن مصر تقع على الطريق الرئيسي الذي يوصل حجاج المغرب إلى أرض الحجاز من جهة رابعة .

وكانت مشكلة الخلافة سببا من أسباب فتور العلاقات في وقت ما بين سلطنة المماليك في مصر وبني حفص في تونس (١٢٢٨ - ١٥٧٣) . ذلك أن ملوك بني حفص لم يطلبوا من الخليفة العباسي في بغداد تفريضا بالحكم مثل غيرهم من غالبية الحكام المسلمين ، مما يشير إلى شيء أضمروه في نفوسهم . ولم يلبث أن ظهر ذلك الشيء عند ما اتخذ أبو عبد الله محمد الأول الحمصي الملقب بالمنتصر (١٢٤٩ - ١٢٧٦) لقب الخلافة والإمامة ، وتلقب بلقب

(1) Allan : The Cambridge Shorter Hist. of India, p. 246.

المستنصر بالله المنصور بفضل الله أمير المؤمنين أبي عبد الله محمد ابن الامراء الراشدين^(١)، وبذلك كان أسبق ملوك شمال أفريقية — بعد الموحدين — إلى اتخاذ لقب أمير المؤمنين .

وتفسير المراجع إلى أن الذي شجع الحفصيين على الإفدام على تلك الخطوة كان شريف مكة أبو نعيم بن الحسن، الذي أسرع بالاعتراف بسيادة الحفصيين على مكة^(٢)، ولم تكن سفارة أبي نعيم هي الوحيدة التي وصلت إلى تونس، وإنما أعقبها أيضا سفارتان لإحداهما من سلطان بني مرين والأخرى من ملك التكرور .

ولم يمض على اتخاذ أبي عبد الله الحفصى لقب الخلافة مدة طويلة حتى قام السلطان الظاهر بيبرس بإحياء الخلافة العباسية في القاهرة سنة ١٢٦٠ ، مما أرجد نوحا من الضغينة بين سلطنة المماليك في مصر وملوك الحفصيين في تونس . والواقع إن سلطنة المماليك في مصر حاولت دائما أن تقلل من شأن خلافة الحفصيين ، بدليل ما ذكره العمري من أن ملك تونس يخاطب بأمر المؤمنين في بلاده^(٣) . كذلك شكك القلقشندي في دعوى انتساب الحفصيين لقريش ، وقال إنهم لبسوا من العرب في شيء ، وحقر من شأنهم وشأن خلافتهم^(٤) . أما المؤرخ أبو المحاسن فقد بلغ من تحقيره للحفصيين وخلافتهم أن قال مانعه دوفيا (٥٦٥٢) وصلت الأخبار من الغرب باستيلاء إنسان على إفريقية وادعى أنه خليفة وللقب بالمستنصر^(٥) .

(١) Van Berchem : Titres Califieu, p. 292.

(٢) القهواني : الملوك في أخبار إفريقية وتونس ، ص ١٧٨ .

(٣) العمري : التعريف بالمصطلح العربي ص ١٣ .

(٤) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٨ ص ٧٩ .

(٥) أبو المحاسن : التيجان الزاهرة ج ٧ ص ٣٢ .

ويبدو لنا موقف سلطنة المماليك في مصر من الحفصيين في المكاتبات الصادرة عن ديوان الإنشاء ، إذ ليس في هذه المكاتبات ما يشير إلى اعتراف سلاطين المماليك بخلافة الحفصيين . ولم يحاول سلاطين المماليك تلقيت الحفصيين بلقب أمير المؤمنين ، وإنما لقبوهم فقط بلقب "أمير المسلمين" وهو لقب دون الأول في المرتبة ولا يعنى أنه خليفة شرعى على المسلمين ، وإنما هو مجرد حاكم أو أمير من أمراء المسلمين يعمل تحت لواء الخلافة^(١) . وليس في القلقشندي سوى رسالة واحدة بعث بها الظاهر برقوق إلى أحد ملوك الحفصيين لقيه فيها بلقب "أمير المؤمنين" ، وربما كانت عبارة المؤمنين فيها تحريفا عن المسلمين نتيجة خطأ النساخ ، أو ربما كان سوء العلاقات بين الخلفاء العباسيين في القاهرة وسلاطين المماليك عندئذ سببا دفع الظاهر برقوق إلى الاعتراف بالخلافة الحفصية نكاية في الخلافة العباسية .

على أن مشكلة الخلافة بين المماليك والحفصيين لم تصل إلى درجة من الحدة تحول دون تكاتف القوتين لمواجهة الخطر الكبير الذى هدد العالم الإسلامى عندئذ من جانب الصليبيين . من ذلك أن أخبار رحلة لويس التاسع على تونس سنة ١٢٧٠ أثارت اهتمام السلطان بيبرس ، فأخذ يستعد بمرحلة لدفع هادية الصليبيين عن تونس ، بل يقال إن السلطان الظاهر بيبرس بادر بإرسال رسول إلى فرنسا لتحذير لويس التاسع من هاقبة مشروعه ، وذلك بمجرد وصول أخبار استعدادات لويس التاسع إلى مصر^(٢) . وعند نزول القوات الصليبية في تونس بادر السلطان الظاهر بيبرس بإرسال رسالة إلى ملك الحفصيين يخبره بأنه سيرسل إليه ما يستطيع من عسكر ، كما طلب من عربان برقة المبادرة

1) Van Berchem : Titres Califiens. p. 261.

(٢) ابن خلدون ، المعبر ، ج ٦ ص ٢٩١

بمساعدة المستنصر الحفصى . هذا إلى أن يبرس أمر بحفر الآبار في الصحراء الغربية ليعتمد عليها جنوده في طريقهم لفجدة تونس (١).

على أن السلطان يبرس لم يكذب يعضى فى استعداداته حتى جاءت الأخبار بموت لويس التاسع فى تونس وفشل حملته ، الأمر الذى جعل يبرس يوقف استعداداته الحربية لمساعدة تونس ويُرسل البهار إلى سائر بلدان المسلمين ابتهاجا بالخلاص من ذلك الخطر (٢) . ومع ذلك فإن السلطان يبرس لم يفته أن يتخذ تلك الحملة الصليبية وسيلة للتفنيغ على المستنصر الحفصى والخط من شأنه ويروى المقرئى أن رسول صاحب تونس قدم إلى مصر سنة ١٢٧١ يحمل هدية وكتابا للسلطان الظاهر يبرس ، ولكن يبرس استاء من أسلوب المخاطبة وظن أن صاحب تونس تعمد عدم مخاطبة سلطان مصر بما يستحقه من تقدير . لذلك تعمد السلطان يبرس من ناحيته أن يفرق هدية صاحب تونس على الأسراء دون أن يحتفظ لنفسه بنصيب منها ، كما رد على ملك الحفصيين مستقبها بظاھرہ بالمنكرات واستخدامه الفرنج ، فضلا عن تقاعسه فى الجهاد وعدم خروجه لمقاتلة الصليبيين عندما هاجروا بلاده . ويروى المقرئى أن السلطان يبرس قال للمستنصر الحفصى دملك لا يصلح أن يلى أمور المسلمين (٣) .

* * *

هذا عن العلاقة بين سلطنة المماليك ودولة الحفصيين فى تونس ؛ أما عن علاقة المماليك ببقية بلاد المغرب الإسلامى - مثل بنى زيان فى تلمسان وبنى مرين فى فاس - فيلاحظ أنها تأثرت بما كان هناك من صداقة بين سلطنة المماليك وبنى مرين فى فاس ، فى الوقت الذى سادت العلاقات بين بنى زيان وبنى مرين .

(١) المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ٩٠ .

(٢) سعيد عاشور . الظاهر ببرس ص ١١٤ .

(٣) المقرئى ، السلوك ، ج ١ ص ٦٠١ .

و الواقع إن الزيبانيين تطلعوأ في أول الأمر إلى سلاطين المماليك للحصول على تأييدهم ضد أطماع بني مرين ، ولكن سلاطين المماليك في مصر كانوا على درجة من بعد النظر جعلتهم يدركون أن بني مرين هم أضخم قوة في بلاد المغرب ، فحرصوا على إظهار الود نحوهم واكتساب صداقتهم ، الأمر الذي أدى إلى نفوذ بني زيان من سلطنة المماليك . وليست هناك بداية محددة لذلك النفوذ ، وإن كانت المراجع تشير إلى أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون أرسل سفارة سنة ١٣٠٥ إلى أبي يعقوب يوسف المريني ، ومع السفارة هدية جليلة ، وبعد أن أقيمت السفارة من بني مرين كل ترحاب وحفاوة ، تعرضت وهي في طريق عودتها إلى مصر لعدوان الأعراب في تلمسان ، على الرغم من أن أعضاء السفارة كانوا قد طلبوا من بني زيان في تلمسان حمايتهم في أراضيهم (١) . وكان أن غضب السلطان الناصر محمد بن قلاوون لما أتاه صاحب تلمسان - وهو عندئذ أبو وهو موسى (١٣٠٧-١٣١٨) فأرسل يعتب عليه ويؤنبه ، كما بعث له هدية صغيرة تحقيراً لشأنه . وقد رد التلمساني على السلطان الناصر محمد محتجاً ، كما رفض قبول الهدية (٢) . وعلى الرغم من أن أباتاشفين عبد الرحمن بن موسى التلمساني حاول أن يصلح الأمور بعد ذلك مع سلطنة المماليك ، وأرسل إلى السلطان الناصر محمد سنة ١٣٢٥ معبراً عن حسن نواياه ويوضح له أن سبب استياء أسلافه هو د ميلكم إلى خيرتاء (يقصد بني مرين) (٣) ، فإن دعوته لم تجد ترحيباً من سلطنة المماليك ولم يلبث بنو مرين أن بسطوا سيادتهم على تلمسان سنة ١٣٣٧ ، وكتب أبو الحسن على المريني رسالة إلى السلطان الناصر محمد يخبره بما تم على يديه من فتوح ، فرد عليه السلطان الناصر مؤيداً ومهنثاً (٤) .

(١) النويري ، نهاية الأرب ج ٢٨ ورقة ٥٠ (خطوط)

(٢) ابن خلدون العبر ج ٧ ص ٣٢٧

(٣) القلشندي صبح الأعشى ج ٨ ص ٨٦

(٤) المرجع السابق ج ٨ ص ٨٧ - ٩٩ ج ٧ ص ٣٩٥ - ٤٠٧

وهكذا يبدو لنا كيف نظر سلاطين المماليك في مصر إلى بني مريد نظرة احترام وإجلال ، بوصفهم أكبر قوة في المغرب العربي ، فضلاً عن دورهم البارز في حماية الإسلام بالمغرب وجهاد المسيحيين بأسبانيا^(١).

والواقع إن مظاهر العلاقات الوثيقة التي ربطت مصر بالمغرب العربي في أواخر العصور الوسطى بوجه عام وفي عصر سلاطين المماليك بوجه خاص عديدة ومتنوعة . ومن هذه المظاهر حرص سلاطين المماليك على إرسال البعثات إلى المغرب كلما أحرزوا انتصاراً على أعداء المسلمين في الشرق ، مثل التتار أو الصليبيين . ولا يخفى علينا أن ملوك المغرب كانوا ينظرون إلى سلطنة المماليك نظرة أمل بوصفهم حماة العالم الإسلامي ضد الأخطار التي تهدده من جهة الشرق . وهناك في المراجع ما يشير إلى أن ملوك المغرب كانوا يقفون موقف المترقب عندما دم خطر التتار المشرق العربي على أيام هولاكو ثم تيمورلنك ، وأنهم كانوا يسارعون إلى تهنئة المماليك عقب كل انتصار أحرزوه على خصومهم^(٢).

كذلك كانت مصر في عصر سلاطين المماليك ملجأ للكثير من المغاربة اللاجئين إليها فراراً من حكام بلادهم . ولم يقتصر الأمر على الأمراء المغاربة الفارين من بلادهم ، وإنما تعدى ذلك إلى هجرة بعض أفراد وطوائف من أهل المغرب إلى مصر يلتصقون فيها بالعلم والرفق . وكان بعض أولئك المغاربة من الفقراء والصوفية ، فتركوا أنراً حميقاً في أحوال مصر الاجتماعية نتيجة لما ترتب على مجيئهم من انتشار حركة التصوف فيها . ولا يخفى علينا أن مرور ركب الحجاج المغاربة بمصر في طريقهم إلى الحجاز أو إلى بلادهم بعد أداء الحج

(١) العمري : التعريف ص ١٦ - ٣٣

(٢) النويري : نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ٢٧

القلقشندي : صبح الأعشى ج ٨ ص ٧٩ - ٨٤ ، ج ١٠٣ ص ٧٠٧ - ٤١١

كان فرصة طيبة لإطلاع نسبة كبيرة من أهل المغرب على أوضاع مصر ، ولا شك في أن تلك العلاقات الطيبة بين مصر والمغرب مهدت لاتتعاش التبادل التجاري والثقافي بين الطرفين . أما عن النشاط التجاري فثمة إشارات في المراجع إلى أن مصر كانت تستورد من المغرب الخيول والزيت وتصدر إليه المنسوجات الحريرية والسكتاتية . وقد روى ابن خلدون أنه أتى إلى مصر سنة ١٣٨٢ على ظهر سفينة مصرية كانت قد قصدت تونس للتجارة^(١) ، كما ذكر في موضع آخر : « إن تهمار المغاربة إلى المشرق ثروتهم بعيدة لبعده الشقة وغلو أسعار بضائعهم »^(٢) . وأما عن التبادل الثقافي فالمعروف أن مصر في عصر المماليك « صارت هل سكن العلماء وعط رحال الفضلاء ، كما وصفها السيوطي^(٣) . لذلك قصدوا في ذلك العصر كثير من المغاربة لطلب العلم ؛ فضلاء العلماء المغاربة الذين حظوا بعطف سلاطين المماليك وسمحوا لهم بالتدريس في الأزهر^(٤) . وعلى رأس هؤلاء العلماء يذكر التاريخ اسم ابن خلدون الذي أتى إلى مصر لاتذاً بها سنة ١٣٨٢ ، وظل يواصل نشاطه العلمي في التأليف والتدريس حتى وفاته في مصر سنة ١٤٠٥ ، أما ابن بطوطة - الرحالة المغربي الشهير - فقد وفد على مصر في عهد السلطان الناصر محمد سنة ١٣٢٤ ؛ وسجل إعجابه بها ووصفه لما شاهده بين ربوعها في رحلته المعروفة .

وهكذا تدل جميع الشواهد على تنوع الصلات وقوتها بين مصر في عصر المماليك والمغرب العربي ، مما ترك أثراً كبيراً في التاريخ ويعتبر شاهداً قوياً على وحدة التاريخ العربي .

(١) ابن خلدون : المعبر ج ٧ ص ٤٥١ .

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٩٤ .

(٣) السيوطي . حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٦ .

(٤) ابن حجر . الدرر الكامنة ج ٢ ص ٣٦١ - ٣٦٢ ج ٤ ص ٣٢٧ .

المعوقرة بين سلطنة المماليك والسودان الغربي :

أما دول السودان الغربي ، فلم تقم بينها وبين سلطنة المماليك في مصر علاقات سياسية قوية مباشرة وذلك لبعدها الشقة بين الطرفين ، وليس معنى ذلك انعدام الصلات بين سلطنة المماليك والسودان الغربي ، فقد كانت هناك صلات قوية ، ولكنها كانت أكثر وضوحاً في نواحي الحج والتجارة والجوانب الثقافية .

والواقع إن الحج ظل يمثل أقوى الروابط التي ربطت سلطنة المماليك بدول السودان الغربي ، حيث أن سكان تلك النواحي اعتادوا في طريقهم إلى الحجاز أن يسلكوا الدروب الصحراوية المعروفة بطريق غات ، وهو يبدأ من مدينة غات نفسها ويفتحى عند الأهرام^(١) ، فإذا وصل حجاج السودان الغربي إلى مصر فإنهم اعتادوا أن يقضوا فيها وقتاً حتى ينهياً ركب الحجاج والحمل إلى مكة . ولا شك في أن تلك المدة التي كانوا يقضونها في مصر أثناء طريقهم إلى الحجاز ، كانت فرصة طيبة يتصلون فيها بالمصريين ويتصل المصريون بهم ويتعرف كل طرف على الآخر .

وأول من مر بمصر في طريقه إلى الحجاز من ملوك مالى والتكرور هو متساوولى الذى حج أيام السلطان الظاهر بيبرس^(٢) . وتخبرنا المراجع أن ثمة وفداً من الحجاج التكرورة وفد بعد ذلك إلى مصر سنة ١٣٢٣ ، وكان يتألف من عشرة آلاف تكرورى على رأسهم متساموسى^(٣) . وقد أحاط

(١) ابن خلدون : المعبر ج ٥ ص ٤٣٤

(٢) القلاشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٩٣ . ويذكر القلاشندى أن متساوولى سلطان وولى معناها على .

(٣) ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي ج ٢ ص ٢٧٥ .

ذلك الملك نفسه بمظاهر الترف ، وأخذ ينفق في مصر عن سمة استمرت نظر المعاصرين ، وأقدم هذا يا جليمة للسلطان الناصر محمد بن قلاوون من بيتا حمل جليل من الذهب المعدني الخام . أما السلطان الناصر محمد فقد أكرمه وبعث إليه وإلى أفراد حاشيته بالخلع والسيوف وغيرها ، كما أمدّه بالخيول والجمال والمؤونة ليتمكن من مواصلة سفره إلى الحجارة (١) .

ولم يلبث سلاطين مالى أن أدركوا أهمية الحصول على تقليد من الخلافة العباسية بالقاهرة في توطيد نفوذهم . من ذلك أن محمد أبو بكر سلطان مالى انتهر فرصة مروره بمصر سنة ١٤٩٤ في طريقه إلى الجحاز لأداء فريضة الحج ، ورأى أن يدعم ملكه ويكسبه صبغة شرعية ، فطلب من الخليفة العباسي تقليداً بتفويضه حكم بلاده ، ومنحه الخليفة ما أراد . ويقال إنه عند وصوله إلى مكة ، نادى به شريف مكة « سلطاناً وخليفة بأرض التكرور ، وأن كل من خالفه فقد خالف الله ورسوله » (٢) .

ويبدو أن نفوذ مصر السياسي صار مقترفاً به في تلك الجهات منذ أواخر القرن الرابع عشر ، إذ حاول ملوك الكاتم الحصول على تأييد شرعي لحكمهم من سلطنة الممالك (٣) . هذا مع ملاحظة أن ملوك السودان الغربي ظلوا في نظر سلاطين الممالك في مرتبة أقل من ملوك شمال أفريقيا ، بدليل أن الفريق الأول كانوا يخاطبون في المكاتبات السلطانية الصادرة عن ديوان الإنشاء بلقب « الجناب الكريم العالى » ، في حين أن الفريق الثانى كانوا يخاطبون بلقب « المقام العالى » (٤) .

(١) العمري : مسالك الأبصار ص ٩٤٣ ، ٩٥٤ — ٩٥٥ .

(٢) محمد كمت التليكي : تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيش وأكابر الناس ص ١٢ .

(3) Ziada : Foreign Relations, p. 113.

(٤) القلقشندي : سيج الأعشى ج ٨ ص ٧ .

والواقع إن المراسلات المتبادلة بين سلاطين الممالك في مصر وملوك السودان العربي تلقى ضوءاً هاماً على العلاقة بين الطرفين ، وتدل على مدى عناية دولة الممالك بتعرف أحوال تلك البلاد من ناحية ، ومدى اهتمام بلاد السودان العربي بأخبار دولة الممالك من ناحية أخرى وما تعرض له من أحداث وبخاصة من جهة التتار . ويستشف من كلام العمري أنه يأسف لعدم العناية بعناية تامة بأحوال التكرور الذين تربطهم بمصر روابط الإسلام ، ويطالب بمزيد من الاهتمام بأخبارهم^(١) .

ولاشك في أن روابط الإسلام بين مصر ودول غرب إفريقيا أدت إلى نمو الروابط العلمية والثقافية بين الطرفين . من ذلك ما يقال من أن السلطان منسا موسى افتتح فرصة وجوده في مصر فابتاع جملة من الكتب ليوفر لأهل بلاده جانباً من الثقافة الإسلامية^(٢) . كذلك يقال إن جامعة تنبكتو الدينية التي أنشئت حوالي سنة ١٣٣٥ حاولت دائماً أن تحتذى أساليب الأزهر في التعليم . ويبدو أن بعض المصريين من العلماء وغيرهم استقروا في السودان الغربي ، بدليل ما يذكره ابن بطوطة من أنه عندما مرض في مدينة مالي لم يسمعه بالعلاج إلا أحد الأطباء المصريين^(٣) .

ومن جهة أخرى ، فإن بعض طوائف من بلاد التكرور أقامت في مصر لطلب العلم والدراسة على مشايخ العصر المبرزين أمثال ابن جوزي وأبي حيان وغيرهما^(٤) . وقد نبغ من التكرورة في مصر صبيح بن عبد الله التكروري الملقب بالكوتاني الذي اشتغل بتدريس الحديث في دمشق حيث مات سنة ١٣٣٠^(٥) .

(1) Demombynes : *Masalik Alabsar*, Intr; IX.

(٢) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٤ ص ٣٨٣ .

(٣) رحلة ابن بطوطة ج ٤ ص ٣٩٧ .

(٤) السخاوي : الضوء اللامع ج ٧ ص ٢ .

(٥) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٢ ص ٢٠٥ .

كذلك ابتنى تجار التكاورة بمصر مدرسة للمالكية عرفت بمدرسة ابن رشيق^(١)؛ وأصبحت هذه المدرسة المالكية مركزاً لطلاب العلم الوافدين من بلاد التكرور، حتى أن الحيرين من أهل تلك البلاد اعتادوا أن يبعثوا لتلك المدرسة بالمال والتبرعات^(٢). ولا يخفى علينا أن كثير أمن التكاورة في مصر كانوا على درجة شديدة من الفقر، وهؤلاء كان لهم نصيب من عطف سلاطين الممالك، إذ يروى المقرئى أن السعيد بركة خان ابن الظاهر بيبرس «عمل للتكاورة خزان حضره كثير من أهل الخبر»^(٣).

وأخيراً، فإنه لا يخفى علينا أن التجارة كانت تمثل رباطاً قوياً دعم العلاقات بين دولة الممالك ودول السودان الغربى. وسنتكلم هن النعاط التجارى بين الجانبيين فى مكان آخر من هذا الكتاب، ولذلك نكتفى بالإشارة هنا أن الأمر لم يقتصر فى عصر الممالك على مجئ التجار التكاورة إلى مصر يحملون حاصلات السودان، وإنما تعدى ذلك إلى تردد بعض التجار المصريين على بلاد الكانم والتكرور، الأمر الذى قوى الصلات بين دولة الممالك ودول السودان الغربى.

العلاقة بين سلطة الممالك والحبشة :

أما هن العلاقة بين سلطنة الممالك والحبشة فكانت من نوع آخر. ذلك أن الحبشة دولة مسيحية تتبع كنيسة الكنييسة المرقسية بالإسكندرية؛ ثم لأنها كانت بعيدة هن مصر لا تربطها بها حدود مباشرة بما حال دون وقوع

(١) سميت بهذا الاسم لأن علم الدين ابن رشيق هو الذى أدرج على بابها قبل متصل القرن السابع الهجرى، وهو أيضاً أول من درس بها.
(٢) المقرئى المواظ والاهبار ج ٢ ص ٢٩٥.
(٣) المقرئى : التلوك ج ١ ص ١٩٩.

صدام مباشر بين القوتين ، مثلما حدث بين مصر ومملكة النوبة المسيحية في مصر المماليك ، أو بين سلطنة المماليك من ناحية والقوى الصليبية القريبة في الشام وأرمينية الصغرى وقبرس ورودس من ناحية أخرى .

والواقع أنه منذ أن تأكدت تبعية الكنيسة الحبشية للكنيسة المصرية في أوائل العصور الوسطى ، والعادة جرت بأن تستورد الحبشة مطاراتها من مصر ؛ فإذا خلا منصب مطران الحبشة أرسل ملكها رسالتين لإحداهما الحاكم مصر والأخرى لبطرك الاسكندرية طالبا تعيين من يشغل كرسي المطرانية في الحبشة . كذلك جرت العادة أن يرفق ملك الحبشة رسالته بمبلغ ضخيم من المال يجمعه على شكل ضريبة من رعاياه^{١)} . وعند وصول هاتين الرسالتين والمال ، يتصل بطرك الاسكندرية بالسلطان أو الحاكم في مصر ويستأذنه في رسامة أحد الرهبان الأكفاء ليشغل كرسي مطران الحبشة .

وهكذا وجد عامل ديني قوى يربط بين الحبشة وسلطنة المماليك ، وحقا قدرا كبيرا من الاتصالات بين الدولتين . ويفهم من المراجع أن السلطان الظاهر بيبرس أرسل سفارة إلى الحبشة ، ولكن هذه السفارة تأخرت في العودة بسبب الحروب الداخلية التي كانت دائرة هناك حول العرش ، الأمر الذي أغضب بيبرس وقد أحس ملك الحبشة بغضب سلطان مصر ، فلم يهرؤ على طلب مطران منه مباشرة ، وإنما اتصل بسلطان اليمن وطلب وساطته لكي يصدر بيبرس أوامره إلى البطرك غبريال الثالث ليمتد إلى الحبشة د مطرانا رجلا جيدا عالما لا يجب ذهاب ولا فتنه ، . ونخرج من رسالة ملك الحبشة إلى بيبرس بنتيجتين أولاهما أنه اشترط في المطران أن د لا يجب ذهاب ولا فتنه ، مما يفهم منه أن بعض المطارنة

1) Coulbeaux : Hist. Politique et Religieuse de l'Abysinie, t. I, p. 179.



المصريين الذين كانوا يوفدون إلى الحبشة أظهروا تكالباً على المال ، وثانيهما أن ملك الحبشة حرص على أن يحشو رسالته لسلطان مصر بعبارات الملق والرفى ، ومن ذلك قوله ... وهذه الخفاق كلهم يقولون آمين بطول بقاء عمر سلطاننا مالك مصر ، وملك الله عدوه ... (١) .

ومع ذلك فإنه يبدو أن العلاقة استمرت سيئة بين السلطان الظاهر بيبرس وملك الحبشة ، فامتنع بيبرس عن إرسال المطران المطلوب ، بمادفع الحبشة إلى استحضار مطرانا سورياً من بلاد الشام (٢) .

خير أن الأحباش لم يرتاحوا للمطارنة السوربان ، فكتب ملك الحبشة يهبأصيون (صهيون) إلى السلطان المنصور فلان يعتذر له ويسأله « إنقاذ مطران لإصلاح بلاد الحبشة التي فيها النصارى والمسلمين » . كذلك كتب ملك الحبشة إلى بطرك الاسكندرية يقول له « وهؤلاء السربان المطارنة الذين هندنا من غير مصر بغضنام وما حبينام ، ولأجل محبتنا في بطركية مصر ما خليتناهم عندنا أساقفة وطر دنام » (٣) .

وقد تكررت رسائل ملك الحبشة إلى السلطان فلان بعد ذلك ، وكما رسائل مليئة بالتوسلات والتضرعات ، حتى أنه قال في إحدى رسائله « ... اسمع يا سلطان مصر — نصرك الله — : إعطى البطريرك الدستور بيسمى لي أسقفاً ، فنحن وهم أمانتنا واحدة من زمن مرقس وإلى اليوم ... » (٤) وكان أن استجاب السلطان المنصور فلان لرجاء ملك الحبشة فسمح برسيم المطران المطلوب وسفّره إلى الحبشة .

(١) الزويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ ص ٤٦ (مخطوط) .

(2) Coulbeaux : op. cit., T. I, pp. 288—290.

(٣) مهيى الدين بن عبد الظاهر : تشرىف الأيام والمصور ص ١٧٠ — ١٧٣ .

(٤) المرجع السابق ص ١٧٣ .

(١٧ - العصر المالبكى)

ومن هذا يبدو أن علاقة كنيسة الحبشة بالكنيسة المرفسية بالإسكندرية كانت سبباً في اتصالات دائمة بين دولة الممالك والحبشة . وجدير بالذكر أن سلاطين الممالك في مصر كانوا يرثبون أحياناً في العلاقة بين بطاركة الإسكندرية وملوك الحبشة ، ولهذا أصروا أن يكون الاتصال بين الطرفين عن طريق سلطنة الممالك نفسها وليس اتصالاً مباشراً . ويدل ذلك على أن بعض سلاطين الممالك أخذوا عهداً على بطرك النصارى بأن لا يكتب إلى ملك الحبشة بنفسه ولا بوكيله ولا ظاهراً ولا باطناً ، ولا يولى أحداً في بلاد الحبشة ولا قسيساً ولا أعلى منه ولا دونه إلا بإذن من السلطان ووقفه على كتابته ... (١) . كذلك كان سلاطين الممالك يوجهون دائماً النصيح إلى بطرك النصارى في مصر بأن يتوفى ما يأتيه سرّاً من تلقاء الحبشة (٢) ، ولا شك في أن تلك المخاوف التي سادت سلاطين الممالك في مصر من الاتصالات بين بطرك مصر وملوك الحبشة إنما كانت أمراً طبيعياً في عصر الحروب الصليبية ، وهو العصر الذى طفق بروح التعصب الدينى من ناحية والذى ظهرت فيه دولة الممالك في صورة القوة الإسلامية الكبرى التي تزعمت حركة الجهاد ضد الصليبيين من ناحية أخرى .

على أن موضوع تعيين مطر أن للحبشة من قبل بطرك الإسكندرية لم يكن السبب الوحيد للاتصال بين سلطنة الممالك ودولة الحبشة . ذلك أنه ثمة مظهر آخر للعلاقات بين الطرفين ارتبط بمروء الحجاج الأحباش بمصر وهم في طريقهم إلى بيت المقدس . والمعروف أن الأحباش كانت لهم جالية كبيرة مقيمة في بيت المقدس ، كما كان لهم دير كبير في تلك المدينة المقدسة اتخذوه مقرّاً لهم . وقد اعتاد ملوك الحبشة إرسال الهدايا والطلبات إلى رهبان ذلك الدير ، فضلاً عن التماس كرم سلاطين الممالك في رعاية أولئك الرهبان . من ذلك ما جاء في رسالة ملك

(١) السخاوى : التبر المسبوك في ذيل السلوك ص ٣١٠ .

(٢) العمري : التبريد بالمصطلح الشريف ص ٤٨ .

الحبشة بجبا صيون (١٢٨٤ - ١٢٩٣) إلى السلطان المنصور قلاوون ؛ من أن ذلك الملك أرسل ثوباً ومائة شمة ، وسأل لإنقاذ ذلك للربان الحبوش المقيمين بالقدس الشريف ، ويرضى عليهم ألا يمنعوا من دخول الهيكل ، (١) . كذلك أرسل ملك الحبشة المذكور إلى رهبان دير الأحباش في بيت المقدس يقول لهم : سلام عليكم يا رهبان الحبوش الذين صبروا على العباداة والزهد إلى هذه الأيام ، وصبرتم على الحر والبرد . وقد سيرت لكم ثوب أحمر ديباج ، ومائة شمة ، وثيابي وهو زفاري الذي تلبسه السلاطين حتى تلبسونه وقت القربان . فمرفوني بوصول هذا ، واكتبوا أسماءهم ، واذكروني في صلواتكم بدعواتكم ... (٢) .

ويبدو أن جموع الحجاج الأحباش الذين كانوا يمرون بمصر في طريقهم إلى بيت المقدس بلغوا درجة من الكثيرة تطلببت نوعاً من دوام الاتصال بين ملوك الحبشة من ناحية وسلاطين مصر من ناحية أخرى ، لإعفاء أولئك الحجاج من رسوم المرور . وقد ذكر ألفاري أنه شاهد قافلة تضم نحواً من ثلثمائة من حجاج الأحباش تمر بالأراضي المصرية قرب شواطئ البحر الأحمر في طريقهم إلى بيت المقدس (٣) .

والمتوازن في المراجع أن السلطان صلاح الدين الأيوبي شجع دير الأحباش برعايته عندما استولى على بيت المقدس سنة ١١٨٧ ، ولذلك دأب ملوك الحبشة في عصر المماليك على إرسال السفارات والكتب لسلطين المماليك ، راجين أن يشملوا حجاج الأحباش بهطهم ولا يمنعوهم من زيارة كنيسة القيامة

(١) يحيى الدين بن عبد الظاهر : تزيين الأيام والعصور ص ٩٧٠ .

(٢) المرجع السابق ص ٩٧٣ .

(٣) Alvarez : Portuguese Embassy, pp. 243-244. (٣)

بالقدس (١).

والواقع إن وجود جمالية كبيرة من الاحباش مقيمة إقامة دائمة في بيت المقدس، ووجود دير لهم في تلك المدينة على اتصال دائم بدولة الحبشة، أمر له أهميته من حيث اطلاع ملوك الحبشة على أخبار الحروب الصليبية أولاً بأول. ولم تنف عن البابوية وأصحاب المبادئ الصليبية في غرب أوربا فكرة الاستفادة من تلك القوة المسيحية الكبرى - وهي الحبشة - في محاربة المسلمين، وبخاصة في الدور الأخير من الحروب الصليبية بعد طرد الصليبيين نهائياً من الشام في أواخر القرن الثالث عشر (٢). ومن الثابت أن البابوية أرسلت عدة سفارات في القرن الرابع عشر إلى ملوك الحبشة لحثهم على المشاركة في محاربة المسلمين. وكان أن أفلحت تلك الاتصالات في استئثار ملوك الحبشة، فيقال أنهم أعدوا حملة كبيرة لمهاجمة مصر من ناحية الجنوب في الوقت الذي هاجمها بطرس لوزجنان ملك قبرص من ناحية الشمال سنة ١٣٦٥. كذلك فذكر اسحق الأول ملك الحبشة (١٤١٤ - ١٤٢٩) في خروجه مصر، وبخاصة عندما سمع بأن المماليك غزوا جزيرة قبرص وأسروا ملكها جانوس سنة ١٤٢٦. وقد دارت بين ملك الحبشة وملوك غرب أوربا مباحثات في هذا الشأن، ولكنها باءت بالفشل (٣). كذلك فشلت محاولات ملوك الحبشة لتحويل مجرى النيل وتجميع مصر، وهي الفكرة التي ولدت نتيجة لاتصالات طويلة بين ملوك أرغونه والبرتغال من ناحية وملوك الحبشة من ناحية أخرى (٤).

(١) ابن لباس: بدائم الزهور ج ٥ ص ١٢.

(٢) سعيد طاشور: الحركة الصليبية ج ٢، ص ١٢٠٩.

(٣) المقرئى: الإلام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام ص ٤.

أبو الحسن: النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٦٣٧ - ٦٤٠ (طبعة كاليفورنيا).

(٤) سعيد طاشور: الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٢١٣ - ١٢١٤.

المعرفة بين سلطنة المماليك ودول التركان :

عاشت على الأطراف الشمالية لدولة المماليك جماعات من شعوب متفرقة مثل الأرمن والكرج والأكراد والتركمان ، وهؤلاء جميعاً ربطتهم بسلطنة المماليك علاقات متقلبة بين الخضوع والتبعية حيناً والثورة والعدوان أحياناً ، وفقاً لملته الظروف الخاصة والعامة التي أحاطت بمنطقة الشرق الأدنى وشعوبها منذ منتصف القرن الثالث عشر .

وقد عرف عن التركمان بالذات أنهم ساهموا بنصيب بارز في حركة الجهاد ضد الصليبيين منذ وقت مبكر ، فعملوا جنوداً في جيوش أنابك السلاجقة ثم في جيوش الأيوبيين فالمماليك . على أنه بصرف النظر عن تلك الأعداد من التركمان الذين عملوا جنوداً مرتزقة في جيوش المماليك ، فإن التركمان أقاموا لأنفسهم دولاً أو دويلات على أطراف آسيا الصغرى وبلاد النهرين ، اشتهرت منها دولة بني دلغادر ودولة بني رمضان ودولة بني قرمان ودولة الشاه البيضاء ودولة الشاه السوداء . وكان المفروض أن تكون هذه الدول التركمانية تابعة لسلطنة المماليك في مصر والشام ، ولكن الحاصل فعلاً هو أنها لم تظل على ولائها للمماليك ، وإنما دأبت على استغلال الظروف للخروج على سلطنة المماليك بل ومهاجمة أراضيها ، مما سبب لدولة المماليك كثيراً من المتاعب على حدودها الشمالية .

وقد اشتد تهديد الدول التركمانية لسلطنة المماليك في القرن الخامس عشر ، عندما كثرت القلاقل والفتن داخل دولة المماليك وظهر ضعف هذه الدولة وعجزها عن الاحتفاظ ببيتها والدفاع عن كيائها ضد الأخطار الخارجية التي هددها ، وبخاصة من جهة تيمورلنك . وكان أن أحس السلطان المؤيد شيخ بطغر التركمان ورأى ضرورة تأديبهم فقام بهملتين ضدّهم سنة ١٤١٥ ، سنة ١٤١٧ ،

ولكنهم أعلنوا ثورتهم من جديد عقب عودة السلطان ، فأرسل السلطان المؤيد شبح ابنه إبراهيم على رأس حملة كبرى سنة ١٤١٩ ؛ فوصلت هذه الحملة إلى قونية ، وخرب إبراهيم بلاد التركان ثم عاد محملاً بالغنائم (١) .

ولم يغفر التركان لسلطنة المماليك ما حل ببلادهم من تهريب وتدمير ، فقام عثمان قرايوك زعيم الشاه البيضاء بمهاجمة خربت سنة ١٤٢٩ كما أوغل داخل حدود دولة المماليك ويبدو أن قرايوك أقدم على مهاجمة دولة المماليك بتحريض من شاه رخ ابن تيمورلنك ، الأمر الذي جعل السلطان الأشرف برسباي يبادر بإرسال حملة خربت الزها — التابعة للشاه البيضاء — وأسمره حاكمها هايل بن عثمان قرايوك (٢) .

وقد بلغ من استخفاف عثمان قرايوك زعيم الشاه البيضاء بسلطنة المماليك أنه أرسل إلى السلطان برسباي سنة ١٤٣٣ سفارة تحمل هدية تشمل امرأة وخروف وخلعة . وكان أن فهم برسباي ما يعنيه قرايوك من تلك الهدية ، إذ يرمن الخروف إلى السلطان والمرأة إلى أن السلطان وأمرائه كالنساء ، في حين تشهر الخلعة إلى أن برسباي تابع لقرايوك . ولم يستطع السلطان برسباي أن يخفي غضبه فأمر بذيخ الخروف أمام الرسل وألبس الخلعة لأجد الهوليين فرقص بها في حضرة السلطان وحطم المرأة ، ثم صرف رسل قرايوك بعد أن أهانهم وقص أذنان خيولهم وقال لهم «قولوا لأستاذكم يلاقيني على الفرات فكان ذلك إعلاناً للحرب (٣) .

ومع أن الحرب التي شنها برسباي ضد قرايوك سنة ١٤٣٣ انتهت لصالح سريع لعدم فيه زعيم الشاه البيضاء بأن يكون تابعا مخلصا لسلطان المماليك ؛ إلا

(١) Wiet 1 op cit., pp. 546—547

(٢) إبراهيم طرخان : مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص ٢٢١ - ٢٢٢ .

(٣) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ١٩ - ٢٠

أن قرايلوك كان ينكت دائما بوعوده ، الأمر الذى سبب للسلطان برسباى متاعب كثيرة . ولم يلبث برسباى أن انتهى فرصة استحكام الخلاف بين دولى الشاه البيضاء والشاه السوداء وأعلن تأييده الأخيرة . وقد انتهى ذلك النزاع بتغلب دولة الشاه السوداء فتمكن زعيمها من هزيمة قرايلوك وقتله ، وعندئذ أرسل رأسه إلى السلطان برسباى سنة ١٤٣٥ فعلقها السلطان على باب دويلة وأمر بإقامة الوينيات فى القاهرة ابتهاجا بالخلاص من ألد خصومه (١) .

وفى سنة ١٤٣٨ اعتلى دست سلطنة المماليك السلطان جقمق الذى أنصف هذه بهدوء العلاقات مع التركمان فصار أمراء دغاادر ، وتدخل سنة ١٤٤٩ فى النزاع بين أبناء عثمان قرايلوك الذين دب فيما بينهم الخلاف ، وفرأ أحدهم وهو الأمير قاسم إلى السلطان جقمق فنصره وساعده (٢) . كذلك يروى السخاوى أن تركمان الشاه السوداء خطبوا ود السلطان جقمق وأرسلوا له هدية ثمينة سنة ١٤٥١ ، فقبلها السلطان وأكرم الرسل ورد على الهدية بأحسن منها (٣) . وفى العام التالى - أى سنة ١٤٥٢ - أرسل أوزون حسن - أمير الشاه البيضاء - مفاتيح آمد إلى السلطان جقمق بعد أن أنزع تلك المدينة من أخيه جهانكير الممادى لسلطنة المماليك فشكره جقمق ورد إليه المفاتيح (٤) .

على أنه يلاحظ منذ منتصف القرن الخامس عشر ازدياد المتاعب التى سببتها دول التركمان لسلطنة المماليك وذلك بسبب ظهور قوة العثمانيين وتدخلهم فى شئون الإمارات التركمانية من ناحية وفى العلاقات بينهم وبين سلطنة المماليك من ناحية أخرى . من ذلك أنه حدث سنة ١٤٥٤ أن اعتدى السلطان محمد الفاتح

(١) Wiet : op. cit., p. 565 .

(٢) السخاوى : التبر المسبوك ص ٣٠٩ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٤٤ - ٢٤٥ .

(٤) المرجع السابق ص ٣٨٤ .

العثماني على إمارة دلفادر، فأرسل أميرها إبراهيم بن قرمان مستنجدا بالسلطان إينال، فأكثرت السلطان بذلك، بسبب صلة الصداقة بين الدولة العثمانية وسلطنة المماليك عندئذ. ويبدو أن موقف إينال السلمي من أمير قرمان - وهو مغمول بالحماية المماليكية - أثار إبراهيم بن قرمان فخرج على سلطنة المماليك، الأمر الذي جعل السلطان إينال يبادر بإرسال حملتين ضده حتى تم القضاء على تلك الفتنة (١).

ولم يلبث أن اتخذ التنافس بين سلطنة المماليك من ناحية وسلطنة العثمانيين من ناحية أخرى شكل مناصرة قوة أو أخرى من القوى التركمانية الواقعة على الحدود بين دولتي المماليك والعثمانيين. من ذلك أنه حدث نزاع سنة ١٤٦٦ في إمارة دلفادر بين شاه سوار وأخيه بوداق، فناصر السلطان محمد الفاتح شاه سوار وناصرت سلطنة المماليك أخاه بوداق وكان أن انتصر شاه سوار على أخيه فغضب له في العاصمة أبلستين وأخذ يهاجم أطراف دولة المماليك، الأمر الذي أثار السلطان قايتباي وجعله يرسل حملة سنة ١٤٦٧ لتأديب شاه سوار. ولكن جيش قايتباي وانكسر كسرة شنيعة، (٢). ولم تفلح الحملة التي أرسلها قايتباي في العام التالي ضد سوار، إذ منيع بنفس المصير من الفضل والهزيمة.

ويبدو أن سوار تمادى في الاستخفاف بدولة المماليك والبحث بتحدوها فضلا عن أنه اعتدى على الدول التركمانية المحالفة لسلطنة المماليك مثل دولة بني رمضان. لذلك لم يستطع السلطان الأشرف قايتباي السكوت عن ذلك التهديد الخطير لحياة دولة المماليك، فأرسل حملة كبرى ضد سوار سنة ١٤٧٠ بقيادة الأمير عسبك الدوادار. وقد زود قايتباي قائد هذه الحملة بسلطات استثنائية واسعة ليوفر

(١) ابن أبياس : صفحات لم تنفر من ٧٣ ، ٤٧ (نشر محمد مصطفى) .

(٢) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ٣ من ١٢ (نشر محمد مصطفى) .

له إمكانيات النصر، د ففوض إليه السلطان أمور البلاد الشامية والحلبية وغير ذلك من البلاد ، وجعل له الولاية والعزل في جميع أحوال المملكة... (١).

وفعلا انتصر الأمير يشبك على شاه سوار واستولى منه على قلعة عينتاب، كما استرد منه أذنه وطر سوس ، حتى اضطر سوار إلى الاستسلام سنة ١٤٧١ . ولم يلبث أن عاد يشبك إلى مصر منتصرا ومعه سوار مقيدا في الأغلال ، وذلك بعد أن هين بوداق أميراً على إمارة دلفادر بدلا من أخيه سوار .

ومع ذلك ، فإن سلطنة المماليك استمرت تعاني كثيرا من المتاعب من جانب إمارة دلفادر ، لاسيما بعد أن خلف علاء الدولة أخاه بوداق في حكم الإمارة سنة ١٤٨٠ ذلك أن علاء الدولة وقع تحت تأثير العثمانيين وتهر يرضهم وإن كان تفوق الجيوش المماليكية على الجيوش العثمانية في ذلك الدور قد جعل علاء الدولة يلتزم بجانب الحرص في معاملاته مع دولة المماليك ويتودد إليها .

أما أوزون حسن - أو حسن الطويل - زعيم قبيلة الشاه البيضاء ، فقد استغل المتاعب التي سببها شاه سوار لدولة المماليك وأغار على إقليم حلب كما وصلت جيوشه إلى الرها ، وبعد سقوط سوار حاول إثارة أخيه بوداق ضد سلطنة المماليك لذلك بادر السلطان قايتباي بإرسال حملة بقيادة يشبك الدوادار ضد حسن الطويل سنة ١٤٧٣ (٢) . على أنه رغم الانتصارات الجزئية التي حققتها المماليك على حسن الطويل ، فإن دولة الشاه البيضاء لم تخضع في سهولة ، ولا سيما وأن الأمير خليل الذي خلف أباه حسن الطويل في حكم الشاه البيضاء سنة ١٤٧٨ لم يكن أقل عنادا . وقد حدثت في الحروب التي شنّها الأمير يشبك في شمال الشام والعراق في ذلك الدور أن أسرى يشبك نفسه وقتل سنة ١٤٨٠ . ولما سمع السلطان قايتباي

(١) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٥٩ (نشر محمد مصطفى) .

(٢) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٨٠ . ٨٦ (نشر محمد مصطفى) .

ذلك الخبر واضطربت أحواله وما جئت القاهرة عن آخرها وكان يومها مهولا^(١).
وقد بادر السلطان قايتباي بإرسال حملة للانتقام بقيادة الأمير أركك ولكن
دولة الغناء البيضاء بادرت بالاعتذار مما سلف ، ومن ثم هدأت العلاقات بين
سلطنة المماليك وتلك الدولة إلى أن التهم الأتراك العثمانيون دول التركان
ودولة المماليك جميعا .

المماليك والعثمانيون :

أما العلاقة بين سلطنة المماليك وسلطنة العثمانيين فقد بدأت أتم ما تكون
صفاء ، لاسبيا وأن الدولة العثمانية وجهت جهودها في الدور الأول من حركتها
التوسعية ضد القوى المسيحية المجاورة ، وبخاصة الدولة البيزنطية . وهو أمر قابل
بالارتياح الكبير من جانب المماليك وغير المماليك من القوى الإسلامية في
الشرق الأدنى . وزاد من ذلك القصور الودى المتبادل بين المماليك والعثمانيين
تعرض الدولتين لخطر واحد مشترك هو خطر تيمورلنك مما حتم ضرورة
الاتصال والتفاهم بينهما لمواجهة ذلك الخطر .

وثمة إشارة في المراجع إلى أن السلطان مراد الأول العثماني أرسل سنة ١٣٨٨
سفارة إلى السلطان برقوق تحمل إليه هدية وتحذره من تحركات تيمورلنك من
تعزيز نحو الغرب مما يهدد الدولتين المماليكية والعثمانية^(٢) . وإذا كان السلطان
برقوق قد أكرم وقادة رسل السلطان العثماني ، وأظهر استعدادا للتضامن معه
لصد خطر تيمورلنك إلا أنه لم يستطع أن يخفي مخاوفه من أطماع العثمانيين
وخطورتهم على مستقبل دولته ، فقال : إني لا أخاف منه (تيمورلنك) فإن

(١) ابن أبياس : بدافع الزهور ج ٣ ص ١٧٤ (نصر محمد مصطفى) .

(٢) الخطيب : نزعة النفوس والأيدان ورقة ١٦ .

كل أحد يساعدني عليه ، وإنما أخاف من ابن عثمان ، (١)

ولم تلبث الأحداث أن أثبتت صدق ظن برقوق إذ أثار بايزيد الأول العثماني على قيصرية سنة ١٣٩١ وقبض على صاحبها الذي كان مشمولاً بحماية دولة المماليك . هذا وإن كان تخوف بايزيد من خطر تيمورلنك الذي أخذ يزداد اقتراباً من حدود دولته قد جعله يسارع إلى إصلاح الأمور مع السلطان برقوق فاعتذر له عما حدث وأرسل له هدية ثمينة (٢) ويبدو أن بايزيد العثماني لم يجد له حليفاً قوياً يساعد في دفع خطر تيمورلنك سوى دولة المماليك ، فأرسل إلى السلطان برقوق يحذره من ذلك الخطر ويقول إنه وضع تحت تصرفه مائتي ألف فارس ليستعين بهم في محاربة تيمورلنك ، فضلاً عن أنه طالب من السلطان برقوق أن يرسل إليه طبيباً حاذقاً في صنعة الطب ، ليدار به . وقد قابل برقوق كل تلك العروض في حذر ، فمسكر السلطان العثماني واحتفى برسله وأوفد إليه الطبيب شمس الدين محمد بن صفيير ومعه من الأدوية والعقاقير ما يكفي لمعالجته (٣) .

ورثة مظاهر آخر من مظاهر تمسح السلاطين العثمانيين في ذلك الدور بدولة المماليك في مصر هو طلب بايزيد العثماني تفويضاً شرعياً بالسلطنة من الخليفة العباسي بالقاهرة سنة ١٣٩٤ . ومع أن سلطنة المماليك وقفت موقف المتحفظ من ذلك الطلب ، إلا أن بايزيد أرسل إلى تيمورلنك حوالى سنة ١٣٩٩ يذكره بأن الخلافة العباسية ما زالت قائمة في مصر وبأن هذه القوة الكبيرة

(١) ابن حجر : إنباء الفرج ج ١ ورقة ٣٨٥ .

(٢) ابن قاضي شعبة : ذيل تاريخ الإسلام ورقة ٦٩ .

(٣) المهریزی : السلوك ج ٣ ص ٧٠٨ .

الخطيب : نزعة النفوس ورقة ٤٥ .

كفيلة برده إذ حاول العدوان^(١) ومن جهة أخرى فإن السلطان بايزيد حرص على إرسال سفارة إلى مصر ليبشر المسلمين بانتصاره على الأوربيين في موقعة نيقوبوليس سنة ١٣٩٦ كما أرسل إلى السلطان برقوق هدية من أسرى الفرنج بلغ عددهم مائتي أسير^(٢).

على أن تلك العلاقة الطيبة بين سلطنة العثمانيين وسلطنة المماليك أضعفت من شأنها أطماع العثمانيين . وكان ذلك في مطلع عهد السلطان فرج بن برقوق عندما أغار بايزيد العثماني على أطراف دولة المماليك واستولى سنة ١٤٠٠ على ملطية ودارندة^(٣) . ولا شك في أن ذلك العدوان كان كافيا في حد ذاته لتحذير سلطنة المماليك من نوايا بني عثمان ؛ هذا وإن كان خطر تيمورلنك ظل يدفع العثمانيين دفعا إلى الاحتفاظ بود المماليك ، بدليل أن بايزيد عاد بعد قليل يطلب محالفة السلطان فرج لإقامة جهة متحدة في وجه تيمورلنك ؛ ولكن كبار الأمراء في مصر رفضوا محالفة ابن عثمان وأرسلوا إليه يدكرونه بعدوانه على ملطية . وهكذا أتت الفرصة لتيمورلنك لكي ينزل ضربته بكل من القوتين الكبيرتين في الشرق الأدنى على أفراد فرج على دولة المماليك وأزل الهزيمة بهيوشها قرب دمشق في أواخر سنة ١٤٠٠ ، كما أوقع بالسلطان بايزيد وأزل به كارثة أنقرة سنة ١٤٠٢ .

على أن وفاة تيمورلنك سنة ١٤٠٥ وتفكك دولته أتاح فرصة لدولتي المماليك والعثمانيين للتخلص من أثر الضربات التي أنزلها بهما تيمورلنك . وكان أن تجددت علاقات الود بين السلطنة العثمانية والسلطنة المماليكية ، فأرسل السلطان

(١) D'Oshson : Tableau de l'Empire Othoman, VI, p. 223 & Arnold : The Caliphate, p. 106.

(٢) ابن أفاضى شهاب ، ذيل تاريخ الإسلام ج ٢ ورقة ١٢٣ ٩

ابن حجر : إنباء الغمر ج ١ ص ٤٩٤ .

(٣) البني : عقد الجآن ج ٢٥ ورقة ٧٨ .

مراد الثاني العثماني سفارة إلى القاهرة سنة ١٤٢٣ انتهت السلطان الأشرف برسباي بالسلطنة ، ومعها هدية . وقد رد السلطان على الهدية بأحسن منها ، وإن كانت هدية سلطان المماليك لم تصل إلى السلطان العثماني بسبب وقوعها في أيدي قراصنة البحر من الأوربيين^(١) . ومع ذلك فإن هذا لم يمنع السلطان مراد الثاني من إرسال سفارة عثمانية أخرى إلى السلطان برسباي سنة ١٤٢٦ ، وقد أقامت هذه السفارة في القاهرة لحين شهدت مجيء ثالث حملات السلطان برسباي على قبرص سنة ١٤٢٧ ، وهي الحملة التي نجحت في غزو الجزيرة وأمر ملكها جانوس لوزجنان . ويبدو أن أخبار هذا النصر الذي أحرزته سلطنة المماليك أثار غيرة السلطان مراد الثاني العثماني ، فبادر في العام التالي - ١٤٢٨ - بإرسال خمسين أسيراً مسيحياً أوروبياً هدية للسلطان برسباي^(٢) .

وعند ما ارتقى جقمق دسك سلطنة المماليك (١٤٣٨ - ١٤٥٣) ازدادت الواصر الصداقة بين الدولتين العثمانية والمماليكية فتجددت المراسلات والسفارات والهدايا بين مراد الثاني العثماني وجقمق ، وحرص السلطان مراد الثاني على أن يبعث إلى مصر عدة من أسرى انتصاره على الحلف الأوربي هندقار سنة ١٤٤٤ . وقد استمرت هذه السياسة الودية قائمة بين السلطان محمد الثاني والسلطان إينال ، فاحتفلت القاهرة احتفالاً رائعاً لسقوط القسطنطينية في قبضة العثمانيين سنة ١٤٥٣ ، فزينت الأسواق والحارات وأوقدت الشموع في الفوارع والمآذن ودقت البشائر السلطانية بالقلعة عدة أيام^(٣) .

غير أنهم يكذبون للعثمانيين الاستيلاء على القسطنطينية والسيطرة على البلقان ، حتى حادوا يوجهون بهرهم تجاه الشرق بغية الاستيلاء على الأجزاء التي مارالت

(١) محمد مصطفى زيادة : نهاية السلاطين المماليك في مصر ص ٢٠٠ .

(٢) محمد مصطفى زيادة : نهاية السلاطين المماليك ص ٢٠٠ .

(٣) محمد مصطفى زيادة : نهاية السلاطين المماليك ص ٢٠٢ .

خارج قبضتهم في آسيا الصغرى . والمحروف أن الإمارات التركمانية القائمة في آسيا الصغرى وشرقها — وأهمها إمارة قرمان وإمارة دلفادر — كانت مشمولة بالحماية المماليكية ؛ فأذنر تطلع الدولة العثمانية إلى بسط سيطرتها على تلك الإمارات بصدام مقبل بين العثمانيين والمماليك . وقد اتخذ الصدام بين العثمانيين والمماليك في ذلك الدور الأول شكل قيام كل دولة بمساعدة بعض الأطراف المتنافسة على الحكم في الإمارات التركمانية ، فتساعد سلطنة العثمانيين أميراً منافساً للأمير الذى تؤيده سلطنة المماليك ، مما أوجد حالة من الصدام غير المباشر بين العثمانيين والمماليك . وازدادت العلاقة توتراً بين سلطنتى المماليك والعثمانيين عند ما رحب السلطان قايتباى بأخ صغير للسلطان بايزيد الثانى العثمانى اسمه جم ، وكان هذا الأخ قد هرب من المذبحة التى احتاد كل سلطان عثمانى أن يدبرها للتخلص من منافسيه (١) .

ولم يلبث التنافس بين سلطنة المماليك وسلطنة العثمانيين أن اكتسب شكلاً سافراً ، فأخذ السلطان بايزيد بمد يد العون للأمير علاء الدولة أمير دلفادر الخارج على سلطنة المماليك ١٤٨٣ ، وساعده بمجنود عثمانية فى الإغارة على يابطة ملطية التابعة للمماليك فى آسيا الصغرى ولم تنلح جهود السلطان قايتباى فى إصلاح العلاقات بين دولتى المماليك والعثمانيين ، بل لقد أخذت جموع من العثمانيين تتهاجم حدود الهامدون سابق إنذار . وإذا كانت جيوش المماليك قد أحرزت عدة انتصارات فى الجبهة الشمالية فى أواخر القرن الخامس عشر فإن هذه الانتصارات لم يكن لها نتيجة سوى إيفار صدر السلطان العثمانى وتحريك الرغبة فى الانتقام عنده .

وعند ما توفى السلطان قايتباى سنة ١٤٩٦ ، أرسل ابنه محمد — الذى ولى

(١) محمد مصطفى زيادة ١ نهاية السلاطين ص ٢٠٣ — ٢٠٤

السلطنة بعده - رسولا اسمه خاير بك إلى السلطان بايزيد الثاني ليعلنه نبأ سلطنته . وخاير بك هذا هو صاحب دور الحياة الذي سبق الإشارة إليه هند الكلام عن سقوط دولة المماليك ؛ وربما رجعت الخيوط الأولى لمؤامراته وخيائنه إلى ذلك الوقت الذي أوفده فيه محمد بن قايتباي إلى القسطنطينية . وفي الوقت الذي اضطربت أحوال سلطنة المماليك في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل السادس عشر نتيجة لثروة المماليك والأمراء وكثرة تنغير السلاطين والتخلص منهم بالقتل أو العزل ، كانت السلطنة العثمانية تستعد استعداداً جدياً للمعركة الفاصلة التي ستحدد مستقبل الزعامة السياسية على العالم الإسلامي في الشرق الأدنى وقد سبق أن رأينا كيف استطاع السلطان سليم الأول العثماني إسقاط سلطنة المماليك عقب موقعة مرج دابق سنة ١٥١٦ ثم موقعة الريدانية سنة ١٥١٧ .

المماليك والروم البيزنطيون :

أثبت سلاطين المماليك أنهم على جانب كبير من المهارة السياسية والقدرة على اكتساب الحلفاء في الخارج ضد أعدائهم الذين هددوا دولتهم تهديداً مباشراً في مصر والشام . وهكذا حالف المماليك مغول القفجاق ليضربوا بهم مغول فارس الذين طالما هددوا بلاد الشام . ولكن مغول فارس لم يكونوا الخطر الوحيد الذي هدد نفوذ المماليك وأمن دولتهم في بلاد الشام، وإنما كان هناك الخطر الصليبي ما زال قائماً عند قيام دولة المماليك ليمنل خطراً حقيقياً لا يستهان به .

وكان طبيعياً أن يحالف المماليك أعداء الصليبيين، مثلما حالوا أعداء مغول فارس، فلم تكمد سلطنة المماليك تقف على قدميها في عهد الظاهر بيبرس حتى أخذت تسعى للتقارب مع الإمبراطورية البيزنطية، وهي العدو التقليدي للصليبيين بالشام منذ قيام الحروب الصليبية في نهاية القرن الحادي عشر . ولم تلبث أن توطن

العلاقات بين السلطان الظاهر بيبرس والإمبراطور ميخائيل باليولوجس ، فأرسل الإمبراطور إلى سلطان المماليك يطلب منه إيفاء بطرك من الممكانيين ليرعى شئون الطائفة الممكانية في دولته. وكان أن استجاب بيبرس لرغبة الإمبراطور فأرسل إليه سنة ١٢٦٢. الرشيد السكحال - وهو أحد رجال المذهب الممكاني - محبة الأمير فارس الدين أقوش المسعودي - وهناك في القسطنطينية احتفى الإمبراطور البيزنطي بالسفارة المماليكية ، وأطلع الأمير أقوش على مسجد المسلمين الذي كان المسيحيون قد هدموه في الحملة الصليبية الرابعة والذي شرع الإمبراطور في تهيئته (١) وكان أن أسهم بيبرس في ترميم مسجد القسطنطينية فأرسل إليه الخضر العبداني والقنديل المذهبة والسطور المرقومة ، والمباخر والسجادات والعود والعنبر والممكات وماء الوردة (٢) .

ومع أن الإمبراطور أقوش المسعودي عاد من القسطنطينية يحمل هدايا الإمبراطور البيزنطي للسلطان الظاهر ؛ إلا أن الأخير استاء عند ما علم أن الإمبراطور طاق رسله أثناء سفرهم سنة ١٢٦٤ عبر بلاده إلى بركة خان زعيم مغول القفجاق . وقد غضب بيبرس لذلك الأمر وجمع رجال الدين ليشهدوا على أن الإمبراطور البيزنطي دشان الفايان ، على أن الإمبراطور ميخائيل باليولوجس لم يلبث أن استدرك غلطته في سرعة ، فأطلق رسل بيبرس وسمح لهم بالسفر إلى بركة خان وفي الوقت نفسه ، بادر بإرسال الهدايا إلى بيبرس ليسترضيه (٣) .

وقد استمرت العلاقات الودية بين سلطنة المماليك والإمبراطورية البيزنطية بعد عهد بيبرس ، إذ تروى المراجع أن السلطان المنصور قلاوون أرسل إلى

(١) المني : عقد الجمان المجلد الثالث ورقة ٤٨١

محمد جمال الدين سرور : دولة الظاهر بيبرس ص ١١٠

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٤٧١ - ٤٧٢ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٥١٤ ، ٥٣٧ .

الامبراطور ميخائيل الثامن سفارة على رأسها الأمير ناصر الدين الجزري وبطرك الأقباط حنا المابع ، وحملت تلك السفارة رسالة تفيد الإمبراطور باعتلاء السلطان قلاوون دسست السلطنة ورغبته في الإبقاء على مودة الامبراطور وصداقته . وكان أن أجاب الامبراطور ميخائيل الثامن على السلطان قلاوون مؤكدا حرصه على الصداقة بين الدولتين ويطلب منه أن يبعث إليه يمينا يتمسك بها فأرسل إليه قلاوون من حلفه على ذلك اليمين^(١) .

ولم تتغير سياسة الدولة البيزنطية تجاه سلطنة المماليك في مصر عندما اعتلى عرش الدولة الامبراطور أندرونيق الثاني سنة ١٢٨٢ ، إذ بادر هذا الامبراطور الجديد بإرسال هدية إلى السلطان قلاوون تشتمل حملا من الحرير الأطلس وأربعة أحمال من البسط ، فسر قلاوون بتلك الهدية سرورا كبيرا وغمر الرسل بالعطايا^(٢) .

والمعروف أن سلطنة المماليك بلغت أقصى درجات النفوذ والسلطان على عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون وكان طبيعيا أن يكون للدولة البيزنطية نصيب كبير من الفشاط الخارجي الضخم الذي ميز دولة المماليك في ذلك العصر . ويقال إن الإمبراطور البيزنطي أندرونيق الثاني أرسل سفارة إلى الناصر محمد سنة ١٣٠٥ تحمل هدية له وتساله إعادة كنيسة المصلبة في بيت المقدس إلى أصحابها ، وكان المسلمون قد حولوا هذه الكنيسة إلى مسجد في عهد السلطان بيبرس^(٣) . على أنه يبدو أن الناصر محمد لم يستجب في سرعة لتلك الرغبة فكرر الإمبراطور رجاءه بعد ذلك بعدة سنوات ، وعندئذ أعاد الناصر محمد تلك الكنيسة إلى المسيحيين بعد أن أفتى علماء المسلمين بأنه لا يجوز اغتصابها ، كما استجاب السلطان الناصر محمد لرغبة الإمبراطور البيزنطي في التماسح مع أهل الكتاب

(١) بيبرس الدواودة ز به الفسكرة ج ٩ ، ص ١٢٣ - ١٢٤ .

(٢) النويري : نهاية الأرب ج ٢٩ ورقة ٢٨٥ ب .

(٣) المرجع السابق ج ٣ ورقة ٢٨٥ .

وسمح لهم بإنشاء عدة كنائس في دولته^(١) . ويبدو أن الإمبراطور البيزنطي إراتاح لاستجابة السلطان الناصر محمد له ، فأرسل له هدية ثمينة من الجوخ والأطلس وغير ذلك من التحف الجميلة^(٢) .

والملاحظ أن الإمبراطور أندرونيق الثاني بالذات أظهر حرصاً شديداً على صداقة دولة المماليك ، فاستمر في إرسال الهدايا إلى السلطان الناصر محمد بين حين وآخر . ويبدو أن الإمبراطورية البيزنطية كانت تعمل حساباً في ذلك الدور لزيادة نفوذ الدول التركمانية في آسيا الصغرى مما شكل خطراً جديداً عليها ، لذلك سعى الإمبراطور البيزنطي لعمل تحالف مع سلطنة المماليك ضد التركان^(٣) . ولا أدل على حرص الإمبراطور البيزنطي أندرونيق الثاني على مسالمة سلطنة المماليك ، من أنه رفض المشاركة في تنفيذ المشروع الصليبي الذي وضعه أحد دعاة الحروب الصليبية من البنادقة - واسمه مارينو سانودو - وهو المشروع الذي استهدف خنق دولة المماليك إقتصادياً تمهيداً لاحتلالها حربياً ثم الاستيلاء على الأراضي المقدسة بالشام^(٤) .

وقد استمرت العلاقات الطيبة بين الدولتين المماليكية والبيزنطية قائمة في عصر أولاد السلطان الناصر محمد وأحفاده . من ذلك ما تشير إليه المراجع من أن الإمبراطور حنا الخامس أرسل سفارة إلى مصر سنة ١٢٦٩ لإزالة الأثر السيئ الذي تركته حملة بطرس لوزجنان على الاسكندرية سنة ١٢٦٥^(٥) .

وكان أن قامت دولة المماليك الجراكسة سنة ١٣٨٢ ، فاستأنفت علاقاتها

(١) مفضل بن أبي الفضائل : الزنج السديد ج ٣ ص ١٩٥ .

(٢) المرجع السابق : ج ٣ ص ٢٢٩ .

(٣) محمد جمال الدين سرور ، دولة بني قلاوون في مصر ص ٣٦١ .

(٤) صفيه فاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٩٨ ، ١١٩٩ .

(٥) المقريزي : السلوك ج ٣ ورقة ٦٦ (مخطوط) .

الخارجية على نفس الأسس التي اتبعتها دولة المماليك البحرية. ويقال إن الامبراطور
حننا الخامس أرسل سفارة سنة ١٣٨٥ إلى السلطان الظاهر برقوق تحمل إليه
الهدايا وتطلب منه أن يكون للبينظيين قنصل بالاسكندرية أسوة بالبنادقة ،
فأجاب السلطان الامبراطور البينظي إلى طلبه^(١) . على أن الملاحظ هو أن
الامبراطورية البينظية أخذت تتعرض لضغط شديد من جانب العثمانيين منذ
أواخر القرن الرابع عشر، وعندئذ ضعف نشاطها الخارجي وبات واضحاً أن
تلك الدولة تسير في طريقها إلى الموت البطيء . ولم يكن بوسع الأباطرة
البينظيين الاعتماد على مساعدة سلطنة المماليك أو تأييدها ضد العثمانيين لأن
المسلمين جميعاً - داخل دولة المماليك وخارجها - كانوا ينظرون إلى توسع
العثمانيين على حساب القوى المسيحية في شرق أوروبا نظرة ارتياح ويعتبرون
الفتوحات العثمانية جزءاً من حركة الجهاد الديني في ذلك الدور الأخير من العصور
الوسطى . وهكذا حتى جاءت الأخبار إلى القاهرة باستيلاء العثمانيين على
القسطنطينية سنة ١٤٥٣ ، فاحتفل السلطان إينال بذلك الحدث احتفالاً كبيراً
« ودقت البشائر بالقلعة ، وزينت القاهرة لإبتهاجاً بسقوط عاصمة الروم ،
وأرسل إينال إلى محمد الفاتح العثماني يهنئه بهذا الفتح العظيم »^(٢) .

سلطنة المماليك والقوى الأوروبية :

وأخيراً ، فإن سلطنة المماليك ربطتها علاقات عديدة - تجارية أو عدائية -
مع بعض القوى الأوروبية وبخاصة في حوض البحر المتوسط . ولم يكن
ينتظر أن من سلطنة المماليك - وهي إحدى قوى البحر المتوسط وذات السيطرة

(١) ابن خلدون : أنباء الغرجية ورقة ٢٢٣ ،

(٢) ابن بطي : صفحات لم تذكر من بدايع الزعمور ص ١٥ (نشر محمد مصطفى) .

على أهم طرق التجارة بين الشرق والغرب وصاحبة الدور الرئيسي في الحروب الصليبية في أواخر العصور الوسطى — لم يكن منتظراً من تلك الدولة أن تعيش مقطوعة الصلة بالدول الأوروبية ذات المصالح التجارية والسياسية والصليبية في البحر المتوسط .

والمعروف أن صقلية ربطتها بحكام مصر من بني أيوب علاقات ودية كانت أبرز أركانها الصداقة بين الامبراطور فردريك الثاني والسلطان الكامل الأيوبي ، وهي الصداقة التي استمرت قائمة بعد الحملة الصليبية السادسة سنة ١٢٢٨ ، واتخذت صورة هدايا وسفارات متبادلة بين الجانبين ، ولا أدل على استمرار عرى هذه الصداقة من أن الامبراطور فردريك الثاني لجأ إلى تحذير السلطان الصالح نجم الدين أيوب عندما علم بخروج لويس التاسع على رأس حملته الصليبية لمهاجمة دمياط سنة ١٢٤٨ — ١٢٤٩^(١) . ويبدو أن سقوط دولة الأيوبيين لم يغير من تلك الصداقة بين ملوك صقلية وسلاطين مصر ، إذ حرص مانفريد ابن فردريك الثاني على مصادقة سلاطين المماليك ، كما حرص سلاطين المماليك على الاحتفاظ بعلاقة الود التي ربطت مصر بمملكة الصقليتين . من ذلك ما تشير إليه المراجع من تبادل الهدايا بين مانفريد ملك الصقليتين والسلطان الظاهر بيبرس ، حتى أن بيبرس أرسل سنة ١٢٦١ وفداً برئاسة المؤرخ جمال الدين ابن واصل إلى ملك صقلية^(٢) . وكان وفد بيبرس يحمل هدية جليلة إلى مانفريد منها بعض الزراف وبعض أسرى عيون جالوت من التتار . وقد رد مانفريد على تلك السفارة بعفارة مشابهة تحمل الهدايا إلى السلطان بيبرس^(٣) . وليس هناك ما يشير إلى تغير هذه العلاقة بين ملوك صقلية وسلاطين المماليك بعد عهد

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٥٥ .

(٢) Lane-Poole : op cit. p. 266 & Enc. of Islam,

(٣) محمد جمال الدين ضرور : دولة الظاهر بيبرس ص ١١٢ .

ما انفرد وإنما استمرت العلاقات الودية بين الطرفين قائمة في عهد اليمت الانجوى الذى تولى حكم صقلية منذ سنة ١٢٦٦ . ويشير المقرئى إلى أن شارل الانجوى ملك صقلية أرسل إلى الظاهر يبرس هدية وكتاباً على لسان أحد كبار موظفيه يقول فيه : بأن محذومه أمره أن يكون أمراً الملك الظاهر نافذاً في بلاده ، وأن أكون نائب الملك الظاهر كما أنا نائبه^(١) . ويبدو أن القرض من هذا الكتاب كان عقد معاهدة تجارية بين دولة سلاطين المماليك وملكة صقلية^(٢) .

أما الجمهوريات الإيطالية التجارية - وبخاصة البندقية وجنوا - فتدبر بطناً بدولة المماليك علاقات تجارية قوية ، فكان لكل جمهورية قنصل في المدن والموانى الكبرى يرعى مصالحها . ولم يكن منتظراً من الجمهوريات الإيطالية أن تضحي بمصالحها التجارية الكبرى مع سلطنة المماليك من أجل التيار الصليبي العام ، ولذلك نسمع أن البندقية بالذات اهتزت لنبأ إغارة بطرس لوزجنان ملك قبرس على الاسكندرية سنة ١٣٦٥ وأرسلت رسالها إلى السلطان شعبان في إبريل سنة ١٣٦٦ تؤكد له أن السفن التى أغارت على الاسكندرية لا تمت إلى البندقية بصلة ، وأن البنادقة لم يساعدوا الملك بطرس ولم يشتركوا معه^(٣) .

وكان الجنوية لا يقلون عن البنادقة حرصاً على مصالحهم التجارية في مصر واستياء مما فعله ملك قبرس بالاسكندرية ، بعد أن تأثرت تجارتهم نتيجة لذلك مع جميع البلدان الإسلامية ، من ذلك ما يرويه التويرى السكندرى من أن البنادقة والجنوية قصدوا بلاد العراق برأ بعد واقعة الاسكندرية للتجارة كعادتهم .

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٥١٣
(2) Lane-Poole : op. cit., p. 266.

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور . قبرس والحروب الصليبية ص ٧١ .

فذهبهم السلطان أويس من دخول بغداد والمتاجرة بها وقال لهم «أرجعوا أولا إلى سلطان مصر واستدركوا ما أفسدتم في الاسكندرية ، وأتوني بخط ملك مصر بدخولكم تحت طاعته وحيثئذ يهيئون ببليدي ونهبنا عون منه» (١). وهكذا ألح البنادقة والجنوية في الصلح على الملك بطرس لوزجنان من ناحية وعلى سلطان المماليك من ناحية أخرى ؛ وبفضل وساطتهم تم الصلح بين الطرفين في ديسمبر سنة ١٣٧٠ ، وعندئذ أخذت التجارة تعود إلى ما كانت عليه بين قبرس والبندقية وجنوا من ناحية ومصر والشام من ناحية أخرى ؛ وأخذت سفن الفرنجة تزداد إلى الإسكندرية بكثرة «واطمأنت الناس وما فات فات» (٢).

والمعروف أن التنافس التجاري بين البندقية وجنوا انتهى في القرن الرابع عشر بتفوق البنادقة الذين احتسكروا معظم النشاط التجاري في البحر المتوسط . ولم يرض الجنوية عن ذلك الوضع فأخذوا يغيرون على موانئ وشواطئ دولة المماليك الجراكسة ، وشاركهم في تلك الإغارات بعض قراصنة القطلان والروادسة والقبارصة . ويبدو أن إغارات الجنوية على شواطئ مصر والشام اشتدت في عهدي السلطان برقوق وابنه فرج ، فهاجموا صيدا وبيروت ورشيد ودمياط ، الأمر الذي جعل السلطان برقوق يهتم بتدعيم قوته البحرية في البحر المتوسط لدفع خطر القراصنة عن شواطئ دولته من ناحية وتأديب الجنوية من ناحية أخرى . وقد حدثت عدة اشتباكات قرب دمياط بين الأسطول المماليكي والسفن الجنوية سنة ١٣٨٥ ، انتهت بهزيمة الجنوية وأسر بعضهم (٣).

(١) النويري : الإلمام بالاعلام ج ٢ ورقة ٨٢ (مخطوط) .

(٢) سعيد عاشور: قبرس والحروب الصليبية ص ٨٢ & .

النويري : الإلمام ج ٢ ورقة ٢٨٣ ب

(٣) ابن حجر : لبناء القصر ج ١ ورقة ٧٢٤

المقريزي : السلوك ج ٣ ورقة ٤١٦ .

وعلى الرغم من أن الجنوية أسرعوا إلى مصالحة السلطان برقوق سنة ١٣٨٦، إلا أنهم عادوا بعد قليل إلى أعمال القرصنة والاعتداء على سفن المسلمين في شرق البحر المتوسط من ذلك أن بعض سفن تابعة للسلطان برقوق كانت قادمة إلى مصر وعليها شحنة من الرقيق الجراكسة، فضلا عن أخذ السلطان برقوق نفسه وبعض أقاربه، ولكن الجنوية أغاروا على تلك السفن وأسروا من فيها، الأمر الذي أغضب برقوق وجعله ينتقم من التجار والقناصل الأجانب في دولته (١) ومرة أخرى عاد الجنوية إلى طلب الصلح، فأطلقوا سراح الأسرى وأرسلوا هدية إلى السلطان برقوق سنة ١٣٨٨ (٢).

وهكذا استمرت العلاقة بين سلطنة المماليك وجمهورية جنوا تتأرجح بين الصلح حيناً والعداء والحرب أحياناً. وقد حدث سنة ١٤٠١ - على عهد السلطان فرج بن برقوق - أن أغار بعض القراصنة من الجنوية على طرابلس واستولوا على سفينتين كانتا في طريقهما إلى مصر تحملاً قدر كبيراً من البضائع (٣) وبعد ذلك بهامين أعد حاكم جنوا قوة بحرية كبيرة واعتزم ضرب الاسكندرية، ولكن حملته سنة ١٤٠٣ باءت بالفشل بسبب الاحتياطات التي اتخذها السلطان فرج، ولم يستطع الجنوية بعد ذلك إعادة العلاقات الصافية بينهم وبين سلطنة المماليك (٤). وزاد من سوء العلاقات بين جنوا ودولة المماليك في أواخر القرن الخامس عشر أن جنوا مدت أطباعها إلى جزيرة قبرص واستولت على ميناء قاما جوستا فعلا في الوقت الذي كانت جزيرة

(١) ابن القرات : تاريخ الدول والملوك ج ٩ ق ١ ص ٣٣.

(٢) ابن حجر: لمباة الندرج ١ ص ٢٦٥-٢٧٤.

(٣) ابن قاضي ههبة : ذيل تاريخ الاسلام مجلد ٣ ورقة ١٩٥.

(٤) Piloti : L'Egypt au Commencement du Quinzieme.

Siecle. pp. 89-90.

قبرس تخضع لحماية سلطنة المماليك منذ أن فتحها السلطان برسباي سنة ١٤٢٦^(١).

ويبدو أن سوء العلاقات بين سلطنة المماليك وجنوا في ذلك الدور هو الذي دفع الجنوبية بالذات إلى البحث عن طريق آخر - غير طريق دولة المماليك - يوصل إلى الهند. وقد نجح الجنوبية إلى كشف بعض أجزاء الساحل الغربي لإفريقية في مواجهة جزر كنارياتما يعتبر مقدسة لليهود التي أدت إلى كشف طريق رأس الرجاء الصالح فيما بعد (٢).

* * *

وإذا كانت الجمهوريات الإيطالية قد اضطرتها ظروفها التجارية وما كان بينها من معاهدات إلى الدخول في منازعات أحيانا مع دولة المماليك فإن الوضع اختلف بالنسبة لدول أسبانيا المسيحية مثل أرغونة وقشتالة وأشبيلية . ويبدو أن حرص الدول المسيحية في أسبانيا على عدم وصول نهضات من دولة المماليك للمسلمين في أسبانيا جعل ملوك تلك الدول بسالمون سلاطين المماليك من ذلك أن جيمس الأول ملك أرغونة نودد إلى السلطان بربرس وبأدله الهدايا . وقد استمرت هذه العلاقات الطيبة قائمة بين ملكة أرغونة من ناحية ودولة المماليك من ناحية أخرى ؛ فأرسل جيمس الثاني ملك أرغونة (١٢٩١ - ١٣٢٧) عدة سفارات إلى السلطان الناصر محمد يسأله تسهيل مهمة الحجاج الذين يذهبون لزيارة بيت المقدس ، وكذلك يطلب منه تشجيع التجارة بين البلدين عن طريق رعاية تجار كل بلد في البلد الآخر . وكانت طلبات ملك أرغونة تجاب كلها لدى سلطنة المماليك مما ساعد على بقاء العلاقة طيبة بين الطرفين (٣) .

(١) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ١٢٥ - ١٢٦ .

(2) Beazley : Note Book of Middle Ages'. p. 156.

(3) Atiya : Egypt and Aragon. pp. 60-62.

كذلك تجودت الرسل والهدايا بين السلطان المنصور قلاوون من ناحية
والنفوس العاهر صاحب قهتاله (١). أما أشيلية فيروي النويرى أن صاحبها
ألفونس أرسل رسالة إلى الظاهر بيبرس يطلب صداقته ، فرد عليه بيبرس
بإرسال سفارة تحمل هدايا جميلة وقدة وبات سفارة بيبرس بالحفاوة والإكرام
في أشيلية ، وعند انتهاء مهمتها أعد لها صاحب أشيلية سفينة حملتها إلى
الاسكندرية (٢) .

وجدير بالذكر أن القوى الغربية التي طالما ناصبت ساطنة المماليك العداء
بسبب السياسة الصليبية كانت أحياناً تلجأ إلى مسالمة المماليك رغبة في التخفيف
عن أهل الذمة في مصر أو طمعاً في تحقيق سياسة الصليبيين في السيطرة على
الأماكن المقدسة عن طريق مسالمة المماليك وكسب ودهم . من ذلك أن البابا
حننا الثاني والعشرين اشترك مع ملك فرنسا شارل الرابع في إرسال سفارة إلى
القاهرة سنة ١٢٢٧ تطالب من السلطان الناصر محمد بن قلاوون معاملة المسيحيين
في دولته برفق ، حتى يمكن أن يلقي المسلمون نفس المعاملة في غرب أوروبا ،
« وأنه مهما حمل معهم (مع المسيحيين) بمصر والشام عاملوا من عندهم من
المسلمين مثله » (٣). كذلك أرسل فيليب السادس ملك فرنسا سفارة ضخمة تألفت
من مائة وعشرين رجلاً إلى السلطان الناصر محمد سنة ١٣٢٠ ، ومع السفارة
كتاب يلتمس فيه ملك فرنسا إعادة بيت المقدس وسواحل الشام إلى الصليبيين

(١) بيبرس الوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ١٢٩ .

(٢) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ ق ١ ورقة ٢٢٧ .

(٣) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٢٨٧ .

ولكن السلطان الناصر غضب لذلك الطلب وأهان سفراء ملك فرنسا وأمر
بردهم إلى بلادهم (١).

وهكذا يبدو كيف اتسع نطاق العلاقات الخارجية لسلطنة المماليك، حتى
أن بلاط سلاطين المماليك غدا مقصد الرسل والسفراء من حكام الشرق
والغرب جميعاً.

(١) النويري . نهاية الأرب ج ٣١ ورقة ١٠٤ .

الفصل التاسع

النشاط الاقتصادي

الزراعة :

اهتم سلاطين المماليك في مصر بالزراعة اهتماما كبيرا ، حيث أن الزراعة في تلك العصور كانت الحرفة الأولى لغالبية السكان والمورد الأول الذي عاش عليه معظم الأهالي. والمعروف أن أراضي مصر الزراعية توزعت في ذلك العصر لإقطاعات على السلطان والأمراء والأجناد بعد أن قسمت إلى أربعة وعشرين قيراطا ، اختص السلطان نفسه بأربعة قراريط والأمراء بعشرة، وما تبقى كان من نصيب الأجناد .

على أن الأراضي الزراعية قسمت وساحت أكثر من مرة في عصر المماليك وتبع ذلك فك الزمام وتعديله، وهي العملية المعروفة باسم الروك^(١). واشتهر في عصر المماليك الروك الحسامي الذي أجراه السلطان حسام الدين لاجين سنة ١٢٩٦ والروك الناصري الذي أجراه الناصر محمد بن قلاوون سنة ١٣١٥.

أما عن الروك الحسامي فيقال إن السلطان المنصور لاجين لاحظ أن الأمراء يأخذون كثيرا من إقطاعات الأجناد ولا يدفعون عنها الحقوق والمقررات الديوانية ، مما يجعلهم مغنا لأعوانهم ومستخدمهم لذلك ندب السلطان لاجين الأمير بدر الدين بيليك الفارسي الحاجب والأمير بهاء الدين قرافوش الظاهري وجماعة من الكتتاب على رأسهم تاج الدين عبد الرحمن الطويل مستوفي الدولة، لروك

(١) القلشندي : صبح الأعشى ج ٢ ص ٤٣٢ .

أراضي مصر . وبعد أن قام هؤلاء بفك زمام الأراضي المصرية وتعديله وزعت الوثائق الخاصة بحدود الإقطاعات على الأمراء والأجناد سنة ٩٢٩٨ (٥٩٩٧ هـ) (١) .

على أن توزيع الأراضي المصرية لم يلبث أن تعرض للتغيير والتبديل ، الأمر الذي جعل السلطان الناصر محمد بن قلاوون يلجأ في سلطنته الثالثة إلى فك زمام الأرض وتوزيعها من جديد وهي العملية المعروفة بأمر الروك الناصري سنة ١٣١٥ (٥٧١٥ هـ) . وقد عهد السلطان الناصر محمد إلى بعض أمرائه بهذه المهمة ، فأرسل جماعة من أمرائه إلى كل جهة من جهات البلاد ، في حين توجه السلطان الناصر نفسه إلى الصعيد ليشرف على العملية التي استغرقت خمسة وسبعين يوماً (٢) .

وانقسمت الأراضي الزراعية في مصر إلى أقسام حسب جودتها وما يتبع ذلك من قيمة محصولها . وأهم هذه الأقسام هي :- (٣) .

١ - الباق ؛ وهو خير الأراضي وأعلاها قيمة وأوقاها سعرا ؛ لأنها تصلح لزراعة الكتان والقمح ، وكان يؤجر الفدان منه بأربعين درهما وذلك سنة ١٣٨٨ م .

٢ - البرائب ؛ وسعرها دون الباق لضعف الأرض وتصلح لزراعة القرط والمقاتي ، ويؤجر الفدان منها بثلاثين درهما .

٣ - البرش ؛ وهو عبارة عن كل أرض خلت من أثر ما زرع فيها للسنة الماضية .

(١) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٨٤٢ — ٨٤٤ .

(٢) النويري : نهاية الأرب ج ٣٠ ص ٩١ .

(٣) محمد جمال الدين سرور : دولة بني قلاوون في مصر ص ٢٩٢ — ٢٩٣ .

٤ — الوسح ، وهو عبارة عن الأرض التي استحکم وسخها ولم يتمكن المزارعون من إذاتته ، بل حرثوها وزرعوها . فجاء زرعها مختلطاً بالخلفاء ونحوها .

٥ — الحرس ؛ وهو عبارة عن الأرض التي فسدت بما استحکم فيها من موانع قبول الزرع واستخدم مراعى للدواب .

٦ — الشراق ؛ وهو الأراضي التي لا يصل إليها الماء لقصور النيل أو علوها أو لسد طريق الماء عنها .

٧ — المستبحر ؛ وهو الأرض الوطئة التي إذا سار فيها الماء لا تجد مصراً له .

٨ — السباخ ؛ وهو الأرض التي غلب عليها الملح ، فأصبح لا ينفع بها في زراعة الحبوب . وقد يزرع فيها الباذنجان والقصب الفارسي .

ويبدو أن محصول الأرض الزراعية في مصر إزداد على عصر المماليك نتيجة للعناية بمراعى الزراعة من جمصور وترع ومقاييس النيل وغيرها . وقد قسم القلقشندي الجمصور في ذلك العصر إلى نوعين : الجمصور السلطانية ، وهي الجمصور العامة الجامعة للبلاد الكثيرة التي تعمرفي كل سنة من الديوان السلطاني بالوجهين القبلي والبحري . والجمصور البلدية وهي الخاصة ببلد دون بلد ويتولى عمارتها المقطعون بالبلاد من الأمراء والاجناد وغيرهم ، من أموال البلاد الجارية في إقطاعهم ^(١) .

وقد بلغ من عناية سلاطين المماليك بالجمصور أنهم كانوا يرسلون في كل سنة ممدداً من الأمراء إلى مختلف الأعمال لمهارة الجمصور ، ويعبر عن الأمر منهم باسم

(١) القلقشندي صبيح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٨ — ٤٤٩ .

وكاشف الجسور ، كما كان د للجسور خولة ومهندسون لكل عمل ، يقومون في خدمة الكاشف في عمارة الجسور إلى أن تنتهي عمارتها (١) . فإذا عاد الأمر للمعينون لكشف جسور الوجهين القبلي والبحري من مهمتهم خلع عليهم السلطان تقديراً لأهمية العمل الذي همضوا به (٢) . وعرف عن بعض سلاطين المماليك أنهم كانوا يخرجون بأنفسهم أحياناً للتفقد أحوال مرافق الزراعة وبخاصة الجسور . من ذلك ما يرويه المقرئ من أن السلطان الناصر محمد ما كاد يسمع بتسريق بعض الجهات قرب شبين حتى سار بنفسه سنة ١٣٣٦ (٥٧٣٧ هـ) ومعه بعض المهندسين لكشف تلك النواحي ولم يلبث أن أمر السلطان الناصر محمد ببناء جسر يمتد من شبين القصر إلى بناها العسل ، وجمع له اثني عشر ألف رجل ليعملوا على إنجازه ، ثم أقام به عدة قناطر وبذلك أمكن وصول المياه إلى الأراضي المرتفعة بتلك الناحية (٣) .

* * *

أما عن أهم الحاصلات الزراعية في مصر في ذلك العصر ، فمنها القمح الذي كان محصوله يفيض عن حاجة البلاد أحياناً وعندئذ كان السلاطين يمدون بلاد الشام والحجاز والنوبة بمقادير وفيرة منه ، كذلك كان الكتان من أهم مزارعات مصر في عصر المماليك وكانت تصدر كميات كبيرة من المنسوجات الكتانية إلى البلاد المجاورة . واشتهرت مصر في ذلك العصر بزراعة قصب السكر - لاسيما في مناطق ملوى وقنط ونجع حمادى - ، هذا عدا أنواع الفواكه والخضروات لسد حاجة السوق المحلية (٤) . هذا كله فضلا عن الزهور والرياحين

(١) المرجع السابق ج ٤ ص ٤٤٩ .

(٢) المقرئى : السوك ج ٢ ص ٧٢٠ ، ٧٢٤ .

(٣) المقرئى : المواعظ ج ٢ ص ١٦٩ - ١٧٠ .

(٤) المقرئى : الخطوط ج ١ ص ٢٠٣ - ٢٠٤ .

التي زرعت في الحدائق والبساتين (١).

وأدت الأراضي الزراعية ضريبة الخراج للدولة، واختلف ذلك باختلاف البلاد، فأكثر خراج الوجه القبلي كان عيناً من قمح وشعير وسمن وفول وعدس وتحوها، وكان يؤخذ في الغالب عن خراج كل فدان من هذه الأصناف ضريبة تتراوح بين أردبين وثلاثة. أما الوجه البحري فكان أغلب خراج بلاده نقداً وليس فيه ما خراج بلاده عيناً إلا القليل (٢). ولما كان هناك تفاوت بين السنة القمرية المعتمدة عليها في استخراج الخراج والسنة الشمسية التي تضبط بها الزروع والثمار ومواعيد استحقاق الجباية — لذنقص السنون القمرية عن السنين الشمسية سنة تقريباً كل ثلاث وثلاثين سنة — فإن النظام الخراجي كان يقتضى تقديم السنة الهلالية سنة كلما انقضت ثلاث وثلاثون سنة منها، وهذا هو السر في تلك الإشارات التي نجدناها في المراجع المعاصرة فيقول المقرئ مثلاً في حوادث سنة ٨٦٩٧ د وحولت سنة ست وتسعين إلى سنة سبع وتسعين على العادة (٣).

* * *

وبالإضافة إلى الثروة الزراعية على السلاطين في عصر المماليك بالثروة الحيوانية فأكثروا من نتاج الأغنام وجلب الأنواع الممتازة منها لزيبتها حتى ازداد عدد المواشي وارتفعت سلالتها. ويقال إن السلطان الناصر محمد بن قلاوون قام بمشروع هام للعناية بالثروة الحيوانية، إذ بنى حظيرة على قطعة أرض بجوار قلعة الجبل وأجرى إليها الماء من القلعة وأنشأ بها بيوتاً للدواجن وأخرى للأغنام والمواشي؛

(١) القلشندي : صبح الأعشى ج ٢ ص ٤٥٠ - ٤٥١

السيوطي : حسن المحاضرة ج ٣ ص ٢٥٠ - ٢٥٢ .

(٢) القلشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٩ - ٤٥٠ .

(٣) المقرئ : السلوك ج ١ ص ٨٤٥ وكذلك حاشية ١ في نفس الصفحة

القلشندي : صبح الأعشى ج ١٣ ص ٥٠٤

ثم أودع بها ألني رأس من الضأن بعث في طلبها من بلاد الصعيد وأربعة آلاف من الوجه البحرى، فضلا عن عدد كبير من البقر^(١). هذا إلى أن عناية الناصر محمد بإنتاج المواشى والأغنام لم تقتصر على المناطق القرية من عاصمته، وإنما صار يتتبع مراعيها في عيذاب وقوص وغيرها من أنحاء البلاد، كما كان يبعث في طلب الأغنام الممتازة من بلاد النوبة والدين^(٢).

على أن هذه العناية بالزراعة ومرافقها في عصر المماليك لا تغنى بأى حال تقدم أحد الفلاحين أو ارتفاع مستوى معيشتهم فالفلاح المصرى عاش في ذلك العصر قنا مربوطاً إلى الأرض التى يفلحها ويفنى حياته في خدمتها وليس له من خيراتها إلا القليل. ذلك أن خيرات البلاد ومحصولات الأراضى الزراعية كانت في الواقع خبأ موزعاً بين السلاطين والأمراء ومماليكهم، في حين لم يبق للفلاحين سوى الكد والعمل ودفع ما يطلب منهم من أموال وهم صاغرون. ويذكر الشربيني أن الفلاح في آخر ما كوله كان لا يتناول إلا الشعير والحب القريش والبصل^(٣). ولا عجب، فإنه الغلال معظمها لأهل الدولة أولى الجاه وأرباب السيوف الذين تزايدت في الذات رغباتهم، نقربت معظم القرى لموت أكثر الفلاحين وتشردهم في البلاد ..^(٤).

الصناعة :

أما الصناعة فقد ازدهرت في عصر المماليك نتيجة لوفرة الثروة والمعروف أن الصانع أو الفنان يحاول دائماً أن يرقى بإنتاجه إذا اطمأن إلى أنه سيجنى في

(١) محمد جال الدين السرور : دولة بني لاوت في مصر ص ٢٩٤ .

(٢) المقرئى : المواظ ج ٢ ص ٢٢٩ .

(٣) الشربيني : هن القهوف في شرح قصيدة أبى شادوف ص ٤٥٩ .

(٤) المقرئى : لغات الأمانة ص ٣٦ ، ٤٦ .

النهاية تمن أتعابه ويتقاضى جزاء يناسب ما يبذله من جهد ووقت ومن ناحية أخرى فإن المستهلك إذا عظمت ثروته وفاضت عن مطالبه الأساسية، فإنه يفكر في اقتناء الكماليات ولا يرضى بما يبذله في شراء التحف والحصول على النفائس. وكان هذا الوضع الذي أثر في ارتفاع الصناعة والصناع على عصر المماليك، عند ما فاقت الخزان بالثروة العظيمة، فانعكس أثر ذلك فيما خلفه ذلك العصر من مصنوعات راقية، بلغت شأوا بعيدا في الدقة والإتقان^(١).

وقد رأينا في صفحات هذا الكتاب السابقة أن دولة المماليك كانت دولة حربية بكل معاني الكلمة، قامت وليدة المعركة الصليبية في أرض المنصورة، وأثبتت جدارتها في ساحة الحرب ضد التتار والصليبيين في الشام، واستمدت بقاها من نجاحها في الدفاع عن مصر والشام ضد الأخطار الخارجية الكبرى التي هددهما في ذلك الدور الهام من العصور الوسطى ... هذا إلى أن المماليك أنفسهم من سلاطين وأمراء وأجناد كانوا يمثلون طبقة حربية تعتمد على الفروسية ويستطيع كل فرد فيها أن يصل إلى أعلى الدرجات ويحقق أخصم الأمال بفضل مهارته في القتال واستعمال القوس والنشاب والحرية.

لذلك لا عجب إذا احتلت الصناعات الحربية مكانا بارزا في النشاط الصناعي لدولة المماليك. وقد وجد بالقاهرة في ذلك العصر سوق كبير اسمه سوق السلاح ذخير بالأسلحة المتنوعة وبالصناع الذين كانوا يصنعونها فإذا حدثت فتنة أو تشبه حرب هرع الأمراء والجنود إلى ذلك السوق وعندئذ يرفع سعر الحديد وأجور الحدادين وصناع آلات السلاح، لإقبال الناس على شرائه^(٢).

ويرتبط بالصناعات الحربية صناعة السفن، إذ هرص سلاطين المماليك

(١) سقيفة عبد الفتاح عاكفوف: عصر في عصر دولة المماليك البحرية ص ٢٥٠

(٢) المقرئى: الملوك: ج ١ ص ٥١٢
(١٩) = العصر المملوكي

على إنشاء أسطول بحرى قوى يحمى شواطئ دولتهم الواسعة ويصد غارات المعتدين ويؤدب القراصنة الذين دأبوا على مهاجمة السفن الإسلامية فى البحر المتوسط وقد عنى السلطان الظاهر بيبرس عناية كبيرة بدور صناعة السفن فى الروضة والإسكندرية ودمياط، فكان يتفقد أمورها بنفسه « ويرتب مايجب تربيته » ، ومنع الناس من التصرف فى أخشاب السفن^(١) . ومثل ذلك يقال عن السلطان الأشرف خليل قلاوون الذى عنى - أثناء حكمه القصير - بإنشاء أسطول قوى عهد بإعداده إلى الوزير صاحب شمس الدين بن السلجوس؛ حتى إذا ما بلغت عدة ذلك الأسطول ستين مركباً ، أمر السلطان بتجهيزها بالآلات الحربية والرجال واستمرضها فى جزيرة الروضة فى يوم حافل مشهود^(٢) .

وكانت السفن الحربية على أنواع منها الشوانى والحراريق والطرائد . أما الشوانى فكانت أعظمها شأنًا وهى مراكب حربية كبيرة أقيمت فيها أبراج وقلاع للدفاع والهجوم، وتكونت هذه الأبراج من عدة طبقات تقف فى الطبقة العليا منها المساكن المسلحة بالآقواس والسهام والحراب ، وفى الطبقة السفلى الملاحون بالمجاديف . وكانت الحراريق أقل حجماً ، وهى بمثابة ناقلات الجنود والذخيرة فكان يحمل فيها المشاة المقاتلون فضلاء عن الذخيرة والبارود والنفط . أما الطرائد فهى السفن الخاصة بحمل الخيل ، وكانت تتسع لنحو أربعين فرساً وأحياناً لثمانين فرساً^(٣) . وكانت السفن الحربية فى مصر تصنع على صنفين ، فبعضها كانت تحكم أجزاؤه بمسامير ، ومن هذا النوع السفن المستخدمة فى البحر المتوسط ، والبعض الآخر كانت تضم أجزاؤه بأحبال اللبف . أما الأخشاب

(١) المزينى : المواظ ج ٢ ص ١٩٤ ، ١٩٧

السلوك : ج ١ ص ٤٤٧ هـ

(٢) المزينى : المواظ ج ٢ ص ١٩٤ — ١٩٥

(٣) محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاوون ص ٢١٥ هـ

اللازمة لصناعة السفن فكانت تستورد من بلاد الشام وآسيا الصغرى أو من غرب أوروبا عن طريق تجار البندقية. وأحياناً استخدمت الأخشاب المحلية مثل خشب السنط والنبج في صناعة السفن^(١).

هذا عن الصناعات الحربية ، أما الصناعات المدنية فكانت عديدة وعلى جانب كبير من الرقي في عصر المماليك ومن أهم هذه الصناعات صناعة المنسوجات المتنوعة ، حتى غدت لمصر في ذلك العصر شهرة خاصة في صناعة أنواع معينة من المنسوجات مثل قماش الفستيان نسبة إلى الفسطاط والقماش الديبقي نسبة إلى دبيق^(٢). هذا فضلاً عن اشتهار لنيس - قرب الفرما - بصناعة قماش رقيق سمي القصب صنعت منه عمامة الرجال وملابس النساء وكذلك اشتهرت دمياط بصناعة أقمشة من التيل ذات عدة ألوان بحيث يتغير لونها باختلاف الضوء الواقع عليها^(٣).

وسواء كانت الأقمشة التي صنعت في مصر في عصر المماليك من الحرير أو القطن أو الصوف أو الكتان ، فإنها امتازت جميعاً بدقة الصناعة وثبات الألوان وجودة الحامة ومثانة النسيج ، كما تشهد على ذلك قطع المسيح المتبقية من ذلك العصر^(٤). وبالإضافة إلى أقمشة الملابس العادية ، وجدت مصانع خاصة تسمى دور الطرز تصنع فيها الخلع التي يمنحها السلاطين لكبار رجال الدولة وموظفيها وتنقش عليها أسماء السلاطين وألقابهم ، كذلك اشتهرت مصر في ذلك العصر بصناعة الفرش والستور والحياض والفساطيط والحبال المكمورة بالفطن والحرير

(١) آدم مينز : الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٣٩٢

المقريزي : المواعظ ج ١ ص ٢٠٤ .

(٢) القليشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٧٢ .

(٣) محمد جمال الدين مرور : دولة بنى فلول ص ٢٥٥ .

(٤) زسى محمد حسنى : أطلال الفنون الزخرفية والتصاوير الإسلامية ص ٢٠٠

ولم تكن العناية بصناعة المعادن في عصر المماليك أقل منها بصناعة المنسوجات، فاستخدم النحاس بصفة خاصة في صناعة الثريات والأواني المنزلية والأباريق والصحون والطسوت وغيرها، كذلك استخدام النحاس في عصر المماليك في تغطية بعض أبواب المساجد وقصور السلاطين والأمراء. وكان النحاس عند استخدامه في هذا الغرض يعد على هيئة صفائح رقيقة مقسمة إلى أشكال هندسية بديعة المنظر^(١)، وما زال بدار الآثار العربية بالقاهرة باب من مصراعين مصفحين بصفائح من النحاس منقوشة برسومات عربية رائعة تتخللها كتابة بالنسخ الجميل، وهذا الباب كان لأحد أمراء السلطان قلاوون.

وانتشرت في عصر المماليك صناعة تكفيت (تطعيم) البرونز والنحاس بالذهب والفضة، واشتهرت بهذه الصناعة سوق الكفيتين بالقاهرة. ويشهد المقرئ على أن المعاصرين كانت لهم في النحاس المكفيت رغبة عظيمة... فلا تكاد دار تخلو بالقاهرة ومصر من عدة قطع نحاس مكفيت^(٢). كذلك عني المصريون في عصر المماليك بصياغة الذهب والفضة، فأكثروا من صنع الأواني والحلى الذهبية والفضية، وزينوها بكثير من النقوش والكتابات. أما الحديد فلم تكن مصر مركزاً مهماً لصناعته في ذلك العصر، ولذا استوردت مصر كميات من الأدوات الحديدية من أوروبا. ومع ذلك فقد أجاد العمال المصريون في ذلك العصر صناعة بعض أنواع الأسلحة والدروع، فضلاً عن التماثيل والآقفال والمفاتيح^(٣).

وازدهرت صناعة الزجاج في مصر في العصر المماليكي، وكان أهم مراكزها القباطية والفيوم والأشهرين والإسكندرية. ويشهد بذلك أعداد المشكوكات

(١) ذكرى محمد حسن : فنون الإسلام من ١٩٥٥ :

(٢) المقرئ : المواعظ ج ٢ ص ١٠٥ (بولاق) :

(٣) تقييد عاشور : مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص ٥٠٥ :



ميترة من عصر الماليك مصنوعة من النحاس المكفت بالذهب والفضة
ولها غطاء على شكل قبة

عدة معاصر^(١) . ومن الواضح أن هذه المعاصر التي انتشرت في كافة أرجاء البلاد في عصر المماليك ، أنتجت كميات ضخمة من السكر ، يدل عليها ما تشهده إليه المراجع من كثرة استهلاك السكر في عمل الحلوى في ذلك العصر ، حتى أن استهلاك السكر على أيام الناصر محمد بلغ في شهر رمضان وحده (سنة ٧٤٥هـ) ثلاث آلاف قنطار قيمتها ثلاثون ألف دينار ، منها ستون قنطارا لكل يوم من أيام رمضان برسم الدور السلطانية^(٢) .

هذا عن الصناعة ، أما الصنائع وأصحاب الحرف فقد خضعوا في عصر المماليك لنظام النقابات ، فكان أفراد كل حرفة يكونون نقابة خاصة بهم لها نظام ثابت يحدد عددهم ومعاملاتهم فيما بينهم وبين بعض من ناحية ، وفيما بينهم وبين الجمهور من ناحية ثانية ، وفيما بينهم وبين الحكومة من ناحية ثالثة ولكل نقابة من هذه النقابات رئيس أو شيخ يرأسهم ، يفض مشاكل أفراد النقابة ويرجعون إليه في كل ما يهمهم . ولما كان دخول أى فرد غريب في حرفة من الحرف يؤدي إلى منافسة أصحابها الأصليين ، فإنهم كانوا لا يبرنون أحدا على طرق صناعتهم ، إلا أن يكون من أبنائهم ولا يسمحون لأى شخص في مشاركتهم إلا أن يكون قد أتى ليحل محل أحدهم ، وفي هذه الحالة يقبل بشروط خاصة .

التجارة الخارجية :

شاءت الظروف أن يكون قيام دولة المماليك في مصر والشام في منتصف القرن الثالث عشر مصحوبا بأزدهار طريق البحر الأحمر وموانئ مصر ، واضمحلال ماعداه من طرق التجارة الرئيسية الأخرى بين الشرق والغرب . ذلك أنه لم

(١) المقرئى : المواظ ج ١ ص ٢٠٤ .

(٢) المقرئى : المواظ ج ٢ ص ٢٣١ .

(٣) سعيد طاشور : المجتمع المصرى في عصر سلاطين المماليك ص ٣٦ - ٣٧ .

يكدمضى على قيام دولة الممالك سنوات معدودة حتى استولى المغول على بغداد سنة ١٢٥٨ ، وامتد نفوذهم إلى الشام وآسيا الصغرى . فضلاً عن بلاد فارس التى اتخذها هولاء مركزاً لدولته فى الشرق الأوسط ؛ وبذلك اضمحل طريق التجارة البرى بين الصين من جهة وآسيا الصغرى وموانى البحر الأسود من جهة أخرى .

وقد قام ماركو بولو برحلة شهيرة إلى الشرق الأقصى فى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى ، فأشار إلى ما ترتب على غزوات المغول من انعدام الأمن فى ذلك الطريق واعتداء اللصوص على القوافل والتجارة^(١) . وكان ذلك فى الوقت الذى قل لإقبال السفن التجارية الآتية من الشرق الأقصى على الخليج الفارسى بسبب ازدياد نشاط القراصنة من سكان جزر البحرين فى ذلك الخليج ومن ثم تحولت السفن التجارية إلى اليمن وميناء عدن بالذات .

على أن ملوك اليمن أظهروا تعسفاً كبيراً مع التجار ، فلم يكتفوا بفرض الضرائب الباهظة على ما يحملونه من بضائع ؛ بل لجأوا إلى استخدام القسوة فى معاملة التجار ، حتى صار من التقاليد المروعة عند وصول إحدى السفن التجارية إلى عدن أن يصعد عمال ملك اليمن إليها وينزعوا فلاعها ودفتها ومرساتها حتى لا يمكنوها من الإبحار قبل أن تدفع الأموال والضرائب المستحقة عليها . أما التجار أنفسهم فكانوا يفتشون نفثهما دقيقتاً قبل أن يسمح لهم بالنزول من السفن إلى الميناء ؛ وبلغ من دقة هذا التفتيش وقسوته أنه تناول العمامة والشعر والكفين وحرمة السراويل وتحت الأباط . كذلك وجدت عجوز تفتش النساء وتضرب بيدها فى أعجازهن^(٢) . فإذا ما أتم التاجر إزال بضاعته ودفع ما عليها من

(1) Marco Polo : Travels (vol ,) pp : 107-108 .

(٢) أبو محمد عبد الله بن محمد : تاريخ نجر ، عدد ج ١ ص ٥٨ .

ضرائب وتسويقها ، أخذ يتأهب للعودة من حيث أتى ، فيطوف المندى في طرقات عدن ويeman في الأسواق أن التاجر الفلاني سيغادر الميناء فن له عليه دين أو مال فليطالبه به ، وإن لم يظهر للتاجر دائن يسمح له بالرحيل^(١). وهنا يجدد أن نلاحظ أنه لم يسمح للسفن التجارية الوافدة من الشرق الأقصى سواء كانت من الهند أو الصين أو جزر الهند الشرقية - بتخطى عدن شمالا في البحر الأحمر ؛ وإنما كانت رحلاتها تنتهى عند عدن ثم تفصل راجعة من حيث أتت ، في حين جرت العادة بنقل البضائع من عدن شمالا إما بطريق القوافل في شبه الجزيرة العربية وإما بطريق السفن الإسلامية ، إلى موانئ مصر والحجاز .

وهكذا ترتب على اضمحلال طرق التجارة الآسيوية في القرن الثالث عشر انتعاش طريق البحر الأحمر - مصر ؛ الأمر الذى أتاح لسلطين المماليك في مصر فرصة ذهبية للإفادة من القيام بدور الوسيط - بين تجار الشرق وتجار الغرب . وإذا كان السلطان الظاهر يبهرس قد شغل بالأعمال التأسيسية اللازمة لحفظ كيان دولة المماليك الناشئة وحمايتها من الأخطار الخارجية والداخلية التى تهددتها ؛ فإن السلطان المنصور قلاوون (١٢٧٩ - ١٢٩٠) عمل على تنشيط التجارة في البحر الأحمر بمختلف الطرق . من ذلك أن السلطان قلاوون أخذ يتوود إلى القوى الإسلامية الواقعة في حوض البحر الأحمر ويحسن علاقته بحكامها ، فأرسل إلى الملك يوسف الأول ابن عمر ملك اليمن يسأله ويعاهده على التحالف والمودة ، بعد أن كان يبهرس قد امتن ملوك اليمن وأهائهم . وعندما وصلت رسل ملك اليمن إلى مصر ، حرص قلاوون على إكرامهم وأرسل معهم الهدايا والتحف إلى ملك اليمن^(٢) . ومثل ذلك يقال عن سياسة قلاوون تجاه ابن تيمى شريف مكة .

على أن جعل مصر حلقة الوصل في النشاط التجارى بين الشرق والغرب

(١) المرجع السابق ص ٦٧ - ٦٨

(٢) المفرنزى : السلوك ١ - ص ٥٨١ ، ٢٠٢

كان يتطلب أمرين : أولهما تأمين طرف التجارة داخل مصر ذاتها حتى تصل البضائع سليمة من موانئ البحر الأحمر - وبخاصة عيذاب - إلى موانئ البحر المتوسط ، وبخاصة دمياط والإسكندرية . وثانيهما إغراء تجار الشرق على جلب بضاعتهم إلى موانئ مصر المطلّة على البحر الأحمر ، ثم إغراء التجار الأوروبيين على التردد على الإسكندرية ودمياط لشراء ما يلزمهم من حاصلات الشرق .

أما عن الأمر الأول فإن السلطان قلاوون ومن خلفه من سلاطين المماليك حرصوا على أن يضربوا بيد من حديد على العابثين والمعتدين على قوافل التجارة بين النيل والبحر الأحمر ، وبخاصة قبائل الأعراب الذين سكنوا تلك الجهات والذين اعتادوا حياة السلب والنهب ، حتى أن قوافل الحجّاج نفسها لم تسلم من عبثهم^(١) . ويروى المقرئى أنه عندما اشتد القتال في صحراء عيذاب سنة ١٢٨١ بين عرب جهينة وعرب وفاقة ، أمر السلطان قلاوون الشريف علم الدين صاحب سواكن د بأن يوفق بينهم ولا يعين طائفة على أخرى ، خوفاً من فساد الطريق^(٢) .

وأما عن الأمر الثانى فإن السلطان قلاوون أرسل إلى نوابه بالنفور بأمرهم بحسن معاملة التجار وملاطفتهم والتودد إليهم وترغيبهم ، ومراعاة العدالة فيما يجبونه منهم من أموال بحيث لا يأخذون منهم سوى الحقوق السلطانية^(٣) . وقد أورد القلقشندى بعض رسائل صادرة من سلاطين المماليك لناظر نفير الإسكندرية ، وفيها يأمر السلطان ناظر النفير بحسن معاملة التجار الواردين إليه بالعدل والرفق... فلزمهم هدايا البحور ودواب النفور، ومن ألسنتهم يطلع

(١) المقرئى : السلوك ج ٤ ص ٨٥٨ - ٨٥٩ (مخطوط) .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٧٠٠ .

(٣) تاريخ ابن القرات ج ٧ ص ١٩٨ .

ما تجننه الصدور ؛ وإذا بذر لهم حب الإحسان نشروا له أجنة مراكبهم كالطيور... (١) . ولا شك في أن أمثال هذه الوصية إنما كان يوجهها سلاطين الممالك إلى عمالهم بمختلف الثغور المصرية التي يرد إليها التجار من المشرق والمغرب جميعا .

كذلك كتب السلطان قلاوون منشورا إلى التجار الذين يقدون على مصر من الصين والهند والسند واليمن والعراق وبلاد الروم... يرحب بهم ويصف لهم محاسن مصر ويفرهم على القدوم إليها بمناجرهم ومن يؤثر الورد إلى ممالكنا إن أقام أو تردد... فليعزم عزم من قد راق له في ذلك الخير والخيرة ، ويحضر إلى بلاد لا يحتاج ساكنها إلى ذخيرة ، لأنها في الدنيا جنة عدن لمن قطن ، ومسلة لمن تغرب عن الوطن... فن وقف على مرسومنا هذا من التجار المقيمين باليمن ، والهند ، والصين والسند ، وغيرهم ، فلما أخذ الأهمية في الارتحال إليها والقدوم عليها ، ليجد الفعال في المقال أكبر ، ويرى إحسانا يقابل في الوفاء بهذه العهود بالأكثر... (٢) .

وفي الوقت الذي دأب سلاطين الممالك على تشجيع تجار الشرق الأقصى بوجه خاص على الحضور ببضائعهم إلى مصر ، حرصوا أيضا على الترحيب بالتجار الأوروبيين الذين يقدون إلى الاسكندرية ودمياط لغراء حاصلات الشرق . ولا أدل على اتساع أفق سلاطين الممالك ورغبتهم الأكيدة في الاستفادة من موقع مصر التجاري ، من أنهم فرقوا بين الدين والتجارة ، فقدموا كافة التسهيلات للتجار الغربيين في الوقت الذي كانوا يحاربون الصليبيين — ومن خلفهم الغرب الأوربي .

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ١١ ص ٤٢١ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ١٣ ص ٣٤٠ — ٣٤١ .

وقد ترتب على تشجيع سلاطين المماليك للتجار الأوربيين على القدوم إلى مصر أن كثرت عددهم ، فذكر البلوى المغربي في رحلته أنه رأى بمصر سنة ١٣٣٦ أناسا كثيرين من مختلف الأجناس^(١) . بل إن بعض الباحثين الأوربيين قدروا عدد الأجانب في الإسكندرية وحدها في أوائل القرن الرابع عشر الميلادي بحوالي ثلاثة آلاف تاجر أوربي^(٢) . ومن الواضح أن هؤلاء التجار الأوربيين فضلوا دائما الإقامة بالمدين التجارية والثغور على شاطئ البحر المتوسط مثل الإسكندرية ودمياط^(٣) . وكان لكل جالية من هؤلاء الأجانب فصل يشرف على شئون أفراد الجالية ومصالحهم وإذا ما حدث من طائفة أحد ما يشين الإسلام يطلب منه الكف عن ذلك ،^(٤) كذلك اتخذت كل جالية لنفسها فندقا أو أكثر ينزل فيه أفرادها . وقد زار مصر سنة ١٣٩٥ أمير فرنسي فحكى الكثير عن فنادق البنادقة والجنوية والسكرتلان والقبارسية وأهل نابل وأهل كريت وأهل مرسيليا وغيرهم^(٥) . ورنبت أمور هذه الفنادق بحيث تكون لكل منها إدارة مستقلة ، على رأسها مدير يدير شئون الفندق . وعند وصول تاجر أجنبي إلى الثغر ، تفتش أمتعته بدقة وعناية ، ويطلب منه دفع ٢٪ من قيمة ما معه من ذهب وعملة نقدية ؛ وبعد ذلك يقصد فندق جاليته حيث يضع بضائعه ويجتمع بمواطنيه وأبناء بلده ويستطيع أن يعيش وفق النمط الذي اعتاده في بلاده . ذلك الفندق احتوى جميع ما احتاجه التاجر الأجنبي من مأوى وكنيسة ومخبز وحمام^(٦) .

(١) رحلة البلوى المغربي ورقة ٤٤ ا (مخطوطة) .

(٢) Kammerer : Le Regime et le Status des Etrangers en Ehypte ; p. 17 .

(٣) Schefer : Le Voyage d'Outremer , p. 122 .

(٤) خليل بن شامين : زبدة كشف الممالك ص ٤١ .

(٥) Schefer : Le Voyage d'Outremer . p. 122 .

(٦) Kammerer : op. cit. p. 20 .

ثم إن التجار الأوربيين تمتعوا داخل فنادقهم بقسط وافر من الحرية ، إذ سمحت لهم السلطات المصرية بإحضار الخمر اللازمة لهم في سفنهم وإنزالها إلى فنادقهم ^(١) . ويبدو أن التجار الأجانب اعتادوا إحضار هذه الخمر بكميات ضخمة ، حتى أنه عند ما حاول السلطان الصالح اسماعيل منع الأجانب سنة ١٣٤٢ من إحضار الخمر إلى الاسكندرية ، عارضه حاكم المدينة ، وقال إن الضرائب التي تحصل في السنة من تلك الخمر تبلغ أربعين ألف دينار ^(٢) .

أما أهم أبواب تجارة مصر الخارجية في عصر المماليك فكانت مدينة أسوان بالنسبة لتجارة النوبة ، وعيذاب بالنسبة لتجارة الصين والهندو الصين ، ومنها تحمل المتاجر على ظهور الإبل عبر الصحراء حتى قوص فتسير بها السفن في النيل شمالا ويبدو أن طريق عيذاب - قوص لم يلبث أن أهمل بعد إخراج الصليبيين من الشام ، وأصبحت التجارة تأتي من البحر الأحمر إلى السويس ومنها بطريق القوافل إلى القاهرة . أما التجارة بين مصر وأوربا ، فكانت أهم أبوابها الاسكندرية ودمياط ، فتأتي إليهما السفن الأوربية محملة بالفراء والجوخ والأخشاب والحديد والنيذ وغيرها من المنتجات الأوربية ، وتعود محملة بالتوابل والبخور والعطور والخرف والاقمشة وغيرها من منتجات الشرق ^(٣) . وبالإضافة إلى تجارة الشرق الأقصى والغرب الأوربي شهدت دولة المماليك نشاطا تجاريا كبيرا مع بلدان السودان الغربي وإفريقية الوسطى وقد عرف تجمعات تلك الجهات باسم الكارم أو الكارمية نسبة إلى ملكة الكانم كما عرفوا أحيانا باسم التكرور نسبة إلى ملكة التكرور ^(٤) . وكان هؤلاء التجار يجلبون إلى دولة المماليك بضاعة

(١) Reinaud : Traité de Commerce, p. 40 .

(٢) المفريزي السلوك ج ٢ ص ٦٩٤ .

(٣) سعيد طاشور : مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص ٢٠٨ .

(٤) من المرجح أن تكون لحمية ساحل مصر باسم بولاق المذكور نسبة إلى تجمعات التكرور الذين كانت ترم بضائعهم من قوص عن طريق النيل إلى ساحل بولاق .

من أهم البضائع التي قامت عليها عظمة دولة المماليك وثروتها ، وهي التوابل والفلفل والبهار والبخور والقرنفل ، وكلها أصناف اشتهت بها أفئدة الأوربيين عليها ، ودفع فيها التجار الغربيون الأثمان المترفعة . ثم إنه يلاحظ أن تلك الطائفة من التجار لم يقتصر نشاطها على محاصيل بلادها فحسب ، وإنما امتد ذلك النشاط إلى جلب البهار من اليمن والصين والهند ، حتى أصبح اسم الكارمية يطلق على كل من اشتغل بتجارة البهار والفلفل (١) . ويبدو أن نسبة كبيرة من تجار الكارمية في عصر المماليك اتخذوا مدينة فوص مركزاً لنشاطهم الواسع ، فعندت تلك المدينة الهامة في صعيد مصر سوقاً تجارياً واسعاً لمنتجات إفريقية الوسطى والين والهند والخشب . وهناك في فوص كون تجار الكارمية نقابة حافلة لأنفسهم ، هيمنت على تجارة التوابل والبخور والعاج واحتكرتها أحياناً ؛ وصار لهذه النقابة رئيس معترف به من قبل حكومة المماليك وأطلق عليه اسم رئيس الكارمية (٢) . ولا شك في أن تجار الكارمية في مصر جنوا ثروة طائلة من وراء تجارتهم حتى قال المقرئى مانصه : « وكان تجار الكارم بمصر حينئذ في عدة وافرة ولهم أموال عظيمة » ؛ مما جعل سلاطين المماليك يقرضون المال منهم أحياناً إذا اضطرتهم الظروف إلى ذلك (٣) .

وهكذا نجحت مصر في عصر سلاطين المماليك في أن تستأثر بالجزء الأكبر من التجارة العالمية بين الشرق والغرب . ولم يدخر سلاطين المماليك وسعاً في تقوية تلك الروابط الاقتصادية بين مصر وبلدان الشرق والغرب ، عن طريق المعاهدات والاتفاقيات والانصالات الدبلوماسية مع ملوك وحكام تلك البلدان .

(١) انظر ترجمة عز الدين عبد العزيز بن منصور السكولى الفاجر السكارى المتوفى

سنة ٧١٣ هـ

(المقرئى . السلوك ج ١٢٢ - ١٢٣

النويزى : نهاية الأرب ج ٣٠ ص ٩٤ ،

(٢) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٢ ص ٣٨٧ ،

(٣) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ١٠٣ .

من ذلك المعاهدات التجارية العديدة التي عقدها سلاطين الممالك في مصر مع ملوك صقلية وقشتالة وأرغونة فضلا عن جنوا والبندقية وغيرهما من جمهوريات إيطاليا التجارية . وقد حدث سنة ١٢٨٣ أن أرسل حاكم جزيرة سيلان - واسمه أبو نكبا - سفارة إلى السلطان المنصورى قلاوون تحمل كتابا يدعو فيه إلى تنشيط التجارة بين دولة الممالك وجزيرة سيلان الغنية . وقام هذا الحاكم في كتابه بدعاية واسعة لجزيرته ، فذكر ما يمتلكه من سفن تجارية عديدة ، وما تنتجه سيلان من محصولات وفيرة ، فضلا عما يستخرجه أهلها من اللؤلؤ والأحجار الثمينة . وأكد أن المصريين سيجدون في سيلان كثيرًا من الحاصلات التي يسعون للحصول عليها من الهند ، ثم طلب في كتابه تعيين مندوب تجارى لدولة الممالك في سيلان . وكان أن رحب السلطان قلاوون بسفراء ملك سيلان وأجرى لهم العطايا وأرسل معهم سفارة تحمل رد كتاب ملكهم (١) .

وإذا كانت عيذاب وقوص قد نزعتا حركة النشاط التجارى بالنسبة للتجارة الآسيوية والإفريقية ، فإن دمياط وإنسكندرية قامتتا في عصر الممالك بدور بارز في استقبال التجار الأوربيين الذين وفدوا بسفنهم عن طريق البحر المتوسط لابتاع حاصلات الشرق وبيع ما يحملونه من حاصلات الغرب . ويبدو أن هدم بعض أجزاء دمياط في أوائل عصر الممالك خوفا من مجيء حملة صليبية جديدة بعد فشل حملة لويس التاسع على مصر ، ثم ردم فم بحر دمياط زمن السلطان الظاهر بيبرس ، أدى إلى عدم استطاعة سفن البحر الكبيرة الوصول إليها ، فأصبحت ترسو على مقربة من ملحق النيل بالبحر المتوسط ، ثم ترسل ما تحمله من بضائع أو تأخذ ما يطلبه من حاصلات بواسطة مراكب نيلية صغيرة (٢) . لذلك اختار

(١) بيبرس المؤادار : زبدة الفكرة ج ٩ ص ٢٤٢ و ٢٤٣

المرزى : السلوك ج ١ ص ٧١٣ .

(٢) معبد هاشور : مصر في عصر دولة الممالك البحرية ص ١٠٠ و ١٠١

كثير من السفن الأوروبية في عصر المماليك أن تستعاض بالإسكندرية عن دمياط ؛ وبذا صارت الإسكندرية كبرى موانئ دولة المماليك على البحر المتوسط ولما تهرى ركائب التجار في البر والبحر وتمير من قماشها جميع أقطار الأرض . . . (١) .

وكان من الطبيعي أن تراقب سلطنة المماليك تلك الحركة التجارية الواسعة ، ففرضت رقابة شديدة على الوارد والصادر من المتاجر ، وضربت عليه مكموسا اختلفت باختلاف الظروف والأحوال ، ثم تھتم البضاعة بھتم خاصر للدلالة على استيفاء المسكس . وربما كان هناك خاتم آخر للدلالة على مصدر كل سلعة حتى لا يكون سبيل إلى الغش في بيعها . وقام بهذا العمل موظفون أطلق عليهم اسم « مباشرى الختم » كانوا أشبه بموظفي الجمارك في عصرنا الحال (٢) . ويبدو أن هذه الضرائب التي فرضها سلاطين المماليك على التجارة الخارجية - وبخاصة التوابل - كانت قاسية حتى أن حمولة الفلفل التي يبلغ ثمنها في القاهرة خمسين ديناراً كانت تباع أحياناً في الإسكندرية للتجار الأوروبيين بثلاثة أمثال هذا الثمن . وقد دفع ذلك التجار الأوروبيين - وبخاصة البنادقة - إلى رفع شكواهم إلى السلاطين أكثر من مرة ، فيروى المقرئى كيف قدمت رسل البنادقة (٧٤٥ هـ / ١٣٤٤ م) بھدية وسألوا الرفق بهم والمنع من ظلمهم وألا يؤخذ منهم إلا ما جرت به عادتهم ، وأن يكفوا من بيع بضائعهم على من يختارونه . وفي بعض الأحيان كان السلاطين يستجيبون لدعوات التجار الغربيين « ليكثر الفرنج من بلادهم جلب البضائع » ؛ فيأمر السلطان ناظر الخاص بالتخفيف عنهم وعدم إيذائهم (٣) .

(١) القلشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٠٤ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٤٣٩ حاشية للدكتور محمد مصطفى زيادة .

(٣) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٦٧٠ - ٦٧١ . (٢٠ - العصر المماليكى)

على أن نشاط تجارة مصر الخارجية في عصر المماليك لم يستمر دون محاولات لرفعته من جانب القوى المعادية لسلطنة المماليك . من ذلك أن البابوية التي ألهمها سقوط عكا في يد المسلمين سنة ١٢٩١ وطرد الصليبيين نهائيا من الشام ، فكرت في إضعاف سلطنة المماليك عن طريق حرمانها من المورد الأساسي لغناها وقوتها وهو التجارة . لذلك أصدرت البابوية عدة مراسيم تحرم على التجار الأوروبيين المتاجرة مع دولة المماليك^(١) . وقد تضمنت هذه المراسيم توقيع عقوبة الحرمان على الأفراة والمدن والجمهوريات والدول التي تتعامل تجاريا مع دولة المماليك ، واختصت أضنافا معينة حُرمت تصديرها إلى تلك الدولة بعضها له أهميته في الحرب كالحديد والخشب والفار والسكرات ، وبعضها له أهميته الغذائية كالقمح والبنيد والزيت ، هذا كله فضلا عن الرقيق الأبيض الذي اعتمد عليه نظام المماليك^(٢) .

ولكن الجهود التي بذلتها البابوية عقب سقوط عكا سنة ١٢٩١ لحل التجار الأوروبيين على مقاطعة مصر اقتصاديا والاستعاضة عن طريق مصر - البحر الأحمر بطريق إياس - تبريز ، هذه الجهود لم تفلح وبات بالفشل . ذلك أن القوى التجارية في غرب أوروبا أدركت مدى الخسائر التي عادت عليها نتيجة حرمانها من التجارة مع مصر ، وتحاولت بمختلف الطرق على كسر المراسيم البابوية واستئناف نشاطها التجاري مع الاسكندرية ودمياط . ولم يلبث جاييم الثاني ملك أرغونه أن جدد إنفاقه التجارية مع السلطان الأشرف خليل - وهو السلطان الذي استولى على عكا من الصليبيين - كما حرصت مملكة أرغونه بالذات على عدم سحب قناصلها التجاريين من مصر عقب سقوط عكا . أما البندقية

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٢٠٣ .

(2) Kammerer : Le Mer Rouge T. 1, partie 2, p. 151 & Heyd : Hist, du Commerce, II, p. 26 .

فقد أرسلت سفيراً إلى مصر سنة ١٣٠٢ - على عهد السلطان الناصر محمد ابن قلاوون - ليبلغ المسؤولين في القاهرة رغبة جمهوريته في استئناف علاقاتها التجارية مع مصر ، وكان أن رحب السلطان الناصر محمد بن قلاوون بالسفير البندقي وأعلن من جانبه استعداده الطيب لتقديم كافة التسهيلات لتجار البندقية ومنحهم الامتيازات القديمة التي كانوا يتمتعون بها قبل قطع العلاقات ، كما وافق على أن يكون فرانكسكودى كنالى منفصلاً للبندقية في الإسكندرية يرعى مصالحها ومسالخ رعاياها الاقتصادية (١) .

ولكن إذا كان سلاطين دولة المماليك الأولى قد حرصوا على الاحتفاظ لمصر بمكانتها المرموقة في النشاط التجاري بين الشرق والغرب ، فإن الوضع اختلف كثيراً في عصر دولة المماليك الثانية . ذلك أن النظام الإقطاعي الذي اعتمد عليه سلاطين المماليك في عصرهم الأول ، لم يلبث أن تطرق إليه الفساد ، ولم يعد يكفي لسد حاجاتهم المادية ومطالب ملكهم العريض . لذلك اتجه سلاطين دولة المماليك الجراكسة نحو الاشتغال بالتجارة ، واتبعوا سياسة الاحتكار التجاري لتعويض ما حل بهم من خسائر نتيجة لاختلال النظام الإقطاعي من ناحية ، وللحصول على المال الوفير من أيسر طريق في قنصرهم ، من ناحية أخرى .

ولا شك في أن احتكار سلاطين دولة المماليك الجراكسة لبعض السلع والغلات الهامة - مثل التوابل والبخور - أدى إلى ارتفاع أسعارها فاحشاً ، الأمر الذي أنزل أبلغ الضرر بالتجار الأوربيين بوجه خاص ، فضلاً عن المستهلك الأوربي . وقد بلغت سياسة الاحتكار هذه أشدها على عهد السلطان الأشرف برسباي (١٤٢٣ - ١٤٣٨) الذي أبطل التعامل بالنقد البندقي والفلورنسي وسك الدينار الأشرفي ليكون أساساً للتعامل مع التجار الأوربيين (٢) .

(1) Diehl : Venise, p . 72 .

iW (2) et : L' Egypte Arabe, p . 573 .

وأخيراً دفع الضيق القوي التجارية في غرب أوروبا إلى مضاعفة جهودها للوصول إلى الهند وتجارة الشرق الأقصى عن طريق المحيط الأطلسي (١) . وما زال الغرب الأوربي يجد لاكتشاف طريق بحري جديد إلى الهند ، حتى توصل فاسكو دي جاما إلى اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح في نهاية القرن الخامس عشر ، فجاء ذلك إيذاناً بثورة كبرى في طرق التجارة العالمية من ناحية ، وإعلاناً لأهمية طريق مصر بوصفه الطريق الأساسي للتجارة بين الشرق والغرب في تلك الفترة من ناحية أخرى . ولم يلبث أن أدى تدهور مركز مصر التجاري في أواخر عصر المماليك إلى إضعافهم ثم سقوط دولتهم بعد أن حرموا من المورد الأساسي الذي ظالما أمدهم بالمال والقوة

التجارة الداخلية :

أما التجارة الداخلية فكانت على درجة واسعة من النشاط على عصر سلاطين المماليك ، فاشتهرت المدن المصرية - وعلى رأسها القاهرة - بأسواقها العامرة ذات الطابع الخاص المميز ، وأهم ما في هذه الأسواق أن كل سوق منها يختص بنوع معين من البضائع ، فسوق الشماعين يختص ببيع الشمع ، وسوق النحاسين يختص ببيع النحاس ، وسوق الفرائين ببيع الفراء ... وهكذا (٢) .

ومن محاسن هذا النظام أن التاجر لم يستطع أن يشذ عن جيرانه أو أن يرفع أسعار السلعة التي يتجر فيها ، لأن منافسيه على مقربة منه ، كما أن المشتري إن لم يعجبه نوع السلعة أو ثمنها فإنه يستطيع أن ينتقل في سهولة من متجر لآخر دون أن يتحمل أدنى مشقة . أما عيوب هذا النظام ، فأهمها أن الفرد

(١) Ronciere : La Decouverte de L'Afrique au Moyen Age, Tome 3 . p . 31 .

(٢) المقريزي : المواعظ ج ٢ ص ١٠٣ (بولاق) .

إذا أراد شراء عدة أصناف متباينة من البضائع ، فعليه أن يقطع المدينة كلها طولا وعرضا حتى يقضى حاجاته ، لأنه لن يجد في السوق الواحد سوى نوع واحد من البضائع ^(١) .

أما المواد الغذائية فوجدت لها أسواق قائمة بذاتها منها بالقاهرة سوق باب الفتوح وسوق بين القصرين وسوق باب الزهومة ، وكلها اشتهرت في ذلك العصر بكثرة المعروض فيها من لحوم وخضروات وزيت وألبان ... فضلا عن اكتظاظها بمهمور المشتريين ^(٢) . أما الفواكه فكان لها سوق خاص بها قرب باب زويلة ، وعرف هذا السوق باسم دار التفاح ، كانت تحمل إليه ثمار البساتين المحيطة بالقاهرة ، حيث يتفنن الباعة في عرضها ، ويتألقون د في تنسيقها واحتفافها بالرياحين والأزهار ^(٣) .

وقد حفلت البلاد في ذلك العصر بالمنشآت الخاصة بالتجار الأتراك والبنين والهنود والفرس والمغاربة وغيرهم ، وجرت العادة أن التجار المسلمين الوافدين من بلد واحد كانوا ينزلون في وكالة معينة حيث يالفون بعضهم ببعض ، فوكالة قوصون مثلا كان ينزلها التجار الوافدين ببضائع بلاد الشام - مثل الزيت والصابون والفسق واللوز والجوز وغيرها - وفي الوكالة يستطيع التاجر أن يصدح أمواله وبضائعه في مأمن من كل سوء ، وفي الوقت نفسه حرص سلاطين الممالك على حراسة الوكالات من هبث العابثين ، كما أنهم احتاطوا عليها من خطر الحرائق وغيرها ^(٤) .

ولم يترك سلاطين الممالك حركة البيع والشراء في الأسواق دون رقيب أو حسيب ، وإنما همدوا إلى المحتسبين بالعواف ايلا ونهارا للتفتيش على

(١) سعيد ماحور : المجتمع المصري في عصر المماليك ص ٨٦ .

(٢) المقرئى : المواظ ج ٢ ص ٩٦ — ٩٧ .

(٣) المقرئى : المواظ ج ٢ ص ٩٣ .

(٤) محمد جمال الدين سرور : دولة بنى فلان ص ٣٢٦ .

الباعة وضبط من يحاول التلاعب في الاسعار أو الأوزان أو أصناف البضاعة . وقد روعي في المحتسب دائماً أن يكون هذا رأى وصرامة وخشونة في الدين ، (١) . وكانت رقابة المحتسب أشد ما تكون على الأاطعمة والمشروبات التي تباع في الأسواق والطرق للتأكد من سلامتها ونظافتها حرصاً على صحة الناس ، فإذا وجد بعضها فاسداً أخذ البائع بالشدة (٢) .

المالية العامة :

تشمل المالية العامة الموارد الأساسية لبيت المال في ذلك العصر ، والأوجه التي كانت تنفق فيها هذه الأموال . أما عن الموارد فتتقسم إلى قسمين : موارد شرعية وموارد غير شرعية ، وكانت الموارد الشرعية تتمثل في عدة ضرائب هي :-

أولاً : ضريبة الأرض أو الخراج ، وكانت تتفاوت وفقاً لدرجة خصب الأرض من ناحية ، وزيادة المحصول أو نقصانه تبعاً للفيضان من ناحية أخرى .

ثانياً : الزكاة ، والمفروض في كتب الفقه أن من وجبت عليه الزكاة كان مخيراً بين أن يدفعها إلى الإمام أو نائبه وبين أن يفرقها بنفسه ، ولكن الذي أصبح عليه الوضع في عصر المماليك هو أن المؤدين للزكاة صاروا يفرقونها بأنفسهم ، ولم يبق ما يؤخذ من الناس على صورة زكاة في عصر المماليك إلا نوعين ، أولهما ما يؤخذ من التجار على ما يدخلون به إلى البلد من ذهب وفضة ، وتكون هذه الضريبة حوالي ٣٪ أو ٢ ¼٪ ، وثانيهما

(١) ابن الأخوة : معالم القرية في أحكام الحبسة ص ٨ .

(٢) السبكي : معيد النعم ص ٩٢ .

ما يؤخذ من موافق أهل برقة من الغنم والإبل عند وصولهم إلى البحيرة لارعى (١).
ثالثاً : الجوالى وهى الجزية المقررة على أهل الذمة ؛ وقد نقصت هذه الجزية فى عصر المماليك حتى أصبحت تراوح بين خمسة وعشرين درهماً وعشرة دراهم على الفرد . وكان لهذه الضريبة ناظر فى مصر والقاهرة يوليه السلطان ويضاف جزء من متحصل إيرادها إلى بيت المال ، فى حين يخصص الباقي للإتفاق على بعض القضاة وأهل العلم . أما خارج القاهرة فإن الوضع جرى بأن تكون جزية أهل الذمة فى كل بلد لمقطع تلك البلد من أمير أو غيره ، وتجرى مجرى مال ذلك الإقطاع .

رابعاً : النفور ، وهى ما يؤخذ من التجار الواصلين فى البحر إلى الديار المصرية . والمعروف أن المقرر فى الشرع هو أن يؤخذ العشر من بضائع هؤلاء التجار ، ولكن ذهب الشافعى أباح للحاكم أن يأخذ أكثر من العشر ، كما أباح له أن يخفض هذه الضريبة إلى نصف العشر ، بل أن يلغى هذه الضريبة كلية إذا وجد أن بلاد المسلمين فى حاجة إلى نوع معين من البضائع المستوردة . وكان الوضع فى دولة المماليك هو أن يؤخذ الخمس عن كل ما يجلبه تجار الفرنج من بضائع ، وربما زاد ما يؤخذ منهم على الخمس أيضاً ، (٢) .

خامساً : المواريث الحشرية ؛ ويقصد بها مال من يموت وليس له وارث خاص . وهذه الجملة ناظر يولى من قبل السلطان ، ويحمل المتحصل منها إلى بيت المال .

سادساً : ما يتحصل من دار ضرب النقود بالقاهرة ، وكان يضرب بها ثلاثة أصناف هى الذهب والفضة النقرة والفولوس النحاس . ويقصد بهذه

(١) سعيد عاشور : مصر فى عصر دولة المماليك البحرية من ٢١٤ — ٢١٥ .

(٢) الفقه شندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٣ .

الضريبة ما يؤخذ من صاحب الذهب أو الفضة أو النحاس مقابل ضرب معدنه وتحويله إلى دنانير أو دراهم أو فلوس بعد ضبط عيارها. وكان بالديار المصرية، داران أساسيان لضرب العملة، أحدهما بالقاهرة والآخر بالاسكندرية. هذا فضلاً عن دور أخرى أقل أهمية في تروجه وفوه وبلاد الصعيد^(١)، وأجرة كل ألف دينار تضرب بالدار أربعة عشر درهما ونصف تقريباً.

سابعاً : المتجر، والمقصود به أن الحاكم - سواء كان خليفة أو سلطان - كان يقصد إلى استغلال أمواله بتشغيلها في التجارة طلباً للكسب ؛ وبذلك ينافس أرباب الأعمال والتجار في أرزاقهم .. وكان بعض الخلفاء العباسيين في بغداد والفاطميين في القاهرة قد دأبوا على مباشرة هذا الأسلوب في استثمار أموالهم ، فيشترون مقادير كبيرة من الغلات ويخزنونها للمتاجرة فيها . وعند ما وجدوا أن سعر الغلات والحبوب قابل للقلب مما يعرضهم للخسارة ، فظلا عن احتمال تلفها نتيجة للخبز ، استبدلوا بالغلات الأخشاب والصابون والحديد والرصاص والعسل وغيرها ، وعملوا لهذه التجارة ديواناً اسمه ديوان المتجر ظل قائماً حتى عصر المماليك^(٢). وقد انتقد ابن خلدون هذا التصرف من جانب الحكام واعتبروه منافسة غير مشروعة لأن الدار عايات مكافئون في اليسار متقاربون ، ومزاومة بعضهم بعضاً تنتهي إلى غاية موجودهم ، فإذا رافقهم السلطان في ذلك - وماله أعظم كثيراً منهم - فلا يكاد أحد منهم يحصل على غرضه في شيء من حاجاته ،^(٣).

ثامناً : المعادن المستخرجة من أراضي مصر وأهمها الزمرد والشب والنطرون ، وقد احتكرها جميعاً سلاطين مصر لشدة طلب الأوروبيين عليها ، وباعوها

(١) الفريزي : السلوك ج ٢ ص ٤٤٤

(٢) سعيد طاشور : مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص ٢١٧ .

(٣) مقدمة ابن خلدون : ج ١ ص ٢٤٤ — ٢٤٥ .

بأضمااف أثمانها ، وليس لأحد أن يبيعه أو يشتريه سوى الديوان السلطاني ،
ومتى وجد مع أحد شيء من ههنا استهلك (صودر) ،^(١)

* * *

أما الموارد المالية غير الضريبة فيقصد بها المكوس المتنوعة التي لا يوجد
سند شرعي اعتمد عليه السلاطين في فرضها . ولم تكن جميع المكوس في عصر
المماليك من ابتكارهم ، بل كان بعضها موروثاً عن العصور السابقة ، حتى أحدث
السلطان قطن مكو سا كثيرة لأجل جمع المال وقتال التتار ،^(٢) . كذلك يلاحظ
في أسرهذا النوع من الضرائب أنها لم تكن ثابتة على حال واحد طوال عصر
المماليك ، فربما يتطرق أحد السلاطين في جمعها ورفع قيمتها ؛ ثم يعقبه
سلطان آخر تغلب عليه روح التخفيف عن الرعية فيلغى بعض هذه المكوس
أو معظمها .

ومن أمثلة هذه المكوس مكس ساحل الغلة ، وهي الضريبة المفروضة
على الغلات والاتجار فيها ، ورسوم الولاية التي يجمعها الولاة من عرقاء الأسواق
ومقرر الحوائص والبغال ؛ ومقرر السجون وهو مبلغ يؤخذ على كل من
يسجن ولو لحظة واحدة ، ومقرر طراح الفرائج دفلا يمكن أحداً من الناس
في جميع الأقاليم أن يشتري فروجا فـما فوقه إلا من الضامن ،^(٣) ، ومقرر
الآفصاب والمعاصر وهو ما يجني من مزارعي قصب السكر ومن رجال المعاصر ،
ومقرر المراكب وهو ما يؤخذ من كل مركب ؛ وزكاة الدولة وهو ما يؤخذ
من الرجل عن زكاة ماله ولو عدم ، وإذا مات يؤخذ من ورثته ، ومقرر

(١) الفاروقى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٥٩

(٢) المقريزى : المواقظ والاعتبار ج ١ ص ١٠٥ (بولاق)

(٣) المقريزى : المواقظ ج ١ ص ٨٨ (بولاق) .

البشارة بفتح الحـمـون فإذا حضر مبشر بفتح حـمـن تجمع ضريبة من الناس على قدر طبقاتهم ، ويجتمع من ذلك مال كثير ، (١) ، ومقرر وفاء النيل إذ يجتمع من الناس لهذه المناسبة أموال تحمل بها شوى وحلوى وفاكة عند المقياس هذا عدا المكوس المفروضة على الخنور وبيوت البغاء وغيرها .

* * *

أما عن الأوجه التي كانت تنفق فيها هذه الأموال المتحصلة من الضرائب الشرعية وغير الشرعية ، فيلاحظ عدم وجود فارق في تلك العصور بين مالبة الدولة ومالية السلطان . وقد استغل سلاطين المماليك الأموال التي جمعوها في شراء المماليك وتربيتهم والإنفاق عليهم في سخاء ، حتى أن الطباق السلطانية كانت تنعج بأعداد كبيرة من المماليك الذين يأكلون أشجار المأكولات ويلبسون أثمن الملابس . ثم إن حياة السلاطين الخاصة تشهد بما كانوا عليه من ترف وسعة ويكفي أن يقف الباحث على وصف لقاعة الجبل بقصورها الفخمة وسقوفها المذهبة وطرقتها المغطاة بالرغام الثمين وبيوتها المزخرفة بالزجاج القبرسي الملون وما احتوت عليه من اصطبلات شريفة ضمت الخيول السلطانية الأصيلة ، وساحات للأغنام والطيور والحيوانات الغريبة من زراف وفيلة وغزلان ، إلى غير ذلك من مظاهر الترف والثراء التي استلزمت من سلاطين المماليك صرف الأموال الطائلة عن بذخ وطيب خاطر (٢) . ولعل ما أفاضت في وصفه المراجع المعاصرة عن أفراس السلاطين وحفلاتهم وثرواتهم ، يكفي لتوضيح بعض الأوجه التي كان يصرف فيها سلاطين المماليك أموالهم ، من ذلك ما قيل من أن جهاز الأمير

(١) المقرئى : المواقف ج ١ ص ١٠٦ (بولاق) .

(٢) سعيد عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ص ٥٨ — ٦٣ .

أنوك بن السلطان الناصر محمد بلغ حمولة ثمانمائة جمل وستة وثلاثين قطاراً من البغال وبلغ الذهب في المصاغ والملابس ثمانين قطاراً ، ومع ذلك استصغر أبوه هذا الجهاز (١) .

ولم يرض سلاطين المماليك على نسائهم وجواريمهم بالمال والمتاع . بحيث أننا لو أردنا وصف ملبوس كل منهم وتحمل بيوتهم لاحتجنا إلى عدة مجلدات ، وعلى قول أحد المؤرخين المعاصرين (٢) . وحسبنا أن إحدى الخوحدات توفيت فلما حصرت تركتها بلغت نيفا وستمائة ألف دينار . كذلك يقال إن ابنة الناصر محمد خلفت ثروة طائلة أفاضت المراجع في وصفها .

على أنه إذا كان الجزء الأكبر من الثروة التي جمعها سلاطين المماليك قد أنفقوها في حياة الترف ، فإن هناك جانباً منها كان ينفق في دفع أرزاق موظفي الدولة من الولاة والوزراء والقضاة ورجال الدواوين من نظار وكتاب . هذا فضلاً عما تطلبته البلاد من منشآت ومرافق وإصلاحات كالجسور والقرع والمساجد والزوايا والمدارس والسجون والطرق ... وغيرها . أما شئون الغزو والجهاد — وبخاصة ضد التتار والصليبيين — فقد تطلبت من سلاطين المماليك كثير من الأموال لإعداد الجيوش وتزويدها بالسلاح وبناء الحصون والقلاع فضلاً عن إعداد السفن الحربية بمختلف أنواعها من شواني وطرادات وحراريق وأغربة وغيرها .

السياسة النقدية :

قامت دولة المماليك والنقود التي يتعامل بها الناس في مصر والشام هي الدراهم الكاملية التي أمر السلطان الكامل الأيوبي بضرها سنة ٦٢٢ هـ (١٢٢٥ م) ، وكانت نوعين ؛ الأول من الفضة النقرة بحيث كان ثلثا الدرهم من فضة وثلثه

(١) المرجع السابق ص ٦٣ وما بعدها .

(٢) خليل بن شامين : زبدة كشف الممالك ص ١٢١ .

عن نحاس ، والثاني دراهم الفلوس النحاسية وهي مصنوعة من النحاس ، وكثير استخدامها بعد الأزمة الاقتصادية التي حلت بالبلاد سنة ٨٦٣٠ (١٢٢٣ م) والتي سببها انحطاط سعر الدراهم الفضية . وكان الوضع في أواخر دولة الأيوبيين هو أن يستبدل كل درهم فضة نقرة بستة من الدراهم والفلوس النحاسية (١) .

وكان من الطبيعي أن تكون الاضطرابات التي صاحبت سقوط دولة الأيوبيين وقيام دولة المماليك مقرونة باختلال النقد واضطرابه . وعلى الرغم من أن سلاطين المماليك الأوائل — مثل شجر الدر والمماليك والمنصور على بن أيدك والمظفر قطز — قد سکوا نقوداً بأسمائهم ؛ إلا أن النقد ظل مضطرباً طوال العشر السنوات الأولى من تاريخ دولة المماليك . وهكذا استقرت الأمور للسلطان الظاهر بيبرس ، وأخذ ينظم شئون الدولة ، وعندئذ أمر بضرب دراهم جديدة عرفت باسم الدراهم الظاهرية ، نقش رنكة عليها ، وهو يمثل صورة سبع ، ومهما يكن من أمر فإننا نستطيع بدراسة العملة في مصر المماليك أن نميز بين ثلاثة أنواع من النقود هي الدنانير الذهبية والدراهم الفضية والفلوس النحاسية .

أما عن الدنانير الذهبية ؛ فيلاحظ أن الذهب كان دائماً هو أساس النقد وبه تقوم بقية النقود من فضة ونحاس . ولكن تعرض العملة الذهبية في عصر المماليك للتلاعب في العيار والتغيير في الوزن والتبديل في الحجم ، جعلها لا تحوز ثقة المتعاملين من التجار وغير التجار . وقد أشار القلقشندي إلى أن العبرة في وزن الدنانير بالمناقل ، ولكنه قال عن الدنانير التي سكنت في مصر في عصر المماليك : إن الغالب فيها نقص أوزانها ، وكأنهم جعلوا نقصها في نظير كثافة ضربها (٢) .

(١) عبد الرحمن فنجي محمد : النقود العربية ماضيها وحاضرها ص ٧٦

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤١ .

وفي الوقت الذي اعتري الدنانير الممالئكية ذلك الحلل ، وتعرضت لتلاعب السلاطين والأمراء بغية الربح غير المشروع ؛ إذا بالبندقية تلجأ في القرن الثالث عشر إلى ضرب عملة ذهبية تعرف باسم الإفريقية أو الدوكات تتماز بعميارها الصحيح ووزنها الثابت وسمكها المحدد ، مما جعلها تحوز ثقة المتعاملين . وقد وصف القلقشندي هذه العملة الأوربية فقال إنها «معلومة الأوزان ، كل دينار منها معتبر بتسعة عشر قيراطاً ونصف قيراط من المصرى ... وهذه الدنانير مشخصة على أحد وجهيها صورة الملك الذي تضرب في زمنه وعلى الوجه الآخر صور تان بطرس وبولس الحواريين اللذين بعث بهما المسيح عليه السلام إلى رومية . ويعبر عنها بالإفريقية جمع افرتى وأصله افرتسى ... ويعبر عنه أيضاً بالدوكات وهذا الاسم في الحقيقة لا يطلق عليه إلا إذا كان ضرب البندقية من الفرنجة ، وذلك أن الملك اسمه عندكم دوك ... » (١) .

ولم يلبث أن انتشر الدوكات البندقي وعم استعماله في مصر والشام وغيرها من بلدان المسلمين بعد أن حاز ثقة المتعاملين ، الأمر الذي أزعج سلاطين المماليك ، فحاول السلطان الناصر فرج بن برقوق حمل دنانير جديدة ، على زنة الدنانير الإفريقية المتقدمة الذكر ، بمعنى أنه جعلها ثابتة الوزن ، وبزنة مثقال تماماً . وقد عرفت هذه الدنانير بالناصرية نسبة إلى السلطان الناصر فرج ، وكثر وجودها وعم استعمالها ، ولكنهم مع ذلك كانت تقل بمقدار عشرة دراهم عن الدنانير الإفريقية (٢) . وهكذا ظل مصروف الذهب بالديار المصرية لا يثبت على حاله بل يعلو تارة ويهبط أخرى بحسب ما تقتضيه الحال ، على قول القلقشندي ؛ الأمر الذي جعل تلك الدنانير التي سكتها سلاطين المماليك لا تقوى على منافسة

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤١ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٢ .

للدوكلات البدقية ، فأنحطت قيمتها في الأسواق الحرة عن قيمة البندقي (١) .

أما الدراهم الفضية فالمفروض فيها أن يكون ثلثاها من فضة وثلثاها من نحاس (٢) . ولكن هذه الدراهم لم تلبث هي الأخرى أن تعرضت للفساد منذ أواخر القرن الثامن الهجري - أو على وجه التحديد منذ سنة ٧٨١ هـ (١٣٧٩ م) - عندما انتشرت الدراهم الخوية التي ضربها المماليك بحماه ، وقد تذر الناس من هذه الدراهم الأخيرة لزيادة نسبة النحاس فيها حتى بلغت الثلثين ، مما قلل من الإقبال عليها ، فازداد استخدام الفلوس النحاسية (٣) .

أما هذه الفلوس النحاسية فكانت أقل أنواع العملات في تلك العصور ، وكانت - على قول المقرئى - لا يشتري بها شيء من الأمور الجليلة ، وإنما هي لنفقات الببوت ولاغراض ما يحتاج إليه من الخضر والبقول ونحوها (٤) . ويروى القلقشندى أن السلطان الناصر حسن ابن الناصر محمد بن قلاوون عفى بضرب فلوس جيدة سنة ٧٥٩ هـ (١٣٥٨ م) اشتهرت بالفلوس الجدد جمع جديد ، وجعل زنة كل فلس منها مثقال ، فجاءت في نهاية الحسن وبطل ما عداها من الفلوس وهي أكثر ما يتعامل به أهل زماننا (٥) . غير أن الملاحظ في عصر المماليك أن الفلوس النحاسية هي الأخرى لم تسلم من تلاعب السلاطين طمعا في الربح فكان وزنها عرضة للتغيير والتبديل ، كما أن السلاطين اختلفوا في تقدير قيمتها بالوزن ، فحينما يكون الرطل منها بستة دراهم وأحيانا باثنى عشر درهما أو بدرهمين ونصف ؛ وفي جميع الأحوال يرغم التجار والأهالي على التعامل بها

(١) عبد الرحمن فهمى محمد : النقود العربية ص ٩٨ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٣ .

(٣) المقرئى : شذور القود في أخبار القود ص ١٥ .

(٤) المقرئى : لغات الأمة بكشف الغمة ص ٧٠ .

(٥) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٤ .

وفق القيمة التي تحددها الحكومة بما يشيع حالة من القلق في الأسواق (١)

* * *

وبعد ، فإن اضطراب العملة المتداولة في عصر المماليك أدى إلى زعزعة الحياة الاقتصادية في كثير من حلقات ذلك العصر . وربما أدى ضعف ثقة الناس في قيمة النقود إلى أنهم عمدوا إلى نظام المقايضة ، ومن ذلك ما يرويه المقرئ « وأدركت أنا والناس من أهل نجر الإسكندرية وهم يجعلون في مغالبة الخضره والبقول ونحو ذلك كسر الخبز لشراء ما يراد منه ، ولم يزل ذلك إلى نحو السبعين والسبعمائة ، وأدركنا ريف مصر وأهلها يشترون الكثير من الحوائج والمأكولات ببيض الدجاج وبخمال الدقيق .. » (٢) . ولم يقتصر نظام المقايضة على التجارة الداخلية بل استعمل على مقياس أوسع في التجارة الخارجية وبخاصة في القرن الخامس عشر ، فكان الحمل الإسكندري من الفلفل ين خمسمائة رطل فرورى ويشترى في الإسكندرية نقدا أو مقايضة بسلع متعددة كالفضة وقوالب النحاس وسبائك القصدير والرصاص والصابون الأبيض والشمع والمصطكي ؛ كما أنه يقايض أيضا بمأكولات كبيرة كالزيت بأنواعه وعسل النحل وعسل السكر ولوز أبوليا وبرونسة والقسطل وبندق ، كما نابل وفواكه أخرى ، ويعطى كذلك قنطار من هذه السلع مقابل الحمل الواحد من الفلفل ، (٣) .

(١) المقرئ : لغاية الأمة ص ٤٧ وما بعدها .

السلوك ج ٢ ص ٩٧ ، ج ٣ ص ٨٢ — ٨٣ .

(٢) المقرئ . لغاية الأمة يكشف الغمة ص ٦٩ .

(٣) توفيق اسكندر : نظام المقايضة في تجارة مصر الخارجية

(مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية سنة ١٩٥٧ ص ٤٢)

الفصل العاشر

الاحوال الداخلية

بناء المجتمع :

كان المجتمع في عصر المماليك مجتمعاً طبقياً ، بمعنى أنه تألف من عدة طبقات متميزة بعضها عن بعض في خصائصها وصفاتها ومظاهرها ، فضلاً عن نظرة الدولة لها ومقدار ما تتمتع به من حقوق أو تنهض به من واجبات . وفي ظل مثل هذا التنظيم الطبقى يبدو الفارق كثيراً بين الحكام والمحكومين ، وبخاصة إذا كان الحكام أغراب عن البلاد وأهلها ، لم تربطهم بأبناء مصر والشام إربطة الدم أو الأصل والجنس ، مما جعل المماليك لا يشعرون في كثير من الحالات بروح التجاوب مع الأهالي والعطف على مصالحهم والعمل من أجل رفاهيتهم .

والواقع إن المماليك حكموا البلاد دائماً بوصفهم طبقة عسكرية ممتازة ، استأنزروا بالحكم وبشئون الحرب ، ونظروا إلى الأهالي على أنهم أقل منهم درجة أو درجات لا ينبغي لهم أن يشاركون في الحياة الحربية ، وإذا سمح لبعضهم بالمشاركة في شئون الحكم فبإقذار محدود الذي تضوله صلاحياتهم . وتفسير القواهد التاريخية إلى أن المماليك لم يكونوا جميعاً من أصل واحد ، بل كان منهم التركي والجرمسي والمغولي والصيني والاسباني والألماني واليوناني والسلافي وغير ذلك من الجنسيات العديدة التي حملها تهمار الرقيق إلى مصر . وقد شجع التجار على مواصلة تلك التجارة ، الأرباح الطائلة التي كانوا يحصلون عليها من وراء الاشتغال بها إذ لم يضمن سلاطين المماليك وأمرؤهم بالمال في شراء مزيد من المماليك يكونوا

لهم سنداً ودعامة تقوى مركزهم داخل البلاد وخارجها . وبقدر ما في المملوك من مزايا وصفات طيبة ومواهب بقدر ما يرتفع ثمنه ، وبالعكس بقدر ما قد يكون فيه من عيوب بقدر ما ينهط سعره . ولعل هذا هو السر في أن مملوكاً مثل قلاون عرف بالآلاف لأنه اشترى بألف دينار ، وهو مبلغ كبير يستحق الفخر لأنه يشير إلى عظم مواهبه وحسن صورته ^(١) .

على أنه جرت العادة غالباً أن ينسب المملوك إلى أستاذه ، أى سيده الذى اشتراه بالمال ، فيبهرس البندقدارى نسب إلى أستاذه الأمير علاء الدين البندقدار والمماليك الأشرفية الخليلية نسبوا إلى السلطان الأشرف خليل ، والناصرية إلى الناصر محمد .. وهكذا . وقد ينسب المملوك أحياناً إلى تاجره الذى جلبه إذا كان ذلك التاجر مشهوراً مثل يلبغا السالمى نسبة إلى تاجر معروف اسمه سالم والمماليك العثمانية نسبة إلى الخواجه عثمان غفر الدين وهو من كبار التجار الذين جلبوا كثيراً من المماليك والجواري إلى السلاطين ^(٢) .

وقد عنى سلاطين المماليك عناية فائقة بمماليكهم وحرسوا على تربيتهم تربية سليمة ، فإذا اشترى السلطان عدداً من المماليك أرسلهم أولاً لفحصهم للتأكد من سلامة أبدانهم ، وبعد ذلك ينزل كل منهم فى طبقة جنسه بحيث لا يقيم فى طبقة من الطباق المخصصة للمماليك بالقلمة إلا المماليك ذوى الأصل المشترك أو المجلوبين من بلد واحد . ويقوم بتربية المماليك فى الطباق مجموعة من الطواشيخ الخصيان ، فضلاً عن الفقهاء الذين كانوا يترددون على الطباق لتعليم المماليك القرآن والحط وأحكام الدين الإسلامى ثم إن الأساتذة من سلاطين وأمرام

(١) بيهرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ص ١٤١

أبو الحسن : المنهل المصقى ج ٣ ص ٣٧ ب (مخطوط) .

(٢) ابن قاضي شهاب : الإعلام بتاريخ أهل الإسلام ج ٤ ص ٢٧٣ (مخطوط)

(٢١ - العصر المماليكى)

لم يصفوا على ممالكهم بالأرزاق والأموال ، وإنما نظروا إليهم نظرة أبوة
مشفقة بالمعطف والحنان ، فخصصوا لهم أشهى الأطعمة وحسروا لهم الكسوات
الفاخرة (١) .

فإذا شب المملوك وأدرك من البلوغ ، بدأ تعليمه فنون الحرب والفروسية
حتى إذا انتهت هذه المرحلة التعليمية خرج من الطابق وانتقل في أدوار الخدمة
السلطانية ، رتبة بعد أخرى حتى يصبح من الأمراء . وعندما يغادر المملوك
الطابق تغطى له جامكية أو مصروف يبلغ ستة دنانير في المتوسط ، ولكنه سرعان
ما ينتقل من الجامكيات إلى الإقطاعات وإلى إمرة العشرات ثم الطبلخانات ،
وعندئذ يصبح الأمير سلطاناً مختصراً ، على قول القلقشندي (٢) .

على أنه يلاحظ أن الممالك ظواهر طبقية منفصلة عن سائر السكان في مصر
والشام ، فلم يتزوجوا منهم واختاروا زوجاتهم وجواريتهم من بنات جنسهم
اللائق بجليلين التجار . وقد بدأت حكومة الممالك دائماً على تحذير الناس من انتقال
ملوك من الممالك عن طريق البيع إلى دكانب أو حامى ، أى إلى أحد من غير
طبقة الممالك ، ومن خالف ذلك التحذير تعرض للأذى والعقوبة (٣) . ولا شك
في أن هذه العزلة التي عاش فيها الممالك أوجدت فجوة واسعة بين الحكام
والمكرومين ، مما ترك أثراً واضحاً في المجتمع المعاصر ، ذلك أن أهل البلاد في
مصر والشام ظلوا طول عصر الممالك لا يعرفون شيئاً من أمر الأحداث الكبرى
الداخلية والخارجية التي أحاطت بمجتمعهم ، وحسبهم ما كانوا يشهدونه من
مواكب حافلة أو من منازعات صاخبة بين طوائف الممالك ، وما ترتب على

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين الممالك ، ص ١١
وما بعدها .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٦٠ .

(٣) أبو المعاسن : النجوم ج ٩ ص ٩٢ .

فذلك النزاع من سقوط سلطان وقيام غيره . وهكذا ظل الفلاح يعمل في حقله والتاجر في متجره والفقير في مدرسته أو جامعته .. ينفذون جميعا مشيئة سادة البلاد من المماليك ويدفعون لهم ما يطلب منهم وهم صافرون . حقيقة إن المماليك عملوا حسبا ببعض فئات من المصريين والشاميين وأعطوها بعض حقها من التقدير والعطف، ولكن ذلك لم يمنعهم من التنسكركم لهم أحيانا . ثم إن هذه الفئة التي حظيت بقسط من عطف الحكام المماليك كانت أقلية صغيرة من المعممين ، في حين ظلت غالبية السكان من التجار والفلاحين والعامه لا تلقى من المماليك سوى الهوان والمغارم (١) .

وإلى جانب طبقة المماليك - وهم حكام البلاد - وجدت جماعة المعممين أو أهل العمامة ، وهذه الطبقة كانت تشمل أرباب الوظائف الديوانية والفقهاء والعلماء والأدباء والكتّاب . والملاحظ أن هذه الفئة امتازت طول عصر المماليك بسميزات معينة ، على الرغم مما تعرض له أفرادها من الامتحان أحيانا . ويبدو أن المماليك أحسوا دائما بأنهم غرباء عن البلاد وأهلها ، وبأنهم في حاجة إلى دهامة يستندون إليها في حكمهم ويستعينون بها على إرضاء الشعب فلم يجدوا أمامهم سوى فئة العلماء ، بحكم ما للدين ورجاله من قوة وأثر . فالمماليك احترموا العلماء ورجال الدين لأنهم قوة لها خطرها في اكتساب الرأي العام في البلاد « ولأن بهم عرفوا دين الإسلام وفي بركتهم يعيشون » (٢) . ومن جهة أخرى فإن المعممين اعتدوا بمماليكهم في عصر المماليك فعمدوا أحيانا إلى معارضة السلاطين في الحق ، حتى حكى ابن بطوطة عن السلطان الناصر محمد بن قلاوون أنه قال « إنى لا أخاف أحد إلا شمس الدين الحريرى قاضى قضاة الحنفية » (٣) .

(١) سبيد عاشور : مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص ١٥٨ .

(٢) المقرئى : السلوك ، ج ٣ ص ٣٨٣ (مخطوط) .

(٣) رحلة ابن بطوطة ج ٢ ص ٨٨ .

على أن هذه السكينة الكبرى التي وصل إليها العلماء في عصر الماليك لم تمنع بعض السلاطين والأمراء من التعرض لهم بالنقد والتهكم . ولم يرضى الماليك أن تشاركهم فئة من السكان في ركوب الخيل ، فاشترطوا على السلاطين حرمان المتعممين من ركوبها . وكثيراً ما انسابت جموع الماليك في شوارع القاهرة للاعتداء على الفقهاء والمعممين وإنزالهم عن خيولهم وسلبهم إياها^(١).

أما التجار فكانوا يؤلفون طبقة مقربة أحياناً إلى سلاطين الماليك ، لأنهم أحسوا بأن التجار دون غيرهم هم المصدر الأساسي الذي يمدد بالمال في ساعات الحرج والشدة . وتدل جميع القواعد على أن التجار تمتعوا في عصر الماليك بثروات طائلة ، وهذا أمر طبيعي في عصر كانت مصر حلقة النشاط التجاري بين الشرق والغرب . على أن كثرة الثروة في أيدي التجار جعلتهم دائماً مطمع سلاطين الماليك ، فأكثرُوا من مصادرتهم بين حين وآخر ، فضلاً عن إثقافهم بالرسوم الباهظة^(٢) . لذلك لم يطمئن التجار في عصر الماليك على أموالهم ونجاحاتهم بل كانوا يدعون على أنفسهم أحياناً أن يغرقهم الله حتى يستريحوا مما فيه من الغرامات والخسارات وتحكم الظلمة فيهم^(٣) .

واكتظت القاهرة وغيرها من المدن الكبرى في عصر الماليك بجموع كبير من العمال والصناع والباعة والسوقة والسقائين والمكاريين والمعدمين أو أشباه المعدمين . وهي الفئات التي جمعتها المراجع المعاصرة تحت اسم «العوام» . وقد عاش أفراد هذه الطبقة في ضيق وعسر بالقياس إلى الماليك وغيرهم من الطبقات الممنعة ، حتى لاحظ بعض الرواة حالة الأوربيين الذين زاروا مصر في عصر الماليك أن القاهرة وحدها بها عدد يتراوح بين خمسين ألف ومائة ألف بلامأوى

(١) سعيد عاشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين الماليك ص ٣٢ .

(٢) ابن حجر : إنباء الفرج ج ١ ص ٣٦٥ ، ٥٢٩ .

(٣) القرينى : السلوك ٤ ص ٤٤٤ .

عصى الطرقاته وبلا ملبس سوى أسمال بالية (١) . كذلك دهش البعض الآخر من كثرة الفحاظين بالقاهرة في ذلك العصر وقال إنهم أحاطوا به من كل جانب طالبين منه الإحسان . حقيقة إن العوام وجدوا أحيانا بعض العطف من السلاطين المماليك وأمرانهم - لا سيما في أوقات الشدة والمجاعات - ولكن وضعهم السيء وكثرة عددهم دفعهم في كثير من الحالات إلى احترام السلب والنهب وانتهاز الفرص للحصول على أكبر قدر من الغنائم في أوقات الفتن والاضطرابات (٢) .

أما الفلاحون - وهم السواد الأعظم من السكان - فلم يكن نصيبهم في عصر المماليك سوى الإهمال والاحتقار ، حتى أصبح لفظ « فلاح » في ذلك العصر مرادفا للشخص الضعيف المغلوب على أمره . وزاد من حال الفلاحين سوءا كثرة المغارم والمظالم التي حلت بهم من الولاة والحكام ليأخذوا منهم « غير العادة أضعافاء » (٣) كذلك فرض الولاة على أهل القرية نظام المسؤولية المشتركة في دفع الضرائب ، حتى في حالة توزيع زمام القرية الواحدة بين عدة ملاك أو مقطعين اعتبر كل فلاح بالنسبة لزملائه شريكا . ثم إن الفلاحين لم يسلطوا من أذى العربان وبطشهم ، فتعرضت القرى والمزارع لإفغارات العربان بين حين وآخر ، وفي كل مرة ينهب العربان محصولات الأرض ومواشي الفلاحين ، فضلا عما يفرضونه عليهم من إتاوات والوافع إن حركات العربان في مصر في عصر المماليك تسترعى انتباه الباحث نظرا لما كان لها من أثر واضح في أحوال مصر الداخلية في ذلك العصر .

(١) سعيد عاشور : المهتم المصري في عصر سلاطين المماليك ص ٣٨ .

(٢) أبو الهاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٤٦٤ (طبعة كالمبورنيا) .

(٣) ابن لمياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٣٠٢ .

ثورات العربان :

وجدت في مصر في المصور الوسطى قبائل جديدة من العربان وهؤلاء انتشروا في أجزاء مختلفة من البلاد، وبخاصة للشرقية والبحيرة والمنوفية والفيوم والمنيا وأسيوط . وكان هؤلاء العربان دائما أبادامصدر فتن ومتاهب للحكام والمحكومين سواء ، فارتبط تاريخهم في مصر المماليك بالثورات وحوادث النهب والسلب والاعتداء على الأمنيين من أهالى القرى والمدن، حتى أن المراجع المعاصرة لا تشير إليهم دائما إلا تحت عنوان « فساد العربان » .

وقد حاول السلطان المعز أيبك أن يفيد من قوة العربان في إحباط المحاولة التي قام بها الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب ودمشق لغزو مصر سنة ١٢٥٠ ، ولكن العربان أنفقوا من الخوض للمماليك، وثارت قبيلة بنى تغلب - وهى أقوى قبائل العربان في الصعيد - ونادى زعيمها حصن الدين بن ثعلب « أنا أحق بالملك من المماليك ، وقد كفى أنا خدمنا بنى أيوب وهم خوارج خرجوا عن البلاد » (١) . وهكذا أعلن حصن الدين بن ثعلب نفسه ملوكا على الصعيد، وأخذ يتصل بالناصر يوسف الأيوبي سنة ١٢٥٣ يمرض عليه حلفاء مشتركا ضد المعز أيبك والمماليك ولم يكتف حصن الدين بالسيطرة على الصعيد، وإنما زحف على الوجه البحرى ليستثير قبائل العربان ضد سلطنة المماليك ولكن السلطان أيبك أرسل جيشا كبيرا حذبه بقيادة الأمير فارس الدين أقطاي المستعرب ونجح هذا الجيش في إنزال الهزيمة بالعربان وإخضاعهم سنة ١٢٥٣ (٢) .

والمعروف أن العربان لم يكن لهم من النظام والمهارة الحربية وحسن

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٢٨٦ .

(٢) المقرئى : البيان والإمرا ب ص ٢٥ وما بعدها .

الاستعداد ما يناظر الممالك ؛ ولذلك لم يستطع العربان الثبات طويلا في وجه الممالك ، وفي كل مرة كانت الهزيمة تحل بالعربان ومع ذلك يعودوا إلى الثورة بعد قليل ، حتى سبوا كثيرا من الفوضى والمتاعب في ذلك العصر ، من ذلك أن حصن الدين بن ثعلب هاد إلى الثورة سنة ١٢٦١ في عهد السلطان الظاهر بيبرس ، ولكن السلطان الظاهر استطاع أن يوقع به وشقه بالإسكندرية^(١) ، ويبدو أن شقيق حصن الدين بن ثعلب أحدث استياء العربان بالصعيد ، فثاروا وكثر طمعهم وهموا بتغيير الممالك ووثبوا على الأمير عز الدين الهواش وإلى قوص وقتلوه^(٢) ، ولكن السلطان الظاهر بيبرس أرسل إليهم جيشاً بقيادة الأمير عز الدين الأفرم ، فأوقع بالعربان وبدد شملهم وأخضعهم .

ومن الواضح أن العربان في مصر كانت تراودهم في أوائل عصر الممالك فكرة إقامة سلطنة عربية يكون الحكم فيها لهم ، وإذا كان تطور الأحداث قد أثبت لهم استحالة تنفيذ هذه الفكرة بعد أن ثبتت دعائم سلطنة الممالك فإن ذلك لم يمنع العربان من المشاركة في الأحداث السياسية الجارية حسبما تطالبت مصالحهم ؛ وكانت معظم حركاتهم تظهر عند قيام سلطان جديد أو أثناء حكم سلطان قاصر ، وهي فترات الاضطراب عادة في تاريخ دولة الممالك .

وهكذا عاد العربان إلى الثورة في الصعيد سنة ١٢٩٠ عند قيام السلطان المنصور قلاوون في الحكم ، ولكن الأمير طرطاي نائب السلطنة أنزل بهم الهزيمة قرب قوص ، وعاد معه عدد كبير من زعمائهم رهائن ، فضلا عن

(١) ابن فضل الله العمري : التعريف ص ١٨٨

المقرئى : البيان والإعراب ص ٤٤ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٤٧١ .

مائة ألف رأس من الغنم ومائتي فرس وألف جمل ، غنمها منهم^(١) ، ولم يرتدع العربان في الصعيد بعد ذلك ، إذ انتهبوا فرصة مرض السلطان قلاوون سنة ١٢٩٠ وقاموا بثورة جديدة في منطقة قوص . ولكن الأمير طر نطاي حاد إليهم ليؤديهم من جديد^(٢) .

وفي عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون انتهز العربان فرصة الخطر الذي حل بدولة المماليك من جهة غازان حاكم مغول فارس ، ومنعوا الخراج وأعلنوا الثورة على الحكومة سنة ١٣٠٠ ، ولكن الأمير شمس الدين سنقر الأعسر زحف عليهم في الصعيد وأزل بهم الخزيعة عند قوص وبطش بهم بطشاً شديداً^(٣) ، وعندما اشتد خطر العربان في الصعيد بعد ذلك حتى غدوا يسيطرون على الصعيد من أسيوط إلى منفلوط ؛ تظاهر الأميران بيبرس وسلاار - أصحاب النفوذ في مصر في ذلك الوقت - بأنهما يمدان حملة لمحاربة المغول بالشام ، ثم حصلا على فتوى من القضاة والعلماء بمحاربة العربان ، وبعد أن اكتملت العدة اتجهت الجيوش إلى الصعيد حيث أحاطت بالعربان وصدرت الأوامر بأن يضع المماليك ، السيف في الكبير والصغير والجليل والحقير ولا يبقوا شيخاً ولا صبياً ويغتاطوا على سائر الأموال^(٤) . وكانت هزيمة العربان في تلك المرة ساحقة بحيث لم يمكن إحصاء عدد القتلى لكثرتهم وجافت الأرض بحيث القتلى ، في حين فر الباقون إلى المغاور والكهوف ، ومن خلفهم المماليك يطاردونهم حتى هلك معظمهم (سنة ١٣٠١)^(٥) ، وقد

(١) أبو المعاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٢٤ .

(٢) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٧٥٤ .

(٣) بيبرس الودادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ ص ٣٩٠ .

(٤) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٩٢١ .

(٥) أبو المعاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٥٣ .

الويري : نهاية الأرب ج ٣٠ ص ٢٠ .

أدى تطرف المماليك في الانتقام والقتل في تلك المرة إلى إفقار البلاد وخلوها من أهلها، بحيث أن الفرد كان يمشي في تلك الجهات دفلاً يجد في طريقه أحداً وينزل بالقربة فلا يرى إلا النساء والصبيان والصغار، (١).

ويبدو أن شوكة العربان قد كسرت بعد ما حل بهم سنة ١٣٠١ من بلاء على أيدي جيوش المماليك، دفعا من سلم من معتدى العرب فقيراً ورعاً صالحاً، وحل أكثرهم المسواك والمسبحة عوضاً عن حمل الرماح والأسلحة، (٢). وليس معنى ذلك أن حركات العربان ومتاعبهم وتوقفت بعد سنة ١٣٠١، وإنما المقصود أن تلك الحركات لم تعد تتخذ شكلاً سياسياً، وإنما اتخذت صورة اقتصادية، وهو ما نسميه المراجع هادة باسم فساد العربان وهكذا أخذ العربان في القرنين الرابع عشر والخامس عشر يتطرفون في نهب الغلال وقلب المواشي، وأحياناً يدفعهم الضيق الاقتصادي إلى الامتناع عن دفع الخراج والضرائب المقررة عليهم كما حدث سنتي ١٣١٣، ١٣٣٠ (٥٧١٣، ٥٧٣١) في عهد السلطان الناصر محمد (٣) ومن أخطر الحركات التي من هذا النوع والتي قام بها العربان، حركة ابن الأحمد شيخ قبيلة عرك سنة ١٣٥٣ (٥٧٥٤) في عهد السلطان الصالح صلاح الدين بن الناصر محمد (٤).

وفي نفس الوقت لم تسلم المدن الكبرى في عصر المماليك مثل أسيوط والاسكندرية — بل القاهرة — من عبث العربان وإغاراتهم عليها أو على أطرافها بخيبة السلب والنهب (٥)، حتى الحجاج وهم في طريقهم إلى بيت الله

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٩٢٢ .

(٢) بيريوس الدواهار : زبدة القسكرة ج ٩ ص ٤٠٨ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ١٢٩ ، ٣٣٥ .

ابن حجر : إنباء الفهر ج ٤ ص ٣٥٧ .

(٤) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٠٠ .

(٥) أبو المعاسن : النجوم ج ٨ ص ١٤٩ .

العيني : عقد الجمان حوادث سنة ٨٠١ .

الحرام عبر الصحراء الشرقية تعرضوا لعدوان الأعراب عليهم بالنهب والقتل (١) . وهكذا ظل العربان طوال عصر المماليك مصدرًا هامًا من مصادر الفتنة والقلق وعدم الاستقرار (٢) .

الحياة في المرونة :

انصف المدن المصرية في عصر المماليك — مثل القاهرة والإسكندرية ودمياط ورشيد — بتلاصق منازلها وضيق حاراتها واكتظاظ طرقاتها بالمارة والسوقة والدواب . وقد أشاد الرحالة الذين زاروا مصر في عصر المماليك بعظمة المدن المصرية وكثرة سكانها إذا قيست بغيرها من المدن الأوروبية المعاصرة مثل روما وفلورنسا وباريس . وكان أهم ما استرعى انتباه أولئك الرحالة كثرة الباعة الجائلين في الطرقات ، فضلا عن كثرة الدواب . فالحيل يركبها المماليك يركضون بها وسط الدروب والأسواق المزدحمة وهم يضربون الناس يمنا ويسرة ليشقوا طريقهم ، خير مبالين إذا سقط بعض المارة تهتت خوافر الحيل . والجمال العديدة يطوف بها السقاة ون وهي تحمل القرب لإمداد المنازل والأسواق بحاجاتها من الماء . وقد روى المغربي عدد الجمال في القاهرة بما يترواح بين خمسين ألفا ومائتي ألف رجل ، وعدد السقاة بين خمسة آلاف وستين ألف سقاء يجلو أنفُسهم عند المحتسب وقاموا بدفع ضريبة معينة للحكومة مقابل ما يأخذونه من ماء النيل (٣) . أما الخمر التي قامت بدور سيارات الأجرة في أيامنا فقد بلغت عددا كبيرا ، وعن أصحابها بتطهيرها ليستأجرها الناس في قضاء حاجاتهم وسفراتهم .

(١) المقرئى : السلوك ج ٤ ص ٨٥٨ — ٨٥٩ .

(٢) سعيد عاشور : التجسيم المصرى في عصر سلاطين المماليك ص ٥٢ — ٥٤ .

(٣) رحلة البلوى المقرئى ص ٥٥ (مخطوط) .

ووصف التاجر الروسى باسل القاهرة في عصر المماليك بأن بها أربعة آلاف شارع ودوب ، كل منها له بابان وحارسان ، وبكل شارع منها عدد كبير من المنازل فضلا عن سوق كبير لاسد الحاجات اليومية للسكان . وفي الليل تضاء تلك الشوارع بالمصابيح بعد أن تنافق أبوابها وتشدد الحراسة عليها ، فيرتب لها جماعة من الطواف لكشف الأذقة وخلق الدروب وتمقد أصحاب الأرباع وتأديب المخالف ، ومن سار في الليل لغير سبب قبض عليه . وعينت السلطات بالقاهرة بنظافة الشوارع بالكس والرش بالماء ، وهى المهمة التى قام بها الباعة وأصحاب الحوانيت . كذلك وضعت آنية ملوثة بالماء عند أبواب الحوانيت لتسهيل إطفاء ما يقع من حرائق . وأمر بعض السلاطين - مثل بيبرس - بإخراج البرصاء والمجذومين من القاهرة ، وإنذار من يبق منهم داخل أسوارها بالقتل^(١)

وزخرت المدن المصرية عامة والقاهرة خاصة في عصر المماليك بكثير من المنهآت العامة من الوكالات المعدة لاستقبال التجار وبضائعهم ، والمارسات أو المستشفيات لعلاج المرضى ، والأسبلة لتيسير حصول الناس والدواب على ماء الشرب ، والحمامات التى اختص بعضها بالرجال والبعض الآخر بالنساء ، فضلا عن عديد المساجد والمدارس . أما سجون ذلك العصر فكانت على أنواع منها ما هو خاص بالأمراء والمماليك والجند ، ومنها ما هو خاص بأرباب الجرائم من اللصوص وقطاع الطرق وغيرهم ، ومنها ما هو خاص بالنساء المذنبات . ويفهم من المراجع المعاصرة أن هذه السجون بلغت درجة غيقة من الخطية والقتارة وسوء معاملة المسجونين فيها ، حتى أن الإعدام كان فى كثير من الأحوال أهون من عقوبة السجن^(٢) .

(١) سعيد عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ص ٨٢ وما بعدها .

(٢) السخاوى : التبر المسبوك ص ١٤٦ .

المقريزى : السلوك ج ٤ ص ٧٦١ .

وعلى الرغم من المتاعب ، الأزمات التي تعرض لها عامة الناس في عصر المماليك ، فإن روح المرح والرغبة في التسلية ، والترويح عن النفس ظلت تسود حياة أهالي المدن . وقد اعتاد الناس في ذلك العصر الخروج إلى الحدائق والمتنزهات مثل بركة الرطلى وبركة الحبش وجزيرة الروضة ، أو إلى شاطئ النيل - حيث الحدائق والأشجار والزهور - طلباً للتسلية والترويح . وكثيراً ما كانوا يستأجرون القوارب في النيل ويصطحبون معهم المغاني وآلات الطرب لقضاء وقت سعيد بين أمواج النهر الخالد ^(١) . كذلك اشتهر من وسائل التسلية في عصر المماليك خيال الظل ، فضلاً عن ولع الناس بالتلميح بتطهير الحام ونطاح الكباش ومناقرة الديوك والمصارعة وغيرها من الألعاب التي كانت تتم عن طريق الرهان ^(٢) .

واشتهرت الحياة في المدن في عصر المماليك بالحفلات الصاخبة التي انقسمت إلى أنواع منها ما هو خاص طائلي ومنها ما هو عام شعبي ، وأشهر الحفلات العائلية ما اختص بالزواج ، إذ جرت العادة عندئذ على إقامة الولائم الحافلة واستحضار المغنيات وضاربات الدفوف ، مما يجعل الحفل صاخباً كبيراً . ومثل ذلك يقال عن الحفلات الخاصة بالولادة - وبخاصة إذا كان المولود ذكراً - وختان الطفل وغيرها من المناسبات السعيدة التي تستحق مشاركة الأهل والأحباب في إحيائها ^(٣) .

أما الاحتفالات العامة فمنها ما هو ديني ارتبط بمناسبات إسلامية ، ومنها ما هو قومي حرص جميع المواطنين من مسلمين وغير مسلمين على إحيائها وأول الأعياد الدينية هو عيد رأس السنة الهجرية ، وفيه كان السلطان يصرف أرواقاً

(١) ابن الحاج : المدخل ج ١ ص ٢٤٦ .

(٢) المقريزي : السلوك ج ٢ ص ٦٤٢ ، ص ٧٥٤ .

(٣) ابن حجر : إنباء الفهر ج ١ ص ٥٦٠ ، ج ٢ ص ٣٧٦ .

إضافية ، ويطلع الخليفة والقضاء الأربعة إلى القلعة لينشروا السلطان بالعام الجديد (١). وفي حاشي المهرم يكون الاحتفال بعاشوراء فيوسع القادرون على الأهل ، والأقارب واليتامى والمساكين ، كما يتمسكون في هذا اليوم بطبخ الحبوب وزيارة القبور وطلائق البخور . أما طائفة الشيعة فكانوا يحرسون على إقامة عزاء الحسين في ذلك اليوم فيشد شعراؤهم القصائد وفق ما جرت به العادة في مصر القاطمية ، في حين يناظرهم شعراء السنة ويردون عليهم (٢) ثم يأتي بعد ذلك الاحتفال بالمولد النبوي في شهر ربيع الأول فيقيم السلطان خيمة المولد بالقلعة ، وتتلأ الأحواض بعصير السكر والليمون ليقيم منها للوافدين دون تفرقة بين كبير وصغير . ويبدأ الاحتفال بعد الظفر وينتهي عند ثلث الليل فيتعاقب القارئون والمنشدون والوطاظ ، كما تمد الأسحلة بأنواع الحلوى والمأكولات الشهية (٣) . وعند ثلث الليل يبدأ السماع الذي يستمر حتى الفجر ، فتأتي طوائف الصوفية طائفة بعد أخرى ويستمررون في الذكر والسلطان جالس في صدر الخيمة . كذلك يتربط عامة الناس موعد المولد ليقيموا الولائم ويتصدقوا على الفقراء ويظهروا السرور . وكانت بعض حفلات المولد النبوي خاصة بالنساء وعندئذ « تكثر البدع والمخالفات » (٤) .

وكان الاحتفال بدوران الحمل يتم مرتين في السنة في عصر المماليك : الأولى في النصف الأخير من شهر رجب وقد استحدثها السلطان بيبرس لإعلام الناس أن الطريق من مصر إلى الحجاز آمن ، وأن من شاء فلا يتأخر ولا يتخوف ،

(١) السخاوي : التبر المسبوك ص ١٤٥ ، ٢٥٤ .

(٢) ابن الحاج : المدخل ج ١ ص ٢٩٠ — ٢٩١

(٣) سعيد عاشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ص ١٢٩ .

(٤) ابن الحاج : المدخل ج ٢ ص ١١٠ .

وبذلك ، تهب العزومات وتتحرك البواعث فيأخذ من يشاء في التأهب للحج^(١) ، وتكون الدورة الثانية في شوال وهي دورة خروج الحمل ويحتفل فيها بإحراق النفط وعمل الصواريخ ، على حين يخرج الناس من كل مكان للفرجة ويتغالون في زينة الحوانيت والأسواق ، ولا تكون دورة خروج الحمل غالباً إلا يوم اثنين أو خميس ، فتوضع الكسوة - وهي من الحرير الثمين المطرز بالذهب والقصب - على جمل ، ويطوف الحمل بشوارع القاهرة حتى يصل إلى الفسطاط في يوم مشهور^(٢) .

أما شهر رمضان فكانته معروفة عند المسلمين في كل زمان ومكان ، وقد وصف الرحالة ابن بطوطة طريقة احتفال المصريين بروية هلال رمضان في عصر المماليك ، كما وصف غيره من الرحالة الأوروبيين الذين زاروا مصر في ذلك العصر كيفية إحياء الأهل ليالى رمضان بإضاءة الفوانيس والمشاعل في الطرقات والبيوت والحوانيت . هذا فضلاً عن الاحتفالات بالقلعة حيث يقرأ صحيح البخاري وتوزع الصدقات على المستحقين^(٣) ، وفي نهاية رمضان يحل عيد الفطر ليستعد له الناس بعمل الكمك والحلوى ، وإعداد الملابس الجديدة ، وكانت معالم القاهرة تكتظ بالناس سواء في عيد الفطر أو عيد الأضحى ، فتخرج جموعهم إلى شاطئ النيل لاستمتاع المراكب أو إلى القرافة للرقص والغناء ، وفي جميع هذه الأحوال تكثر المفاصد الخلقية^(٤) ، ومثل ذلك يقال عن عيد الأضحى .

أما الأعياد القومية في عصر المماليك فكانت كثيرة ومتنوعة ، منها ما ارتبط بالسلطين مثل الاحتفال بتولية سلطان جديد أو لإبلال السلطان

(١) رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٩٣ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ١٥ ، ٤٢٤ .

(٣) أبو الحسن : النجوم ج ٦ ص ٥٧٩ (طبعة كاليفورنيا) ٩
مورد الاطاعة ص ٩٩ .

(٤) سعيد عاشور : المجتمع المصرى في عصر سلاطين المماليك ص ١٨٩ .

من مرض أو عودته سالماً من سفر أو ظافراً من حرب ، وفي جميع هذه الحالات تزين القاهرة ومصر بالزيينات الفاخرة ، ويخرج السلطان في موكب حافل فيهرع الناس للفرجة وسط قرع الطبول وزغاريد النساء (١) ، وئمة مناسبة سعيدة حرس المصريين منذ أقدم العصور على إحيائها والاحتفال بها كل عام هي عيد وفاة النيل ، وعندئذ يحتفل بكسر الخليج في موكب تسير فيه الحراريق والسفن المزينة بالأعلام ، وعند وصول السلطان أو نائبه إلى مقهاس الروضة يمد سباط كبير من الشواء والحلوى والفاكهة وسط ابتهاج الناس وفرحهم (٢) .

الثورات والفن السياسية :

على أن المدن والقاهرة لم تظل على حال واحد من الهدوء والسكينة والأعياد والاحتفالات طوال عصر المماليك ؛ وإنما كثيراً ما كانت تشتعل الثورات المفاجئة في العاصمة ؛ ولا تلبث أن تمتد أحياناً إلى بعض أنحاء البلاد والمدن الكبرى فتتحول تلك الصورة الهادئة المرحية إلى صورة مضطربة قائمة .

ومعظم الثورات والفن السياسية التي شهدتها البلاد في عصر المماليك كان مصدرها طوائف المماليك أنفسهم . ذلك أن الحقيقة التاريخية الكبرى التي تحكم في تاريخ سلطنة المماليك من أوله إلى آخره ووجهت ذلك التاريخ في داخل دولتهم ؛ هي اعتقاد المماليك اعتقاداً راسخاً حقيقياً بأنهم جميعاً - بحكم أصلهم ونشأتهم وطبيعة التطور الذي مروا به - متساوون ، ولا فرق بين ملوك وآخر إلا بما حباه الله من صفات خاصة كالشجاعة والذكاء والمهارة

(١) المرجع السابق ص ١٩٤ - ١٩٥ .

(٢) لاوولوف على الحياة الاجتماعية في عصر المماليك في سورة مفصلة دقيقة ارجع الى

كتابه :

الملتصع المصري في عصر سلاطين المماليك — للدؤلف .

في استخدام السلاح والقدرة على استقلال الظروف .

ومادام الأمر كذلك ، فإن جميع الممالك اعتقدوا أن لهم حقاً مشروعاً في السلطنة ، والمملوك الطموح مهما تقل رتبته أو يصغر شأنه ، فإنه كان يتطلع دائماً إلى اليوم الذي يصبح فيه أميراً كبيراً ، وعندئذ يستطيع أن يستغل مواهبه في أن ينزع لنفسه دست السلطنة ، مثلما فعل غيره من السلاطين السابقين . ولاشك في أن عدم وجود نظام وراثي أو قاعدة معينة ثابتة لاختيار السلاطين في عصر المماليك ، وتطلع كبار الأمراء دائماً للوصول إلى منصب السلطنة ، أدى إلى كثير من الفتن والثورات والاضطرابات التي شهدناها ذلك العصر ، وبعبارة أخرى فإننا نستطيع أن نقرر أن معظم القلاقل والفتن التي شهدناها عصر المماليك في مصر والشام إنما كان مصدرها رغبة الطموحين من الأمراء في الوصول إلى قمة الهرم المماليكي الكبير واحتلال دست السلطنة ، وكان يكفي أن يرجف بوقاة سلطان أو مرضه أو هزيمة جنوده حتى تضطرب أحوال البلاد^(١) ، وكان يكفي أن يعلن قيام سلطان جديد في الحكم حتى يعلن منافسوه من كبار الأمراء - في الشام أو في مصر - عدم رضاهم عنه وثورتهم عليه ، مما يندب بدور جديد من أدوار الشدة التي اعتادت أن تمر بها البلاد والعباد في ذلك العصر ، وفي جميع تلك الحالات كانت طوائف المماليك العديدة تجد فرصتها سانحة ، فيثور المماليك ويوالوا الاجتماعات الليلية وتأسيس العصابات السرية للهيجان^(٢) ، ثم ينتشرون في الأسواق والطرق لنهب الخوانيت وخطف العمائم وانتزاع الخيول من أصحابها ، بل كانوا يجمعون أحياناً على النساء في بيوتهم وفي الحمامات

(١) ابن لمباس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٣٥ .

المقريزي : اللوك ج ١ ص ٥٠٧ — ٥٠٨ .

(٢) سيرة الظاهر بيبرس ج ٤٩ ص ٢٠ .

فيخطفوه من (١) .

ويضيق بنا المقام عن تتبع هذه الثورات طوال عصر المماليك ، فقد سهقت الإشارة إلى معظمها في صفحات الكتاب السابقة عند الكلام عن كل سلطان من سلاطين دولتي المماليك الأولى والثانية . وسواء كانت هذه الحركات مصدرها بعض كبار أمراء الدولة في الشام أو في مصر ، فإنها انفقت جميعاً في نتائجها وهي إما انتصار السلطان الجديد على خصومه ، وإما مقتله أو نفيه ، وإما فراره واختفائه إلى أن تتاح له فرصة الظهور واسترداد عرشه . أما أثر هذه الحركات في مجرى تاريخ دولة المماليك فكان خطيراً ، إذ صيغ ذلك العصر بصيغة خاصة ليس لها نظير في تاريخ مصر والشام في العصور الوسطى ، وجعله يتصف إلى حد ما بطابع معين من عدم الاستقرار السياسي والاقتصادي والاجتماعي . ويمكن أن نشير إلى ما كان يصحب تلك الفتن من إغلاق الأسواق والحوادث والأوباء التي تفصل بين أحياء المدينة ودروبها فتتعطل جميع مظاهر النشاط العمراني ، وربما استمرت الأوضاع على ذلك بضعة أسابيع يقاسي الناس طواها الجوع والفوضى والفرع (٢) ،

المجاهات والاضطرابات :

ولم تكن الاضطرابات التي تعرضت لها البلاد في عصر المماليك منشؤها التنافس بين كبار الأمراء حول منصب السلطنة أو غضب بعض المماليك بسبب سوء التوزيع الإقطاعي وقلة النفقة المعطاة لهم من السلطان لحسب ، بل وجدت أيضاً أسباب طبيعية كثيرة ما تسببت في إثارة الفتن ونشر الاضطرابات في

(١) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ١٦٤

أبو الحسن : النجوم ج ٥ ص ٤٠١ .

(٢) سعيد هاشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ص ٨٩ .

البلاد. ذلك أن عدم إمكان التحكم في مياه النيل في تلك العصور ، كان يترتب عليه انتشار المجاعات عندما ينخفض الفيضان ، مما يؤدي إلى فساد الزراعة وقلة المحصولات ، وكثيراً ما كانت تلك المجاعات مصحوبة بانتشار الأوبئة والطواعين ، الأمر الذي أفضى إلى موت الآلاف من الناس وقلة الأيدي العاملة ، وبذلك يتوقف معظم مظاهر النشاط العمراني في البلاد .

ويضيق بنا المقام عن تتبع كافة المجاعات والأوبئة التي تعرضت لها البلاد في عصر المماليك ، ولذلك نكتفي بالإشارة السريعة إلى أهمها لنأخذ فكرة عن قسوتها من ناحية وما كانت تعرض له البلاد والعباد بسببها من ناحية أخرى . من ذلك ما حدث سنة ٦٩٤ هـ - ٦٩٥ هـ (١٢٩٥ - ١٢٩٦ م) من توقف نزول الأمطار في الشام ، فاشتد الغلاء واضطر الناس إلى صلاة الاستسقاء^(١) . وفي نفس الوقت - وكان ذلك في عهد السلطان العادل كتبغا - انخفض فيضان النيل عن مستواه فتزايد الغلاء واشتد البلاء ، وجاء الغلاء مصحوباً بانتشار الطاعون فكان يموت بالقاهرة ومصر كل يوم بضعة ألوف . ويبقى الميت مطروحاً في الأزقة والشوارع ملقى في الممرات اليوم واليومين لا يوجد من يدفنه ، لاشتغال الأصحاء بأموالهم والسقماء بأمرائهم^(٢) .

أما وباء سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٩ م) ، فلم يكن له نظير في قسوته ومرعة انتشاره . ولم يكن هذا الوباء قاصراً على دولة المماليك في مصر والشام ، وإنما دهم أقاليم الأرض شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ، جميع أجناس بني آدم وغيرهم ، حتى حيتان البحر وطير السماء ووحش البر^(٣) ، وقد عرف ذلك الوباء في أوروبا باسم الطاعون الأسود ، وحكى المقرئى الكثير عن البلاد

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٨٠٨ .

(٢) يبرز الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ١٨٩ .

(٣) المقرئى : السلوك - حوادث سنة ٨٤٩ هـ ج ٢ ص ١٧٣ .

التي انتشرت فيها ، في آسيا وأوروبا وأفريقية ، فضلا عن جزر البحر المتوسط كذلك يروى المقرئى أنه كان يموت بالقاهرة ومصر في اليوم الواحد بسبب ذلك الوباء ما بين عشرة آلاف وعشرين ألف ، وأن الفلاحين بأسرهم ماتوا فلم يوجد من يضم الروع ، وأن المواشى هلكت ، ومات صيادو السمك في دمياط وهم في سفنهم والشباك بأيديهم مملوءة سمكا ميتاً ، وهكذا أفقر الريف من الزراع وأفقرت المدن من سكانها ، بحيث غدت « القاهرة خالية مقفرة ، لا يوجد في شوارعها مار ، بحيث يمر الإنسان من باب زويلة إلى باب النصر فلا يرى من يزاحمه لكثرة الموتى والاشتغال بهم ، ومعنى ذلك توقف جميع ألوان النشاط العمراني ، فتمطلت أكثر الصنائع ... ، وصارت كتب العلم يتأدى عليها بالاحمال . . . وهدمت جميع الصنائع فلم يوجد سقاء ولا بابا ولا غلام ، حتى المساجد والزوايا أغلقت معظمها وتعتل الأذان من عدة مواضع (١) » .

وفي عصر دولة المماليك الجراكسة انتشرت المجاعات والأوبئة أيضاً عدة مرات ، مما سبب مصائب كثيرة للعباد والبلاد (٢) . وقد حدث في عهد الأشرف قايتباي وحده أن انتشر الطاعون ثلاث مرات ، أشهرها ما كان سنة ٨٩٧ هـ (١٤٩٢ م) . عندما دهم الطاعون بالقاهرة وفشى جملة واحدة ، وقتل في الناس فتكاً ذريعاً ، واستمر الطاعون يفتك بأهل مصر والقاهرة بضعة أشهر حتى انتهى دجملة واحدة ، ومشى نحو بلاد الصعيد (٣) . وقد جرت عادة سلاطين المماليك عند نفشى الطاعون في البلاد أن يخرجوا بعيداً عن العاصمة طلباً للنجاة فيقصدون مرياقوس أو غيرها من المواضع ؛ ولكنهم مع ذلك لم يسلموا أحياناً من الأذى . من ذلك ما يرويه ابن إياس من أن

(١) المقرئى : السالوك ج ٢ ص ٧٧٢ — ٧٨٦ .

(٢) المقرئى : لغاية الأمة ص ٧ وما بعدها .

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٢٨٧ - ٢٩٢ (نشر محمد مصطفى) .

السلطان برسبای أصیب فی طاعون سنة ٨٤١ هـ (١٤٣٧ م) د لحصل له مالیخولیا ، اى ارتباك فی قواه العقلية ، وصار يصدر أوامر غريبة مثل نفی الكلاب إلى الحیزة ومنع النساء من الخروج إلى الطرقات وغيرها (١) .

فی كثير من الأحيان نجد المعاصرين یفسرون تلك الأزمات التي كانت تحل بهم فی ضوء فساد الناس وخروجهم عن طاعة الله وإسرافهم فی المعاصی مثل شرب الخمر وغير ذلك . لذلك نجد فی المراجع المعاصرة أن الدعوة إلى التوبة إلى الله تعالی فی أوقات الأزمات - من مجاعات وأوبئة - فیسارع الناس إلى إراقة الخمر ، والكف عن السيئات عسى أن یتوب الله عليهم ویكشف عنهم الغمة ، وقد لجأ سلاطین المماليك فی أوقات الشدة - مثلما حدث سنی ٧٠٩ ، ٧٨١ ، ٨٣١ ، ٩٢٢ - إلى إصدار الأوامر بإراقة الخمر وتصریم تعاطيها فی مختلف أنحاء البلاد إظهاراً للتوبة (٢) ، ولكن مفعول هذه الأوامر كان لا یستمر طویلاً ، إذ لا یلبث أن يعود الناس إلى سابق وضعهم ولم ینتهروا عما هم فیهِ ، (٣) .

(١) ابن لیاس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٣١ — ٣٢ .

(٢) ابن حجر : لنبأ الفمر ج ٢ ورقة ٢٤٤ ، ٣١٤ ، ٢٤٩ .

المقریزی : السلوك ج ٢ ص ٥٣ — ٥٤ ، ج ٣ ص ٣٥٤ .

العینی : عقد الجمان ، حوادث سنة ٨٠٩ هـ .

(٣) ابن لیاس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٨٥ .

الحياة العلمية والدينية

النشاط العلمى فى عصر المماليك :

زار مهسر سنة ٧٣٧هـ الرحالة البلوى المغربى (١٢٣٦م) فأبدى إعجابه بالشديد بالنشاط العلمى فى البلاد وقال إن مصر منبع العلم^(١) . والحق إن مصر أصبحت على عصر سلاطين المماليك ميداناً للنشاط العلمى واسع ؛ يدل عليه ذلك التراث الضخم من موسوعات أدبية وكتب تاريخية ومؤلفات فى العلوم الدينية تركها علماء ذلك العصر . ويرى السيوطى بين هذا النشاط العلمى الواسع فى مصر بالذات على عصر المماليك وبين إحياء الخلافة العباسية فى القاهرة بعد أن سقطت فى بغداد ، ويقول إنه منذ إحياء الخلافة العباسية فى مصر ، غدت هذه البلاد دحل سكن العلماء ومحف رحال الفضلاء^(٢) . أما ابن حجر فيقول عن بعض علماء الشام وغيرها من البلاد الإسلامية أنهم قالوا عن بلادهم وهذا بلد خفيق عن علمى ، وهجروها إلى مصر^(٣) .

والواقع أنه ما كان لهذا النشاط العلمى أن يزدهر فى مصر فى عصر المماليك لو لا تشجيع بعض سلاطين المماليك للعلم والعلماء . وقد وصف أبو المحاسن السلطان الظاهر بيبرس بأنه كان يميل إلى التاريخ وأهله ميلاً زائداً ويقول سمع التاريخ أعظم من التجارب^(٤) . وهكذا عاد الجامع الأزهر فى عهد الظاهر بيبرس إلى

(١) رحلة البلوى المغربى ورقة ٥٤ .

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٦ .

(٣) ابن حجر : رفع الأصر عن فضاء مصر ورقة ١٦٨ .

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٨٢ .

سابق عهده، قصة اطلاب العلم في مختلف أنحاء العالم الإسلامي؛ وظهر في عصر
بيبرس بعض أعلام الأدب والتاريخ أشهرهم يحيى الدين بن عبد الظاهر وابن
خلكان وجمال الدين بن واصل^(١).

كذلك وجد من سلاطين المماليك — كالسلطان الغورى — من حرص
على عقد المجالس العلمية والدينية بالقلعة مرة أو مرتين أو أكثر كل أسبوع. وقد
بحثت في تلك المجالس مختلف المسائل والمشاكل العلمية والدينية، التي تناقش
فيها الحاضرون من كبار العلماء والفقهاء^(٢). كذلك نسمع عن بعض أمراء
المماليك وأبنائهم في مصر أنهم اشتغلوا بالتاريخ والفقه والحديث واللغة العربية،
بل تصدى بعضهم لإقراء الطلبة والتدريس لهم^(٣).

المدارس والمكتبات :

ولا أدل على رعاية سلاطين المماليك للنشاط العلمى من حرصهم على إنشاء كثير
من المدارس، فضلاً عن المؤسسات الأخرى التي قامت أحياناً بوظيفة المدارس
مثل المساجد. والمعروف أن السلطان صلاح الدين عنى عناية خاصة بإنشاء
المدارس وأنشأ بعض المدارس الشهيرة مثل المدرسة الناصرية والمدرسة الصلاحية
والمدرسة القممحية^(٤). ولكن إذا كان صلاح الدين وخلفاؤه من بنى أيوب قد
استمدهوا من إنشاء المدارس أن تكون قبل كل شيء مراعى للمشر المذهب السنى
ومحاربة العقيدة الشيعية في البلاد؛ فإن سلاطين المماليك أكثروا من إنشاء
المدارس لإظهاراً لشعور التقوى والزلفى من ناحية ولتخذوا من المدرسة أداة

(١) محمد جمال الدين سرور : دولة الظاهر بيبرس ص ١٥٥ .

(٢) عبد الوهاب عزام : مجالس الغورى ص ٤٩ .

(٣) السخاوى : التبر المسبوك ص ٢٢١ ، ٤١٥ .

(٤) المقرئى : المواظ ج ٢ ص ٣٦٣ — ٣٦٤ (بولاق) .

تضمن بقاء الحكم في أيديهم وتساعد على تدعيم مركزهم في أعين الشعب (١). ومن المدارس العديدة التي أسسها سلاطين المماليك المدرسة الظاهرية نسبة إلى السلطان الظاهر بيبرس الذي وضع أساسها سنة ١٢٦١؛ والمدرسة الناصرية التي شيدها السلطان الناصر محمد ١٣٠٣، ومدرسة السلطان برقوق التي أنشأها بين القصرين سنة ١٣٨٦. ولم تكن جميع المدارس التي شيدها سلاطين المماليك في المدن الكبرى، وإنما شيد في القرى والريف مثل مدرسة سرياقوس التي أنشأها السلطان برسباي. ومن جهة أخرى فإن سلاطين المماليك لم يقتصروا في إنشاء المدارس على مصر؛ وإنما أقاموا كثيراً منها في مختلف أنحاء دولتهم الواسعة. ومن ذلك ما نسمعه عن أن السلطان قايتباي أنشأ مدارس عديدة في مصر والشام والحجاز، كما أنشأ السلطان الغوري مدرسة في مكة. أما أمراء المماليك فلم يكونوا أقل حماسة لإنشاء المدارس من السلاطين. ومن أشهر المدارس التي أقامها أمراء المماليك المدرسة الخالية أو المحمودية التي بناها سنة ١٤٠٨ الأمير جمال الدين محمود، وهو أحد أمراء السلطان فرج بن برقوق. وقد تعرض المقرئ لهذه المدرسة فوصفها بقوله إنها «من أحسن مدارس مصر» (٢).

وجرت العادة منذ الفواغ من إنشاء مدرسة في عصر المماليك أن يحتفل بافتتاحها احتفالاً كبيراً يحضره السلطان والأمراء والفقهاء والقضاة والأعيان، ويمد سماءها فاخر في صحن المدرسة به ألوان الأطعمة والحلوى والفواكه. وبعد أن يخلع السلطان على كل من أسهم في بناء المدرسة من المعلمين والبنائين والمهندسين، يعين المدرسة موظفيها من المدرسين والفقهاء والمؤذنين والقراء

(1) Ibrahim Salama : L'Enseignement Islamique en Egypte, pp . 60 — 64 .

(٢) المقرئ : الماوعظ ج ٢ ص ٣٩٥ — ٣٩٦ .

والفراشين وغيرهم (١).

وكانت وظيفة التدريس بالمدرسة جليلة القدر ، يخلع السلطان على صاحبها ويكتب له نوقما من ديوان الإنشاء يختلف باختلاف المادة التي يدرسها المدرس تفعيماً كانت أو حديثاً . وفي هذا التوقيع يقدم السلطان النصيح للمدرس بأن يظهر مكنون علمه للطلاب ، ويقبل على الدرس وهو هالق الوجه مفرح الصدر ليستميل إليه طلبته ويربهم كما يربي الوالد ولده ، (٢) . كذلك طلب من المدرس أن ينظر في طلبته ويحتم كل وقت على الاشتغال (٣) .

وجرت العادة على تعيين معيبد أو أكثر لكل مدرس ، ليعيد للطلبة ما ألقاه عليهم المدرس ليفهموه ويحسنوه ، كما يشرح لهم ما يحتاج إلى الشرح (٤) أما الطلبة فقد تمتعوا بحرية اختيار المواد التي يدرسونها بحيث لا يمنع فقيه أو مستفيد من الطلبة ما يختاره من أنواع العلوم الشرعية (٥) . وكثيراً ما اعتمد هذا الاختيار على مكانة المدرس وشهرته العلمية ، بحيث ينتقل طالب العلم من بلد معيبد ليتنقل على فقيه أو محدث مشهور (٦) فإذا أتم الطالب دراسته وتأهل للفتيا والتدريس ، أجاز له شيخه ذلك ، وكتب له إجازة يذكر فيها اسم الطالب وشيخه ومذهبه وتاريخ الإجازة وغير ذلك . ولا شك في أن قيمة هذه الإجازة كانت تتوقف على سمعة الشيخ الذي صدرت عنه ومكانته العلمية (٧) .

(١) ابن حجر : لنباه النور ج ١ ص ٧٧٢ .

المقريزي : السلوك ج ٣ ص ٤٦٤ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ١١ ص ٢٤٦ — ٢٤٧ .

(٣) الزويري : نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ٣٤٩ .

(٤) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٧٠٠ .

(٥) الزويري : نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ١٥ .

(٦) سعيد عاشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ص ١٤٥ .

(٧) القلقشندي : صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٢٢ — ٣٢٦ .

والواقع أن المدارس في عصر المماليك تمتعت بدخل مالي ثابت مكنتها من أداء رسالتها وتدعيم نظامها . أما هذا الدخل فكان مصدره الأوقاف — من أراض وبيوت وأموال ومعاصر وغيرها — ؛ وهي أوقاف كان ينفق من ريعها على المدرسة ومن فيها من مدرسين وطلاب علم وموظفين (١) .

المكتبات :

وإذا كانت الحياة العلمية قد نشطت في عصر المماليك ، فإنه يلاحظ أن الركن الأول للنشاط العلمي في أي زمان ومكان هو الكتب والمكتبات . فبدون الكتب والمكتبات لا تستطيع المدارس أن تؤدي مهمتها ، ولا يستطيع المتعلمون والمعلمون أن يواصلوا رسالتهم . لذلك لا عجب إذا شهد عصر المماليك نهضة منقطع النظير في التأليف من ناحية وفي جمع الكتب وإنشاء المكتبات والعناية بها من ناحية ثانية . وكان سلاطين المماليك أنفسهم أول من قدر أهمية الكتب فاحتفظوا في قلعة الجبل بخزانة كتب جليلة القدر ، حوت مجموعة ضخمة من الكتب الدينية وغير الدينية . وقد ظلت هذه المكتبة طامرة بالكتب محتفظة بأهميتها ، رغم الحريق الذي تعرضت له سنة ١٢٩٢ على عهد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون (٢) .

أما مكتبات المدارس والجوامع في عصر المماليك فكانت على درجة فائقة من الإعداد والعناية . فإذا كان السلطان الظاهر بيبرس قد أنشأ المدرسة الظاهرية ، فإن المراجع تشير إلى أنه ألحق بتلك المدرسة خزانة كتب جليلة تشتمل على مجموعة ضخمة من المراجع في مختلف العلوم (٣) . وكذلك حرص السلطان المنصور قلاوون

(١) سعيد هاشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ص ١٤٧ — ١٤٨ .

(٢) انقريزي : المواظ ج ٢ ص ٢١٢ .

أبو الحسن : النجوم ج ٨ ص ٣٣ .

(٣) عبد اللطيف إبراهيم علي : المكتبة المملوكية ص ١٦ .

على أن يزود مكتبة المدرسة المنصورية بالكثير من كتب التفسير والحديث والفقه واللغة والطب والأدبيات ودواوين الشعراء^(١). وكذلك المدرسة الناصرية التي أقامها السلطان الناصر محمد، إذ أشأ بها «خزانة كتب جليلة».

ولم يقل سلاطين المماليك الجراكسة عناية بالكتب عن سلاطين دولة المماليك الأولى أو الأتراك، فنسمع عن خزان الكتب العامة التي ألحقها سلاطين الجراكسة مثل الظاهر برقوق والمؤيد شيخ والأشرف قايتباي والأشرف قانصوه الغوري بمدارسهم^(٢). هذا مع ملاحظة أن خزانات الكتب في عصر المماليك لم تلحق بالمدارس لحسب وإنما ألحقت أيضاً بالخانقوات والجوامع، وذلك تحقيقاً وتعميماً للفائدة العلمية المرجوة. وفي جميع الحالات قام بالإشراف على خزانة الكتب «خازن الكتب» ومهمة ترتيب الكتب وتنظيمها وحفظها وحجبها وتزيمها بين حين وآخر؛ فضلاً عن إرشاد القراء إلى ما يلزمهم من مراجع لذلك كان يختار لخزانة الكتب عادة فقيهاً أو عالماً يراعى فيه سعة العلم والأمانة^(٣).

وكانت عملية تغذية المكتبات بالكتب مستمرة، فبالإضافة إلى مجموعة الكتب التي يحبسها صاحب المدرسة على خزنتها، استمرت المكتبات تحصل على جديد من الكتب إما عن طريق الهدايا والهبات وإما عن طريق النسخ وإما عن طريق الشراء^(٤). ولعل صعوبة نسخ الكتب والحصول عليها في ذلك العصر، هي التي تطلبت تحريم إعادة الكتب خارجياً تحريماً يائناً إلا في حالات نادرة خاصة. ومعنى ذلك أن الاستفادة من الكتب اقتصرت على الاطلاع

(١) النويري: نهاية الأرب ج ٢٩ ورقة ٢٨٢.

(٢) عبد اللطيف إبراهيم: المكتبة المملوكية ص ٢٤ — ٣٣.

(٣) سعيد عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ص ١٤٦.

(٤) عبد اللطيف إبراهيم: المكتبة المملوكية ص ٤٩.

الداخلي وفق شروط خاصة تضمن المحافظة على المكتب وعدم استهلاكها (١).

المطاب :

ولإذا كانت المدارس في عصر الماليك تمثل المهاد العليا أو الجامعات فإن المكتاب نهضت عندئذ بالمرحلة الأولى من مراحل التعليم . ويبدو أن الهدف الأساسي من إنشاء معظم المكتاب كان تعليم أيتام المسلمين ، ولذلك أقبل الخيرة على إقامتها وحبس الأوقاف عليها رغبة في الثواب . وكان يقوم بتعليم الأطفال في المكتب « المؤدب » الذي أطلق عليه أحيانا اسم « الفقيه » ، واشترط فيه أن يكون « خيرا دينيا أمينا على أطفال المسلمين ، متينا الخلق هفيا متزوجا عارفا بصناعته صالحا للتعليم » . وساعد المؤدب في عمله « العريف » وهو أشبه بالمعيد في المدارس ، إذ كان يعاون المتخلفين من الأطفال ، ويعرضون عليه ألواحهم في غيبة المؤدب (٢) . وربما كان في المكتب الواحد أكثر من مؤدب وعريف إذا تطلبت كثرة الأطفال ذلك ، بحيث يكون لكل مؤدب عدد معين من الأطفال يقوم بالإشراف عليهم وتعليمهم . وقد ذكر النويري كيف أن السلطان المنصور قلاوون رتب في مكتب السبيل - الذي أنشأه - فقيهين - « يعلمان من كان صغيرا من أيتام المسلمين كتاب الله تعالى ، ورتب لهما جامكية في كل شهر وجراية في كل يوم ، وهما لئكل منهما في كل شهر ثلاثون درهما ، وفي كل يوم من الخبز ثلاثة أرطال ، وكسوة في الشتاء وكسوة في الصيف . ورتب للأيتام لئكل منهم في كل يوم رطلان خبزا ، وكسوة في الشتاء وكسوة في الصيف » (٣) .

(١) المرجع السابق ص ٦٥ .

(٢) سميد هاشور : مصر في عصر دولة الماليك البحرية ص ١٩٠ - ١٩١ .

(٣) النويري : نهاية الأرب ج ٢٩ ص ٢٨٢ - ٢٨٣ .

وكانت مناهج التعليم في هذه المكاتب تدور حول القراءة والكتابة وتعليم القرآن والحديث وآداب الدين ، فضلا عن مبادئ الحساب وقواعد اللغة وبعض الشعر . ويبدأ الأطفال بالكتابة في ألواح ثم ينتقلون بعد ذلك إلى الكتابة بالمداد ؛ فإذا بلغ الطفل الحلم وزالت عنه صفة اليتيم ، صرف من المكتب ليحل محله مستحق آخر ، وقد أوصى المؤدب بأن يحسن معاملة الأطفال ولا يقسو عليهم ولا يضربهم ، إلا إذا أساء صبي منهم الأدب وعندئذ يضربه المؤدب ضربا وسطا يؤلم ولا يؤذي^(١) .

فإذا أتم الصبي حفظ القرآن في المكتب ، احتفل به احتمالا كبيرا يسمى « الاصرافه » فتزين أرض المكتب وحيطانه وسقوفه بالحرير ، ويقوم أهل الصبي صاحب الاصرافه بنزته بقلائد الذهب والعنبر ، ثم يركبونه على فرس أو بغلة مزينة ويحملون أمامه أطباقا فيها ثياب من حرير وعيائم ، على حين يمشى بين يديه بقية صبيان المكتب ينشدون طوال الطريق حتى يوصلوه إلى بيته . وعند البيت يدخل المؤدب ويعطى اللوح لأم صاحب الاصرافه فتعطيه ما تقدر عليه من المال^(٢) .

النفقات الدينية :

أما عن الحياة الدينية . فالملاحظ أن مهر شهدت في عصر المماليك نشاطا دينيا منقطع النظير . وقد يكون السر في هذا النفقات الدينية الكبير هو شعور المماليك أنفسهم بأنهم أغراب عن البلاد وأهلها ، مقتصبون للحكم والعرش من أصحابه الشرعيين ، ولذلك أرادوا أن يتخذوا من الدين ورجاله ستارا يخفي

(١) ابن الأخوة : معالم القربة في طلب الحسبة ص ١٧٠ — ١٧١ .

(٢) ابن الحاج : المدخل ج ٢ ص ٣٣١ — ٣٣٣ .

هذه الحقائق عن أعين المحكومين ، ويقربهم إلى قلوب الشعب . وما دام الماليك مسلمين ، يؤمنون بالله ورسوله ، ويحرصون على إقامة شعائر الدين وإحياء سنن الأوائل ، ويعمرون مساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ، فهم إذاً حكام صالحون ، ولا داعى للتفكير كثيراً فى أصلهم وطريقة وصولهم إلى الحكم .

وثمة ملاحظة أخرى ، هى أن جزءاً كبيراً من النشاط الدينى فى عصر الماليك كان موجهاً لخدمة المذهب السنى ومحاربة المذهب الشيعى . ذلك أنه على الرغم من الجهود الكبيرة التى بذلها صلاح الدين الأيوبي ومن خلفه من سلاطين بنى أيوب لمحاربة الشيعة والتشيع فى مصر ، إلا أن الكثير من آثار المذهب الشيعى ظلت قائمة فى عصر للماليك . وقد لجأ سلاطين الماليك إلى استخدام العنف أحياناً لكبت الشيعة ، حتى أن الناس فى ذلك العصر كانوا إذا أرادوا أن يكيدوا لشخص دسوا عليه من رماه بالتشيع ، فتصادر أملاكه وتنال عليه العقوبات والإهانات د حتى يظهر التوبة من الرفض ، (١) . وفى الوقت نفسه حارب سلاطين الماليك ظاهرة التشيع عن طريق غير مباشر ، فأمر السلطان الظاهر بيبرس ١٢٦٧ (٥٦٦هـ) باتباع المذاهب السنية الأربعة « وتحريم ما عداها » ، كما أمر بالأيولى قاضى ولا تقبل شهادة أحد ولا يرشح لإحدى وظائف الخطابة أو الإمامة أو التدريس د ما لم يكن مقلداً لأحد هذه المذاهب ، (٢) .

وثمة وسيلة اتخذها سلاطين بنى أيوب ، وابعثهم فيها سلاطين الماليك ، لمحاربة المذهب الشيعى والحد من انتشاره فى البلاد ، هى إنشاء المدارس . وقد سبق أن تكلمنا عن أهمية المدرسة من الناحية العلمية ، ولكن الحقيقة الكبرى التى لا ينبغي أن تغيب عن أذهاننا هى أن صلاح الدين عندما أنشأ أولى المدارس

(١) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٣ ص ٤٦ .

(٢) المقرئى : المواقف ج ٤ ص ١٦١

في مصر ، إنما استهدف أن تكون المدرسة - قبل أى اعتبار آخر - مركزاً لتدعيم الفقه السني . وقد راعى هذا المبدأ خلفاء صلاح الدين ، فأقاموا المدارس واشترطوا أن تكون كل منها خاصة بتدريس مذهب أو مذهبين من مذاهب السنة الأربعة ، حتى كانت المدرسة التي أنشأها السلطان الصالح نجم الدين أيوب سنة ١٢٤٣ (٥٦٤٠ هـ) ، وهي أول مدرسة بنيت في القاهرة على المذاهب الأربعة - الشافعي والمالكي والحنفي والحنبلي - واستمرت هذه المدرسة تؤدي رسالتها في خدمة السنة حتى القرن التاسع الهجري - الخامس عشر الميلادي - على أيام المؤرخ نقي الدين المقرئى^(١) . وهكذا سار المالكي على سنة الأيوبيين في إنشاء المدارس ، فحرصوا على أن يجعلوا منها أداة للخدمة السنة ومذاهبها . من ذلك ما أورده النويرى من وصف للمدرسة الناصرية التي أقامها السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، إذ يقول أنه كان بها أربعة أواوين كل منها خاص بأحد مدرسي المذاهب الأربعة ، فالمدرس المالكي اختص بالإيوان القبلي والشافعي بالإيوان البحري والحنفي بالإيوان الشرقي والحنبلي بالإيوان الغربي^(٢) .

ولم تكن المدارس هي المؤسسات الدينية الوحيدة التي أكتسبت عصر الماليك طابعه الديني الخاص ؛ بل شهد ذلك العصر إقامة مؤسسات أخرى عديدة مثل المساجد والزوايا وغيرها ، والملاحظ أن كلام المدرسة والجامع في ذلك العصر ، قامت بدور مزدوج في خدمة الدين والعلم ، ولكن الفارق بين الحالتين هو أن المدرسة - كما يتضح من اسمها - استهدفت أولاً خدمة العلم وجاء اهتمامها الديني ضمناً عن طريق تدريس العلوم الدينية مثلاً ؛ وبالعكس كان الهدف الأول من الجامع أو المسجد خدمة الدين وإحياء شعائره وبعد ذلك جاء استخدام بعض المساجد في التدريس ليحقق غرضاً آخر ثانوياً ، لأن

(١) المقرئى : المواظ ج ٢ ص ٣٧٤ (بولاق) .

(٢) النويرى : نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ٣٤١ وما بعدها .

العلوم الدينية — من فقه وحديث وتفسير — احتلت مكان الصدارة في دراسات ذلك العصر .

والواقع أن النشاط الدينى فى عصر المماليك تطلب إقامة دمالا يكاد يخصص من المساجد ، وبخاصة فى مصر والشام . وقد قدر المقرئى عدد المساجد التى تقام بها الجمعة بمصر والقاهرة بمائة وثلاثين مسجداً ، فى حين قدرها خليل ابن شاهين الظاهرى بأكثر من ألف مسجد (١) . وفى عهد السلطان الناصر محمد ، شيد السلطان الناصر وأمرؤه ثمانية وعشرين مسجداً وكان إذا تم بناء جامع أو مسجد رتب له خطيب وخدم واحتفل بافتتاحه فى حفل كبير (٢) .

التصوف والزوايا :

وهناك ظاهرة واضحة انصفت بها الحياة الدينية فى مصر على عصر سلاطين المماليك ، هى انتشار التصوف واتساع نطاقه . ويعمل الباحثون هذه الظاهرة بكثرة من وفد على مصر فى ذلك العصر من مشايخ الصوفية المغاربة والأندلسيين مثل السيد أحمد البدوى وأبى الحسن الشاذلى وأبى العباس المرسى وأبى القاسم القبارى ، وهؤلاء وغيرهم ضاقوا بالحالة التى وصل إليها المسلمون فى المغرب والأندلس فهجروا بلادهم إلى المشرق ، حيث صادف أسلوهم قبولا كبيرا فى مصر بالذات . والمعروف فى التاريخ أن حركات العزلة والانقطاع للعبادة تقوى دائما نتيجة لعدم رضى الناس عن أوضاعهم وتآلمهم لسوء أحوالهم ، فينهجرون نهجا دينيا ويحاولون الابتعاد ما أمكن عن متاع الدنيا وزخرفها همى أن يتوب الله عليهم ويبدل حالهم (٣) .

(١) المقرئى . المخطوط ج ٤ ص ٩١

خليل بن شاهين الظاهرى : زبدة كشف الممالك ص ٣١ .

(٢) سعيد عاشور : المجتمع المصرى ص ١٥٩ وما بعدها .

(٣) سعيد عاشور : المجتمع المصرى ص ١٦٢ .

وكان المسلمون في عصر بالذات في القرن السابع الهجري يشعرون بسوء أحوالهم نظرا للأخطار التي تعرضوا لها من جانب الصليبيين والتتار من ناحية فضلا عن تحكم المماليك فيهم واستئثارهم بخيرات البلاد واستبدادهم بأهلها ، وكثرة الفتن واختلال الأمن ، فضلا عن تعدد المجاعات والأوبئة بين حين وآخر . لذلك صادفت دعوة الصوفية استجابة قوية من المصريين ، فازدادت أعدادهم في سرعة وأطلقوا على أنفسهم اسم الفقراء ، إيمانا في لصق صفة الزهد بهم .

وانقسم الصوفية إلى فرق عديدة ، لكل منها شيخها وشعارها ، فالطائفة الأحمدية مثلا نسبت إلى شيخها أحمد البدوي وشعارها اللون الأحمر ، والرقاعية نسبت إلى أبي العباس أحمد المعروف بابن الرفاعي وشعارها اللون الأسود وهكذا وأقامت كل طائفة شيخا لها ، وعند موت شيخ الطائفة يخلفه خليفة يخلع عليه السلطان في القلعة ثم يغادرها في حفل كبير وقد أحاط به أتباعه^(١) . فإذا ارتبط أحد الفقراء بشيخ من مشايخ الصوفية وأصبح من مريديه ، ألبسه الشيخ خرقة التصوف ، والتزم المريد بطاعة شيخه طاعة عمياء^(٢) . وبالغ بعض شيوخ الصوفية في عصر المماليك ، فاشترطوا في العهد الذي يأخذونه على مريديهم ، ألا يبقى المريد تصرف في ماله ولا زوجته ولا نفسه .

ومن المعروف أن حياة الصوفية قامت على أساس التقشف في الملابس والمأكل حتى بالغ بعضهم في ذلك فلبسوا المرقع من الثياب وصبروا على الجوع والعطش بضعة أيام . ولكن بعض الصوفية بالغوا في التطرف ، فنشأت عن ذلك طائفة المجاذيب أو الدراويش . وقد اشتهر هؤلاء الدراويش في عصر المماليك بأفعالهم الغريبة التي زعموا أنها من الدين ، فخلق بعضهم رأسه ولحيته وحاجبيه ، وأزال

(١) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٧٨

(٢) الشعراي : لوائح الأنوار ١٣ ص ٢٤٢ .

رموش عينيه ، حتى بدوا في صورة مخيفة أثار دهشة من رآوهم من الرحالة المعاصرين (١) .

وقد استتبع انتشار التصوف وكثرة الصوفية في عصر المماليك انتشار البيوت الخاصة بالصوفية ، وهي التي أطلق عليها خانات و ربط وزوايا . ذلك أن سلاطين المماليك وأمراءهم عنوا عناية فائقة بإنشاء بيوت الصوفية فشيّدوا الكثير منها ، وحبسوا عليها الأوقاف السخية . وكان الأفقر والأحوج يقدم للنزول بالخانقاه ، وبعد ذلك يأتي الفقراء المغتربين ، كما كان يفضل الأعزب على المتزوج .

وجرت العادة أن يعين لكل خانقاه شيخ أو أكثر وعدد من الصوفية ، واشترط في شيخ الخانقاه أن يكون من جماعة الصوفية ممن عرف بصحبة المشايخ ، وألا يكون قد اتخذ من التصوف حرفة (٢) وقد كوّنت كل خانقاه وحدة قائمة بنفسها ، بداخلها عدد معين من الخلوات خصصت كل منها لأحد الصوفية . وكان للصوفية في معيشتهم دخل زواياهم آداب خاصة وقواعد مرعية التزموا بها وأفاض المعاصرون في وصفها (٣) . أما الربط الخاصة بالنساء فكان الغرض منها أن تكون كالمدع للنساء والأرامل ، أي ملاجئ لهن . غير أن حياة الصوفية لم تلبث أن تغيرت أو أواخر عصر المماليك فتغير وضعهم من الصلاح إلى الفساد ، وتخلوا عن النظم والآداب التي عرفوا بها بين الناس مما أثار استنكار المعاصرين (٤) .

(١) سميّد ماحور : المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ص ١٩٦ .

(٢) حجة وقف بيبرس الجاشنكير (المحكمة الشرعية) .

(٣) المفريزي : المواظ على ص ٢٧٤ ، رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٧٣ .

(٤) سميّد ماحور : المجتمع المصري ص ١٧٤ - ١٧٥ .

(٢٣ - العصر المماليكي)

الخطوة العباسية :

وثمة عمل خطير تم في عصر المماليك وترتبت عليه نتائج هامة بالنسبة لتاريخ مصر والعالم الإسلامي ، هو إحياء الخلافة العباسية بمصر . ذلك أن العالم الإسلامي أخذ يحس بفراغ كبير بعد سقوط الخلافة العباسية في بغداد على أيدي المغول سنة ١٢٥٨ ، إذ أمسى المسلمون بدون خليفة ، وهو أمر لم يعتادوه منذ وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام .

وكان من المتعذر أو المستحيل بعد مقتل الخليفة المستعصم العباسي أن يخلفه أحد أبناء بيته في بغداد ، إذ غدت حاضرة العباسيين قاعدة للمغول الوثنيين الذين لم يكتفوا بقتال خليفة المسلمين وإنما أحرقوا جوامعهم وهدموا مساجدهم . لذلك أراد بعض حكام المسلمين في البلدان المجاورة أن يفتنموا الفرصة لإحياء الخلافة في بلادهم ، مما يعود على من ينبجح في ذلك بالمكانة السامية بوصفه حامى الخلافة العباسية المتمتع بعظمتها وبيعتهما (١) .

من ذلك ما يقال من أن الناصر يوسف الأيوبي - صاحب حلب ودمشق عند قيام دولة المماليك - فكرة عقب سقوط الخلافة العباسية في بغداد في استمالة أحد أبناء البيت العباسي الفارين من وجه التتار إلى مقر إمارته ببلاد الشام ليعلمنه خليفة ، ويجنى من ذلك بعض المكاسب السياسية التي تمكنه من الصمود في وجه المماليك بمصر . ولكن سرعة تطور الأحداث إلى صحت قيام دولة المماليك لم تمكن الناصر يوسف من تحقيق غرضه . كذلك فذكر السلطان المظفر قطز في إحياء الخلافة العباسية ، ومن ذلك ما يذكره السيوطي من أن قطز علم وهو بدمشق - عقب انتصاره على المغول في عين جالوت - بوصول أحد أمراء بني العباس . فأمر بإرساله إلى مصر حتى يتخذ العدة لإعادته إلى

(١) سفيد عبد الفتاح هاشور : الظاهر بغير من ٤٧ .

بغداد (١). غير أن العمر لم يمل فطر لينفذ مشروعه الخاص بإحياء الخلافة العباسية في بغداد .

وقد شامت الظروف أن يكون السلطان الظاهر بيبرس هو صاحب فكرة إحياء الخلافة العباسية في مصر بالذات . ومهما يقال من أن بعض الحكام المسلمين في بلاد الشام ومصر قد فكروا في إحياء الخلافة العباسية قبل بيبرس ، فإن هذه المشروعات لم تتحقق ، فضلا عن أن أحدها لم يتجه نحو التفكير في إحياء الخلافة العباسية في القاهرة بالذات ، مما ضمن للظاهر بيبرس في التاريخ فخر تنفيذ الفكرة عمليا من ناحية ، وفخر ربط الخلافة العباسية في ذلك الدور الجديد من أدوار تاريخها بمصر والقاهرة من ناحية أخرى (٢).

ذلك أن الأمير علاء الدين البندقدار نائب السلطان الظاهر في دمشق كتب إليه يخبره بأن أحد بنى العباس - وهو الأمير أبو القاسم أحمد ابن الخليفة الظاهر أبو نصر محمد بن الناصر لدين الله أحمد بن المستضيء لدين الله العباسي - وصل إلى دمشق ومعه جماعة من عرب بنى مهنا يشهدون على صحة نسبه . وأنه يريد أن يلحق بالسلطان الظاهر بيبرس بالقاهرة وكان أن وجد بيبرس فرصته في مجيء ذلك الأمير ، فرد على الأمير البندقدار يأمره بالقيام في خدمته وتعظيم حرمة ، كما أمره أن يرسل معه حججا إلى مصر . وهكذا غادر الأمير العباسي دمشق وفسار بأوفر حرمة إلى جهة مصر ، وفي القاهرة استقبل الأمير أحمد استقبالا حافلا ، فخرج السلطان إلى لقائه ومعه الوزير وقاضى القضاة وجمهور كبير من أعيان القاهرة وأهلها ، كما خرجت اليهود بالتوراة والنصارى بالإنجيل لاستقباله . وكان يوم دخوله القاهرة من الأيام

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٣١٨ .

(٢) سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ص ٤٨ .

المشهود ، إذ سار في شوارع القاهرة وقد لبس الشعار العباسي ، حتى صعد قلعة الجبل وهو راكب ، فأزله السلطان في مكان جليل قد هيء له بها ، وبالغ في إكرامه وإقامة ناموسه ،^(١) .

ولم يمض على وصول الأمير أحمد العباسي ثلاثة أيام حتى عقد السلطان بيبرس مجلساً بقاءة الأعمدة في القلعة لمبايعة الأمير العباسي بالخلافة . وقد حضر ذلك المجلس جمع حافل من القضاة ونواب الحكم والعلماء والفقهاء وأكابر المشايخ وأعيان الصوفية والتجار ووجوه الناس ، في حين د جلس السلطان متأدياً إلى جانب الأمير أحمد ، فلم يستخدم كرسيًا أو مرتبة أو مسنداً ولما اكتمل الجمع شهد العربان وخدام من البغادة بصحة نسب الأمير أحمد العباسي ، وأقر هذه الشهادة أيضاً بعض القضاة والفقهاء ، قبل قاضي القضاة تاج الدين تلك الشهادات وسجلها ، ثم بايعه بالخلافة .

ولم يكد قاضي القضاة يفعل ذلك حتى تقدم السلطان بيبرس وبايعه أيضاً د على كتاب الله وسنة رسوله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله وأخذ أموال الله بحقوقها وصرفها في مستحقها^(٢) . وبعد السلطان بايع جميع الناس د على اختلاف طبقاتهم الخليفة الجديد ، كما كتب بيبرس إلى سائر الملوك والنواب خارج مصر لكي يأخذوا البيعة للخليفة العباسي الجديد الذي لقب بلقب المستنصر بالله ، وأمرهم بأن يدعى له على المنابر ، ثم يدعى للسلطان بعده وأن تنقش السكة باسمهما . أما الخليفة العباسي الجديد ، فقد قام بدووه بتقليد السلطان الظاهر بيبرس البلاد الإسلامية . ومعنى ذلك أن

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٤٤٨ — ٤٤٩ .

(٢) النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ص ١٨ — ١٩ (مخطوط) .

المقرئى : السلوك ج ١ ص ٤٥٠ .

سلاطين المماليك أصبحوا في نظر المعاصرين منذ ذلك الوقت أصحاب حق شرعي في الحكم بعد أن غدوا متمتعين ببيعة الخلافة العباسية .

وقد تم ذلك كله يوم الاثنين ثالث عشر جمادى الأولى سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦١ م) . وفي يوم الجمعة التالي مباشرة صلى الخليفة بالناس في جامع القلعة ودعا في الخطبة الملك الظاهر بيبرس ، فسر الظاهر بذلك « وثر عليه جملا مستكثرة من الذهب والفضة »^(١) . وهكذا قضى الخليفة المستنصر بأقدأيامه في هناء بين ربوع القاهرة ، فتارة يصحبه السلطان للنزهة في النيل ومشاهدة السفن الحربية وهي تقوم بمناوراتها وألعابها على صفحة الماء ، وطورا يخرج مع السلطان إلى بعض البساتين خارج القاهرة . ثم إن الظاهر بيبرس لم يقنع بكل ذلك وإنما أراد أن يجمع جميع أمراء المملكة ويقرأ عليهم تقليد الخليفة الملك الظاهر في اجتماع عام وكان أن عقد ذلك الاجتماع في المطرية ، وسمع جميع الأمراء تقليد الخليفة للسلطان « الديار المصرية والبلاد الشامية والديار بكرية والحجازية واليمنية والفراتية وما يتجدد من الفتوحات غورا ونجدا » .

ولما فرغ القاضي فخر الدين بن لقمان - صاحب ديوان الإنشاء - من قراءة ذلك التقليد ، أحضر السلطان مظاهر خلعة السلطنة وهي حبة بنفسجية اللون وحمامة سوداء وطوق من ذهب وسيف ، فلبسها بيبرس وانجه في مركب كبير نحو القاهرة ، فدخلها من باب النصر وشق القاهرة إلى القلعة وسط الزينات والأفراح ووضع الخلق بالدعاء بخلود أيامه وأعز أنصره^(٢) . على أن هذه المظاهرة الضخمة التي صحبت لإحياء الخلافة العباسية في القاهرة ،

(١) المرجع السابق ٩

ابن لباس : بدائم الزهور ج ١ ص ١٠١ .

(٢) المعريزي : السلوك ، ج ١ ص ٤٥٧ .

لم تحل دون تشكيك بعض المؤرخين في صحة نسب الخليفة المستنصر بالله . من ذلك أن المؤرخ أبا الفدا يقول في حوادث سنة ٦٥٩ هـ : « قدم إلى مصر جماعة من العرب ومعهم شخص أسود اسمه أحمد زعموا أن ابن الإمام الظاهر بالله . » كما يقول أبو الفدا في موضع آخر : « وبرز الملك الظاهر والخليفة الأسود . » أما مفضل بن أبي الفضائل فيسمى هذا الخليفة « المستنصر بالله الأسود » (١) .

وهكذا غدت القاهرة المركز الجديد للخلافة العباسية ، وظل الخلفاء العباسيون يتعاقبون واحداً بعد آخر في مصر حتى الفتح العثماني لهذه البلاد سنة ١٥١٧ . وجدير بالذكر أن السلطان الظاهر بيبرس وضع قواعد السياسة التي اتبعها سلاطين المماليك بمصر تجاه الخلافة العباسية ؛ إذ لم يلبث الخليفة العباسي أن أصبح شبه محجور عليه في القاهرة . فلا يتصل به أحد من المسؤولين في الدولة دون إذن السلطان . وبعبارة أخرى فإن الوضع الذي استقر عليه حال الخلفاء العباسيين في مصر ، صار أن يفوض الخليفة الأمور العامة إلى السلطان ويكتب له عنه عهداً بالسلطنة ، ويدعى له قبل السلطان على المنابر ، وفيما عدا ذلك يستعبد السلطان بكافة شئون الدولة ، في حين يقنع الخلفاء بالتردد على أبواب السلاطين والأمراء لتهنئتهم بالشهور والأعياد (٢) . وقد هجر المقرئ عن ذلك الوضع ، فقال عن الخليفة العباسي في القاهرة إن خلافته وليس فيها أمر ولا نهى وحسبه أن يقال له أمير المؤمنين (٣) .

على أنه يجدر بالذكر أن الخلفاء العباسيين حاولوا في عصر دولة المماليك الجراكة الخروج عن عزلتهم والمشاركة في الأحداث السياسية المحيطة بهم

(١) أبو الفدا : المختصر ج ٣ ص ٢١٣ .

مفضل بن أبي الفضائل : النج السديد ص ١٠٥ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٧٥ .

(٣) المقرئ : المواعظ ج ٣ ص ٣٩٤ .

وربما كان للضغط الذي اقيه الخلفاء العباسيون منذ احياء الخلافة العباسية في القاهرة على أيام بيمرس ، أثر في تحريك الخلفاء في الدولة النافية للتنفيس عن أنفسهم عن طريق الاشتراك في الثورات التي طفع بها عصر المماليك الجراكسة^(١) . وكان أن تحققت . مطامع الخلفاء العباسيين في ذلك العصر عندما ولي الخليفة المستعين السلطنة سنة ١٤١٢ م (٥٨١٥) ؛ وهي حالة فريدة من نوعها في عصر المماليك . ولكن تعيين الخليفة المستعين سلطانا لم يكن لإسداً للثغرة ، حتى ينجلى الموقف بين الأميرين المتنافسين حول السلطنة وهما نوروز وشيخ . وعندما انجلى الموقف استطاع الأمير شيخ أن يعزل المستعين من دست السلطنة بنفس السهولة التي وضعه بها فيه .

(١) إبراهيم طوخان : مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص ٥٣ .

الفصل الثاني عشر

نظام الحكم والقضاء

النظام الإقطاعي:

كانت دولة المماليك دولة إقطاعية بكل معاني الكلمة ؛ فقسمت أراضى مصر إلى أربعة وعشرين قيراطا ، اختص السلطان منها بأربعة قراريط للكلف والرواتب ، واختص الأمراء بعشرة ، والعشرة الباقية كانت من نصيب الأمراء . وكان من الطبيعي أن يستأثر السلطان وكبار الأمراء بأجود الأراضى وأكثرها خصوبة ، فى حين أخذ المماليك السلطانية الأراضى الأقل خصوبة ؛ أما أراضى الدرجة الثالثة فكانت من نصيب أجناد الحلقة والعربان والتركمان (١) .

وكان الإقطاع أمرا شخصيا بحيث لا دخل لحقوق الملكية أو لأحكام الوراثة فيه بمعنى أنه كان مفروضا فى المقطع أن يحمل محل السلطان فى أن يتمتع بفلات الإقطاع وإيراده فحسب ، فإذا مات المقطع أو أخل بشروط الإقطاع ، جاز للسلطان أن يستولى على إقطاعه فوراً (٢) . أما المناسبات التى تجرى فيها عملية توزيع الإقطاعات فكانت عديدة ، أهمها قيام سلطان جديد فى الحكم ، فىجرى حركة لإعادة توزيع الإقطاعات - بين منحه وزيادة وإنقاص - لمكافأة الأنصار ومعاقبة الخصوم . كذلك اعتاد سلاطين المماليك أن يوزعوا الإقطاعات عند عرض الجنود ، فيستعرض السلطان الجنود أكثر من مرة خلال سلطنته ليستوثق من القادرين على الخدمة العسكرية ،

(١) الفلشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٥٨ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٥٠٩ حاشية ٣ قدكتور زيادة .

ويستبعد غير القادرين ويوفر لإقطاعاتهم ليوزعها على الأكفاء القادرين . فإذا توافرت للدولة أراضى جديدة عن طريق الفتح أو استصلاح الأرض البور أو شق قناة أو ترعة ؛ قام السلطان بتوزيع هذه الأراضى على هيئة إقطاعات^(١) . على أنه حدث أكثر من مرة في عصر المماليك أن مسحت أراضى مصر مسحا شاملا قياسا وحصرها في سجلات ، وتقدير قيمتها وخصوبتها . ونشبه هذه العملية في الوقت الحاضر فك الزمام ، وكان يستتبعها في عصر المماليك لإعادة توزيع الإقطاعات . وقد سميت تلك العملية في عصر المماليك الروك ، وأشهرها الروك الحسامى نسبة إلى السلطان حسام الدين لاجين ، والروك الناصرى نسبة إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون أما الروك الحسامى فقد فقد تم سنة ١٢٩٧ م (٩٦٧ هـ) واستغرق لإجراؤه مجهود ثمانية وخمسين يوما ولكن الأمراء والجنود لم يرضوا عن التغيير الجديد الذى تعرضت له إقطاعاتهم نتيجة لروك الحسامى ، ودبان في وجوههم التغيير لقلّة العبرة^(٢) . وهكذا ظل الأمراء والجنود في حالة قلق حتى أجرى السلطان الناصر محمد الروك الناصرى سنة ١٣١٥ م (٧١٥ هـ) ، فاستغرق لإجراؤه خمسة وسبعين يوما ، وترتب عليه زيادة أنصبة الأمراء والأجناد ، فصارت أربعة عشر قيراطا بعد أن كانت أحد عشر في الروك الحسامى^(٣) .

وفي جميع الحالات السابقة كان السلطان هو الذى يتولى بنفسه غالباً توزيع الإقطاعات ، فإذا تقدم إليه المملوك سألّه عن اسمه وأصله وتاريخ قدومه إلى الديار المصرية وأستاذة الذى اشتراه من تاجره ، وعن حياته التعليمية من السكتاب في الطبايق إلى ميدان الفروسية^(٤) . فإذا وقع اختياره عليه

(١) إبراهيم طوخان : مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص ٢١٨-٢١٩ .

(٢) المرزى : السلوك ج ١ ص ٨٤٥ .

(٣) العيني : مقادير الجنان ج ٢٣ ق ١ ص ٥٤ .

المرزى : المواظ ج ١ ص ٨٨ .

(٤) أبو الحسن : النجوم ج ٩ ص ٥١ - ٥٢ .

ليمنحه إقطاعاً أمر ناظر الجيش بأن يكتب له ورقة مختصرة تسمى « المثال » مضمونها حين فلان كذا ، ويكتب اسم المقطع ثم يناولها للسلطان . وبعد أن يرفع عليها السلطان يعطيها الحاجب لمن رسم له ، فيقبل الأرض ثم يعاد المثال إلى ديوان الجيش فيحفظ فيه . وقد احتص السلطان بإصدار مناشير الأمراء وأجناد الحلقة ، أما أجناد الأمراء فصدرت مناشيرهم عن أمراءهم . كذلك روعي أن يعين في منشور الأمير ثلث الإقطاع للأمير نفسه ولأجناده الثلثان (١)

أما الأمراء والمماليك المسنون الدين لا يقوون على تحمل تبعات الإقطاع ، فاعتاد سلاطين المماليك أن يمنحهم بدل الإقطاع رواتب نقدية تخصص لها جهات معينة يتناول المقطع نصيبه منها . ويذكر المقرئى أنه جاء وقت أصبحت فيه معظم الضرائب والمسكوس المفروضة في مصر « عليها إقطاعات الأمراء والأجناد » . فلما رآك الناصر محمد البلاد ، أبطل هذا النوع من الرواتب التي تحمل صفة الإقطاع ، وصارت الإقطاعات كلها أراض وبلاداً (٢) . كذلك أصبح من القواعد المستقرة منذ الروك الناصرى ألا يكون الإقطاع وحدة متماسكة من الأرض ، بل يوزع إقطاع الفرد الواحد بين عدة جهات مختلفة . وهكذا أصبح زمام القرية الواحدة مقسماً بين عدة مقطعين ، لكل منهم أتباعه الذين يدفعون المستحق عليهم لسيدهم مباشرة أو لمندوبه المسمى « القاصد » . وفي جميع هذه الأحوال لم يتعد المقطع حدوده المرسومة له ، ولم يأخذ من إقطاعه إلا ما جرت به العادة ، فإذا ظلم أحد جاز المظلوم أن يرفع أمره إلى الديوان السلطاني أو إلى السلطان في دار العدل (٣) .

(١) المقرئى : المواظ ج ٣ ص ٣٥٠ - ٣٥٣ .

(٢) أبو الحسن : النجوم ج ٩ ص ٥٢ .

المقرئى : المواظ ج ٣ ص ٣٥٣ .

(٣) سعيد ماضور : المجتمع المصرى ص ٢٠ - ٢١ .

على أن النظام الإقطاعى لم يظل على حاله من الثبات والإحكام طوال عصر المماليك ، إذا لم يلبث أن تطرق إليه الفساد والخلل - مما يعتبر مظهراً أو سبباً - للفساد العام الذى اعترى الدولة وأجهزتها فى أواخر عصر المماليك . وكان أبرز مظاهر ذلك الخلل تصرف الأمراء والأجناد فى إقطاعاتهم عن طريق البيع والتنازل والمقايسة . فمن أراد النزول عن إقطاعه حمل ما لا إلى بيت المال بحسب ما يقرر عليه ، الأمر الذى أدى إلى دخول كثير من الكتاب وأرباب الوظائف الدينية وأرباب الصنائع والحرف ضمن أجناد الجيش . ولما كان الجيش فى عصر المماليك يعتمد فى نظامه على الإقطاع ، فقد أدى فساد النظم الإقطاعية إلى ضعف الجيش وانحيار دعائمه (١) .

السلطان :

وكان سلطان المماليك على رأس الهرم الإقطاعى ، وهو فى الوقت نفسه رئيس الجهاز الحكومى فى البلاد وصاحب أعلى سلطة فيها . وقد تلقب سلاطين المماليك باللقاب عديدة منها « سلطان الإسلام والمسلمين » و « قسيم أمير المؤمنين » . ويشير اللقب الأول إلى حرص سلاطين المماليك على التمسك بالإسلام ومحاولة إضفاء صفة شرعية على حكمهم ، فى حين يلقى اللقب الثانى ضوءاً على العلاقة الصورية بين سلطان المماليك والخليفة العباسى فى القاهرة ، بوصفهما شريكان فى حكم المسلمين ، أحدهما يمثل الجانب السيامى والحربى ، والآخر يمثل الجانب الدبنى . على أنه لا ينبغي أن يفهم من ذلك أن جميع سلاطين المماليك اشتركوا فى ألقاب واحدة ، وإنما اختلفت الألقاب التى اتخذها كل سلطان عن الآخرين ؛ فهذا السلطان الأعظم العالم العادل ، وذاك « السيد الأجل الكبير » وهكذا .

(١) السيد الباز العربى : الإقطاع الحربى بمصر من ٢٢ .

والمعروف أن السلطان في عصر المماليك كان أميراً من الأمراء وزعيماً
ممكنته قوته وشخصيته وكثرة ممالكه من التفوق على أقرانه والوصول إلى
منصب السلطنة ، فإذا وصل أمير إلى السلطنة أصبح صاحب الحق في الهيمنة
على بقية الأمراء وممالكهم بوصفه زعيمهم ورأس دولتهم ، فيرفع من يختار
من المماليك إلى مرتبة الإمارة ويمنح الإقطاعات حسب ترتيب معين ،
ويباشر سلطاته الواسعة في توزيع المناصب وتعيين كبار الموظفين (١).

ولكن ليس معنى هذه السلطة المطلقة التي تمتع بها سلطان المماليك أنه
استغنى عن رأى كبار الأمراء ورجال الدولة ، إذ الواقع أن سلاطين المماليك
استشاروهم قبل الإقدام على أية خطوة خطيرة ، وكانت هذه الاستشارة تتم
في مشور - أى مجلس المشورة - الذي تألف برئاسة السلطان وعضوية أنابه
العسكر والخليفة العباسي والوزير وقضاة المذاهب الأربعة وأمراء المشين
وعدد من أربعة وعشرون أميراً . فإذا كان للسلطان قاصراً تولى رئاسة هذا
المجلس الوصى عليه أو نائب السلطنة ، وجرت العادة أن السلطان لا يتكلم
بنفسه في هذا المجلس خوفاً من أن ينقض الأمراء رأيه فينقص ذلك من هيئته
وجلال مركزه ، ولذلك قام المشير بالكلام عن السلطان ، وقد تعددت
اختصاصات مجلس المشورة في عصر المماليك ، فنظر في شئون الحرب
والصالح ، وناقش شغل مناصب النيابات والوظائف الكبرى في الدولة .
على أن السلطان لم يكن ملزماً بدعوة مجلس المشورة أو الأخذ برأيه ،
أى أن السلطان كان صاحب الرأى الأخير في جميع الأمور بوصفه حاكماً
مطلقاً (٢).

(١) سيد عاشور : مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص ١٣٨ .

(٢) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٠٦ .

الغاشنى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٦ - ١٧ .

وكان السلطان يقيم معه امرته وحاشيته ورجال بلاطه في قلعة الجبل والواقع إن هذه القلعة في عصر المماليك لم تكن مركز الحكم ودار السلطان لحسب ، بل كانت بمثابة مدينة صغيرة تضم طباق المماليك السلطانية ، ودور الخواص الأمراء ونسائهم وأولادهم ومماليكهم ودواوينهم ، فضلا عن دار الوزارة التي اشتملت على قاعة الإنشاء وديوان الجيش وبيت المال وخزينة الخاص^(١) . وكانت قلعة الجبل موضع عناية سلاطين المماليك دائما فأقاموا فيها العمارات الكثيرة والقصور والمساجد العديدة ، لما جعلها منار دهشة الرسل والسفراء الأجانب .

وأشرف على أعمال الصيانة العامة بالقلعة ديوان الدولة الشريفة الذي تولى ناظره الإنفاق على قصور السلاطين من عمارات وأسماطة وصدقات وكل ما تحتاج إليه البيوت السلطانية . أما هذه البيوت فكانت عديدة لكل منها مباشر من أمراء المئين له مساعدون وغللمان عديدون^(٢) . ومن هذه البيوت الشرا بخاناه - أى بيت الشراب - ويحوى مختلف أنواع الأشربة والأدوية التي يحتاج إليها السلطان ؛ والطبخت خاناه وفيه أنواع الآوان والطشوت والآباريق اللازمة لغسل الأيدي والوضوء والاستحمام ، والفراش خاناه وفيه أنواع الفرش والبسط والحيام والتخوت والوسائد وغيرها ، والسلاح خاناه وبه جميع أنواع الأسلحة من سيوف وقسي ورماح ودروع ونشاب ، والركاب خاناه وبه آلات الخيل من سروج وغيرها ، والطبلخاناه وبه الطبول والآبواق وتوابعها ، والحوائج خاناه ويختص بالأسماطة السلطانية كما يشرف على المطبخ السلطاني^(٣) .

(١) المقرئى : المواظ ج ٣ ص ٣٣٣ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٠ .

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٩ — ١٣ .

الدويرى : نهاية الأرب ج ٨ ص ٢٢٢ — ٢٢٦ .

النظام الإدارى :

بلغت النظم الإدارية في دولة المماليك درجة كبيرة من الدقة والأحكام فوجدت إدارة مركزية مقرها القاهرة وعمادها مجموعة من الدواوين وكبار الموظفين ؛ ووجدت إدارة محلية تشرف على الأقاليم وعلى رأسها مجموعة من النواب والولاة وعلى رأس هذا الجهاز الضخم وجد سلطان المماليك بوجه أمور البلاد والعباد ، ويتلقى الأخبار ويرسل تعليماته عن طريق شبكة محكمة من خطوط البريد .

وأول الموظفين الكبار الذين ساعدوا السلطان في شئون الحكم والإدارة هو نائب السلطنة ، ويتضح من اسم هذه الوظيفة أن صاحبها كان بمثابة الوكيل عن السلطان وساعده الأيمن في تصريف شئون الدولة ، بل كان السلطان الثانى ، على قول الفلقشندي^(١) ذلك أنه اشترك مع السلطان في إصدار القرارات ومنح ألقاب الإمارة وتوزيع الإقطاعات ، فضلا عن تعيين كبار الموظفين لذلك تلقب نائب السلطنة بلقب دكافل الممالك الشريفة الإسلامية الأميرى الأخرى^(٢) ، لأنه تكفل بكثير من أمور الدولة . وكانت نيابة السلطنة على نوعين في عصر المماليك ، فهناك النائب الدكافل أو نائب الحضرة ، وهو الذى ينوب عن السلطان أثناء وجوده وإقامته في مصر ، وهناك نائب الغيبة وهو أقل درجة وينوب عن السلطان أثناء غيبته فقط ، في حرب أو حج أو غير ذلك .

أما نواب السطة في نيايات الشام — وهى دمشق وحلب وطرابلس وحماه وصفد والكرك — فمناوب كل منهم عن السلطان في وحدته الإدارية ،

(١) الفلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٩ — ١٢ .

(٢) العمرى : التصريف بالمصطلح الشريف ص ٦٥ — ٩٩ .

واعتبر ممثلاً له في إدارتها . وكان على نواب الشام أن يرجعوا إلى السلطان - أو نائبه في مصر - في المسائل التي لا يستطيعون الافراد بالبت فيها ، ولما كان هؤلاء النواب مسئولين عن الدفاع عن إماراتهم ضد الأخطار الخارجية والداخلية ، حرص السلاطين على اختيارهم دائماً من كبار الأمراء أرباب السيوف المعروفين بشجاعتهم الحربية ومهارتهم الإدارية (١) .

وبعد نائب السلطنة يأتي الأتابك ، وهو القائد العام للجيش المماليكي ، وكان لقب أتابك يطلق عند السلاجقة على المؤدب أو المربي أو الوصى ، ثم أصبح من ألقاب التشريف التي تطلع على كبار الأمراء ، حتى غدا في عصر المماليك لا يطلق إلا على قائد العسكر ، ومن الواضح أن صاحب هذه الوظيفة تتمتع بنفوذ كبير وكلمة عالية في الدولة ، بوصفه رأس الجيش وصاحب القوة الضاربة بين كبار الأمراء (٢) . ولا أدل على نفوذ الأتابك وقوته من أن كثيراً منهم وصلوا إلى دست السلطنة إما عن طريق الاغتصاب أو بفضل قوتهم . أما إذا ولي الحكم سلطان قاصر . فإنه كان يصبح العوبة في يد أتابك الجيش يتحكم فيه كيفما شاء ، كما فعل الأمير زين الدين كتبغا المنصوري عندما استبد بالسلطان الناصر محمد في سلطنته الأولى ، حتى انتهى الأمر بالآتابك إلى إعلان نفسه سلطاناً سنة ١٢٩٤م (٣) .

أما الوزير فكان هو الآخر يلي نائب السلطنة في المرتبة ، ومن الواضح أن نفوذ الوزير في دولة المماليك ضاملاً عما كان عليه زمن العباسيين بالعراق

(١) الخالدي : كتاب المقصد الرفيع ص ٩٠ — ٩٣ (مخطوط) ٩

القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ٧٢ وما بعدها ٩ .

Wiet : L'Egypte Arabe pp. 366—398 .

(٢) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ١٨ .

(٣) هلي ابراهيم حسن : دراسات في تاريخ المماليك البحرية ص ٢٢٣ — ٢٢٤ .

أو الفاطميين بمصر . ذلك أن نائب السلطنة في دولة المماليك أصبح الرجل الثاني في الدولة وبذلك لم يترك للوزير شيئاً من ذلك النفوذ الواسع الذي تمتع به في العهود السابقة . ويعبر ابن خلدون عن انحطاط وظيفة الوزير في عصر المماليك ، فيقول إنها غدت « مرموسة ناقصة » (١) ، بحيث لم يتعد نفوذ الوزير عندئذ تنفيذ تعليمات السلطان ونائبه ، والإشراف على شئون الدولة المالية بالاشتراك مع ناظر الدولة ، وفي بعض الأحيان عين سلطان المماليك وزيرين في وقت واحد أحدهما من أرباب الأقاليم أو المعممين وأطلق عليه وزير الصحة ، والثاني من أرباب السيوف أو الأمراء وأطلق عليه الوزير فقط (٢) . ولا أدل على تناقص أهمية الوزارة في عصر المماليك ، من أن هذه الوظيفة كانت تلغى في بعض الأحيان ، أو تظل شاغرة دون أن يحدث خلل في الجهاز الإداري للدولة ، بل لقد حدث أن ألغيت وظيفة الوزارة سنة ٧٢٧ هـ (١٣٢٧ م) ، وظل منصب الوزير شاغراً سبعة عشر سنة إلى أن أعيد سنة ٧٤٤ هـ (١٣٤٣ م) .

وهناك فريق آخر من كبار الموظفين قاموا بدور هام في إدارة جهاز دولة المماليك ، هي فئة الولاة التي كان أفرادها يختارون دائماً من بين الأمراء ليقوموا بوظيفة المحافظ اليوم في الأقسام الإدارية . وكان أكبر هؤلاء الولاة شأناً ، وإلى القاهرة الذي عهد إليه بالإشراف على العاصمة وصيائها ، وحماية أهلها من عبث المفسدين واللصوص ومثيري الفتن فإذا شب حريق في العاصمة بادر الوالى على رأس رجاله لإطفائه ، وإذا كثرت مناسر اللصوص تعقبهم الوالى للقضاء عليهم ، وإذا تفشى شرب الخمر أسرع الوالى إلى مناطق عصر الخمر في القاهرة لمعاقبة أصحابها ومصادرة خمرهم ، وإذا فشا تعاظم الحشيش كافح

(١) مقدمة ابن خلدون : ص ٢٠٨ .

(٢) الخالدي : المقصد الرفيع ص ١٩٦

الوالى من اراع المخدرات بحجة باب الموق وأحرق منتجاتها^(١) . وهكذا تصور لنا المراجع المعاصرة والى القاهرة ورجاله فى صورة حرك دائمة ، فى الهارب طوف معهم الأسواق والدروب لمنع الغش ومكافئته ، وفى الليل يتصيد السكارى والصوص والعابثين للنفض عليهم ومحاكمتهم . هذا كله فضلا عن مراقبة أبواب القاهرة والإشراف على إغلافها لئلا حتى لا يتسرب إلى المدينة عدو أو مفسد . ونظراً لأهمية وظيفة الوالى وخطورة مسؤولياته ، فإنه كان لا يستطيع د النوم خارج المدينة إلا بهر موم خوفاً من حريق أو منسر أو كسر حاصل أو فتح وغير ذلك^(٢) . وقد ساعد والى القاهرة ولاة آخرون ، أهمهم والى القسطنطينية وشرف على مصر (القسطنطينية والمسكر والقطنانج) ؛ ثم والى القرافة والإشراف على شئون القرافة ومنع المساخر فيها ، وأخيراً والى القلعة أو نائبها للإشراف على فتح أبوابها فى الصباح وإغلافها فى المساء^(٣) .

وتم مدينة واحدة فى البلاد المصرية عين لها نائب وصارت نيابة مثل القبايات الشامية ؛ هى مدينة الإسكندرية التى ازدادت أهميتها منذ سنة ١٣٦٥ وأصبحت ثغر مصر الأول على البحر المتوسط ، فكثر عدد الجاليات الأجنبية بها مما تطلب إعطاءها قسماً خاصاً من العناية الإدارية . لذلك تمتع نائب الإسكندرية بمكانة سامية فنافس ما للنظر من أهمية فى ذلك العصر ، حتى جاء وقت أصبح يعادل فى مكانته نائب السلطنة فى دولة المماليك . على أن تحويل مدينة الاسكندرية سنة ١٣٦٥ بالذات من ولاية يحكمها والى إلى نيابة يحكمها نائب أمر يدعو إلى الانتباه ؛ وربما كان ازدياد نشاطها التجارى فضلاً عما حدث فى هذه السنة من قيام ملك قبرس بحملته الصليبية الشهيرة على الإسكندرية ،

(١) المفريزى : المواعظ ج ٢ ص ١٤٨ .

(٢) الخالدى : المقصد الرفيع ص ١٢٨ .

(٣) سميد عاشور : مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ص ١٤٧ .

أثر في هذا التحول (١) .

إما الإدارة الإقليمية في أعمال الوجهين البحرى والقبلى — خارج القاهرة والإسكندرية — فأشرف عليها مجموعة من الولاة . وكان الوجه البحرى مقسما إلى عشرة أعمال هى القليوبية والشرقية والدقهلية (المرتاحية) ودمياط والغربية والمنوفية وأبارو والبحيرة وفود والفسراوية، وحكم كل منها والى ماعدا البحيرة فكان يحكمها نائب . ولعل السبب في زيادة عناية السلاطين بأمر البحيرة، هو تخوفهم من كثرة الأعراب وما يقومون به فيها من فتن وتورات بين حين وآخر . أما أعمال الوجه القبلى فكانت ثمانية ، لكل منها واليها هى الجيزة والفيومية والإشمنونية والأخميمية والأطفيحية والهنساوية والاسيوطية والقوصية . وكانت أسوان تابعة لعمل قوص ، ولكنها استقلت وصارت عملاقا بنفسه منذ عهد الناصر محمد (٢) . وبلا حظ أنه لم يوجد نائب لكل من الوجهين البحرى والقبلى إلا في عصر دولة المماليك الجراكسة أو الثانية، أما في دولة المماليك البحرية فوجد كاشف الوجه البحرى يمتد نفوذه على جميع أقاليم الدلتا . وآخر للوجه القبلى يمتد نفوذه على جميع أقاليم الصعيد . وجرى الاصطلاح بتسمية هذا الكاشف « والى الولاة » وتمتع بنفوذ كبير على الأقاليم التابعة له (٣) .

ومما يمكن من أمر ، فإن دولة المماليك شهدت نظاما إداريا بالغ الدقة ، ونهض بذلك النظام مجموعة كبيرة من الموظفين . وقد انقسم الموظفون إلى قسمين كبيرين : أرباب السيوف وأرباب القلم . أما أرباب السيوف فكانوا من طبقة المماليك ، أى أنهم لم يختاروا من المصريين ، في حين كان أرباب القلم

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٠٤ ج ٤ ص ٢٤ ج ٩ ص ١١ ص ٤٠٥ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٩٢ — ٣٩٨ .

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٩٤ .

من طائفة المعممين أى من المصريين المشتغلين بالكتابة والعلم . ويبدو أن الموظفين — كبارهم وصغارهم — لم يتمتعوا بقدر كبير من الاستقرار في عصر المماليك ؛ وهذا في الواقع لا يعدو أن يكون جزءاً من الطابع العام الذى انصفت به دولة المماليك . وكثيراً ما كان يتعرض الموظف للعزل أو الحبس أو الإعدام لمجرد ظنون أو أهام ، أو لعدم قدرته على إرضاء أولى الأمر . فإذا أعفى الموظف من عمله فرضت عليه رقابة وربما ألزم بالإقامة في مدينة بعيدة مثل القدس أو قوص أو مكة ، وذلك خشية أن يسبب متاعب للحكام (١) .

الدواوين :

وكان من الطبيعي أن يعتمد هذا الجهاز الإدارى الضخم الذى شهدته دولة المماليك على مجموعة من الدواوين الكبيرة لإدارة مرافق الدولة العديدة . أما أهم هذه الدواوين الحكومية في عصر المماليك ، فكانت ديوان الجيش وديوان الإنشاء وديوان الأحباس وديوان النظر وديوان الخاوص .

وقد تمتع ديوان الجيش بأهمية كبرى في دولة المماليك ، وهى الدولة ذات الصبغة الحربية ، والى اعتمدت في قيامها وبقائها على فكرة الحرب والقتال . والفهم طبيعة عمل ديوان الجيش يصح أن نشير إلى أن الجيش المماليكى تألف من ثلاثة طوائف أساسية هى المماليك السلطانية وأجناد الحلقة ومماليك الأمراء . أما المماليك السلطانية فهم مماليك السلطان القائم ، ووصفهم التلغشندى بأنهم « أعظم الأجناد شأناً وأرفعهم قدراً وأشدهم قرباً وأوفرهم إقطاعاً ، ومنهم يؤمر الأمراء رتبة بمدرتبة » (٢) . أما أجناد الحلقة فهم مماليك السلاطين والأمراء

(1) Wiet : Les Mosquées du Caire, p. 86 .

(٢) التلغشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٩٥ .

السابقين وأولادهم ، وهؤلاء احترفوا الجندية وأصبحوا بمثابة جيش ثابت للدولة . وأخيراً تأتي الطائفة الثالثة التي تشمل ماليك الأمراء ، وهم الماليك الذين اشترأهم أمراء الماليك — كل حسب سمته ورتبته وإقطاعه — وتهدوهم بالتربية والهناءة (١) .

وأشرف ديوان الجيش في دولة الماليك على هذه الطوائف الثلاث التي تألف منها الجيش الماليكى ففيه تحفظ الأوراق الخاصة بجميع الجنود والأمراء . وبخصوص أجناد الأمراء ، فقد جرت العادة أول الأمر بإدراج أجناد كل أمير في ديوان الجيش ، ثم تغير هذا النظام زمن القلقشندى ، وصار لكل أمير ديوان خاص ويحمل يسمى أسماء أجناده ترسل منه صورة إلى ديوان الجيش . ولا يستطيع الأمير أن يدخل في خدمته ماليك جدد إلا بسبب وفاة أو مقتل أو طرد أحد أجناده من الخدمة (٢) .

ومن أهم اختصاصات ديوان الجيش في دولة الماليك المسائل المتعلقة بالإقطاعات ، ففيه يحمل خاص لكل إقطاع يمنحه السلطان ، واسم المقطع ومساحة إقطاعه ونوعه . أما ناظر هذا الديوان — الذى عرف باسم ناظر الجيش — فكانت وظيفته أهم الوظائف في الدولة ، وكان يعاونه بعض كبار الموظفين مثل صاحب ديوان الجيش وينوب عن الناظر في تصريف شئون الديوان ، ومستوفى الجيش ويقوم بتحديد الرواتب التي تصرف للجنود وتسجيلها في كشوف خاصة بمساعدة مستوفى الإقطاعات ، ومستوفى الرزق ويشرف على صرف مرتبات الأجناد وأرزاقهم العينية . واشترط في هؤلاء الموظفين جميعاً الأمانة التامة والكفاية المطلقة (٣) .

(١) سعيد عاشور : مصر في عصر دولة الماليك البحرية من ١٤٥٠ .

(٢) السيد الباز العريفي : الإقطاع الحربى بمصر زمن سلاطين الماليك من ٦٠٠ .

(٣) الحامدى : المقصد الرقيم من ١٣٦٠ .

أما ديوان الإنشاء فوظيفته تبادل المكاتبات الرسمية الخاصة بالدولة، وهي المكاتبات التي ترد إلى السلطان من مختلف الدول وإعداد الردود عليها، فضلاً عن إعداد الرسائل التي يبعث بها السلطان إلى مختلف الملوك والأمراء وتلقب صاحب ديوان الإنشاء في عصر المماليك بناظر الإنشاء الشريف، كما أضيفت عليه عدة ألقاب أخرى تشير كلها إلى خطورة مهمته بوصفه الأمين على أسرار الدولة ودعائل السلطان، حتى أن السلاطين كانوا « يطلعونه على ما لا يطلعون عليه أولادهم ولا أخص الأخصاء من الأمراء والوزراء وغيرهم »^(١). وروى في اختيار صاحب هذا الديوان أن يكون « فصيح الألفاظ طلق اللسان أصيلاً في قومه وقوراً حليماً... »^(٢).

ولم تلبث أن اتسعت أعمال صاحب ديوان الإنشاء، إذ كان عليه أن يبلغ السلطان عما يصله من الأخبار الداخلية أولاً فأول، ويحضره — بحكم منصبه — الذين التي يؤذيها الولاية والحكام والأمراء عند تعيينهم في مناصبهم، ويكتب المراسيم الخاصة بتولي هذه المناصب. ولم تكن هذه المهمة الأخيرة بالسهولة التي قد يتصورها البعض في عصر مثل عصر المماليك الذي عرف برعاية قواعد البروتوكول والتسلك هذه القواعد. فلكل مقام مقال، ولكل موظف أو أمير أو حاكم تقليد خاص وأسلوب خاص يخاطب به حسب درجته ورتبته. بل إن الرسائل التي صدرت عن ديوان الإنشاء باسم السلطان اختلفت في نوع الورق المدونة عليه وحجم هذا الورق ونوع الخط، وذلك كله باختلاف مكانه الشخصي المرسل إليه، وهو ما أفرد له القلقشندي صفحات كثيرة في كتابه صبح الأعشى. ولما كان من الصعب على فرد واحد أن يقوم بكل هذا العبء الثقيل، وجد لصاحب ديوان الإنشاء أعوان لهم « نائب كاتب السر »، الذي ينوب

(١) المرجع السابق ص ١٢٠.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ج ١ ص ١٠٤ — ١٠٥.

هن ناظر الديوان في الرد عن المكاتبات الواردة في حالة تغيب الناظر أو تخلفه بحضور محال السلطان (١). ويل نائب كاتب السر في المرتبة «كتاب الدست الشريف»، وهم كتاب ديوان الإنشاء الذين أطلق عليهم اسم «الموقعين» لأنهم كانوا يجلسون مع رئيسهم كاتب السر بمجلس السلطان بدار العدل، ويوقعون على الشكاوى والقصص المرفوعة إليه (٢).

وتوزعت أعمال ديوان الإنشاء على كتاب الدست، فكان منهم من يقوم بصياغة الرسائل الموجهة إلى ملوك المسلمين وأمرائهم، واشترط فيه الدارية الخاصة بالقائهم، ومنهم من يقوم بصياغة المكاتبات الموجهة إلى ملوك الفرنجة أو ترجمة الرسائل الموجهة من هؤلاء الملوك إلى السلطان، ويشترط في هذا النوع من المكاتبات دراية باللغات الأجنبية، ومنهم من اشهر بحسن الخط على أنواعه وارتبط بكتاب السر في عمله موظف كبير اسمه الدوادار، وهو الذي يقوم بتبليغ الرسائل عن السلطان وإليه ولما كان صاحب هذه الوظيفة يطلع على كل ما يصدر من ديوان الإنشاء وما يرد عليه من مكاتبات، لأنه هو الذي يختمها بخاتم الدولة ويقيدها في سجلات خاصة (أرشيف)، فإن وظيفته كانت من الوظائف الخطيرة في عصر المماليك، وكان اختياره دائماً من كبار الأمراء (٣).

وهناك إدارة تمتعت بقسط كبير من الأهمية في عصر المماليك وكانت تتبع ديوان الإنشاء، هي إدارة البريد التي تولت ربط مختلف أطراف الدولة ببعضها ببعض. وكان البريد على نوعين: برى وجوى، فالبريد كان بواسطة الخيل

(١) الخالدي: المقصد الرفيع ص ١٣٤.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ج ١ ص ١٣٨.

(٣) العمري: التعريف بالمصطلح الشريف ص ٢٥٠.

الخالدي: المقصد الرفيع ص ١٢١.

القلقشندي: صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٢.

وله عدة طرق تتفرع من قلعة الجبل إلى قوص وعيذاب والإسكندرية ودمياط
وغزة وعلى امتداد هذه الطرق جميعا أقيمت محطات متقاربة تزود البريدين
وخيولهم بما يحتاجون إليه من طعام وعلف وماء وماوى. ومن الواضح أن مهمة
هؤلاء البريدين كانت جسيمة ، إذ صار عليهم توصيل التعليمات من السلطان
إلى النواب والأمراء ، وحمل أخبار هؤلاء السلاطين. وربما كانت هذه التعليمات
شفوية ؛ ولذلك روعى في البريدى د أن يكون بصيرا بمخارج الكلام
وأجوبته مؤديا للألفاظ عن الملك عما فيها ، صدوقا بريئا من الطمع ، (١) أما
البريد الجوى فيرجع الفضل الأول في تنظيمه إلى السلطان الظاهر بيبرس ،
فاستخدم فيه حمام الزاجل الذى كانت قلعة الجبل المركز الرئيسى لأبراجه وقد
روعى في الرسائل التى يحملها الحمام الزاجل أن تكون على نوع خاص من الورق
الخفيف وأن تكون مختصرة نحوى ما قل ودل حتى لا تتوق الحماة عن الطيران
السريع . وكانت الرسالة توضح تحت جناح الحماة أو ذيلها بطريقة خاصة ، فإذا
كانت الرسالة هامة كتبت من نسختين وأرسلت مع حمامتين ، حتى إذا ضلّت
إحدى الطريقتين أو قتلت أو افرستها الجوارح ، أمكن الاعتماد على وصول الرسالة
الأخرى ومن الواضح أن الحمام الزاجل كان يخصص لنقل الرسائل العاجلة الخطيرة ،
بحيث إذا وصلت رسالة مع حماة إلى القلعة حملت الرسالة مباشرة إلى السلطان
وعرضت عليه (٢) . وقد شيدت للحمام الزاجل أبراج على امتداد طرق البريد
لتكون بمثابة محطات ، ولهذه الأبراج موظفون مدربون بحيث إذا وصلت حماة
من هذا النوع إلى البرج عفوا بأمرها وتسلموا منها الرسالة ليبلغوا بها إلى البرج
التالى ، فى حين تستريح الحماة الأولى قبل أن يسمح لها بالعودة إلى قاعدتها .

أما الديوان الثالث فى الإدارة المالية فله ديوان الأجاس (الأوقاف) ؛

(١) القلائدى : صبح الأسمى ج ٢ ص ١١٥ .

(٢) نظير حسان سعداوى : نظام البريد فى الدولة الإسلامية ص ١٤٣ .

ويقوم صاحبه برعاية شئون المؤسسات الدينية والخيرية من جوامع ومساجد ومدارس وربط وزوايا وغيرها ، كما يشرف على الأراضى والعقارات المحبوسة عليها . وكانت شئون الأحياس فى العصر الأيوبى من اختصاص القاضى ، ولكن المماليك قسموا هذه الشئون إلى عدة أقسام : منها قسم للأوقاف المحبوسة على الحرمين وفداء أسرى المسلمين ، وتسمى الأوقاف الحكيمية ويقال لمن يتولاها ناظر الأوقاف - وهو غالبا قاضى قضاة الشافعية - ؛ ومنها ما اختصاص بالأوقاف الأهلية ، ولكل وقف منها ناظر خاص يوليه السلطان أو القاضى ويختار غالبا من أولاد الواقف ؛ ومنها الأحياس الخاصة بالمساجد والزوايا وكان ينفق من ريعها على هذه المؤسسات الدينية ، ثم يوزع الفائض على شكل صدقات وعطايا على المحتاجين ، وأشرف على هذا القسم الدوادار وناظر الخاص (١) .

ولم تقتصر الأوقاف فى عصر المماليك على الحيوانات والمخانات والفنادق والأراضى الزراعية الواسعة - كما كان الحال فى العصور السابقة - وإنما اتسعت الأوقاف فى ذلك العصر حتى شملت كثير من الأعيان الموقوفة مثل معاصر الزيت والقصب والحمامات والطواحين والأفران والمصابن ومصانع المسبج ومخازن الغلال ومعامل ترقيد الفروج وغيرها (٢) .

أما ديوان النظر فاختصر بمراقبة حسابات الدواة والإشراف على إيراداتها ومصرفاتها ، وما يتبع ذلك من القيام بصرف مرتبات الموظفين . وكان جانب من هذه المرتبات أو الأرزاق يصرف نقدا ، حين صرف الجانب الآخر عينا من غلات ولحوم وتوابل وسكر وشمع عدا الكسوة . ومن الواضح أن

(١) الميرزى : المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٢٩٦ (بلاق) ٩

المالدى : المقصد ص ١٣٢ .

(٢) عبد الطيف إبراهيم : دراسات تاريخية وأثرية فى وثائق من عصر المماليك ،

ص ١٣٤ — ١٣٥ .

أصنافاً مثل الخبز واللحوم كانت توزع على الموظفين والمستحقين يومياً ، في حين كان السكر والزيت والشمع ونحوها توزع شهرياً ؛ أما الكسوة فكانت سنوية . ووصف المقرئى ناظر هذا الديوان بأنه من أكبر موظفي الدولة وأهمهم عملاً وأعلام قدراً ؛ إذ صار له دأروهم وحال جليلة ، لكثرة المحول الواردة ، وخروج الأموال المصروفة في الرواتب لأهل الدولة ، وكانت أمراً عظيماً (١) ، لذلك قام بمساعدته جملة من الموظفين أهمهم مستوفى الصحة - وهو بمثابة وكيل الديوان - وشهود بيت المال ، وصير في بيت المال ، وأولئك عدا الكتبة (٢) .

وتفرع على ديوان النظر منذ القرن الرابع عشر ديوان خاص بالسلاطين ذلك أن السلطان الناصر محمد أنشأ سنة ١٣٢٧ ديواناً أطلق عليه « ديوان الخاص » ، للإشراف على شئون السلطان المالية ، ومراقبة الخزانة السلطانية ، وعهد بالإشراف على هذا الديوان إلى موظف كبير أطلق عليه « ناظر الخاص » وهو القب الذي حور إلى « ناظر الخاصة » في الدول الملكية (٣) .

وهناك دواوين أخرى كثيرة نظمت صير الحكم في دولة المماليك ، وذكرها الكتاب المعاصرون - وبخاصة القلقشندي والمقرئى - ، مثل ديوان الطواحين وبشرف صاحبه على طحن الغلال ، وديوان الأهرام وبشرف على مخازن الغلال السلطانية ، وديوان المرتجعات وينظر في كل ما يتعلق بتركات الأمراء (٤) . ولكن هذه الدواوين كانت أقل أهمية . كذلك

(١) المقرئى : المواظ ج ٢ ص ٢٢٤ (بولاق) .

(٢) المبرى : التمهيد ، بالمصطلح الشريف ص ١١٥ .

القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٩ - ٣٠ .

(٣) سعيد عاشور : مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص ١٥١ .

(٤) الخالدي : المقصد الرفيع ص ١٣٥ .

المقرئى : المخطوط ج ٢ ص ٢٣٧ .

القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٣ .

أطلق لفظ « دواوين » في عصر المماليك على إدارات صغيرة ، مثل ديوان الاصطبلات وديوان العماير وديوان المواريث الحشرية ، ويشرف الديوان الأخير على أموال من يموت دون وراث له .

القضاء والمظالم :

أما شئون القضاء والعدالة فقد أولاها سلاطين المماليك جانبا كبيرا من اهتمامهم وعنايتهم وكان أهم تغيير أدخله السلطان الظاهر بيبرس في النظام القضائي هو أنه لم يشأ أن يترك قاضي القضاة الشافعية يتحكم وحده في جميع الشئون القضائية لما في ذلك من إجحاف ببقية المذاهب . لذلك عين سنة ١٢٦٥ أربعة من قضاة القضاة يمثلون المذاهب الأربعة ، على أن يحتفظ قاضي القضاة الشافعي بالإشراف على أحوال اليتامى والأوقاف والقضايا الخاصة ببيت المال .

كذلك يفهم مما ذكره المقرئ أن قاضي القضاة الشافعي كان بيده عزل بعض موظفي الدولة عن وظائفهم ، فضلا عما كان يتمتع به من نفوذ على نواب الحكم التابعين له (١) . وهكذا ظل قاضي القضاة الشافعية أرفع درجة من زملائه ، ثم يليه الحنفى فالمالكي فالحنبلي .

أما الجيش المماليكي فكان له « قضاة العسكر » ، وهم مختصون بشئون الجنود وليس لهم ولاية على غيرهم ، كما كانوا يفصلون في القضايا القائمة بين العسكر والمدنيين . ويلاحظ أن قضاة العسكر كانوا ثلاثة يمثلون المذاهب الشافعي والحنفي والمالكي ، وأحيانا كان يوجد قاضي حنبلي . وكان قضاة العسكر يحضرون

(١) المقرئ : السلوك ج ٢ ص ٤٤٣ .

مع القضاة الأربعة بدار العدل ولكن مجلسهم كان دون هؤلاء القضاة ، كما
جرت العادة بأن يصحبوا السلطان في أسفاره (١).

والواقع إن القضاة قاموا في ذلك العصر بدور هام في المجتمع ، أملت
كثرة اختصاصاتهم وتنوع مسؤولياتهم التي لم تقف عند حد الفصل في قضايا
الأحوال الشخصية ، وإنما امتدت إلى جميع أنواع القضايا من مدنية وجنائية
هذا فضلا عن إمامة المسلمين ونظر الوصايا والأحباس وشئون اليتامى
والمحجور عليهم والتدريس بالمدارس (٢).

أما جلسات المحاكم فكانت تعقد أحيانا في المساجد وأحيانا في دور
القضاء إذا وجدت . وعند افتتاح جلسة القضاء ، يتقدم المتقاضون أمام القاضي
وفق ترتيب خاص مع مراعاة النظام وحرمة القضاء . وكان يساعد القاضي عدة
موظفين منهم الجلوازالذى يقوم بحفظ النظام أثناء انعقاد المحكمة ، كما يقوم
بتقديم المتقاضين حسب دورهم ؛ وربما حمل في يده عصا أو سوطا يضرب به كل
من يحاول الإخلال بنظام الجلسة . أما الحاجب فكانت مهمته الوقوف على باب
القاضي واستئذانه في دخول الزائرين عليه ، في حين قام الأعوان بإحضار
الخصوم إلى المحكمة (٣) . وأدى ازدياد المتقاضين في ذلك العصر إلى صعوبة
مهمة القاضي ، فاستعان بالعدول الذين يقدمون شهاداتهم للقاضي ويراجعون
السجلات والعقود ويذكرون الشهود . وأخيرا قام كاتب المجلس بتحرير الدعاوى
والأحكام ، كما قام الترجمان بمهمة الترجمة بين القاضي والمتقاضين ، إذا كان
هؤلاء لا يعرفون العربية (٤) .

(١) القلاشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٦ .

(٢) الماريزى : المواعظ ج ٢ ص ٩٢ (بولاق) ٩ .

القلاشندى : صبح الأعشى ج ٩ ص ٣٤ - ٣٥ .

(٣) السبكي : معيد النعم ص ٨٦ .

(٤) محمود عرنوس : تاريخ القضاء في الإسلام ص ١٢٩ - ١٣٥ .

وكانت هناك محكمة عليا في عصر المماليك عرفت بمحكمة المظالم ، ففهم من المراجع المعاصرة أنها كانت بمثابة محكمة استئناف عليا تنظر في المظالم ؛ أى القضايا التى اختص السلطان بالنظر فيها مباشرة ، أو تلك التى تنشأ بين الحكام والمحكومين . وترجع أهمية هذه المحكمة إلى أنها كانت تعقد برئاسة السلطان نفسه في يومى الاثنين والخميس غالباً من كل أسبوع . وكان السلطان في الوقت المحدد للنظر في المظالم يجلس في دار العدل - أو بعد ذلك في الإيوان - على كرسي من الخشب المغشى بالحرير ، وعن يمينه قاضيان من القضاة الأربعة هما الشافعي والمالكي ، وعن يساره قاضيان هما الحنفي والحنبلي . ويلى القاضي المالكي من الجانب الأيمن قضاة العسكر الثلاثة الشافعي فالحنفي فالمالكي ، ثم يليهم مفتو دار العدل فوكيل بيت المال ثم ناظر الخصة (١) . ومن الجانب الأيسر يجلس بعد القاضي الحنبلي الوزير ثم كاتب السر . وهكذا استدير الحلقة ويقف وراء السلطان مماليك صغار من السلاحيين والجدارية ، على حين يجلس على بعد خمسة عشر ذراعاً تقريباً ذوو السن من أكابر المثنيين ، وهم أمراء المشورة . أما أرباب الوظائف وسائر الأمراء فيظلون وقوفاً . وخلف هذه الحلقة المحيطة بالسلطان يقف الحجاب والدوايرية لعرض أوراق القضايا المطلوب النظر فيها ثم تقرأ الشكاوى والتقصص على السلطان ، فاحتاج منها إلى مراجعة القضاة شاورهم السلطان فيها ورجع إلى ما يقولون (٢) ، وما نفاق منها بالعسكر تحدث السلطان فيه مع قضاة العسكر وناظر الجيش ، ثم يأمر في الباقي بما يراه . وعلى مر الزمن اقتصر جنود سلاطين المماليك بالإيوان على مدة قصيرة بصفة شكلية لالتقى سوى إقامة رسوم المملكة وإحياء مظاهرها ، لاسيما بعد أن نودي أن أحداً لا يتقدم بشكايته إلى السلطان إلا بعد أن يرفع أمره إلى القضاة أولاً ، فإذا

(١) سميد عاشور : المجتمع المصري ص ٧٨ .

(٢) ابن قاضي شعبة : الإعلام بتاريخ أهل الإسلام ج ١ ص ١٢ .

لم ينصفوه ذهب إلى السلطان ومن خالف ذلك عوقب (١).

وكانت وظيفة الحسبة قوية الصلة بالسلطة القضائية في تلك العصور حتى أنه كان يحدث في كثير من الأحيان أن يسند القضاء والحسبة إلى فرد واحد والواقع أنه إذا كان عمل القاضي ينصف بشئ من البطء لأنه يقرم على انروية والآفة والنتيجة من جهة الوقائع ، فإن عمل المحاسب قام على أساس سرعة البت في المخالفات التي تتعلق بالأداب العامة ونظام الأسواق ومراعاة الأمانة في المعاملات التجارية وآداب الطريق ونحوها (٢). لذلك دأب المحاسب - ونوابه - على المرور بطرقات المدينة وأسواقها لمراقبة الموازين والمكاييل والمقاييس والتفتيش على نظافة الحوانيت وسلامة ما يقدمه الباعة من طعام للجمهور ، هذا فضلا عن مراقبة الخانات والفنادق والحمامات ، فن وجد المحاسب وقد غش مسلما أو أكل بباطل درهما أو أخبر مشترا بزانة ، أو خرج من معهود العوائد شهرا بالبلد وأركب تلك الآلة ففاه حتى ينصف منه الجلد ، (٣).

وتؤدي بنا العبارة الأخيرة إلى الإشارة إلى العقوبات التي كانت توقع على المذنبين في عصر المماليك . وأولى هذه العقوبات السجن في أحد سجون ذلك العصر التي وصف المقرئى بعنتها وبالظلام وكثرة الوطواط والروائح

(١) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ١٢٩

تاريخ ابن الفرات : ج ١ ص ١٧

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٦

(٣) العمري : التعريف بالمصطلح الشريف ص ١٢٤ - ١٢٥

وجدير بالذكر أنه كان بالديار المصرية ثلاثة محسبين هم محاسب القاهرة وله التصرف بالحسك في القاهرة والوجه البحري كله ؛ ومحاسب مصر (القضاة) وله التصرف بمصر والوجه القبلي كله ؛ ومحاسب الاسكندرية ونفوذه قاصر على النهر .

انظر القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٧

المقرئى : السلوك ، ج ٢ ص ٤١٥

السكرية والقبايح الممولة» (١) ، وبعد ذلك تأتي عقوبة التشهير والتجريس وهي أن يطاف بالمذنب على حمار أو ثور ويضرب الجرس على رأسه وينفخه المنادون ليجتمع الناس حوله ، وفي نهاية المطاف يضرب بالسياط أمام الناس هذا عدا عقوبات أخرى متنوعة مثل عصر أعضاء المذنب بين خشبتين حتى تنكسر عظامه ، أو خلع بعض أضراس المذنب وأسنانه ودقها في رأسه أو تسخين طاسة من المعدن وإلباسها له في رأسه ، أو إجلاسه على مقعد معدني محي بالنار وغير ذلك من العقوبات (٢) .

(١) المقرئى : المواعظ ج ٣ ص ٣٠٥ — ٣٠٦ .

(٢) سعيد عاشور : المجتمع المصري ص ٩٨ — ١٠٠ .

الباب الثالث عشر

الفنون

تنقسم الفنون إلى مجموعتين ، المجموعة الأولى تشمل العمارة والتصوير والنحت وهى التى يطلق عليها اسم الفنون الكبرى ؛ والمجموعة الثانية تشمل الصناعات اليدوية الصغيرة التى تتطلب دقة فائقة وعبقريّة رافية ومهارة كبيرة ويطلق عليها اسم الفنون الصغرى .

والمعروف أن رقى الفنون فى أى زمان ومكان إنما يرتبط ارتباطاً شديداً بانتعاش الحياة الاقتصادية وتوافر المال . فالمجتمع الفقير - مثله مثل الرجل الفقير - يفكر أولاً فى أسباب الحياة ، ويعتبر الفنون نوطاً من الكماليات لا فائض لها من المال والجهود ؛ وإذا اضطرت ظروف الحياة الاجتماعية أو الدينية إلى إقامة بعض المآثر والأدوات وغيرها من مطالب الحياة ، فإنه يجنح دائماً للبساطة وعدم التعقيد ، لأنه يستهدف دائماً تحقيق غرضه بأقل نفقات ممكنة . أما المجتمع الغنى - مثله مثل الفرد الثرى - يبحث عن المتعة وعن أوجه يستغل فيها جزءاً من فائض أمواله ليعتفن فى ابتكار الكماليات ؛ وإذا أقام شيئاً من الأساسيات بالغ فى الإتفاق عليه والعناية به والحرص على جمال صورته . هذا إلى أن الفنان أو الصانع يجهد نفسه فى هذه الحالة ومطمئن تماماً إلى أنه سيجد الجراء الآوفى ، وسيكافئ مادياً بما يتناسب مع جهوده ، الأمر الذى يترتب عليه رقى الفنون وسموها .

وقد سبق أن رأينا فى صفحات هذا الكتاب أن أكبر صفة انصافها

دولة الممالك هي الغنى والثروة وكثرة المال . فدولة الممالك كانت همزة الوصل بين تجار الشرق وتجار الغرب ، والمعبر الرئيسى بين تجارة الشرق وتجارة الغرب ؛ الامر الذى عاد على المجتمع المصرى — حكاما ومحكومين — بالثروة الطائلة والمال الوفير . وإذا قيل إن جزءا كبيرا من هذا المال كان سلاطين الممالك مضطرين إلى إنفاقه فى شئون الحرب والجهاد ، فإن حقيقة هامة ينبغى ألا تغيب عن بالنا هي أن معظم حروب الممالك كانت حروبا رابحة تغطى ما أنفق عليها عن طريق الغنائم الوفيرة . وتفيض المراجع المعاصرة فى شرح الاموال والغنائم التى غنمها الممالك من أعدائهم سواء كانوا الصليبيين فى الشام — وفى قبرص — أو الارمن أو النوبيين أو التركمان وغيرهم . وقد ذكر المقرئى عن بعض هذه الغنائم أنه بلغ من كثرتها أن قسمت النقود بالطاسات ، (١) . ومهما يكن فى هذه الآراء من مبالغات فهي تفيدنا أن الحروب الواسعة التى قام بها الممالك لم تكن عملية خامسة على طول الخط وأنها لم تستنزف جزءا كبيرا من الموارد الضخمة التى نعمت بها الدولة .

وخبر شاهد على الثروة الدافقة التى نعمت بها دولة الممالك ، هورقى الفنون فى ذلك العصر . فالحقيقة الواضحة التى يخرج بها دارس تاريخ مصر فى العصور الوسطى ، هي أن الحياة الفنية بلغت فى عصر الممالك بالذات أسنى درجات الرقى والروعة . وما زالت المتحف الفنية الرائعة التى تزخر بها دور الآثار فى العالم والتى ترجع إلى عصر الممالك ، فضلا عن المهار المملوكية الفائقة الحسن — من مساجد وقصور ومدارس وقباب وغيرها — تشهد برقى الحياة الفنية فى عصر الممالك ومقدار ما أنفق على تلك المنشآت من مال وجهد . ولا أقل من أن تلقى نظرة عامة سريعة على أركان الحياة الفنية فى عصر الممالك لتدرك مدى أهمية ذلك

العصر في تاريخ الفن الإسلامي بوجه عام (١).

العمارة :

يقول الدكتور زكي محمد حسن : د لايب في أن عصر دولتي المماليك (١٢٥٠ - ١٥١٧) هو العصر الذهبي في تاريخ العمارة الإسلامية في مصر ، فقد كان الإقبال عظيما على تشييد للمباني ، من جوامع ومدارس وأضرحة وحمامات ووكلات وأسبلة . كما ظهر التنوع والإتقان والأناقة في شتى العناصر المعمارية من واجهات ومنارات وقباب وزخارف جصية ورخامية (٢).

ونستطيع تقسيم العمار في عصر المماليك إلى دينية ومدنية ، فالدينية أهمها المساجد والمدافن والقباب والمدارس . وكان الجامع مربع الشكل حادة ، يتألف من صحن يحيط به أربعة إيوانات تبدو كأنها حنيات في الجدران ، وأكبرها إيوان القبلة . وفي عصر المماليك الجراكسة ظهر تصميم جديد للجامع أهم معالمه صغر مساحة المبنى واختفاء الصحن المكشوف . ومن أهم العمار الإسلامية في مصر والشام إطلاقا جامع السلطان الناصر حسن ابن الناصر محمد بن قلاوون ، الذي استغرقت عمارته ثلاثة أعوام انتهت سنة ١٣٦٣ أي بعد وفاة صاحبه بعامين . وقد جاء هذا الجامع في اتساع مساحته وروعة تصميمه وجمال زخارفه ، آية فنية يفخر بها الفن الإسلامي إطلاقا . وقد أشرف على عمارة هذا المسجد المهندس محمد ابن بيليك المحسن (٣) ، الذي استطاع أن يجمع فيه بين الأساليب الشائعة في فن

(١) اعتمدنا في العرض التالي بصفة رئيسية على مؤلفات المرحوم الأستاذ الدكتور زكي محمد حسن مؤسس مدرسة الآثار الإسلامية في جامعة القاهرة ورئيس قسم الآثار الإسلامية بجامعة القاهرة ، وأستاذ الآثار الإسلامية بجامعة بغداد سابقا .

(٢) زكي محمد حسن : فنون الإسلام ص ٧١ .

(٣) حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية ج ١ ص ١٧٦ - ١٨٠ .

(٢٥ - العصر المماليكي)

العمارة والزخرفة في عصره، ويعزى لها على نمط جمال المسجد يبدو من الناحية الفنية وحدة جمالية متماسكة. ولهذا المسجد منارتان عظيمتان في الجانب القبلي الشرقي، وكان المفروض أن يكون للمسجد أربعة مآذن، ولكن اكتفى بأثنتين فقط بعد أن امارت المئذنة الثالثة عقب إنشائها. وامتازت المآذن في جوامع ذلك العصر بوجه عام بانسجامها ورشاققتها وتوسط ارتفاعها.

ومن العائز المالكية الجميلة قبة ومدرسة وبجارتها السلطان قلاون، وهي المجموعة التي تمت عمارتها سنة ١٢٨٥. وأجمل ما في هذه المجموعة القبة التي دفن فيها السلطان المنصور قلاون وابنه الناصر محمد، وهي تعتبر آية من آيات الفن الإسلامي، إذ أنها محمولة على أعمدة من الجرانيت ذات تيجان مذهبة وعلى أكتاف، أجواؤها السفلية مغطاة بالنسيفساء الجليل^(١).

ومن أهم العائز ذات الصبغة الدينية في عصر الماليك الجراكسة، مدفن السلطان الظاهر برقوق الذي تمت عمارته في عهد ابنه الناصر فرج سنة ١٤١٠، وقد روى في تصميحه أن يكون على هيئة مجمع يضم مسجدا كبيرا وحضريعا للظاهر برقوق وأفراد أسرته وعائقاه للوفية، ولذلك اجتمعت فيه مختلف الظاهر العمارة الدينية. ويتألف المسجد في هذا البناء من محن يحف به أربعة إيوانات أكبرها إيوان القبلة الذي ينتهي طرفه بقبعتين مزخرفتين بزخارف بارزة تتوسطهما قبة تالفة فوق المخراب. وسقوف الإيوانات الأربعة مغطاة بقبوات نصف كرية من الآجر، ومحمولة على عقود مدفوعة مديبة. أما حرف الحائقاء فهي كثيرة ومعظمها فوق الإيوانات البحرية والقبلي^(٢).

كذلك يعتبر مدفن قايتباي بالناصرية الشرقية بالقاهرة من أهم العائز

(١) زكي محمد حسن: فنون الإسلام ص ٧٩.

(٢) المرجع السابق ص ٧٧.

الباقية من عصر المماليك الجراكمة . وهذا المدفن أيضاً عبارة عن مجمع يضم مدرسة وسبيل ومكتب وقبة . وصحن هذا المدفن مغلى بسقف ذى شخشيخة جميلة وحوله أربعة أيوانات أكبرها إيوان القبلة الذى يقع المدفن قبله ، وقبته منقوشة برسوم هندسية ونباتية جميلة (١) .

أما المآثر المدنية فى عصر المماليك ، فلم يبق منها إلا مداخل بعضها وأجزاء من البعض الآخر . ومن أهم هذه البقايا قصر الأمير بشتاك الذى يرجع إلى سنة ١٢٣٤ ، ولم يبق منه سوى جزء من الواجهة ثم المداخل والقاعة الكبرى وما يحف بها من حجرات ، وتمتاز هذه القاعة بجمال سقفها المذهبة وبالفسقية الرخامية التى تتوسطها ؛ فضلا عن وزرتها الرخامية الدقيقة وإبداع ما فيها من التنجف والأدوات الخشبية ذات الزخارف المخروطة أو المحفورة أو المطعمة . كذلك هناك بقايا قصر الأمير قوصون خلف مدرسة السلطان حسن ويرجع إلى القرن الثامن الهجرى ، وبقايا قصر الأمير طاز بشارع السيوفية بالقاهرة وتشمل المداخل والقاعة الكبيرة ذات السقوف الجميلة والمتعددة الأنواع .

وفى هذا القصور هناك بقايا وكالة الأمير قوصون ومداخل وكالة قايتباى بباب النصر ، فضلا عن بقايا حمام الأمير بشتاك الذى لم يبق منه سوى مدخله المسكوب بالرخام الملون وجميع هذه البقايا وغيرها — مع قلنها — إلا أنها تشهد بسمو الذوق الفنى وروعة البناء (٢) .

الرسم والتصوير :

أما عن الرسم والتصوير فالمعروف أنهما من الأشياء المكروهة فى الإسلام

(١) المرجع السابق ج ٤ ص ٧٨ .

(٢) زكى محمد حسن : فنون الإسلام ص ٨٠ — ٨٤ .

لما فيهما من اتجاه وثنى يرتبط بعبادة الأوثان . ولعل هذه الحقيقة هي التي دفعت الفنانين المسلمين يتجهون منذ وقت مبكر إلى الإعراض عن تصوير الحيوان والإنسان ، واستغلال مواهبهم الفنية في تصوير بعض الأشكال الهندسية ، أو عمل زخارف من النبات وأوراق الشجر . هذا إلى أن الخط العربي صالح للزينة والزخرفة بطبيعته ، فاستعمل الفنانون المسلمون ذلك الخط في كتابة عبارات بالخط الكوفي الجميل على الجدران أو الأواني أو غيرها . ومع ذلك فإن الفنانين المسلمين في العصور الوسطى لم ينصرفوا تماماً عن تصوير الكائنات الحية ، مما جعلهم يتركون مجموعة ضخمة من الزخارف والتصاوير والرسوم التي تشهد جميعها بمدى رقي هذا الجانب من الفنون عندهم .

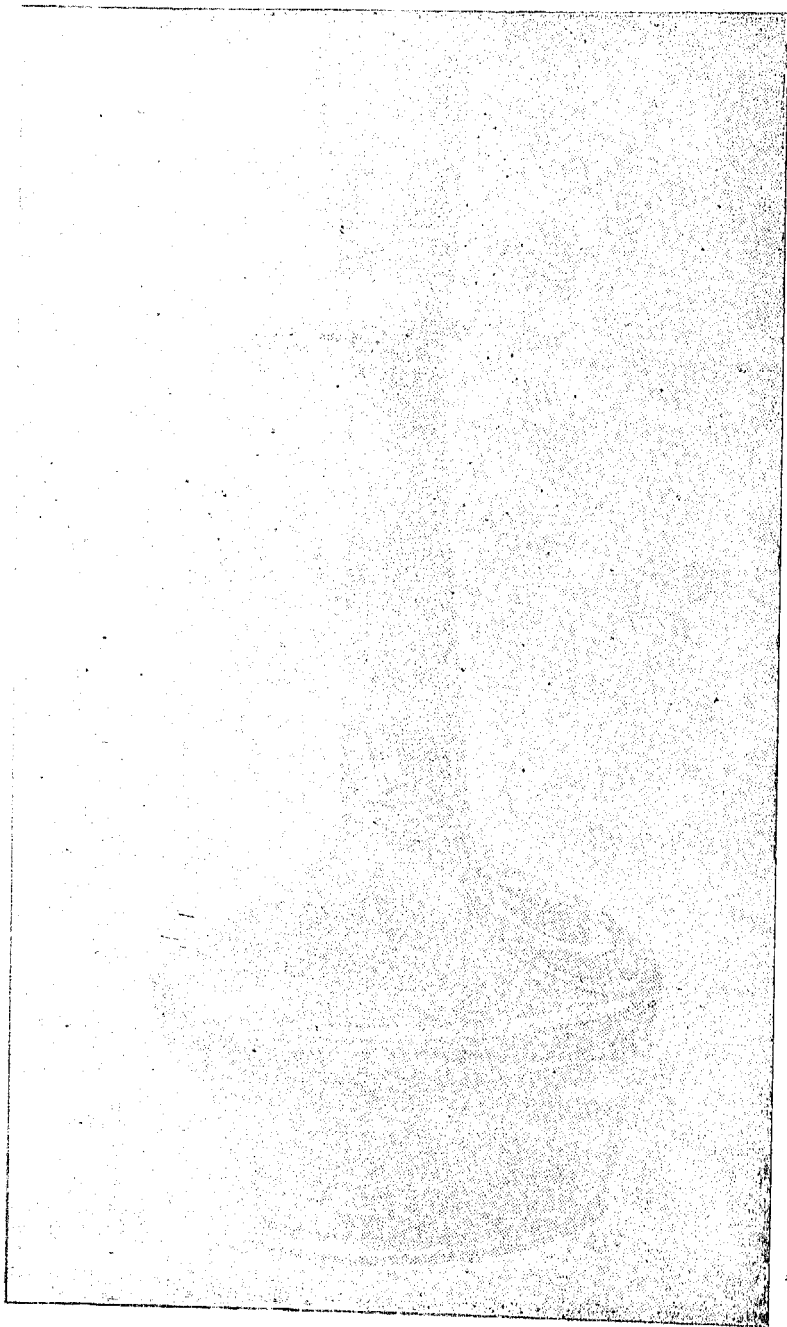
وامتاز عصر المماليك بالذات بكثرة الرسوم والزخارف ورقياً ، فضلاً عن أن هذه الرسوم انصفت بالطابع العربي الواضح . ويؤكد الباحثون أن تعرض بلاد العراق لغزو التتار في القرن الثالث عشر للميلاد ، ساعد على انتقال المدرسة العربية في التصوير إلى أراضى دولة المماليك في الشام ومصر ، بعد أن هاجر إلى هذه الأراضى كثير من فنانى العراق فراراً من خطر التتار هذا فضلاً عن أن إحياء الخلافة العباسية في مصر جعل دولة المماليك قبة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ؛ ومن ثم امتازت التصاوير التى أنتجتها مصر والشام في عصر المماليك ، بمحافظتها - إلى حد كبير - على التقاليد العربية ؛ وخلوها - إلى حد كبير أيضاً - من المؤثرات المغولية التى ظهرت في البلاد الأخرى التى حكمها التتار (١) .

ففي العبارة المملوكية نجد لميوائته المساجد وقد كسيت بالرخام وزخرفه زخارف جميلة ، من وحدات نباتية أو رسوم هندسية ، فضلاً عن بعض الآيات

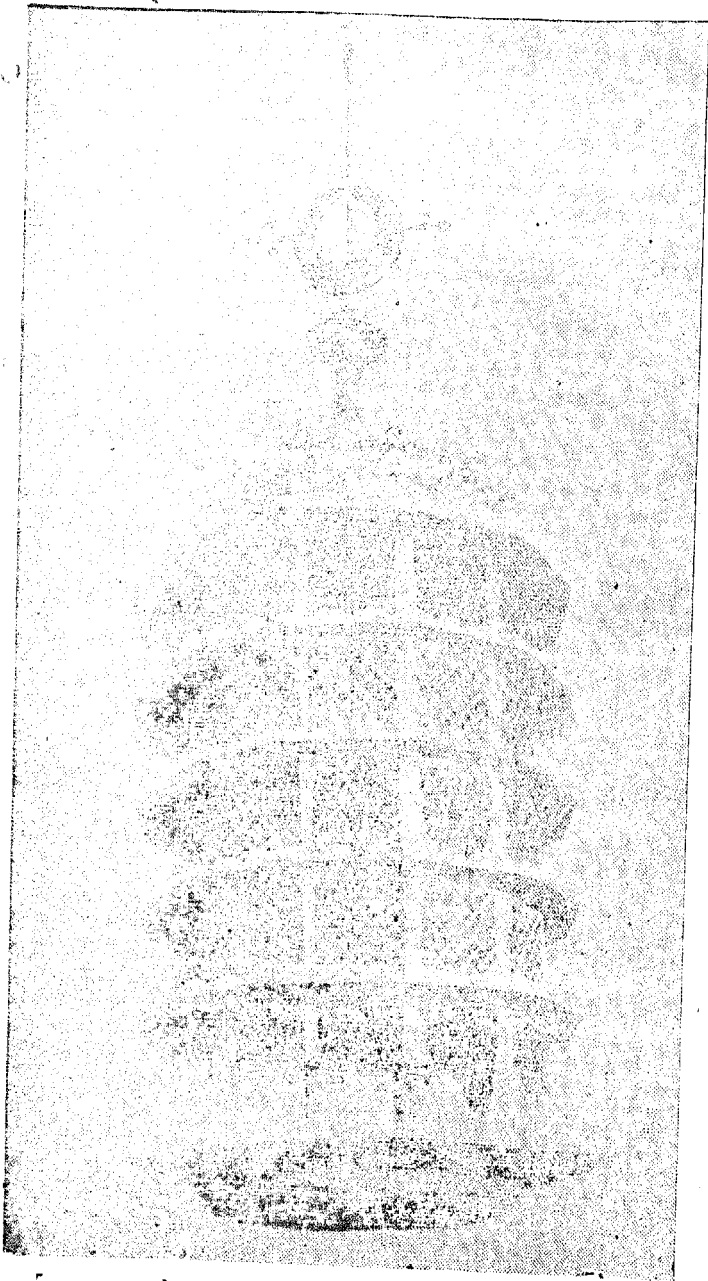
(١) حسن الباشا : التصوير الإسلامى في العصور الوسطى ص ١٦٥ .



قطعة من إناء من الخزف يرجع إلى عصر الممالك .
مرسوم عليه صورة غزال يأكل الحشائش



إناء جميل صنع في الشام في عصر المماليك وهو من الزجاج المصنوع
بألوان متعددة الألوان



تريا من النحاس باسم أحد أمراء الممالك وعليها اسم الصانع الذي
ذكر أنه أتمها في أربعة عشر يوما.

القرآنية المكتوبة بالخط الكوفي الجليل الموزن . كذلك على المباليك بزخرفة سقوف مبانيهم بالرسوم المذهبة وجدرانها بالفسيفساء الدقيقة أو تكسى بالرخام الملون وكذلك الأرضيات . أما واجهات المباني من الخارج فكانت تزخرف على هيئة طبقات أو مداميك أفقية بحيث تكون طبقة منها صفراء فاتحة ، تعقبها أخرى حمراء داكنة .

ولم يقتصر التفوق في مجال الرسم والزخرفة في عصر المباليك على العمار وإنما شمل الخزف والمنسوجات والتحف المعدنية والزجاج والبلور ، فضلاً عن أخلفة السكتب . أما الزخرفة على الخزف فقد بلغت شأواً بعيداً في الشام ومصر في عصر المباليك ، ولشهد على ذلك كثرة الألوان التي لدينا والتي تمتاز برسوم الحيوانات والطيور فضلاً عن الرسوم النباتية والأشكال الهندسية الجميلة (١) . وبعض هذه الألوان عليها زخارف خطية بخط الثلث ، وتحتبط بهذه الكتابات رسوم فروع نباتية وورقات وزهور باللونين الأبيض والأدق على مهاد أسود ، مما جعل منها آية فنية رائعة . كذلك توجد لدينا بعض قطع من الخزف ، أو الفخار ترجع إلى عصر المباليك ومزخرفة بالبيضا الباردة من سطح الطلاء ، وبعض هذه الخزاف قوامها عبارات دعاء بخط النسخ أو رنوك مختلفة الأشكال كالنمر أو الصيغ أو النسر (٢) .

أما زخرفة النسيج في عصر المباليك فقد بلغت هي الأخرى درجة فائقة من الروعة في عصر المباليك وأجل قطع النسيج المحفوظة بدار الآثار العربية والتي ترجع إلى عصر المباليك مصنوعة من الحرير ، وانخذت زخرفتها شكل عبارات مشعل « العز الدائم والإقبال » و « سعادة مؤبدة ونعمة مخلدة »

(1) Hobson : A Guide to the Islamic Pottery of the Near East, p. 65 . (1944) .

(٢) زكي محمد حسن : أطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الإسلامية ص ٤٢٣ — ٤٢٤

و«السلطان العام» و«عز لمولانا السلطان الملك الناصر» و«الله». وكانت هذه العبارات في النسيج تحيط بها زخارف أخرى تمثل أوراق الشجر أو خطوطاً حلزونية أو رسوم بعض الحيوانات مثل فهد يطارد غزالاً أو بعض السباع (١). كذلك يوجد بمختلف الفن الإسلامي بالقاهرة بعض قطع من القماش ترجع إلى عصر المماليك كتبت عليها عقود زواج، والقماش مصنوع من القطن ومكتوب عليه بمداد أسود (٢).

والمعروف أن صناعة المعادن ارتقت في عصر المماليك؛ فصنعت في ذلك العصر كثير من الصناديق والثريات والطاسات والأواني والكراسي المعدنية وغيرها. وجميع هذه المصنوعات كانت تزخرف برسوم جميلة رائعة. وهنا أيضاً نجد أن جزءاً كبيراً من الرسوم والزخارف الموجودة على التحف المعدنية الباقية من عصر المماليك اتخذت شكل عبارات وكتابات بالخط الكوفي أو خط النسخ، مثل «عز لمولانا السلطان...» و«المقر العالي المولوى الأميرى الكبيرى الغازى...» و«الملك الأشرف قايتباى عن نصره...». وهذه الكتابة الزخرفية كانت توجد عادة في مناطق تتخللها وتحيط بها رسوم هندسية متعددة الأضلاع، أو فروع وأوراق نباتية مألوفة، أو رسوم حيوانات وطيور وأسماك، أو رسوم آدمية كرسوم صياد يستخدم الباز (٣).

وأخيراً فإننا نجد أن فن الرسم والتصوير عبر عن رقيه في عصر المماليك في ناحيتين، الناحية الأولى هي ناحية الزجاج والبلور، والناحية الثانية هي أغلفة

(١) انرجع السابق ص ٤٧٣ - ٤٧٤.

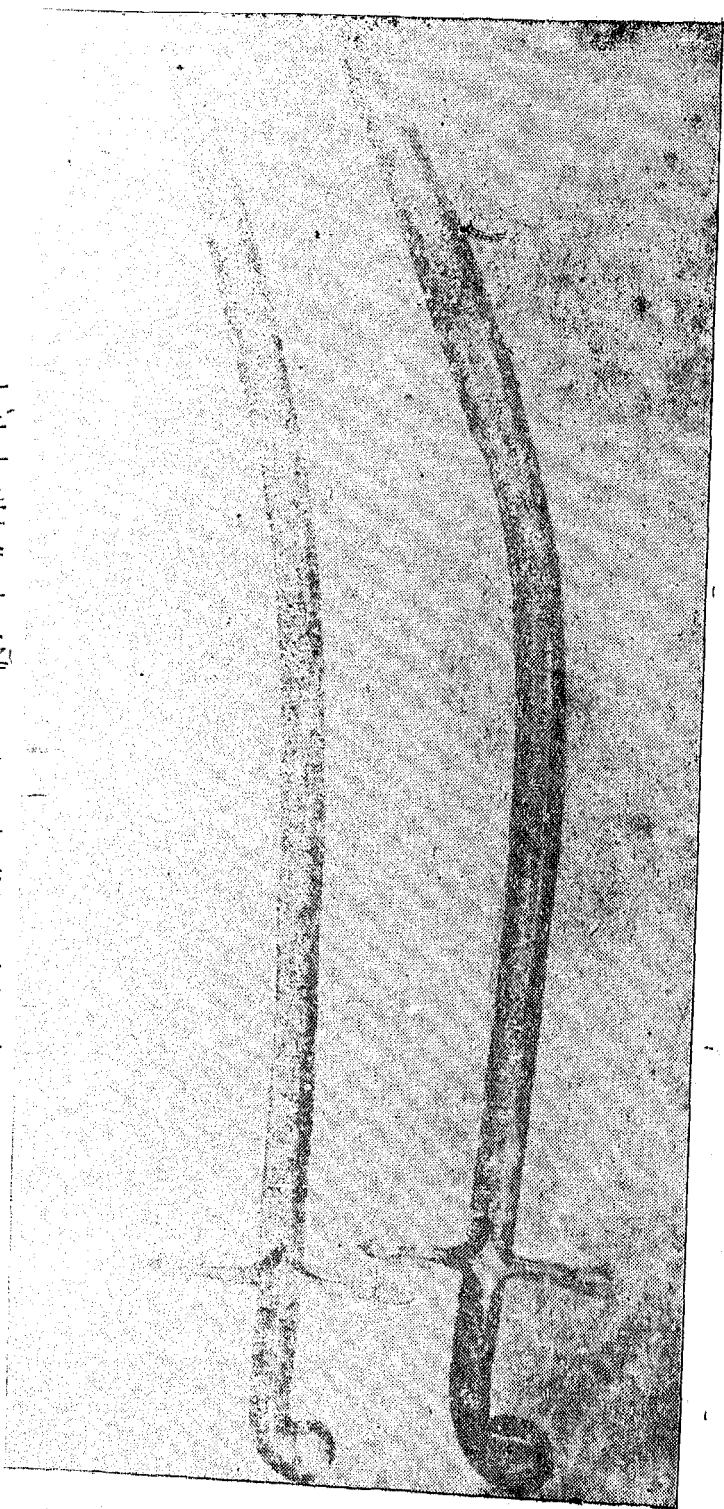
فنون الإسلام ص ٣٦٥ - ٣٦٨.

(٢) سعاد ماهر: عقود الزواج على المنسوجات الأثرية ص ٤ وما بعدها.

(٣) Wiet : Objets en Culvres, p. 272 &

زكى محمد حسن: أطلس الفنون الزخرفية ص ٤٦٢ - ٤٦٥.

سيفان احدى باسم السلطان فاضل بن العورى والاخر باسم السلطان طومان باي
وحاسن الصليب الزين بخلاف وكتابات مسكتة بالاصليب





مشكاة تحمل اسم السلطان الناصر محمد وهي من الزجاج المموه بالمينا
وعليها كتابات من القرآن الكريم بالخط النسخ

السكرتسب أما عن الزجاج والبلور . فمعظم المشكوات الباقية لدينا من عصر الممالك مدهونة بالمينا الحمراء أو الزرقاء أو الخضراء أو البيضاء ، ومن خرفة بأشرطة فيها كتابات مثل « عن لمولانا السلطان الناصر ناصر الدنيا والدين عن نصره » أو آية قرآنية مثل « وقال الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الدن » أو دقة نور السموات والأرض مثل نوره كشكاة فيها مصباح ، وحول هذه الكتابات توجد زخارف من أشكال نباتية من أوراق النبات وزهر اللولس والزنبق ، أو أشكال هندسية تمثل دوائر وحلقات قد تضم رنوكا وقد تضم صور بعض الحيوانات والطيور^(١) .

وأما عن زخارف أغلفة السكرتسب ، فمعظمها في عصر الممالك كانت تذهب وتزين برسوم دقيقة بارعة . ذلك أن جلدة السكرتسب في عصر الممالك امتازت بزخارف هندسية متشابهة ، زاد من جمال شكلها بعض أجزاء مضغوطة من الغلاف ، وهذه الأجزاء المضغوطة كانت تذهب وتزخرف على شكل وريدات وخطوط مجدولة . وبالإضافة إلى هذا النوع من الزخارف الذي نهد منه عدة نماذج في متحف المتروبوليتان ، نجد بعض جلود أخرى من عصر الممالك تتوسطها جامات مزخرفة بقطع رقيقة من الجلد على شكل زخرفة نباتية فوق أرضية ملونة . وكثيراً ما اتبعت طريقة الضغط لتزيين مواطن جلود السكرتسب بزخارف نباتية ، يضاف إليها أحيانا أشكال أزهار مختلفة ، وأصبحت هذه الطريقة الزخرفية محببة إلى رجال الفن في أوائل القرن الرابع عشر^(٢) .

وكان من الطبيعي أن يختص القرآن الكريم بحجز كبير من غناية الفنانين في ذلك العصر ، فهنوا بتذهيب المصاحف وتفننوا في زخرفة أغلفتها ، الأمر الذي

(1) Wiet : Lampes en Verré émaillé, pp. 67-100 &.

زى محمد حسن : أطلس الفنون الزخرفية من ٤٩٦ - ٤٩٧ .

(٢) ديمانند : الفنون الإسلامية ص ٨٧

تشهد عليه مجموعة المصاحف الثمينة المحفوظة بدار الكتبة المصرية ، والتي يرجع جزء كبير منها إلى عصر المماليك الذات . والملاحظ على هذه المصاحف أن الأساليب الفنية لا تبدو في غلاف المصحف أو فانيته فحسب ، وإنما تظهر كذلك في سائر صفحاته ولا سيما في فواصل الآيات . ومن أمثلة المصاحف الجميلة المحفوظة بدار الكتبة المصرية مصحف يرجع إلى سنة ١٣٦٩م (٨٧٧٠هـ) باسم السلطان شعبان . وقوام الزخرفة في غرة هذا المصحف ساحة من مربع ، فوقه وتحتة مستطيل ، ويحيط بهذه الساحة ، إطار ضيق ثم إطار أعرض منه . أما الشريطان العلوي والسفلي في الساحة ، ففيهما رسوم وريقات وسيقان نباتية دقيقة تقوم فوقها أربع جامات ، ففصة المحيط ، وتضم هذه الجوامات كتابة بالخط الكوفي من سورة الشعراء . وفي المربع الأوسط في الساحة إطار يضم ثمان مناطق فيها آيات أخرى من القرآن الكريم مكتوبة بالخط الكوفي . وبعد الإطار مربع داخلي قوام الزخرفة فيه طبق نهجي كامل الشكل ، غنى بالرسوم النباتية الدقيقة في النجمة التي تتوسطه ، وفي الحشوات السداسية الأضلاع الموزعة في نظام إشعاعي ودائري حول النجمة . وفي الإطار الخارجي فروع نباتية ووريقات تؤلف رسوما جميلة من الزخرفة العربية .

على أن تزيين المخطوطات بالرسوم الجميلة وتذهيبها لم يكن وقفا على المصاحف ، وكتب المسلمين فحسب ، بل وجدت مخطوطات من الإنجيل والتوراة مكتوبة بخط عربي جميل ، وزهبت صفحاتها وزينت برسوم هندسية ونباتية وفق الطراز العربي . ومن هذه المخطوطات نسخة من الإنجيل المحفوظة في المتحف القبطي ونسخة في دمشق سنة ١٣٤٠ ، أي في عصر المماليك وغرة هذا المخطوط عليها منطقتان مفصستان فيهما زخارف من فروع نباتية ووريقات فوقها في المنطقة العليا بالخط الكوفي « الإنجيل الطاهر » ، وفي المنطقة السفلى « والمصباح الزاهر ينبوع ... » وبين هاتين المنطقتين مربع قوام زخرفته أربعة

أشكال ثمانية الأضلاع . وفي وسط كل منها رسم صليب اتخذت عنصرا زخرفيا فوق مهاد من الفروع النباتية والوريات الدقيقة ، وتحصر هذه الأشكال بينهما شكلا نجميا مؤلفا من معينين متداخلين وفي وسطه رسم وردة . وحول هذه الأشكال جميعا وفي الإطارات المحيطة بها رسوم خطوط مجدولة ورسوم زهور ، فضلا عن الوريقات والسيقان الواقعة في الإطار الخارجي والتي تؤلف رسوما جميلة . على أنه يلاحظ أن هذه الزخارف وسائر الرسوم المذهبة في ذلك المخطوط لا تختلف في أسلوبها الفني عن زخارف الصفحات المذهبة التي ترجع إلى عصر المماليك ، كما يلاحظ أن شارة الصليب اتخذت عنصرا زخرفيا في الرسوم المذهبة ولسكنها مع ذلك لم تخرجها عن الطراز الإسلامي^(١).

النحت والحفر :

أما فن النحت في الحجر والرخام والجص فقد بلغ درجة كبيرة من التقدم في عصر المماليك . والواقع أنه إذا كان عصر المماليك قد امتاز بازدهار الفن وكثرة المنشآت الفخمة ؛ فإن أهم ما تتصف به هذه المنشآت هي الزخارف والنقوش الفنية التي تحلى جدرانها ومقوفها ، فضلا عن المقرنصات وصنجات العقود المعشقة ، والألواح الرخامية والفسيفساء ، والمفحولات الجصية والحجرية في الزخرفة الداخلية . وقد نحتت تلك الزخارف نحتا ظاهرا ، واقتصرت في أغلب الأحيان على الأشربة والألواح المنقوشة التي زين بها المبني حسب التصميم . وتعتبر الزخارف الجصية التي مازالت موجودة في مسجد الطاهر ببرس ، من الأمثلة الواضحة لروعة هذا النوع من الزخارف في عصر المماليك ؛ كما أن النقوش الحجرية التي تزين مدخل مدرسة السلطان حسن ، تعتبر مثلا

(١) زكي محمد حسن : أطلس الفنون الزخرفية ص ٥٠٧ - ٥٠٨

رائعاً لما بلغه فن الحفر في ذلك العصر^(١).

ويتضح تقدم فن النحت والحفر في عصر المماليك في الألواح الرخامية الكثيرة المحفوظة بدور الآثار العالمية ، والتي عليها أشكال جميلة لنباتات وطيور وحيوانات وزخارف منجوتة نحتاً دقيقاً . ويوجد مدار الآثار العربية زير من الرخام يرجع إلى القرن الرابع عشر للميلاد ، و سطح الزير مزين بزخارف شديدة البروز قوامها رسوم فروع نباتية ووريقات ، وفي أعلاه كتابة بالخط الكوفي وفي أسفله عصابة من رسوم السمك . كذلك من أمثلة النحت البارزة في عصر المماليك ، الإفريز الذي نراه فوق عقد قناطر أبي المنجا . وتمثل هذه النقوش سباحاً متجهة إلى الجنوب الشرقي ورؤوسها منظورة من الأمام ، ولكل منها شارب وأذنان دقيقةتان ومدببتان وعينان ملوحتان وذنب مرفوع على ظهره ، وترمز هذه السباع إلى السلطان الظاهر بيبرس ، لأنه اختار رسم السبع رمزاً له^(٢). كذلك تجلى فن النحت في عصر المماليك في المنابر الرخامية الجميلة الغنية بزخارفها النباتية ، فضلاً عن الشبايك الداخلية في جوامع ذلك العصر ، وهي مصنوعة من الجص وتمتاز بزخارفها الجصية البديعة .

أما الحفر في الخشب فقد بلغ درجة فائقة من الإبداع في عصر المماليك ، فأقبل الفنانون المشتغلون في هذه المهنة على إنتاج التحف الخشبية الدقيقة لاسيما المنابر والخوانات والكراسي والدكك . وامتازت رسوم الحشوات في ذلك العصر بأنواع المراوح الفخيلة والفروع النباتية والوريقات ، فضلاً عن تطعيم الحشوات بخيوط أو أشربة رفيعة من نوع آخر من الخشب ، أغلى ثمناً وأندر وجوداً كالآبنوس أو بالعاج والعظم . وعندما استخدم الخشب في إنشاء السقوف كان يزخرف بالرسوم الجميلة المنقوشة أو المحفورة . كذلك ازدهرت

(١) ديماندا : الفنون الإسلامية س ١٣٢ - ١٣٣

(٢) زى محمد حسن : فنون الإسلاميه س ١٣٢ - ١٣٣ ،

في عصر المماليك صناعة مشربيات النوافذ من الخشب المنحروط ، ولدينا نماذج منها تشهد على براعة الفنان المصري في ذلك العصر . أما الخزانات والدكاك والسكراسي ؛ فيوجد منها عدد كبير بدار الآثار العربية وكلها تشهد بدقة الصناعة وجمال الزخرفة وصهر الذوق الفني^(١).

كذلك ارتقى الحفر على العاج والعظم زمن المماليك ، واستخدمت رقائق العظم فيما بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر في زخرفة الأبواب والمنابر . وتحتوى المتاحف الكبرى في أوروبا - فضلا عن المتحف الإسلامي بالقاهرة - على نماذج كثيرة من التحف العاجية التي ترجع إلى عصر المماليك^(٢).

الفنون الصغرى :

أما الفنون الصغرى فتشمل الصناعات الصغيرة التي يبدو فيها تفوق الصانع ومهارته الفنية وذوقه الجميل ودقة عمله ، وقد سبق أن تكلمنا عن رقى الصناعة في عصر المماليك ، ولا بأس من أن نشير هنا إشارة أخرى سريعة إلى أهم الصناعات التي ظهرت فيها مهارة الصانع وصمو ذوقه الفني في ذلك العصر .

ففي صناعة الخزف بلغ الصانع في عصر المماليك درجة كبيرة من المهارة والدقة تدل عليها البقايا الخزفية من ذلك العصر ، ومن ذلك الخزف نوع ذو زخارف منقوشة تحت دهان شفاف باللون الأزرق أو الأخضر . وقد كتب بعض الخزفيين الذين أتيجروا لنا أنواعاً رائعة من الخزف أسمائهم على الوجه الخارجى من قاع الإناء ، ومن هذه الأسماء غيبي وغزال ودمين والاستاذ المصري وغيرهم ، كذلك امتاز عصر المماليك بصناعة نوع خاص

(١) زكى محمد أحسن : فنون الاسلام س ٤٦٧ - ٤٧٤

(٢) ديمانند : الفنون الاسلامية من ١٣٢ - ١٣٣

من الفخار المطلى بالميثا ؛ وعجينة هذا الفخار ماثلة إلى الحمرة وفوقها قشرة بيضاء يملوها دهان بالميثا الصفراء أو الخضراء أو ذات اللون البنى ، وكان هذا النوع من الفخار يستعمل بكثرة في بيوت الأسراء .

وفي صناعة النسيج أنتج عصر المماليك منسوجات راقية من الحرير ، امتازت برقتها وجمال رسومها ورقة نسيجها ، ومثل ذلك يقال عن صناعة السجاد التي أشار إليها الرحالة الأوروبيون الذين زاروا مصر في عصر المماليك . وانصف السجاد المصري في ذلك العصر بجمال ألوانه ومثانة صناعته وجمال زخارفه الهندسية ، أما في صناعة الخشب فقد أبدع التجارون في صناعة التحف الدقيقة مثل المغابر والدك والكراسي والحوامل والصناديق والخزانات وغيرها ، وفازت مهارة النجارين في ذلك العصر في خراط الخشب وتطعيم مشواته بال عاج والعظم وغير ذلك ؛ فضلا عن كسوة الخشب أحيانا بطبقة دقيقة من الفصيفساء تتألف غالبا من قطع صغيرة من الأبنوس والسن ، وهو ما يسمى الترصيع ، على استخدام العاج والعظم لم يقتصر في عصر المماليك على التطعيم والترصيع ؛ وإنما صنعت في ذلك العصر بعض تحف نادرة من العاج ، معظمها غلب صغيرة عليها زخارف نباتية وهندسية رائعة .

أما صناعة المعادن فقد بلغت هي الأخرى درجة فائقة من الدقة تدل عليها مخلفات ذلك العصر من أبواب وشمدانات وكراسي وطاسات وآنية وأسلحة وغيرها ، وجميعها استعملت فيها مختلف الأساليب الفنية في صناعة المعادن من حفر وتكفيت وتصفيح وتخريم ، ومثل ذلك يقال عن صناعة الزجاج لاذ صنعت مشكيات من الزجاج الأبيض المائل إلى الصفرة أو الخضرة ، وموهة بالميثا . وأبدع نماذج لهذه المشكيات صنعت في الشام ومصر حوالى منتصف القرن الرابع عشر الميلادي ، وبالإضافة إلى المشكيات العديدة صنعت

في ذلك العصر كثرة وتعدد الآنية جميلة من الزجاج ، تشهد كلها على مهارة الصناعة ودقتها في ذلك العصر .

وهكذا يبدو لنا أن عصر الممالك كان عصر نشاط فني ضخم ، وأن الحياة الفنية بجميع أوجهها ومظاهرها ، ارتقت في ذلك العصر إلى أعلى درجات الرقي والانتقان .

والحمد لله رب العالمين

كشاف

شرح أم المصطلحات الواردة في مراجع العصر المالكي

(١)

الآبازة :

تجار البذور .

(المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٤١٤)

أنايك (أطايك) :

مقدم العسكر والقائد العام للجيش المالكي .

(القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ١٨)

أجناد الحلقة :

محترفو الجنديّة من عمالك السلاطين السابقين وأولادهم ، وهم أقرب
فئات الماليك إلى الجيوش النظامية في العصور الحديثة ، ومرتباتهم
من ديوان الجيش .

إنخوان سلاز :

وظيفة بالمطبخ السلطاني يقوم صاحبها بتقديم الخوان بالطعام إلى
السلطان . ويبدو أن صاحب هذه الوظيفة كان كبير رجال المطبخ
السلطاني ، وهو يقوم مقام المنار في فخر المطبخ من البيوت
السلطانية .

(القلقشندي : صبح الاعشى ج ٥ ص ٤٧١) .

آدر :

جمع دار ، وآدر الضرب هي دور سك العملة ، والآدر الشريفة
يقصد بها الحریم السلطاني . والآدر كذلك من ألقاب التشريف التي
تستعمل للإشارة إلى الخوونات أو صاحبات العصمة من عليّة النساء
دون ذكر أسمائهن .

(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٧١ — ٢٧٢ ،
خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٢١ — ١٢٢)

الادعاء في الصيد :

الانتساب : بمعنى أن المبتدئ في الصيد لا يصير في زمرة هواة الفن
إلا بعد أن ينتسب لأحد رماة الصيد القدماء ، فإذا تم ذلك يقال أنه
ادعى لفلان أي انتسب إليه .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٥٢٣)

أرباب الخيال :

(انظر الخيال)

أرباب الضوء (الضوية) :

الأشخاص المكلفون بأعمال الإضاءة .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

أرباب الملحوب :

أصحاب الملاحى المعروفة من المناطحين بالكباش والمناقرين
بالديوك ، والمعالجين والمصارعين والمناققين والملاكمين والمشاهكين ..
والقرادة والدبابة الذين يلعبون بالقروود والدب ... ،
(المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٦٤٢) .

الارتفاع :

ما يتحصل من الدواوين عامة ، ويقال ارتفاع الديوان الخاص أى
ما يتحصل من الديوان الخاص بأموال السلطان .
(المقرئى : السلوك ج ١ ص ٥٢ ، ١١١)

اسباسلار (اسفهلار) :

لقب من الألقاب الخاصة بأمرأه الطليخاناه فى عصر المماليك ، على
أن هؤلاء الأمراء لم يلبثوا أن أخرجوا عن هذا اللقب عندما وجدوا
أن العامة يظلمونه على بعض من يقف بباب السلطان من الأعوان .
(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٦ ص ٧ - ٨)

الاستادار :

وظيفة من وظائف أرباب السيوف يتولى صاحبها شئون بيوت
السلطان كلها من المطابخ والشراب خاناه والحاشية والعلمان . وله
مطلق التصرف فى استدعاء ما يحتاجه كل من فى بيت السلطان من
النفقات والكسوى وما يجرى بجرى ذلك من المماليك وغيرهم .
(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٠ ، ج ٥ ص ٤٥٧ ،
أبو المحاسن : النجوم ج ٨ ص ٢٢٢ حاشية ١) .

أستاذ :

معلم ، وأطلقت فى المصطلح الممالكى على السيد الذى اشترى المملوك
بالمال وتعهده بالتربية حتى كبر وأعتقه . وكانت رابطة الأستاذية
— التى تربط المملوك بأستاذه — من أقوى الروابط فى نظام المماليك ،
حتى أن كثيراً منهم نسبوا إلى أستاذتهم ، فيقال مثلاً يبرس البندقدارى
نسبة إلى أستاذه الأمير علاء الدين البندقدار .

استيفاء الصعبة :

(انظر مستوفى الصعبة) .

الاستيجار :

السجل الحكومى ، الذى يشتمل على أرزاق ذوى الأقاليم وغيرهم ،
مياودة ومشاهرة ومسانة من الرواتب ... ،
(المقريزى : المراعظ ج ٢ ص ٢٢٦) .

الأسطول :

بمجموعة مراكب حربية مجتمعة ، وأطلق أحياناً على مركب واحد
فقط . والأسطول هو المسكرى الذى يعمل فى البحر .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٤٥٧) .

أسلى :

وجمه أسالة . ويقال أيضاً مسلانى وجمه مسالة أو مسلة . ويقصد
به كل من دخل الإسلام حديثاً من أهل الديانات الأخرى .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٨٤٣) .

الإشارة :

وظيفة من الوظائف الكبرى فى الدولة المملوكية ، جعلها الفلقة شندى
فى الترتيب بعد نيابة السلطة والوزارة . ومع ذلك لا نجد تحديداً
ثابتاً لاختصاص صاحب هذه الوظيفة فى المراجع المعاصرة ، وإن
كان من الثابت أنه تولاها عادة بعض كبار أمراء المماليك ، وأن
صاحبها كان يحضر مجلس المشورة .

(الفلقة شندى : صبح الألهشى ج ١١ ص ١٥٣ - ١٥٥ ،
المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٨٩٠ حاشية ١)

أشكر لاط :

نوع من القماش أحر اللون ، كان يرد من جزيرة أيرلند .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

أصحاب الأرباع :

الأرباع جمع ربع ، وهى أقسام أو أحياء المدينة الآهلة ، وأصحاب الأرباع هم الخفراء الذين يقومون بحراسة تلك الأحياء ليلاً .

اصطبل :

مجموعة من المباني يبنها الأمير المملوكى لسكنه وسكن أسرته وعاليكه وخيوله .

الأطلاب :

الحرس الخاص لأمراء الممالك ، ويحملون سلاحاً كالأجناد .
(أبو المحاسن : النجوم ج: ١ ص ٢٩ حاشية ٢) .

الأطلس الخطافى :

نوع من الحرير ، أصل صناعته فى بلاد الخطا شمالى الصين .

(Dozy : Dict. Ar.)

إقامة :

وجمعها إقامات ، ما يلزم الجند من المؤونة والعلف وغيرها . وربما قصد بها ما ينزل فيها المسافر من الخيام ولوازمها وما يتبعها من أمتعة السفر .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ١٥٠ حاشية ٣ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٩ ص ٥٥ حاشية ٥) .

أكديشن :

وجمعها أكاديشن ، الرجل الخليط الذى لا ينسب إلى أصل واحد ، الحصان غير الأصيل المستخدم فى حمل الأثقال .

أمير آخور :

وظيفة يقوم صاحبها بالإشراف على اسطول السلطان أو الأمير
ورعاية ما فيها من خيل وحيوانات .
زيادة : السلوك ج ١ ص ٤٣٨ حاشية ٣) .

أمير جاندار :

(انظر الجاندار) .

أمير خمسة :

أصغر مرتبة من مراتب الأمراء ، ويمتد أصحابها من كبار الأجناد .
كذلك كانت تمنح هذه الرتبة لأولاد الأمراء المتوفين من باب
القشريف .

(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٤ - ١٨) .

أمير شكار :

موظف يقوم برعاية الجوارح السلطانية من الطيور وغيرها . وكذلك
كل ما يتعلق بالصيد وحيواناته .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٢ . ج ٥ ص ٤٦١) .

أمير طبليخاناه :

مرتبة حرية من مراتب أرباب السيوف في مصر المملوكية . صاحبها
يلى أمير مائة مقدم ألف في الدرجة . وسمى أمير طبليخاناه لاحقيته
في دق الطبول على أبوابه كما يفعل السلاطين وأمراء المؤمنين . ويطلق
على أمير طبليخاناه أيضا أمير أربعين ، بمعنى أن يكون في خدمته
أربعين مملوك ، وقد يزيد هذا العدد إلى سبعين أو ثمانين .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٢٣٩ حاشية ١) .

أمير عشرة :

مرتبة حرية يكون في خدمة صاحبها عشرة ماليك . ويكون صغار
الولاية من طبقة أمراء العفريات .

أمير علم :

هو الذي يتولى أمر الأعلام والسناجق والرايات السلطانية ، ويشترط
فيه الدراية بنوع الأعلام اللازمة لكل موكب من الرماكب السلطانية .
(القلقة شندی : صبح الأعشى ج ٤ ص ٨ ، ج ٥ ص ٥٦ - ٥٨)

أمير مائة مقدم ألف :

أعلى مراتب الأمراء في عصر الماليك ، وهذه المرتبة خاصة بأرباب
السيوف ويكون في خدمة صاحبها مائة مملوك ، وهو في نفس الوقت
مقدم على ألف جندي من أجناد الحلقة في وقت الحرب .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٢٣٩ حاشية ١) .

أمير مجلس :

يتولى صاحب هذه الوظيفة أمر مجلس السلطان أو الأمير ، كما كان
يتحدث على الأطباء والكهالين ومن شاكلهم .
(القلقة شندی : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨ ، ج ٥ ص ٤٥٥)

الأمراء السلطانية :

الخازن والشمون التي تخزن فيها الغلال الخاصة بالسلطان ولا تفتح
إلا في حالات الشدة والمجاعات .
(خليل بن شاهين : زبدة كشف المالك ص ١٤٢ - ١٤٣) .

الأوشاقية (أو الأوجاقية) :

مفردها أوشاق أو أوجاق ، وهى فرقة من خدم السلطان عملها ركوب الخيل للتسيير والرياضة .
(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٤)

أبلجى :

وجمعها أبلجية ، السفير أو المبعوث .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

(ب)

باب سر لطيف :

هو الباب الذى يوجد بمكان غير ظاهر من العمارة الإسلامية ، ويدخل منه السلطان أو غيره من الشخصيات الكبرى فى حالة الزحام فى الحفلات مثلا أو عند التختفى فى حالة وجود حريم . والمقصود بباب لطيف أى صغير .

(عبد اللطيف إبراهيم على : دراسات تاريخية وأثرية مجلد ٢ تحقيق ٢٤٦) .

بابا :

وجمعها بابية ، وهو د لقب عام لجميع رجال الطغمت خاياه ممن يتعاطى الغسل والصقل وغير ذلك . وهو لفظ رومى معناه أبو الآباء ... وكانه لقب بذلك لأنه لما تعاطى ما فيه ترفيه مخدومه من تنظيف قاشه وتحسين هيئته ، أشبه بالآب الضفيق .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٧٠)

البادهنج (باداهنج أو بادنج) :

جمعه بادهنجات ، وهو المنفذ الذى يوجد وسط المبنى للتزوية (المنور أو الفخشمينة) . وقد ورد اللفظ بالذال أيضاً .

(Dozy : Dict. Ar.)

البازدار :

هو الذى يحمل الجوارح والطيور الممدة للصيد على يده .

(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٦٩) .

بازهر (بازهر) :

حجر خفيف هش ينسب إليه قوى غريبة في مقاومة السموم .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الباشورة :

وجمها براشير ، وهى سد من القراب لمنع وصول الخيالة والرجال والسهام إلى موضع المحاربين .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ١٥٠ حاشية ٤)

البراية (الممالك ...) :

الممالك والأمراء الذين ليسوا من الخاصكية ، ويقال لهم الحرجية أيضاً . أما الخاصكية فكانوا يسمون باسم الجوانية .

(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٧٦ ، ج ٤ ص ٥٦)

المقرىزى : المواعظ ج ٢ ص ٢١٧) .

البره دار :

د هو الذى يكون فى خدمة مباشرى الديوان فى الجمل ، متحدثاً على أعوانه والمتصرفين فيه ...

(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٨) .

(٢٢) — العصر المالكي

البرك :

نقل المسافر ومتاعه .

(كنز معجم ج ١ ص ٢٥٣ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٨ ص ٨٧)

بركستوان (بر كسطوان) :

ما يوضع حول بدن الفرس كالدرع .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ١٧٧ حاشية ٥) .

البركيل :

ممر تاد البحار من التجار والمغامرين ، والبراكية نوع من السفن .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

البشت :

بكسر الباء أو ضمها وجمعه بشت ، العباءة من الصوف بلونه الطبيعي .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

البشتكي :

نوع من الخمر نسبة إلى الأمير بشتك .

البشخاناه :

وجمعها بشاخين ، وهي ما يطلق عليها اليوم الناموسية المزدكشة أو دابر السرير ، أى الحلية التى توضع فوق السرير ، وقد تكون حول الغرفة كلها .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

البهمة دار (البهمة دار) :

هو الذى يحمل نعل السلطان أو الأمير .

(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٥٩) .

بطلان :

وجمهمها بطالون ، أى الأجناد والأمراء العاطلون من أعمال الدولة ووظائفها وإقطاعاتها نتيجة غضب السلطان أو كبر السن ، أو اضطراراً إلى الاحتكاف والاختفاء ، أو لمجرد حب الإنزواء والابتعاد .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٧٣ حاشية ٤) .

البطاسة :

نوع من السفن الحربية ، ويفهم من عبارة ذكرها النويرى أن السفينة من هذا النوع كانت تدمع لعدد كبير من الجنود يصل إلى نحو سبعمائة .

(النويرى : نهاية الأرب ج ٢٩ ص ١٣٢٣) .

البغاطاق :

قباء بلا أكمام أو بأكمام قصيرة جداً يلبس تحت الفرجية . وكان يصنع من القطن البعلبكي الأبيض أو من السنجاب .

(Dozy : Dict. Vet. Ar.)

البقط :

المال الذى فرضه المسلمون على النوبة بعد فتحهم لها ، وظل يحمل إلى مصر كل سنة .

(المقرئى : المواعظ ج ١ ص ١٩٩)

بقيار :

بجادة سوداء مصنوعة من وبر الجمل ، نوع من العمامم الكبار كان يلبسها الوزراء أصحاب القلم .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٥٥ حاشية ٤) .

البكّة :

المشبك الذى يشبك فى الثياب للزينة ، وقد يكون من ذهب .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

بليق :

وجمعه بلاليق ، نوع من النظم الخاص بالأغاني الشعبية .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

البندق :

كرات تصنع من الطين أو الحجارة أو الرصاص يستخدمها الرماة فى تطيير الحمام . وكان البندق يرمى بالاقواس ثم صار يرمى بالمواردق والآنابيب عن طريق ضغط الهواء من مؤخر الأنبوب . والبندقانيون هم صانعو البندق .

(زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى ج ٥ ص ١٥٢) .

البندقدار :

حامل كيس البندق خلف السلطان أو الأمير .

(القفاقشندي : صبح الأعشى ج ٢ ص ١٢٧ ، ج ٥ ص ٤٥٨)

السلوك ج ١ ص ٣٥٠ حاشية ٢ ، النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٩٤)

الواردى :

وجمعه وارديون ، تاجر الطيور المحفوظة بالتبريد أو التليح .

(زيادة : السلوك ج ٢ ص ٦١٣ حاشية ١) . ويفهم من بعض كتب

الحسبة المعاصرة أن اللفظ أطلق أيضاً على تاجر الخضروات المحفوظة

بالصلق وإضافة الخل والزيت والتوابل والملح إليها .

(ابن الأخوة : معالم القرية فى أحكام الحسبة ص ٩٦) .

البوراقى :

مايتأخر كل سنة عند الضمان والمتقبلين من مال الخراج .
(المقريرى : المواقظ ج ١ ص ٨٢)

بيدر :

وجمعها بيدور ، الموضع الذى تدوس فيه الفلال .

بيضة :

وجمعها بيض ، خوذة من الحديد يلبسها الجندى لوقاية رأسه ، وسميت
كذلك لأن شكلها يشبه البيضة .

البكار :

وجمعها بياكه ، الحرب عامة .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

بمارستان :

(انظر مارستان)

(ت)

التجريس :

هو أن يدهر المذنب فى طرقات المدينة ، ويضرب الجرس على رأسه
ليجتمع الناس حوله ، ثم يضرب أو يوسط علناً فى نهاية المطاف .
(انظر التفهيم والتوسيط)

المتحناية :

القميص الذى يلبس تحت الملابس ، وعكسه القوقانية .

(Dozy : Dict. Vet. . .)

نقطة :

مقعد : وتخت الملك (مرير الملك) منبر من رخام يصدر إيوان
السلطان الذي يجلس فيه .

تفريج (الجوارح) :

تدريب الجوارح .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٧٠٠ حاشية ٢) .

تخليق (المقياس) :

التخليق هو التعطير بالرائحة العطرية المسماة (خلوقة) ، ومعنى تخليق
المقياس تعطيره ومسحه بالزعفران عند وفاة النيل .
(القلقشندي : صبح الاغنى ج ٤ ص ٤٧) .

التذرع بالسخام :

تلطبخ الأذرع بالسخام ؛ وهو الفحم وسواد القدر ، وذلك إظهاراً
للحزن .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٧٩٦ حاشية ٤) .

تذكرة :

وجمعها تذاكر ، مكتوب يصدر من السلطان إلى نوابه وقصاده
لتذكيرهم بتفاصيل ما يوكل إليهم ، وليكون بمثابة ورقة اعتماد عند
الجهات التي يقصدونها .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٤٨٠ حاشية ٥) .

الترابي :

الأطفال من أسرى الحروب .

(المقرئى : المواظ ج ٢ ص ١٩٤) .

الترسيم :

وجمعه تراسيم ، وهو الأمر الذي يصدر من الجهة المختصة لعقوبة
شخص بوضعه تحت المراقبة .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٧٤ : حاشية ه) .

التركاش :

الكنانة أو الجمعية التي توضع فيها الثياب .
(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

التسمير :

عقوبة تقضى بتمرية المحكوم عليه من الثياب ، ثم يربط إلى خشبتين على
شكل صليب ، وتدق أعضاؤه في الخشب بواسطة مسامير غلاظ .

التشريف :

الحلة أو الملابس المهداة من السلطان إلى كبار الأمراء في مناسبات
خاصة أهمها التعيين في الوظائف الكبرى كالنيابات .

التشهير :

عقوبة تقضى بأن يطرح المذنب على ظهر جمل ثم يطاف به في
المدينة ليظهر ، وقد تزفه المغاني وهو على هذه الصورة ليجتمع الناس
حول ، وفي نهاية المطاف يضرب أو يوسط أمام الناس .

تشهير :

وجمعه تشاهير ، وهي الأشرطة التي توضع حول صدر الحصان .
(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

التصقيح :

إحصاء البيوت والمقارنات لأجل فرض ضريبة عليها ، والتفويض
تقدير قيمة كل من البيوت المحصاة من أجل الفرض نفسه .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٣٨٤ حاشية ٢) .

تعبية :

وجعها تعابى ، أى ثياب أو قطع من قاش .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

تفصيلة :

ثوب .

التقليد :

المرسوم الموقع من السلطان لتمييز شخص في وظيفة كبيرة .

التفويم :

(انظر التصقيح) .

التكلاوات :

نوع من الملابس كان يلبسه الأمراء في العصر المملوكي ، غير معروف
وصفه بالضبط . واللفظ على صيغة الجمع .

(Dozy : Dict. Vet. Ar. p. 29.)

التمر بقاوى :

نوع من الحمور نسبة إلى الأمير تمر بقا .

التوسيط :

حقوبة تقضى بضرب المحكوم عليه بواسطة السياف ، على أن تكون
الضربة قوية تحت المرة ، فتقسم الجسم نصفين من وسطه وتنهال
أمعاء المحكوم عليه إلى الأرض .

تومان (طومان) :

الفرقة التي يبلغ عددها عشرة آلاف مقاتل .
(زيادة : المقریزی ج ١ ص ٩٣٣ حاشية ١)

(ج)

الجامشكير :

الامير الذي يقوم بذوق المأكول والمشروب قبل السلطان أو الامير
خوفاً من أن يدمس عليه فيه سم أو نحوه .
(القلقشندي : صبيح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٠)

الجالية :

وجمعها جوالى ، وهى ما يؤخذ من أهل الذمة من الجزية المقررة عليهم
كل سنة .
(القلقشندي : صبيح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٢ ، النويرى : نهاية الأرب
ج ٨ ص ٢٣٦)

الجاليش :

راية عظيمة فى رأسها خصلة من الفهر تحمل فى مواكب السلطان ،
لا سيما المواكب الخاصة بالحرب . وكان الممالك يطلقون اللفظ أيضاً .
على الطليعة من الجيش .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٦٢٨ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٧
ص ١٠١) .

الجامكية :

وجمعها جوامك ، الرائب المربوط لفهر أو أكثر .

(Dozy : Spp. Diet, Ar.)

الجاندار :

الأمير الذي يستأذن على دخول الأمراء للخدمة السلطانية ويدخل أمامهم إلى الديوان .

(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٠ ، ج ٥ ص ٤٥٩)

الجتر :

مظلة أو قبة من حرير أصفر موركش بالذهب على أعلاها طائر من فضة مظلية بالذهب ، وتحمل على رأس السلطان في موكب الصيد .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٧ - ٨) .

جرانهي (جارحي) :

طبيب الجراحة .

جرخ :

جمعها جروخ ، وهي آلة حربية تستعمل لرمي السهام والنفط والحجارة ويقال لمستخدمها من الجنود جرخي .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ١٠٠٣ حاشية ١) .

جريدة :

فرقة من العسكر الحياالة لإرجالة فيهما . ويقال ركب السلطان جريدة .. أي ركب على وجه السرعة دون أن يصطحب معه أثقالا أو حمدا .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ١٠٦ حاشية ٨) .

جفت :

وجده جفوت ، وهو الزخرفة البارزة المنحوتة في الحجر على شكل
إطارات أو سلسلة حول فتحات النوافذ والأبواب والإبرونات .
(عهد اللطيف إبراهيم على : دراسات تاريخية وأثرية مجلد ٢
تحقيق ٥٨)

الجفتة :

وجدهما جفتاوات ، اثنان من أوشاقية اصطبل السلطان ، قريتان
في السن ، يركبان أمام السلطان في بعض المواكب السلطانية ،
ويلبسان قباءان أصفران من حرير وتحتهما فرسان أشهبان .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٧ - ٨) .

جفهر :

جمعة من جلود لاخشب فيها ، أو من خشب لا جلود فيها .
(أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٣١٣ حاشية ٦) .

الجدار :

الموظف الذي يتصدى لإلباس السلطان أو الأمير ثيابه .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٥٩) .

الجمقدار :

هو الذي يمشي في المواكب السلطانية عن يمين السلطان حاملاً
دبوساً له رأس منخمر مذهب ، على أن يتجه نظره إلى السلطان من
أول خروج الموكب حتى انقضاظه .

جناية :

وجمعها جنايات ، وهى ما يفرضه السلطان من ضرائب وغرامات
تأديبية على رعيته .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٤٨٨ حاشية ١) .

جنب :

وجمعها جنائب ، وهى الخيول التى تسير وراء السلطان فى الحروب
لاحتمال الحاجة إليها .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٣٤١ حاشية ٢) .

جنك :

آلة من آلات الطرب ، والحفريات الجوارى اللاتى يلعبن على
الجنك .

الجنكى :

لاعب آلة الجنك ، وكذلك رقص الأفراح . واتمنى معظم هذه
الفئة من الرقصين إلى شباب الأرمن واليهود واليونان والترك .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٢٧٥ حاشية ٢) .

الجنوبة :

النقالة التى تستخدم لنقل الموتى .

الجوسق :

وجمه جواسق ، أى القصر والقصور .

الجوشن :

الدرع .

الجوك :

الركوع على الركبتين (في حضرة عظيم) .

الجوكان :

عضى مدهونة طولها نحو أربعة أذرع ، برامها خشبة مخروطية
معموفة تزيد من نصف ذراع ، تستخدم في لعب الكرة (بولو) .
(القلقشندي : صبح الاعشى ج ٥ ص ٤٥٨ ، زيادة : السلوك ج ١ ،
ص ٤٣٥) .

الجوكندار :

هو الذى يحمل جوكان السلطان أثناء لعبة الكرة .
(القلقشندي : صبح الاعشى ج ٥ ص ٤٥٨) .

(ح)

الحاجب :

أمير وظيفته « أن ينصف بين الأمراء والجند ، تارة بنفسه وتارة
بمراجعة النائب إن كان ، وإليه تقديم من يعرض ومن يرد ،
وعرض الجند وما ناسب ذلك » .
(القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ١٩) .

حاجب الحجاب :

تسمى وظيفته « الحجوبية الكبرى » ، وهو يقوم بالنظر في مخاصمات
الاجناد واختلافهم في أمور الإنطاعات ونحو ذلك ، .
(المقرئى : المواعظ ج ٢ ص ٢١٩) .

حراسة الطير :

وظيفة يقوم صاحبها برعاية طيور الصيد وحراستها في الأماكن التي ينزل فيها السلطان لمباشرة رياضة الصيد .

(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ، ص ٢٢ ، ج ٥ ص ٤٦١) .

حراله :

وجمعها حراريق : نوع من السفن الحربية استخدمت لحمل الأسلحة النارية (كالنار الأفريقية) ، وكان بها مرام تلقى منها النيران على العدو . واستخدم نوع منها في النيل أثناء الاستعراضات التي تقام في الحفلات العامة مثل الاحتفال بكسر الخليج .

(قاموس محيط المحيط ، المقرئ : السلوك ج ١ ص ٣٠٦) .

حرسى :

وجمعها الحرسية ، وهم الجنود المكلفون بحراسة مكان من الأماكن .

حرفوش :

وجمعها حرافيش أو حرافشة ، أى الرعاع والدماء وضعاف الخلق .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الحرمدان :

حقيقية السفر ، المحفوظة الخاصة التي يحمل فيها الفرد أوراقه ونقوده ، ويطلق اللفظ أيضاً على حقيقية الخلاق .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الحرمية :

قاعة خاصة بالحريم في عمارة القصر أو البيت الإسلامى، وهى تشتمل على إيوان أو أكثر ودور ومرافق وحقوق من مطبخ وخزانات ومرحاض وغيرها، وهى التى عرفت بعد ذلك فى العصر العثمانى بالحرم ملكه .
(عبد اللطيف إبراهيم على : دراسات ، مجلد ٢ تحقيق ٢٢٤) .

حزير غبار :

هو الثوب أو القماش الذى يبدى أكثر من لون واحد .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الحماية :

وجعها حمايات ، وهى مكس يعرضه الأمير أو السلطان على بعض الأراضى والمتاجر والمراكب والأرزاقي ، ويقوم الأمير بحماية الشخص الذى يدفع ذلك المكس المقرر .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٨٧٥ حاشية ٣) .

الحمل :

وجعه حمل ، ما يحمل إلى السلطان من محصول إقليم نوعاً أو عيناً ، وكذلك ما يحمله المحكوم عليه عدلاً أو ظمناً من الأموال إلى خزائن السلطان .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الحوانج خاناء :

ومعناها بيت الحوانج : وهى الجهة التى منها يصرف اللحم الراتب للمطبخ السلطانى والدور السلطانية ، ورواتب الأمراء والمماليك السلطانية وسائر الجند والمتعممين وغيرهم من أرباب الرواتب الذين تملأ أسواق الدقائر ، وكذلك توابل الطعام ... ،
(الفتاوى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٢) .

الحواصل السلطانية :

يطلق هذا الاسم على ثمانية بيوت هي الشرايعخانه ، والطاقيخانه ،
والفراشخانه ، والملاحخانه ، والركابخانه ، والخواجخانه ،
والمطبخ ، والطبخخانه . وكان لكل منها موظفون يقومون بالعمل
فيها وتديرها .

حوندار :

وجمعه حوندارية ، وهم المكلفون بخدمة طيور الصيد من السكراكي
والبهونات وحملها إلى موضع تعليم الطيور ، وأصل اللفظ حيوان دار .
(القلقهندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٧٠) .

حياصة :

وجمها حواصص ؛ وهي الخوام أو المنطقة .

(Dozy : Dict. Vet. Ar. p.p. 146 — 147)

(خ)

خاتون :

لقب لقبت به الملكات والأميرات .

الخازندار :

المشرف على خزائن السلطان من نقد وأمتعة .

الخاصكية :

جماعة من حاشية السلطان يأتون في ترتيب البروتوكول المملوكي بعد
الأمراء المقدمين . كان عددهم في أول الأمر أربعة وعشرين ثم زادوا

على الأربعمائة . وقد تمتع الخاصكية بمكانة كبيرة فكانوا يدخلون على السلطان في أوقات فراغه وفي خلوانه بغير إذن ، وخصص لهم السلاطين الأرزاق الواسعة والعطايا الجزيلة ، وامتازوا بحسن المظهر وأناة الركوب والملبس .

(كترمير ج ٢ ص ١٥٩ ، خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١١٥ - ١١٦ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ١٧٩ - ١٨٠) .

خاطبة :

وجمعها خواطي ، المرأة الداعرة .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الخان :

وحممه خانات ، وهي الوكالات أو الفنادق المعدة لاستقبال التجار وبضائهم ودوابهم ، وغيرهم من المسافرين والحجاج . ويوجد به اصطبل للدواب وفي أعلاه طباق ومساكن للنازلين به تطل على حوش أو ساحة تتوسط الخان . كذلك يوجد بالخان بئر مياه وميضأة ومسجد صغير .

(عبد اللطيف إبراهيم : دراسات ، المجلد الأول تحقيق ٧٨)

خان :

وجمعه خانات ، أماكن العبث واللهو .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

خاناتاه :

وجمعها خوانات وخاناتوات ، بيت ينقطع فيه الصوفية للمعبدة والذكر .

(٢٨ - العصر المالكي)

خبز :

وجمعه أخبار . من معاني هذا اللفظ. في هصر الممالك إقطاع من الأرض ، فيقال أخبار الأجداد أى إقطاعاتهم .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الحبز القار :

أو المقر بالنار ، وهو الحبز المقدد الذى يمكث مدة أطول فى النار حتى يمكن حفظه أو خزنه مدة طويلة دون أن يتلف . وكان الصوفية بالخرائق يفضلون هذا النوع من الحبز على غيره .
(عبد اللطيف إبراهيم : دراسات ، المجلد الأول تحقيق ٦٩٩) .

الخرستان :

وجمها خرستانات ، وهى حجرة تشبه الخلوة أو الحاصل (خزانة) ، تفرش بالبلاط وتسقف ، وقد يكون بها منفذ أو بادهنج ، ولكن الغالب أن تكون حبيسة بدون فتحات .
(عبد اللطيف إبراهيم : دراسات ، مجلد ١ تحقيق ٢٠٣) .

الحرگاه :

بيت من خشب مصنوع على هيئة مخصوصة وينشئ بالجوخ ونحوه ، تحمل فى السفر لتكون فى الخيمة للمبيت فى الشتاء لوقاية البرد .
(القلقشندى : صبح الاعشى ج ٢ ص ١٣٨) .

الخروبة :

قطعة صغيرة من النقود النحاسية ، قيمتها عشر درهم . والخروبة أيضاً مكيال .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٨٩٩ حاشية ١) .

الخزان :

الشخص الذى يوكل إليه مراقبة خزانة السلطان فى الأسفار والحروب .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٩٣٧ حاشية ١) .

خشد اش :

زميل فى الخدمة ، والخشداشية هى رابطة الرماله بين الأمراء الذين
نفساؤا ممالك عند أستاذ أو سيد واحد .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٢٨٨) .

الخطاة :

لعبة تلعب ببعض البندق والخلوى والماء وما شابهها ، وهى تقوم
على أساس القرعة فن وقع له الخلوى أو البندق أكل وشرب الذى
يجواره وقد تكون الخلوى من نصيب فرد واحد مرتين أو ثلاثة ،
فيضطر من يجواره إلى الشرب مرتين أو ثلاثة مما يسبب ضحك
المجموعة .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٧٢٥ حاشية ٥) .

الخواجا (الخوجة) :

المعلم ، التاجر ، الكاتب .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الخوائيق :

المرض المسمى بالذبحة

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الخوخة :

باب صغير فى بوابة كبرى لسور أو حصن ، وجرت العادة أن
يخصص هذا الباب الصغير للاستعمال اليوى ، فلا تكون حاجة

إلى فتح البوابة الكبرى إلا عند الاقتضاء أو الضرورة . وقد يقصد بالخوخة فتحة في السور نفسه دون أن تكون هناك بوابة كبرى .
(زيادة : السلوك ج ٢ ص ٢١٥ حاشية ٢) .

خوشطاشة :

وجمعها خوشطاشية ، وهي امرأة من موظفات القصر السلطاني .
(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

خونجة :

وجمعها خونجات ، خوان صغير أو صيلية من الخشب أو المعدن .
(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

خوند :

لقب يفيد معنى الاحترام ، ويخاطب به الذكور والإناث سواء .
(سيد ، سيدة) .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

خيل النوبة :

الخيل التي تربط قرب قصر السلطان ليركب منها حين يريد الركوب .
وتسمى أيضاً فرس النوبة .

(د)

دبابة :

وجمعها دبابات ، وهي آلة حربية تشبه البرج المتحرك على عجلات ،
وتكون من عدة أدوار تصعد إليها الجند لمهاجمة الحصون وتسلق
الأسوار .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الدبندار :

الذى يضرب على الطبل .

الدبوس :

وجمه دبائيس : آلة من آلات الحرب فى العصور الوسطى تشبه
الإبرة . كانت تصنع من هود طوله نحو قدمين من الخشب الغليظ
فى أحد طرفيه رأس من حديد نظرها ثلاث بوصات تقريباً .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

درابة :

جمها دراريب ، إحدى مصرعى الباب .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الدراعة :

جمها دراريع ، جبة مشقوقة المقدم ولا تكون إلا من صوف .
ويطلق الاسم أيضاً على صدرية تلبسها البنات .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٤٥٢ حاشية ٢) .

الدوب :

وجمه دراب : باب السكة الواسع .

درج :

وجمه دروج ، ورق خاص بالدواوين ، وهو كما عرفه القلشندى
« الورق المستطيل المركب من عدة أوصال وهو فى عرف الزمان
عبارة عن عشرين وصلاً متلاصقة لا غير » .
(القلشندى : صبح الأعشى ج ١ ص ١٢٨) .

الدركاه :

وجمعها دركاوات ، الفضاء أو الممر المؤدى لمدخل بناء كبير .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الدستور :

الإذن : فيقال أعطى السلطان الأمرء دستوراً ، أى أعطاهم إذناً بكذا .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الدلق :

بكسر الدال وسكون اللام ، أو بفتح الدال وكسر اللام ، رداء يتكون من عدة قطع من القماش على ألوان مختلفة يشبه العبادة وكان يرتديه المتصوفة والقضاة والعلماء .

(Dozy : Dict. Vet. Ar.)

الدليل :

وهو الشخص من أهل الناحية يقوم بتعيين أسماء المزارعين للأراضي المزروعة التي يمسحها السلطان من المساحين ، ويلزمه أن يعمل القناديق والقوانين والسجلات ، ويفصل الأرض بيقاعها وأصناف مروجاتها وقطاييمها وأسماء المزارعين ، .
(ابن عماتى : قوانين الدواوين ص ١٠) .

منة :

وجمعها دمن ، قطعة الأرض من القرية ، وما عليها من دور الفلاحين والجامع والمقبرة وغيرها من المنافع العامة .
(عبد اللطيف إبراهيم : دراسات مجلد ٢ تحقيق ٥٩٩) .

الدوادار :

أى عمك الدواة ، والوظيفة اسمها الدوادارية وصاحبها يحمل دواة السلطان أو الأمير ويقوم بإبلاغ الرسائل عنه وتقديم القصص والشكاوى إليه .

دولاب :

وجمعها دولاب ، وهى الآلات العجلية المستعملة فى الزراعة والصناعة
عموماً ، سواء صناعة السكر أو النسيج أو غيرها .
(زيادة : السلوك ج ٢ ص ٤٠٨ حاشية ٤) .

الدينار الديوانى :

الدينار الشرى الصادر عن الديوان أو دار الضرب السلطانية ، فهو
مضروب حسب قوانين الدولة القائمة بوزن معين وعيار معين من
الذهب ، ولذلك يكون مقبولا فى المعاملة لدى الناس فى الأسواق .
(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٥ - ٤٦٨) .

الدينار الصورى (الشخص) :

تطلق الدنانير الصورية أو المشخصة على الدنانير الإفرنجية ، وسبب
كذلك لنقش صور أصحابها من ملوك الإفرنج على وجوها .
(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤١) .

الديوان الخاص :

هو الديوان السلطان الخاص بالنظر فى أمزال السلطان والتحدث
فى جهاته ومضائقه .
(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٥٦)

ديوان المفرد :

الديوان الذى يتولى نفقة الممالك السلطانية من جامكيات وعلقب
وكسوة ، وإيراده من البلاد المفردة له .
(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٥٧)

ديوان المواريث الحشرية :
(انظر المواريث الحشرية) .

(ر)

رأس المبصرة :
كبير الأمراء المتقدمين في السن من أكابر أمراء المائة ، وهم أمراء المشورة .
(أبو المحاسن : النجوم ج ١٢ ص ٢٤٧) .

رأس الثوبة :
وظيفة يقوم أصحابها بالحكم على الممالك السلطانية والاخت على أيديهم ، وقد جرت العادة أن يكونوا أربعة أمراء ، واحد منهم مقدم ألف وثلاثة طبلخاناه .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨) .

الرباط :
وجمعه ربط ورباطات ، وهو في الأصل مكان إقامة الحامية المربطة عند ثغور العدو ، ثم صار اللفظ يطلق على بيت الصوفية حيث يربطون للزهد والعبادة .

الربع :
عدة مساكن علوية تحتها حوانيت ووكايل للتجارة ، واسكل ربع باب يتصل مباشرة بسلم داخل وجهة البناء المشرفة على الطريق العام ، وبواسطته يصعد السكان إلى مساكن الربع المخصصة لسكنى العامة بأجور شهرية زهيدة .

(أبو المحاسن : النجوم ج ١٠ ص ٣٠٣ حاشية ٣) .

الرخمت :

كلمة فارسية تفيد عدة معان منها المتاع والبضائع والماشية والخيول والرياش ، والرختوانية هم الذين يتولون العناية بمتاع السلطان أو الأمير في الأسفار .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ١٩٠ حاشية ٤ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٨ ص ٦٠ حاشية ٦) .

الرزق :

وجمه أرزاق ، وهى المراتب سواء كانت يومية أو شهرية .

الرزقة :

وجمها الرزق ، وهى الأطينان التى كان يعطيها الخلفاء والسلاطين ، بمقتضى حجاج شرعية أو تقاسيط ديوانية إلى بعض الناس على سبيل الإحسان والإناعام رزقه بلا مال . ومن تلك الأراضى ما هو موقوف صرف ريعه على المساجد والخوانق والربط وغيرها من الجهات الخيرية للقيام بمصالحها والوفاء بمطالبها . ومنها غير الموقوف فيصرف ريعه إلى مستحققيه ، والرزق التى من النوع الأخير تنحل بانقراض أصحابها . (أبو المحاسن : النجوم ج ٩ ص ٥٣ حاشية ٦) .

رستاق :

وجمه رسانيق ، وهى القرى أو البلاد أو الأعمال . واللفظ فارسي ومنه بالعربية رزداق وجمعه رزاديق . (زيادة : السلوك ج ١ ص ٣١٠ حاشية ٢) .

الرفرف :

سقف خشبي مائل ، يحمل على كباش (كوابيل) خضبية مثبتة فى

الحوائط فوق المقاعد أو المصاطب أو مكاتب الأيتام ، للوقاية من
المطر وأشعة الشمس ، كما يستعمل في تغطية الميضأة وسط الصحن
المكشوف في المدارس والمساجد لحماية المتوضئين .
(عبد اللطيف إبراهيم : دراسات ، مجلد ٢ تحقيق ١٣٠) .

رفيعة :

وجمعها رفاع ، وهي الرقعة ترفع إلى السلطان لتبليغ ظلامة أو غيرها .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ١٣٨ حاشية ٣) .

الرقبة :

رقبة من أطلس أصفر مزركشة بالذهب ، تحمل على رقبة الفرس
السلطان في موكب العيدين ، وتكون من تحت أذني الفرس إلى
نهاية عرقة .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٨) .

ركاب :

وجمعها ركابون وركابية ، وهم الذين يركبون خيول السلطان والأمراء
لقروضها وتدريبها (سائس) .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الركاب خاناه :

أى بيت الركاب الذى تكون به السروج واللجم وغيرها من معدات
ركوب الخيل ، وله موظف موكل بحواصله يعبر عنه بمهتار الركاب خاناه .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٧ ، ١٢) .

الركابدارية :

هم الذين يحملون العاشية بين يدي السلطان في المراكب ، وهم تابعون
للكركاب خاناه .

(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٧ ، ١٢) .

الرنك :

وجمعه رنوك ، وهو الشعار الذى يتخذه الأمير لنفسه عند تأمير
السلطان له . ويقول القلقشندى : ومن عادة كل أمير كبير أو صغير
أن يكون له رنك يخصه ... بحسب ما يختاره ويؤثره ، ويجعل ذلك
دهاناً على أبواب بيوتهم والأماكن المنسوبة إليهم كطابخ السكر
وشون الغلال والأمالك والمراكب وغير ذلك . .
(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٦١ - ٦٢) .

روشن :

وجمعهما رواشن ، وهى النافذة أو الكوة للإضاءة وقد يقصد بها
الخرجات فى العماير .
(عبد اللطيف إبراهيم : دراسات ، مجلد ٢ تحقيق ١٧٨) .

الروك :

وفعله راك ، وهى عملية مسح الأراضى الزراعية وفك الزمام
وتعديل الحراج . وقد تمت هذه العملية فى مصر الإسلامية عدة
مرات ، أشهرها فى عصر المماليك الروك الحسامى الذى أجراه
حسام الدين لاجين والروك الناصرى الذى أجراه الناصر محمد .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٨٤١ - ٨٤٢) .

(ز)

زاوية :

وجمعهما زاويا ، اسم أطلق قديماً على كل مسجد صغير ، فيه أحد الرجال .

المعروفين بالتقوى والزهد ، ويقوم بوعظ وإرشاد من يتردد على زاويته من الناس . وقد تطور معنى زاوية في العصر المماليكى فأصبح يقصد به الخانقاه أو منزل الصوفية .

(انظر مادة زاوية في دائرة المعارف الإسلامية — بروفنسال) .

زيدية :

وجمعها زبادى ، وعاء للشرب أو للطعام .

الزحافة :

وجمعها زحافات ، آلة من آلات الحرب والحصار .

الزراق :

وجمعها زراقون ، أى رامى النفط من الزرافة وهى الانبوبة التى يزرق بها النفط .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٩٨ حاشية ٢) .

الزردخاناه :

بنت الزرد أى بيت السلاح ، وبها دمن السيوف والقسى العربية والنشاب والرماح والدروع المتخذة من الزرد المسانع ... وفى كل سنة يحمل إليها ما يعمل بخزائن السلاح من الأسلحة ، يجعل على رؤوس الحمالين وينزف إلى القلعة ويكون يوماً مشهوداً . وفى هذه السلاح خاناه من الصنائع المقيمين بها لإصلاح العدد وتجديده المستعملات جماعة كثيرة ... ،

(القلقشنندى : صبح الأثر ج ٤ ص ١١ - ١٢) .

الزوردخاناه :

أطلق اللفظ أحياناً على السلاح نفسه ، أو على السجن المخصص للمجرمين من الأمراء وأصحاب الرتب .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الزودكاش :

الصانع الذى يعمل فى السلاح خاناه، فى صنع السلاح وإصلاحه وتجديده .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٢) .

الزهر :

انظر حرفوش والشلاق .

الزغل :

النقود المزيقة ، ويطلق اسم الزغلية على مزيفها .
(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

زكاة الدولة :

ضريبة على الآلات المستعملة ، بمعنى أن هذه الزكاة كانت تفرض
على من يستخدم الدواليب (أى الآلات والعيالات) فى الرى أو
الغزل أو صناعة السكر أو غيرها .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٦٦٤ حاشية ١) .

زكاة العداد :

زكاة مفروضة للسلطان سنوياً على قطمان القبائل العربية والتركية ،
وكانت تصل فى كل سنة إلى عشرات الآلاف من الغنم .

زمام دار (زنان دار) :

الموكل بحفظ الحرم : أى الذى يتحدث على باب ستارة السلطان أو
الأمير من الخدام والحصيان .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٥٩ - ٤٦٠)

زئار :

جمعه زانير، وهو حزام أو وشاح تميز بلبسه أهل الذمة في العصور الوسطى .

(Dozy : Dict. Vet. Ar.)

الزفارى :

كسوة للحصان تكون مفتوحة فوق صدره ومسدولة على الكفل بحيث لا يرى الذيل ، وكان الزفارى يغطى بدل السكينوش لمن عظمت قدرته ومقامه عند السلطان ، ويصنع من الأطلس الأحمر أو الجوخ .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٨٥١ حاشية ه) .

زفير :

سلسلة .

الزبار (أو الزيارة) :

جمعها زبارات ، وهى آلة حربية كالقوس الذى يرمى به البندق .

(م)

الساق :

الأمير الذى يتولى سقى السلطان على الموائد ، والإشراف على مد السباط وتقطيع اللحم ، وسقى المشروب بعد رفع السباط .
(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٥٤) .

ستارة :

وجمعها ستائر ، حائط أو حاجز خارجى يهتمى خلفه المدافعون عن حصن أو سور ، ويستخدم المهاجمون الستائر كذلك للوقاية من قذائف العدو .

(Dozy : Supp. Dict. Are.)

السراخور :

وجمعهما سراخورية : كبير الجماعة الذين يتولون علف الدواب ،
وتحرف أحياناً إلى سلاخور. وسلاخورية .

(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٠ - ٤٦١ .
أبو المحاسن : النجوم ج ١٠ ص ١٢ حاشية ٢) .

سريير الملك :

هو تخت الملك : وهو عبارة عن د منبر من رخام يصدر إيان السلطان
الذي يجلس فيه ، وهو على هيئة منابر الجوامع إلا أنه مستند إلى
الحائط ، وهذا المنبر يجلس عليه السلطان في يوم مهم كقدوم رسل
عليه ونحو ذلك ... ،

(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٦ - ٧) .

سقرق :

وعاء خاص بشرب الخمر ، ويوجد نوع من النبيذ الحبشي اسمه
سقرقة .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٥٥)

سقيان :

خوف ثان يلبس في القدمين فوق خف آخر ، اعتاد أن يلبسه
السلطان والأمراء والجنود والحريم في عصر المماليك .
(أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٣٣١ حاشية ٥) .

سكرجة :

وجمعهما سكارج ، وهي الألوان .

السياط :

المائدة : ما يبسط على الأرض لوضع الأطعمة وجلس الآكلين .

السمط :

الثوب الذي ليست له بطانة ، طيلسان .

السنجق :

وجمه سناجق ، وهي أياك صفر صفار تربط بطرف الرماح ويحملها السنجقدار .

(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٨ ، ج ٥ ص ٤٥٦-٤٥٨) .

السنجقدار :

حامل السناجق .

السواق :

وجمه السواقون ، الشخص المكلف بإدارة سائفة الماء في جامع أو غيره .

(زيادة : السلوك ج ٢ ص ٧٥٩ حاشية ١) .

سوسي :

نوع من الملابس أو الأقشة المخروطة أو المطرزة بالزخارف ، يرجح أنها كانت من الحرير أو الكتان الرقيق ، واستخدمت في حمل القمصان (السواسي) .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

(ش)

شاد (أو مشد) :

مفتش ، فيقال شاد الدواوين أي الذي يفتش على الدواوين ويراجع

حساباتها ، ومثله شاد الجوالى وشاد الزكاة .. وتسمى العملية شد ،
فيقال شد الدواوين أى التفتيش عليها .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ١٠٥ حاشية ٢) .

شاد العماير :

يكون صاحب هذه الوظيفة « متكلماً فى العماير السلطانية مما يختار
السلطان إحداها أو تجهيده من القصور والمنازل والأسوار ،
(القلقةمندی : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٢) .

الشاش :

ما يلف حول غطاء الرأس من قماش رقيق .

(Dozy : Dict. Vet. Ar.)

الشحنة :

الشرطة ، وصاحب الشحنة هو متولى رئاسة الشرطة ، ويقال للوظيفة
الشحنكية .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الشرابخانه :

بيت الشراب ، ويحوى مختلف أنواع الأشربة — ومنها الأدوية —
التي يحتاج إليها السلطان ، فضلا عن الأواني النفيسة المصنوعة من
الصينى الفاخر .

(القلقةمندی : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٠ . النويرى : نهاية الأرب

ج ٨ ص ٢٢٤) .

الشرابي :

هو الذى يصنع الاشربة والادوية ، وهو أحد رجال الشرايخانة ،
مثل الشربدار .

(القلقشندى : صبح الاعشى ج ٥ ص ٤٦٩) .

الشرب :

وجمه شرابي . قمش رفيع من الكتان كان يستعمل فى معظم
الاحيان للمعائم .

(Dozy : Suppl. Dict. Ar.)

الشربدار :

هو الذى يقوم بالخدمة فى شرايخانة السلطان أو الأمير ، وكانت
هذه الوظيفة من وظائف الخدم أو الحرف الصناعية . أما الأمير
الذى يتولى سقى السلطان على الموائد فاسمه الساقى .

(القلقشندى : صبح الاعشى ج ٥ ص ٤٦٩ ، ٤٥٤)

الشربوش :

قلنسوة طويلة تلبس بدل العمامة وكانت شارة الأمراء فلا يلبسها
المعممون ، وقد ألغى استعمالها بمصر زمن المماليك البرجية .

(Dozy : Dict. Vet. Ar.)

الفشش :

لوح من الخور ،

(أبو المحاسن : النجوم — طبعة كاليفورنيا ج ٩ ص ٧٩٨ — ٧٩٩)

شعار السلطنة :

مظاهر السلطنة ، أى أنواع الملابس والأدوات والتزيينات التى
كان يظهر بها السلطان فى المواسم سواء داخل القلعة أو خارجها .
(القلعة شندى : صبح الأعيان ج ٤ ص ٧ - ٨ ، ٤٤ - ٤٩) .

شكارة :

وجمعها شكائر . وهو الكيس للنفود أو غيرها

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الشلاق :

الزعر والراع الذين يضايقون الناس فى الطرقات ويدخلون الحرف
فى قلوبهم ، والشلاق الضرب بالسوط .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٦٩٥ حاشية ١) .

شمسة :

سماعة الباب أو المدقة من الحديد أو النحاس الأصفر ، وجمعها شماسات .
(عبد اللطيف إبراهيم : دراسات ، مجلد ٢ تحقيق ٦٥) .

شمعة :

وجمعها شمورع وهى الأعمدة الخشبية الدقيقة .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

شمبر :

وجمعها شمابر ، شريط من الحرير الأسود أو الأحمر الفاتم ، عرضه
شهران وطوله نحو سبعة أذرع ، تلفه النساء على رؤوسهن فوق
العصابة بحيث يتدلى أحد طرفيه من مقدم الرأس والثانى من مؤخرها ،
(زيادة : السلوك ج ٢ ص ٥٢٨ حاشية ١) .

شبن (شبنية) :

وجمه، شوانى . أكبر نوع من السفن الحربية عرفته مصر فى العصر
المماليكى ، وكان يحذف بمائة وأربعين مجدافاً وتركب فيه المقاتلة
والجدافون

(ابن ممانى : كتاب قوانين الدواوين ص ٢٣٩ - ٣٤٠ ، المقرئى :
المواعظ ج ٢ ص ١٩٤ - ١٩٥) .

(ص)

الصاع :

مكيال للحبوب يساوى نصف وية ، والوية ثلاث كيلات .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٤٠٩ حاشية ١) .

الصبر :

البيع إلى أجل مسمى ، أو بغير ثمن معين .
(المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٧٧٦ حاشية ٤) .

صفه :

مسطبة ، أريكه ، مقعد .

صولق :

وجمه صوالى ، وهو جراب أو كيس من جلد توضع به حاجات
السفر من الزاد ، ويضعه الشخص فى حزامه من الجهة اليمنى .
(الخياط التوفيقي ج ١٠ ص ٣٥ ، زيادة : السلوك ج ١ ص ٧٨٩ ،
حاشية ٩ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٧٨) .

(ط)

الطارمة :

وجمه طارمات ، بيت من خشب يبنى سقفه على هيئة قبة لجلوس
السلطان .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الطارىء :

ثالث سماء سلطاني يمد في أول النهار ، ويكون منه مأكل السلطان .
(المقرئى : المواعظ ج ٢ ص ٢١٠ - ٢١١) .

الطباىى :

طبيب الأمراض الباطنية .

طبر :

وجمه أطبار ، وهو الفأس من السلاح ، معرب تبر .

الطبردار :

هو الذى يحمل طبر السلطان — أى فأسه — عند ركوبه فى المراكب .
وأمر طبر هو الذى يتحدث على الطبردارية الذين يحملون الأطبار .
(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٥٨ ، ٤٦٢) .

طبقة :

وجمها طباق ، وهى ثكنات الممالك بقلعة الجبل ، وكانت كل طبقة
تضم الممالك المجاورة من لد واحد .
(المقرئى : المواعظ ج ٢ ص ٢١٣ - ٢١٤) .

الطراحة :

وجمها طرايح ، مرتبة يفترشها السلطان إذا جلس .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

طراد (طريدة) :

وجمه طرائد ، وهو نوع من المراكب الجارية يستعمل غالباً في حمل الخيول والفرسان .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

(ابن ماتي : كتاب قوانين الدواوين ص ٣٣٩) .

الطراز :

هو الشريط من الكتابة على الحجر أو الرخام أو الخشب ، ويكتب عليه عادة اسم المنشئ وتاريخ الإنشاء . ويوجد على جانبي المدخل الرئيسي للعمارة أو على فتحات الأبواب والنوافذ والإيوانات أو على واجهة العمارة .

(عبد اللطيف ابراهيم : دراسات تاريخية ، مجلد ٢ تحقيق ١١٨)

طرخان :

الأمير المتقاعد دون أن يكون مغضوباً عليه ، ولذا كان له أن يقيم حيث شاء .

طرد وحش :

نوع من قماش حرير منقوش بمناظر الصيد والطرود . وكانت تصنع منه بعض الخلع السلطانية

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

طريدة :

(انظر طراد) .

الطشيت خاناه :

أى بيت الطشيت ، وفيه يكون أنواع الطشوت اللازمة لغسل الأيدي
والقماش وغيرها ، فضلاً عن المقاعد والمخاد والمجادات التى تلزم
السلطان ، وللطشيت خاناه مهتار يشرف عليه .

(القلعة شندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٠ - ١١) .

الطشيت دارية :

هم غلمان الطشيت خاناه .

(القلعة شندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٠ - ١١) .

طلب :

لفظ كرى معنى الأمير الذى يقود مائتى فارس فى ميدان القتال ،
ويطلق أيضاً على قائد المائة أو السبعين . وقد عدل مدلول اللفظ
فأصبح يطلق على المكتبية من الجيش .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٢٤٨ حاشية ٢) .

الطمغا (تمغا) :

البراءة التى تصدر من قبل السلطان أو الملك بالعفو عن مجرم أو تأمين
خائف والطمغا أيضاً شعار السلطان أو الأمير .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٣٧٩ حاشية ٤ ، ص ٨٧٢ حاشية ١) .

الطواشى :

وجمه طواشية ، وهم الحصيان الذين استخدموا فى الطباق المملوكية ،
وفى الحرم السلطانى ، وكانت لهم حرمة وافرة وكلمة نافذة ،
ويعد شيخهم من أعيان الناس .
(المقرئى : المواعظ ج ٤ ص ٢١٩) .

الطومار :

نوع من أنواع الخط ، أو من أنواع الكتابة .
(الفلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٥٢) .

(ظ)

الظرف :

وجمه ظروف ، وهو الوعاء وكل ما يستقر فيه غيره .

(ع)

العاقدة :

هو الذى يتولى تحرير العقود وكتابتها ، كعقود البيع والزواج ،
وهو دون القاضى فى الرتبة .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

العامل :

وجمه عاملون ، وهو من يتولى تنظيم الحسابات الدبوانية وكتابتها .
(الفلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٦) .

العبرة :

مقدار المساحة ، وهى فى الإصطلاح المالى القديم مقدار المربوط
من الخراج أو الاموال على كل إقطاع من الأرض ، وما يتحصل
عن كل قرية من عين أو غلة .

(عبد اللطيف ابراهيم : دراسات ، مجلد ٢ تحقيق ٥١٠) .

عرادة :

وجمعها عرادات ؛ وهى آلة حربية أصغر من المنجنيق ، ترمى بالحجارة إلى المرمى البعيد .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٦٢ ، حاشية ٤) .

العريف :

مساعد المؤدب فى الإشراف على الأيتام المسجلين بالمكتب ، ويكون بالمكتب طادة عدة عرفاء يختص كل منهم بالإشراف على بضعة صبيان .

العصاة :

وجمعها عصائب ، وهى راية عظيمة من حرير أصفر مطرزة بالذهب ، عليها ألقاب السلطان ، تحمل فى المواكب السلطانية .

العلامة السلطانية :

هى ما يكتب السلطان بخطه على صورة اصطلاحية خاصة ، وكان لكل سلطان علامة وتوقيع .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٣٤٤ حاشية ١) .

علم دار :

هو الذى يحمل العلم فى ركاب السلطان .

(القلقة شندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٢ ، ج ٥ ص ٤٥٦ ، ٤٦٣)

الغنبرينه :

نوع من الخلى المعنبر تلبسه النساء حول الرقبة ، والغنبريون هم تجار المعنبر المستخدم فى الخلى وكان لهم سوق كبير بالقاهرة .

(المقرئى : المواظ. ج ٢ ص ١٠٢ - ١٠٣)

(غ)

الغاشية :

قبة د من أديم مخروزة بالذهب ، يحالها الناظر جميعها مصنوعة من الذهب ، تحمل بين يديه (السلطان) عند الركوب في المواكب الحفلة كالميادين والأعياد ونحوها ، يحملها الركاب دارية .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٧)

غراب :

وجمه أغربة ؛ نوع من السفن الحربية تركب فيه المقاتلة والجدا فون .
(ابن ممتى : قوانين الدواوين ص ٣٣٩ - ٣٤٠) .

الغفار :

وجمه غفائر ، المعطف .

(Dozy : Supp. Dict, Ar.)

غلام :

وجمه غلمان : وهو من يقوم بخدمة الخيل ، وهذا اللفظ د في أصل اللغة مخصوص بالصبي الصغير والمملوك ، ثم غلب على هذا النوع من أرباب الخدم .

(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٧١) .

الغلاميات :

الجوارى يلبسن لباس الغلمان .

(Dozy : Supp Dict. Ar.)

الغيار :

نوع من الملبوس يتميز به أهل الذمة عن المسلمين في العصور الوسطى .

(Dozy : Supp. Dict, Ar.)

(خ)

فانوسية :

وجمعها فانوسيات ؛ كمية معينة من شمع الفوانيس .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الفراش خاناه :

بيت الفراش ، وكانت تشتمل على أنواع الفرش من البسط والخيام
اللازمة للسلطان في أسفاره وإقامته خارج القلعة .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١١) .

فرس النوبة :

فرس مجهز بالمرج والفاشية ، يحفظ بقرب حضرة السلطان
لاستخدامه في الطوارئ أو للركوب إعلانياً بقيام سلطان جديد .
(ابن أبي الفضايل : كتاب النهج السديد ، ص ٤٢٢) .

الفرمان :

وجمه فرمانات ، ما يصدره السلطان أو الملك من الكتب للولاية
والوكلاء والقضاة يعلن فيها تقليد مناصبهم أو تعيينهم فيها .

الفضة النقرة :

سبيكة من الفضة والنحاس الأحمر بنسبة ثلثين من الفضة وثلث من
النحاس الأحمر ، ومنها كانت تضرب الدراهم النقرة .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٣ ، ٤٦٦) .

الفلس :

وجمعه فلس ، عملة صغيرة ، وكانت في مصر على نوعين أحدهما المطبوع بالسكة وثانيهما غير المطبوع . وكان الصنف الثاني عبارة عن قطع مكسرة من النحاس الأحمر أو الأصفر ويعبر عنها بالعتق . (الفلفشندى : صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٤٣ — ٤٤٤) .

فهاد :

وجمعه فهاده ، وهم الأشخاص الموكول إليهم حراسة الفهود . (زيادة : السلوك ج ١ ص ٤٩٤ حاشية ٤) .

فوطه :

مرادف البقجة ، وهي قطعة من قماش من الحرير السكندري تحمل فيها الأوراق الرسمية مرتبة إلى حضرة السلطان . (زيادة : السلوك ج ١ ص ٥٧٨ حاشية ١) .

الفوقانية :

وجمها فوقانيات ، الرداء الذي يلبس فوق الملابس ، وعكسها التحتانية . (Dozy : Diet. Vet. Ar.)

(ق)

القباء :

ملبوس (فرجية — قفطان) وقد وصف المقریزی الآفنية على عصر المماليك بأنها إما بيض أو مشهرة أحمر وأزرق ، وهي ضيقة الأكمام على هيئة ملابس الإفرنج اليوم .

(Dozy : Supp. Vet. Ar.)

القبز :

آلة موسيقية .

قبع :

وجمه أقباع ، غطاء للرأس يشبه الطاقية ، ويصنع من الحرير أحياناً .
وكان يوضع تحت الطربوش الذى تلف حوله العمامة . وجاء فى خطط
المقرئى ذكر سوق الإقباعين .

(ابن الحاج : المدخل ج ٤ ص ٢٤) .

القبق (القباق) :

القرعة المسلية ، وأطلق فى عصر المماليك على الهدف المستعمل فى
لعب الرماية المعروف بالقبق أيضاً ، وكان هذا الهدف يصنع على
شكل قرعة مسلية من ذهب أو فضة .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٥١٨ حاشية ٦) .

قرباص :

وجمها قراييص ، وهى الحجارة .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

القرط :

البرسيم .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٥٠٦ حاشية ٤) .

قرطاس :

وجمها قراطيس ، وهى نوع من الفلوس النحاسية أو الدراهم المنقورة
على شكل أصبع .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

القرقل :

قيص النساء ، أو الثوب الذى لا يكامله والمرقل كذلك سلاح يشبه
الدرع يتخذ من صفائح الحديد وبغشى بالديباج الأحمر والأصفر .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٧٤٧ حاشية ٤)
عبد اللطيف إبراهيم : دراسات ، مجلد ٢ تحقيق (٣٠٠) .

القصة :

الطلب ، الإلتباس ، الشكوى ، ويرفعها صاحب الحاجة إلى حضرة
السلطان عن طريق موظف خاص اسمه قصه دار .
(القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٣ ص ١٥٤) .

القطاعة :

وجمعها قطاعيع ، المطرقة تستعمل لقطع الصخر أو هدم البناء .

قطيعة :

وجمعها قطائع ، وهى الفئة من الجند .

القلمة :

وجمعها قلاع ، قصد بها — فضلا عن معناها الأصيل وهو الحصن —
قوس النصر أو الزينة التى تقام بعرض الطريق على ألواح من الخشب
ليمر من تحتها موكب السلطان .

فلنصورة (أو فلنسية) :

وجمعها فلانس ، لباس للرأس (طاقيّة — طربوش) تصنع من جلد
الماعز أو الصوف أو الحرير ، وربما لبست تحت العمامة .

القلوبات :

اللون والجوز والبندق والفسق وسائر أنواع المكسرات المنشورة .

(Dozy ; Supp. Dict. Ar.)

القمن :

نوع من الخمر يصنع من لبن الخيل ، واللفظ تزي لأصل .

(زيادة : السلوك ص ٦٧ حاشية ٢) .

القند :

وجمعها قنود ، عصارة قصب السكر إذا جمد

القرود :

ما يبعث به العرب إلى السلاطين من هدايا الخيل والإبل والحيوانا

النادرة

القياسة :

وجمعها قيايس ، سفينة تستعمل في الإبحار في المياه القليلة العمق كشراطيء

البحار ، وتكون عادة عريضة المساحة قليلة الارتفاع بطينة السير .

(Dozy ; Supp. Dict. Ar.)

القيسارية :

وجمعها قياسر ، السوق المسقوفة ، وأطلقت أيضاً على الخان أو الوكالة ،

أى البناء الذى يحتوى على غرف ومخازن للتجار ، ويعلوه طباق

للسكنى بارتفاع دورين أو ثلاثة .

(Dozy ; Supp. Dict. Ar.)

القيطون :

والجمع قياطين وقياطن ، الحجرة الصغيرة فى لغة أهل مصر ، والحبة

فى لغة المغرب .

(Dozy ; Supp. Dict. Ar.)

(ك)

كارمى :

وجمعه كارمية وأكارم ، أى تجار الكارم ، وهم تجار البهار والتوابل
الواردة إلى مصر من الهند عن طريق ثغور اليمن ، وهم كذلك
أرباب المال والأعمال المصرفية فى الشرق الأوسط فى العصور الوسطى .
وكان معظمهم من بلاد الكانم الإسلامية (بالسودان الغربى)
فلسبوا إلى أصلهم بعد تحريف اللفظ إلى الكارم .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٨٩٩ حاشية ٢ ، ج ٢ ص ٨٢٧ حاشية ٣) .

كاملية :

وجمعه كوامل ، نوع من الملابس الخارجية كالعباءة .

(Dozy : Supp. Vet. Ar.) -

كباش :

وجمعه كبوش وأكباش ، آلة حربية لها رأس ضخم وقرنان
تدفعها الجنود نحو أسوار الحصون لتهديمها .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

كجاوة :

هودج النساء (فارسية) .

(أبو المحاسن : النجوم ج ١٠ ص ٧٠) .

كحال :

طبيب العيون .

السكراد :

كود ضيق الرأس يستعمل لحفظ الماء صالحا للشرب .

(Dozy : Sopp. Dict. Ar.)

السكرام :

ذخيرة الحرب من الأطعمة والمؤونة .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٦٢٠ حاشية ٣) .

كردوس (كردوسة) :

وجعها كراديس ؛ وهى الفرقة الحربية الراكبة والنقطة العظيمة من الخيل .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

السكر اغند :

وجعها كراغنديات ؛ وهو المعطف القصير يلبس فوق الزودية ويصنع من القطن أو الحرير المبطن

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٢٥٣ حاشية ٤) .

السكرابة :

هم الذين ينتهزون فرصة الفن للنهب ، أو فرصة الحروب لجمع الغنائم .

السكرارة :

وجعها كسارات ؛ وهى من أدوات التعذيب .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

السكراف :

وجعها السكرافة ؛ جماعة معينة من المسكر تقوم بكشف أخبار العدو .

(٣٠ — المعجم المالىكى)

الكلازى :

وجمعه الكلازى والكلازىة ؛ ومعناه فى الأصل الشخص الذى يتولى تربية الكلاب وبيعها ، ثم أصبح يطلق على الشخص الذى يركب بـ كلاب الصيد عند سلطان أو أمير . وقد يقصد باللفظ أيضا الغواص والدهماء .
(زيادة : السلوك ج ٢ ص ٢٢٥ حاشية ١) .

الكلايب :

ومفردتها كلاب ؛ وهى المشابك المستخدمة فى تحلية الكلونه .
(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الكليده :

وجمعه كلبندات ؛ وهى لباس الرقبة أو الكوقية يلبسها النساء على ردوسهن وتربط تحت الذقن لحفظ ما فوق ردوسهن من اللباس .
(أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٣٣٠) . وهى كذلك جزء من غطاء الرأس سواء كان عمامة أو كلونه (زيادة : السلوك ج ١ ص ٩٤ حاشية ١) .
كفـه (كفتاه أو كلفته) :
انظر كلوته .

كلونة :

وجمعه كلونات ، غطاء الرأس : طاوية صغيرة تلبس وحدها أو بهمامة .
وتسمى أيضا كفـه وكفتاه وكلفته .
(أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٣٣٠ حاشية ١) .

كمر :

وجمعه كمرات ، لفظ فارسي . معناه الحزام المفرغ من وسطه لوضع النقود والأشياء الثمينة فيه .
(أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٣٣١) .

كنبوش :

وجمعته كنباش ، وهو خمار لتغطية الوجه . وأطلق اللفظ أيضا على البرذعة توضع تحت سرج الفرس . وقد حرف اللفظ أحيانا إلى كنفوش وكنافيش .

كوسة :

وجمعها كوسات ، « وهي صنوجات من نحاس تشبه الفرس الصغير ، يلقى بأحدها على الآخر بإيقاع مخصوص » . وتكوسى هو الذى يضرب بالكوسات .

(القاموس : ص ٩ : ١٣) .

(ل)

اللاطية (اللاطية) :

وجمعها لاطيات ، وهي القلائد الصغيرة تعلق بالراس أى تعلق بها .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

اللبخة :

لعبة استحدثت في عصر المماليك ، تشبه اللعبة المعروفة اليوم باسم التحطيب أو النبوت ، فكان الشخص يخرج له عشرة من الشطرنج ويجمعون عليه بالضرب فيمسك عصاه من وسطها ويرد الجميع ، .

(زيادة : السلوك ج ٢ ص ٧٠٣ ، الشعراني : الطبقات الكبرى

ج ٢ ، ص ١٠٦ - ١٠٧) .

(م)

المارستان (البيمارستان) :
مستشفى لمعالجة المرضى وإقائهم .

مباشر :

وجمه مباشرون ، وهم الموظفون الإداريون .

مباشر والحتم :

اعلق هذا اللقب على موظفين أشبه بموظفي الجمارك في العصر الحالي ،
يقومون بمراقبة الوارد والصادر من البضائع ، ويفرضون عليه
مكوسا تختلف باختلاف الأحوال ، ثم يختمون البضاعة بخاتم خاص
دلالة على استيفاء المكس .

(زيادة : السلوك ج ٢ ص ٤٣٩ حاشية ١) .

المتجر :

ما يتجر فيه السلطان من البضائع لحسابه الخاص ، وكان يقوم بذلك
موظف من موظفي السلطان .

(مقدمة ابن خلدون ج ١ ص ٢٤٤ — ٢٤٥) .

مثال :

وجمه مثالات ، وهو أول ما يكتب من الأوراق الرسمية ليذايا بإعطاء
أحد المالك إقطاعا من الإقطاعات الحالية .

(الفقه شندی : صبح الاهی ج ١٣ ص ١٥٣) .

محارة :

وجمعها محائر ، وهى صناديق تشد إلى جانبي الرجل ، وكان للبحاير
سوق خاص بالقاهرة اسمه سوق المحايريين .
(المقرئى : الملاحظ ج ٢ ص ١٠١) .

المخايل :

وجمعها المخايلون ، الرجل الذى يدير لعبة خيال الظل .

مخفية :

وجمعها مخافى ، طبق واسع هميق يتسع لكمية كبيرة من اللحم والطعام
فى الموائد الكبرى وللروائب المقررة للأمراء .
(زيادة : السلوك ج ٢ ص ٦٨ حاشية ٣) .

مدورة السلطان :

نخيمته الكبيرة الخاصة به والتي تنصب له فى الأسفار والحفلات .

مراوة :

وجمعها مراوات ، قطع من المعدن أو غيره يزان بها صرج الفرس
وتقاط بقماش الصرج .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

مرمة :

وجمعها مرعات ، نوع من السفن الكبار .

المرملة :

ظرف يوضع به الرمل الذى كان الكتاب يستعملونه لتجفيف الكتاب .
(الفقهى : صبح الأعشى ج ٢ ص ٤٧٨ - ٤٨٠) .

المروزي :

قماش سميك من الحرير الجيد أو القطن ينسب إلى مدينة مرو .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

المولاني :

هو الذي يقوم بتسبيل الماء في السبيل ، ويتولى الخدمة في الأوقات المحددة ليسهل الشرب على الناس والحيوان .

(عبد اللطيف ابراهيم : دراسات ، مجلد ٢ تحقيق ١٩٦٨) .

المسألة :

(انظر أسلمى) ،

المسترفة :

حجرة صغيرة بمثابة خزانة بأعلى المنزل أو مجاورة للمطبخ عادة ، وتكون حبيسا غالبا .

(عبد اللطيف ابراهيم : دراسات ، مجلد ٢ تحقيق ١٩٦٧) .

المستوفى :

موظف من كتاب الأموال بالدواوين ، عمله ضبط الديوان التابع له والتعليق على ما فيه مصلحته من استخراج أمواله ونحو ذلك . ومن المستوفين مستوفى الصحة وهو يشارك الوزير ويعاونه في الأمور العامة مثل كتابة المراسيم وتسجيلها . ومثله في النفوذ مستوفى الدولة . وكان لكل ديوان من دواوين الدولة ناظر ونحته المستوفى والشاهد .

(القاموسى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٦) .

مبخره :

وجمها مسخر : وهي ألأاب لإضعاك الناس .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

مسطبة :

الجزء الأمامى من الدكان ، وتمتد خارج إغلاق الدكان نفسه لمرض البضائع عليها أو الجلوس المقتردين على المتجر .

مسطح :

وجهه مسطحات ، نوع من السفن له سطح .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

المسقفات الهلالية :

هي العقارات المسقفة الموقوفة من بيوت وحوانيت ورباع وعات وطواحين ومعاصر وغيرها ، والتي تدر دخلاً هلالياً أو شهرياً (مال هلالى) ، ويطلق عليها كذلك اسم المستغلات الهلالية .

(عبد اللطيف إبراهيم : دراسات ، مجلد ٢ تحقيق ٤٢)

المشارفة :

وظيفة يتولاها الموظفون الذين يشرفون على الأمور المالية ، وبخاصة فى الأوقاف .

(ابن عماتى : قوانين الدواوين ص ٣٠٢) .

المشتريات (المشتروات) :

هم الممالك الجلبان أو الأجلاب الذين كان السلاطان يشتريهم لنفسه .

المشير :

(انظر الإشارة)

المصانعات :

أموال الرشوة والمدارة .

مطلق :

جمعه مطلقات ، وهي ما يرسله السلطان من رسائل عامة إلى نوابه بمصر ونيابات الشام . وقد يكون فيها سر لا يراد إظهاره إلا عند الوقوف عليه ، وفي هذه الحالة تصدر مختومة .

(القلعة هندی : صبح الأعشى ج ٧ ص ٢١٨ - ٢٣١) .

المعادى :

المراكب التي استخدمت لتعديّة الناس عبر النيل ، وكان لها مواضع معينة لضبط رسوم التعديّة . ومن هذه المعادى في عصر المماليك معديّة ابابّة ومعديّة المقياس ومعديّة الجسر بالجيزة ومعادى جزيرة الذهب . (المقرئى : المواعظ ج ١ ص ١٠٤ زيادة : السلوك ج ٢ ص ٥١٨ . حاشية ١) .

المعالج :

وجعها المعالجون ، وهم الذين يلعبون برفع الأثقال . (زيادة : السلوك ج ٢ ص ٦٩٥ حاشية ١) .

المعامل :

وجعها معاملون ، وهم المتعمدون الذين يمدون المطبخ السلطانى بما يلزمه من حوائج ومواد غذائية .

المعصرة :

آلة للتعذيب تتكون من خشبتين مربوطتين ببعضهما بوضع يدهما وجه المعاقب أو رأسه أو رجلاه أو عقباه ؛ ثم تهد الخشبتان شدّاً وثيقاً حتى يؤدي ذلك - في كثير من الأحيان - إلى كسر معظم المعضور بين الخشبتيّن .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٧٤٠ حاشية ٣)

المعيد :

صاحب وظيفة بالمدرسة ، يأتي دون المدرس في الأهمية ، ويعتد للطلبة ما ألقاه عليهم المدرس ليفهموه ويحسنوه .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٤) .

المفرد :

هو الديوان الذي كانت تخرج منه في زمن الدولة المملوكية نفقة الممالك السلطانية من جامكيات وعليق وكسوة ؛ ويرجع أسببه إلى أيام الفاطميين .

(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٥٧ ، خليل بن شامين : زبدة كشف الممالك ص ١٠٧) .

المفرد :

غاية ارتفاع النيل .

المفرد :

يطلق اللفظ على الجندي أو المملوك ، فيقال وصل مفرد من الصعيد (هل مبارك : الحطاط التوفيقية ج ٩ ص ٢٥) .

مفردى :

وجمعه مفاردة ، نوع من عساكر حلقة السلطان كانوا يتبعون
ديوان المفرد مباشرة .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٤٨٠ حاشية ٢) .

المقام :

لقب من ألقاب كبار رجال الدولة في عصر المماليك ، فيقال المقام
السلطاني أو المقام العالي السلطاني للسلطان ، والمقام المماليكي للملك
نفسه وأتباعه المنسوبين إليه من أمراء ووزراء . أما المقام العالي فقط
فكان من الألقاب التي اشترك فيها أرباب السيوف والأقلام .

(القلقلندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٩١ ، ج ٦ ص ٥) .

مقدم الدولة :

هو الذي يتحدث على الأعوان والمتصرفين لخدمة الوزير . والمراد
المقدم على الدولة ، والدولة لفظ خصه العرف بمتعلقات الوزارة
كما يقال لناظر الدواوين ناظر الدولة ...

(القلقلندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٨) .

مقدم المماليك :

هو أجل الطواشية وأقربهم إلى السلطان ويشغل رتبة أمير طبلخاناه
ويعاونه نائب برتبة عشرة . وكان للأمراء أيضاً مقدمون للقيام على
شئون عماليكهم . وكان لمقدم المماليك أن يتحدث في شأنهم ويحكم
فيهم ، كما كان يحضر نفرة الجماعية عليهم .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٧٨٠ حاشية ٣ ، ابن إياس : بدائع

الزهور ج ٣ ص ١٥٥ ، ج ٤ ص ٢٩١) .

المقر نص :

وجمعها مقر نصات ، خلية مهارية استخدمت على نطاق واسع في
حصار الممالك في أجزاء مختلفة من العارة مثل أركان القباب
والمنارات .

(هبد اللطيف ابراهيم : دراسات ، مجلد ٢ تحقيق ٩١) .

مقنع :

وجعه مقانع ، وهو منديل تغطي به المرأة رأسها ويكون أضيق من
القناع ، أو هو النصيف الذي تضمه النساء فوق وجوههن .
(زيادة : السلوك ج ٢ ص ٤٢٣ حاشية ١) .

مكاحل البارود :

هي المدافع التي يرمى منها النفط . وهي أنواع .
(أبو المحاسن : النجوم ج ١٢ ص ٢٧٧) .

المكس :

وجعه مكوس ، وهي كل ما تحصل من الأموال لديوان السلطان
أو لأصحاب الإقطاعات أو لموظفي الدولة خارجا عن الخراج الشرعي .
(المتقربى : المواعظ ج ١ ص ١٠٣ - ١١١ ج ٢ ص ١٢١ - ١٢٤ ،
القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٨ - ٤٧١) .

مكوك :

وجعه مكايك ، وهو مكبال للحبوب يسع صاعاً ونصفاً ، والصاع
قدر نصف وية ، والوية ثلاث كيلات ،

المطافئ :

رسائل كانت تكتب عادة إلى الأمراء للترضية والمدح أو التفرير والتأمين ، تمهداً لما يرمعه لهم السلطان من عقوبة أو قتل .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٨٥٢ حاشية ٣) .

الملوطة :

وجمها ملايط ، قباء واسع الكمين طويلهما يلبس فوق الفرجية ، وكانت تصنع أحياناً من الحرير الخالص أو السكتان الرقيق ، وكانت لباساً قومياً في عصر المماليك .

(Dozy : Dict. Vet. Ar.)

المماليك الأحداث :

هم المماليك الحديثو العهد بالخدمة ، وربما قصد باللفظ المماليك الأراذل أو السفلة .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٦٤٣ حاشية ١) .

ماليك الأمراء :

هم المماليك التابعون للأمراء مباشرة ، ومنهم تتألف الوحدات الحربية التي يلزم بها الأمراء مع السلطان في حروبه .

المماليك البرانية :

المماليك والأمراء الذين ليسوا من الخاصكية ، ويقال لهم أيضاً الخرجية .

(المقريزي : المواعظ ج ٢ ص ٢١٧) .

المماليك الجوانية :

المماليك الخاصكية .

الممالك الحرسية :

هم الممالك الذين يوكاون بحراسة مكان من الأمكنة .

الممالك الخاصة :

قسم من الممالك السلطانية يتميزون عن بقية الممالك السلطانية بانضوائهم وهم صغار في خدمة السلطان ؛ وهو الذى يتولوا تربيتهم وهتفهم .

الممالك السلطانية :

مشتريات السلطان وجلبانه ، وما يتبقى عنده من ممالك من سبقه في السلطنة ، ومرتبائهم جميعاً من ديوان المفرد .

المناخ :

وجمه مناخات ، وهى الأمكنة المخصصة لأنواع الجمال السلطانية — كالإصطبلات لأنواع الخيل — وجميعها كانت تابعة لإدارة الإصطبلات السلطانية .

(خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٢٥ ، المقرئى :
المواعظ ج ٢ ص ٢٢٤ - ٢٢٥) .

منجنيق :

وجمه منجانيق ، آلة من خشب لقذف الحجر على العدو إلى مسافات بعيدة .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٢ ص ١٢٧) .

منشور :

وجمه منشور ، وهى فى الأصل كل ما يصدر عن السلطان من مكاتبات لا تحتاج إلى ختم كالإكبات الخاصة بالولاية ومنح الإقطاعات .
(القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٣ ص ١٥٨) .

المنطقة ، المنطق) :

نوع من الأحزمة التي توضع حول الوسط ، ويكون غالباً من الذهب أو الفضة وأحياناً من الجلد أو القماش . وجاء في دوزي أنه لايجوز للرجال التحلي بالذهب والفضة إلا في ثلاثة مواضع هي الخاتم والمنطقة وحلية السيف .

(Dazy : Dict. Vet. Ar. p. 420.)

المنفر :

الذي ينفخ البوق .

المهتار :

لقب يطلق على كبير كل طائفة من غلمان البيوت ، فيقال مهتار الشرا بختانه ومهتار الطشت خانه ، ومهتار الركاب خانه .
(الفلقشندي : ج ٥ ص ٤٧٠ . أبو الفحاسن : النجوم ج ٩ ص ٤٧ ، حاشية ٣) .

المهندار :

هو الذي يتلقى الرسل والعربان الواردين على السلطان وينزلهم دار الضيافة ويتحدث في القيام بأمرهم .
(الفلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٢ ، ج ٥ ص ٤٥٩) .

المواريث الحشرية :

هي تركات من يموت ولا وارث له .

الموجب :

ما يدفعه التجار على متاجرهم وأموالهم بنسبة مقررة .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٩٥٥ حاشية ١) .

المودع :

وجمعه مودعات ، وهو صندوق لحفظ مال مخصوص لغرض معين ،
ومودع الحكم صندوق يوضع في عهدته قاضى انقضاء لحفظ احوال
اليتامى القصر وأموال الغائبين أيضا .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٨٦٤ حاشية ٣) .

المؤدب :

معلم المكتتب ، الذى يقوم بتعليم أيتام المسلمين ويشرف عليهم عليها
ونخلقها .

الميعاد :

درس دينى للوعظ والإرشاد والحث على التقوى . وكان أهم هذه
المواعيد ميعاد الرقائق (رقائق الحديث النبوى) .

Dozy : Supp. Diet. Ar.)

الميعات :

وظيفة من الوظائف الهامة فى المؤسسات الدينية ، يتولاها مؤلف عارف
بالمواقيت والفلك وعلم الهيئة ، ويعرف من يباشر هذه الوظيفة
بالميعاتى . وكان يعتمد فى تحديد الزمن وأوقات الصلاة على المرولة
والساعة الرملية وغيرها من الآلات .

(عبد اللطيف لبراهيم : دراسات . مجلد ٢ تحقيق ١٩٦٦) .

(ن)

الناس :

استعمل هذا اللفظ فى مصطلح مؤرخى عصر المماليك بمعنى الرؤساء

أو الزعماء أو الأمراء . وقد وجدت فرقة من فرق الجيش المالكي سميت باسم أولاد النامس ، شملت أبناء أمراء المالكي فقط .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٦٩٠ حاشية ٢) .

ناظر :

وجمه نظار ، وهم كبار الموظفين ورؤساء الدواوين الذين شاركوا الوزير في تصريف أعماله . وقد تنوعت ألقاب النظار حسب الأعمال التي قاموا بها ، فنظار الجيش يتحدث في أموال الجيوش وحساباتها ، ونظار الخاوص ينظر في عاوص أموال السلطان ، ونظار الدولة يشارك الوزير في التصرف عامة ، ويسمى الأخير ناظر الدواوين أو ناظر النظار أو الصاحب الشريف ومقره ديوان النظر .
(القلقة شندی : صبح الاعشى ج ٥ ص ٤٦٥ - ٤٦٦) .

ناظر الأمراء :

يقوم صاحب هذه الوظيفة بالإشراف على شئون الخلال السلطانية وما يصل إليها من خلال وما يصرف منها .
(القلقة شندی : صبح الاعشى ج ٤ ص ٣٢) .

ناظر البيوت :

يتولى هذه الوظيفة عادة أحد أرباب القلم ، ليقوم بمشاركة الاستادار - وهو من أرباب السيف - في إدارة البيوت السلطانية كلها من المطابخ والشرابخانة والحاشية والعلمان .
(القلقة شندی : صبح الاعشى ج ٤ ص ٢٠ ، ٢١) .

ناظر الدواوين الحشرية :

هو الذي يقوم بالتحدث على ديوان الموارث الحشرية ، من يموت

ولا وارث له ، أو له وارث لا يستغرق ميراثه ، مع التحدث في إطلاق
جميع الموتى من المسلمين وغيرهم .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٣) .

ندب :

وجمعه أنداب ، وهو كيس صغير يسع خمس بندقات .
(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

ندب :

ندب الذئباب اللعب به ، يقال لعب أندابا في الميدان ، وكان عارفا
بأنداب الحرب .

(كتر مير ج ٢ مجلد ٢ ص ٩٨ أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٦٨٧)

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

النصفية :

وجمعهما نصفان ، قماش من نسيج الحرير والكتان . وربما أطلق اللفظ
على ثياب من القطن الخشن .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

النقرة :

انظر الفضة .

نقيب :

وجمعهما نقباء ، وكان عمل صاحب هذه الوظيفة عند السلطان أو الأمير
تأدية الخدمات الصغيرة لمبيده .

(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢١ - ٢٢) .

(٣١ - العصر المالكي)

نقيب الجيش :

هو الذى يتكفل بإحضار من يطلبه السلطان من الأمراء وأجناد
الحلقة ونحوهم .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢١ ، ج ٥ ص ٤٥٦)

نقيب المماليك :

يبدو أن المقصود بهذه الوظيفة مقدمة المماليك وموضوعها ، التحدث
على المماليك السلطانية والحكم فيهم ، .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢١ ، زيادة السلوك ج ٢ ،
ص ١٦٥ حاشية ١) .

النوبة :

الوقفة الحربية ، ويقال ضربت النوبة أى صدر الأمر للعسكر بالتجهز .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٤٦١ حاشية ٢) .

النوبة :

اسم لآلات الطرب إذا عزفت سويًا ، أو لمجموعة من المطربين إذا
اجتمعوا (أوركستر) .

النوبة :

فرق الجند التى تتناوب الوقوف لحراسة شخص السلطان ، وهى خمس
يكون تغييرها فى الظهر والعصر والعشاء ونصف الليل وعند الصباح .

النوبة :

انظر خيل النوبة .

النياية :

يسمى صاحب هذه الوظيفة نائب السلطنة والنائب الكافل ، وكافل
الممالك الإسلامية . وهو يحكم في كل ما يحكم فيه السلطان ويعلم في
التقاليد والتواقيع والمناشير وغير ذلك مما يعلم عليه السلطان . وهناك
نواب أقل درجة أشبه بالحكام المحليين ، لا يختص الواحد منهم إلا بما
يتعلق بمحدوده نيابته .

(القلعة هندی : صبح الاهی ج ٤ ص ١٦) .

(٥)

الهرجة :

هنا نرى تستعمل خاصة في الحل كالأساور والعقود وغيرها ، بأن يصاغ
في أطرافها حلقات صغيرة أو يجعل في جوانبها ثقب ، ومفرد هارج .
(زیادة : السلوك ج ٢ ص ٢٩٣ حاشية ٤)

الهناب :

قدح الشراب

(Dozy i Supp. Dict. Ar.)

(٥)

وافدى :

وجمعه وافية ، ويقصد به الغريب الوافد إلى بلد جديد ، وأطلق هذا
اللفظ على الترك والتتر الذين وفدوا على دولة المماليك في مصر
والشام . واختص به — بوجه خاص — الأفراد الذين هاجر
معظمهم من بلاد المغول إلى مصر وافدين مستأمنين أحرارا لا أجلايا

ملوكين . واندمج كثير من أولئك الوافدية في فرق الممالك السلطانية .
حتى وصلوا إلى أرفع مناصب الدولة ، غير أنهم ظلوا دون الممالك
الذين جلبوا رقيقا ، لأن الوافدية لم ينشأوا نمأة مالبكية .

(زيادة : السلوك ج ٢ ص ٨ ، ص ٧٥٠) .

الورق :

الدراهم الورق — يفتح الواو أو ضمها — هي الدراهم المضروبة .

ورقة :

وجمعها أوراق ، استعملت في عصر المماليك بمعنى الصك الذي يكتبه
المدين للدائن .

وزير الصبغة :

يكون صاحب هذه الوظيفة وزيرا متنفذا ، يرافق السلطان في أسفاره .
وحروبه ليقوم بوظيفة الوزير ويصرف الثمنون ، وذلك ليتسنى
للوزير الأصلي أن يقيم بالقاهرة حيث مقر عمله .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٦٢٧ حاشية ٢) :

وطاء :

جمعها أوطية ، وهو الخزاء .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الوطاق :

الخيمة الكبيرة التي تعد للعظماء .

الوكالة :

فندق لنزول التجار وبضائعهم ودوابهم للبيع والشراء .

(ى)

أليك :

رئيس المجلس ، ومن يراقب من مضي فينبهه .

(أبو الحسن : المجموع ج ٧ ص ١٧٣) .

* * *

قائمة المراجع

التي ورد ذكرها في حواشي الكتاب

أولا : المراجع العربية :

— إبراهيم على طرخان :

مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة

(القاهرة ١٩٦٠)

— ابن الأثير :

الكامل في التاريخ ١٢ جزءاً

(القاهرة ١٣٥٧ هـ)

— أحمد هزوت عبد الكريم :

التقسيم الإداري لسورية في العصر العثماني

(مقال نشر في حواش كلية الآداب)

— ابن الأخوة :

معالم القرية في أحكام الحسبة

(كهردهج ١٩٣٧)

— آدم ميتز :

الخطارة الإسلامية

(القاهرة ١٩٥٧)

— ابن إلياس :

كتاب تاريخ مصر المعروف باسم بدائع الزهور

طبعة اولاق في ثلاثة أجزاء (١٣١١ - ١٣١٢ هـ) ، وكذلك

رجعنا في الأجزاء الأخيرة من المتن إلى طبعة جمعية

المستشرقين الألمانية التي قام بتحقيقها دكتور محمد مصطفى .

— ابن أيك :

كنز الدرر أو الدرر المطلوب في أخبار بني أيوب

(مخطوط)

— ابن بطوطة :

رحلته ، المسماة نعمة النظر في غرائب الأقطار وعجائب الأسفار

(باريس ١٨٨٠)

— البلاذرى :

فتوح البلدان

(القاهرة ١٣١٨ هـ)

— البلوى المغربى :

رحلته ، المسماة تاج المغرب في تحلية علماء المشرق .

(مخطوط)

— بيهس الدوادار :

زبدة الفسكرة في تاريخ الهجرة .

(مخطوط)

— توفيق امكندر :

نظام المقايضة في تجارة مصر الخارجية .

(مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ١٩٥٧) .

— توماس أرنولد :

الدعوة إلى الإسلام

ترجمة حسن إبراهيم حسن وعبدالمجيد هاردين واسماعيل النحر اوى .

(القاهرة ١٩٥٧)

ابن الحاج :

المدخل — أربعة أجزاء .

(القاهرة ١٩٢٩)

ابن حبيب :

درة الأسلاك في دولة الأتراك .

(مخطوط)

ابن حجر :

الدور الكامنة في أعيان المائة الثامنة .

(الهند ١٩٢٩)

أربعة أجزاء

حسن أحمد محمود :

الإسلام والثقافة العربية في أفريقية .

(الطبعة الثانية — القاهرة ١٩٦٣)

حسن الباشا :

التصوير الإسلامي في العصور الوسطى

(القاهرة ١٩٥٩)

حسن عبد الوهاب :

تاريخ المساجد الأثرية

(القاهرة ١٩٤٦)

جزءان

الحالدي :

كتاب المقصد الرفيع اللغاهي لديران الإنها

(مخطوط)

— ابن خرداذبة :

الممالك والممالك

(لندن ١٨٨٩)

— الخطيب :

نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان

(مخطوط)

— ابن خلدون :

العبر وديوان المبتدأ والخبر .

(يولاق ١٢٨٤ هـ)

— خليل بن شاهين الظاهري :

رعدة كهف الممالك وبيان الطرق والممالك .

(باريس ١٨٩١)

— ابن دقاق :

الجواهر الثمين في سير الملوك والسلطين

(مخطوط)

— ديماند :

الفنون الإسلامية ، ترجمة أحمد محمد عيسى .

(القاهرة ١٩٥٣)

— رشيد الدين الهمذاني :

جامع التواريخ

نقله إلى العربية محمد صادق نعماني وعهد موسى هنداوي

وفؤاد عبد المعطي الصياد .

(القاهرة ١٩٦٠)

— ركنى محمد حسن :

١ - فنون الإسلام (القاهرة ١٩٤٨)

٢ - أحاسن الفنون الزخرفية والتماوير الإسلامية .

(القاهرة ١٩٥٦)

— ابن زابل :

آخرة الماليك .

نشره عبد المنعم عامر

(القاهرة ١٩٦٢)

— زيتروشتين :

تاريخ سلاطين الماليك

(لندن ١٩١٩)

— سبط بن الجوزى

مرآة الزمان

(الهند ١٣٥١ هـ)

— السبكي :

معيد النعم ومبيد النقم

(لندن ١٩٠٨)

— السبكي :

طبقات الشافعية الكبرى . ستة أجزاء

(القاهرة ١٣٢٤ هـ)

— السخاوى :

التبصرة المسبوك في ذيل السلوك .

(القاهرة ١٨٩٦)

— السخاوى :

الضوء الالامع لأهل القرن التاسع .

(القاهرة ١٩٣٤ — ١٩٣٦)

— سعاد ماهر :

عقود الزواج على المنسوجات الاثرية

(القاهرة ١٩٦٠)

— سعيد عبد الفتاح عاشور :

١ — الحركة الصليبية (جزءان) (القاهرة ١٩٦٣)

٢ — قبرس والحروب الصليبية

(القاهرة ١٩٥٧)

٣ — المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك .

(القاهرة ١٩٦٢)

٤ — مصر فى عصر دولة المماليك البحرية .

(القاهرة ١٩٥٩)

٥ — الظاهر بيبرس (القاهرة ١٩٦٣)

— أكسيد الباز العرني :

الإقطاع الحربى بمصر زمن سلاطين المماليك .

(القاهرة ١٩٥٦)

— مهرة الظاهر بيبرس (خمسون جزءاً) (القاهرة ١٩٢٦)

— السيوطى :

تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الله .

(القاهرة ١٣٥١)

— السيوهلى :

حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة

(القاهرة ١٨٨١)

— السيوهلى :

غزوات قبرص ورودس .

(فينا ١٨٨٤)

— ابن شاكركى :

(مخطوط)

عيون التواريخ .

— ابن شاكركى :

فوات الوفيات .

(يولاق ١٨٨١)

جزءان

— أبو شامة :

كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين

(القاهرة ١٢٨٧ هـ)

— ابن الهدى :

أخبار الأعيان فى جبل لبنان .

(بيروت ١٨٥٩)

— الشربى (يوسف بن محمد بن عبد الجواد) :

هو القحور فى شرح نصيدة أبى شادوف .

(يولاق ١٨٩٠)

— الدمردانى :

لوائح الأنوار فى طبقات السادة الأخيار

(القاهرة ١٨٨١)

جزءان

- صالح بن يحيى :
تاريخ بيروت
(بيروت ١٩٢٧)
- عبد الرحمن فهمي :
النقود العربية ، ماضيها وحاضرها .
(القاهرة ١٩٦٤)
- عبد الطوفان إبراهيم علي :
١ — المكتبة المملوكية
٢ — دراسات تاريخية وأثرية في وثائق من عصر المماليك
(رسالة تحت الطبع)
- عبد الوهاب عزام :
محاسن السلطان الغوري .
(القاهرة ١٩٤١)
- ابن عربشاه :
مجانب المقدور في أخبار تيمور .
(القاهرة ١٢٨٥ هـ)
- علي إبراهيم حسن :
دراسات في تاريخ المماليك البحرية .
(القاهرة ١٩٤٨)
- حماد الدين الكاتب :
الفتح القس في الفتح القدسي .
(القاهرة ١٣٢٢ هـ)

— العيني :

عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان

(مخطوط)

— العيني :

السيف المهند في تاريخ الملك المؤيد

(مخطوط)

— أبو الفدا :

المختصر في أخبار البشر

١٤ جزءا

(القاهرة ١٣٢٥ هـ)

— ابن الفرات :

تاريخ الدول والملوك

(بيروت ١٩٣٦-١٩٤٢)

— ابن فضل الله العمري :

التعريف بالمصطلح الشريف .

(القاهرة ١٣١٢ هـ)

— ابن قاضي شهاب :

الإعلام بتاريخ أهل الإسلام

(قبل تاريخ الإسلام) .

(مخطوط)

— القلاشندى :

صبح الأعشى في صناعة الإنشا

١٤ جزءا

(القاهرة ١٩١٣-١٩١٧)

— القيروان :

المونس في أخبار إفريقية وتونس

(تونس ١٢٨٦ هـ)

— ابن كثير :

البداية والنهاية .

أربعة أجزاء

(القاهرة : ١٣٥٨ هـ)

— أبو المحاسن (ابن تغرى بردى) :

المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافى

ثلاثة أجزاء

(مخطوط)

— أبو المحاسن :

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة .

رجعنا إلى طبعة دار السكتب المصرية حتى نهاية الجزء

الثاني عشر (٥٨٠٨) ، وبعد ذلك رجعنا إلى طبعة كاليفورنيا

لشر وليم بير (كاليفورنيا ١٩٣١) .

— أبو المحاسن :

مورد اللطافة فيمن ولى السلطنة والخلافة .

(كبردج ١٧٩٢)

— محمد جمال الدين سرور :

١ — دولة الظاهر بيبرس

الطبعة الثانية

(القاهرة ١٩٦٠)

٢ — دولة بني فلان في مصر

(القاهرة ١٩٤٧)

— أبو محمد عبد الله باخرمه :

تاريخ ثغر عدن

(لندن ١٩٣٦)

— محمد كرد علي :

خطط الشام

جزءان

(دمشق ١٩٢٥)

— محمد كمت التنبكتي :

تاريخ القناش في أخبار البلدان والجيش وأكابر الناس

(باريس ١٩١٢)

— محمد مصطفى :

١ — صفحات لم تنشر من بدائع الزهور لابن إياس

٢ — انظر ابن إياس .

— محمد مصطفى زيادة :

١ — نهاية السلاطين المماليك في مصر

(مجلة الجمعية المصرية لدراسات التاريخ ، ١٩٥١)

(٣٢ — العصر المملوكي)

٢ — المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودس .

(مجلة الجيش ١٩٤٦)

٣ — حملة لويس التاسع على مصر وهزيمة في المنصورة

(القاهرة ١٩٦١)

— محمود محمد عرفان :

تاريخ القضاء في الإسلام

(القاهرة ١٩٣٤)

— عبيد الدين بن عبد الظاهر :

١ — الألفاظ الخفية من السيرة الشريفة السلطانية الملكية

الأشرفية . (القاهرة ١٩٢٠)

٢ — تشریف الايام والعصور في سيرة الملك المنصور

لشر مراد كامل (القاهرة ١٩٦١)

— المسعودي :

مروج الذهب (جزءان)

(باريس ١٨٦١ - ١٨٧٧)

— مصطفى محمد مسعد :

الإسلام والنوبة في العصور الوسطى .

(القاهرة ١٩٦٠)

— مفضل بن أبي الفضائل :

النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد

(باريس ١٩١١)

— المقرئ :

١ — إغاثة الأمة بكشف الغمة ؛ نشره محمد مصطفى زيادة وجمال الدين محمد الشيال .

(القاهرة ١٩٤٠)

٢ — البيان والإعراب حما بأرض مصر من الأعراب .

نشره وستنفذ (جوتنجن ١٨٤٧)

٣ — السلوك لمعرفة دول الملوك

نشره وحققه محمد مصطفى زيادة حتى نهاية سنة ١٧٥٥ هـ ؛
وبقية الكتاب مخطوط بدار الكتب المصرية .

٤ — شذور العنود في أخبار النقود .

(اسطنبول ١٢٩٨ هـ)

٥ — المراعظ والاعتبار بذكر الخطاط والآثار .

طبعة بولاق في جزئين (١٢٧٠ هـ)
والطبعة الأهلية في أربعة أجزاء .

(القاهرة ١٩٠٧ م)

— نظير حسان معداوى :

نظام البريد في الدولة الإسلامية

(القاهرة ١٩٥٣)

— النويرى : (أحمد بن عبد الوهاب)
نهاية الأرب في فنون الأدب .

(مخطوط)

— النويرى السكندرى (محمد بن قاسم بن محمد)
الإمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في واقعة
الاسكندرية (جزءان)

(مخطوط)

— ابن واصل :
مفرج الكرب في أخبار بنى أيوب . نشره وحققه جمال الدين
الشيال حتى نهاية سنة ٦١٥ هـ . وبقية الكتاب مخطوط .

— ابن الوردى :

تاريخ ابن الوردى (جزءان)

(القاهرة ١٩٣٩)

أانيا : المراجع الأربية :

— Allau :

The Cambridge Shorter Hist. of India.
(Cambridge, 1924)

— Alvarez :

Portugheus Embassy
(Glasgow, 1905)

— Arnold :

The Caliphate

— Atiya :

Egypt and Aragon
(Lepzig, 1938).

— Beazley :

Note Book of Med. History
(Oxford, 1917)

— Coulbeaux :

Hist. Politique et Religieuse de l'Abyssinie.
(Paris, 1929)

— Demombynes :

La Syrie a l'epoque des Mamelouks
(2 vols.)
(Beirouth, 1921)

— Demombynes :

Masalik Alabsar
(Paris, 1927)

— Diehl :

Venice
(Paris 1916).

- D'O Hason :
Hist. des Mongols (4. Vol).
(Amsterdam, 1852)
- D'O Hason :
Tableau de l'Empire Othman.
(Paris, 1824)
- Grousset :
Hist. des Croisades et du Royaume
Franc de Jerusalem (3 vol.)
(Paris, 1934)
- Hauteceour, et Wiet :
Les Mosquées du Caire.
(Le Caire, 1932)
- Heyd :
Hist. du Commerce de Levant au
Moyen Age. (2 vols).
(Leipzig, 1885)
- Hobson (R. L.) :
A Guide to the Islamic Pottery of the
Near East.
(London 1944)
- Howarth :
The Hist. of the Mongols (4. vols.)
(London, 1885)
- Ibrahim Salamai :
L'Enseignement Islamique en Egypte.
- Joinville :
Hist. de Saint Louis
(Paris, 1874)
- Kammerer :
Le Regime et le Status des Etrangers en
Egypte
(Memoires de la S. R. G. d'Egypte —
Tome 15 — Le Caire. 1929.

- King :
The Knights Hospitallers in the Holy
(London, 1931)
- Lane—Poole :
A Hist. of Egypt in the Middle Ages.
(London, 1936)
- Lane—Poole :
Med. India Under Mohammeian Rule.
(London, 1912)
- Machaut :
La Prise de l'Alexandrie
(Geneve 1877)
- Mac. Michael :
Hist. of the Arabs in the Sudan.
(London, 1922)
- Makhlaras :
Recital Concerning the the Sweet Land of
Cyprus.
(Oxford, 1932)
- Marco Polo :
Travels. (2 vols)
(London, 1903)
- Piloti :
L'Egypte au Commencement du Quinzieme
Siecle.
(Le Caire, 1930)
- Quatremere :
Memoire sur l'Egypte. Hist. de Sultans
Mamlouks de l'Egypte — 2 vols.
(Paris, 1837—1845)
- Reinaud :
Traité de Commerce entre la republique
de Venice et les derniers sultans Mameloucs
d'Egypte.
(J. A. 2m Serie — Tome 4 — Paris, 1829)
- Ronciere :
La Decouverte de l'Afrique au Moyen Age.
(S. R. G. d'Egypte, 1925)

- Runciman :
A Hist. of the Crusades (3 vols.)
(Cambridge, 1957)
- Schefer :
Le Voyage d'Outremer de Jean Thénau.
(Paris, 1864)
- Schlumberger :
Prise de Saint Jean d'Acre En l'an 1291
Par l'armée de Soudan d'Egypte.
(Paris, 1914)
- Setton :
A Hist. of the Crusades
(Pennsylvania, 1958)
- Stevenson :
The Crusaders in the East.
(Cambridge, 1907)
- Van Berchem :
Titres Califiens
(J. A. 1907)
- Wiet :
L'Egypte Arabe
(Paris, 1916)
- Wiet :
Lampes et Bouteilles en Verre émaillé
Catalogue Général du Musée Arabe du
Caire.
(Le Caire, 1929)
- Wiet :
Objets en Cuivres : Catalogue Général du
Musée Arabe du Caire.
(Le Caire, 1932)
- Ziada :
Foreign Relations of Egypt in the 15th
Century.
(Thesis).

فهرس الموضوعات

صفحة

مقدمة ج - و

الفصل الأول : قيام دولة المماليك في مصر ١

نشأة نظام المماليك في الدولة الإسلامية (ص ١) - ازدياد
نفوذ المماليك في عصر الأيوبيين (ص ٣) - المماليك
البحرية (ص ٤) - المماليك البحرية وإنزال الهرمية
بالفرس (ص ٧) - نهاية الدولة الأيوبية في مصر (ص ٩) -
السلطنة شجر الدر (ص ١١) - السلطان المعز أيلك
(ص ١٥) - السلطان المنصور على بن أيلك (ص ٢٢) .

الفصل الثاني : المماليك والتتار ٢٦

سقوط الخلافة العباسية في بغداد (ص ٢٦) - التتار في
الشام (ص ٢٨) - السلطان المظفر قطز (ص ٣٠) -
موقعة عين جالوت (ص ٣٢) - توحيد مصر والشام
(ص ٣٦) - السلطان الظاهر بيبرس (ص ٣٨) - علاقة
المماليك بتتار فارس بعد بيبرس (ص ٤٦) .

الفصل الثالث : المماليك والصليبيون ٥٢

الشرق الأدنى بين خطرين (ص ٥٢) - لويس التاسع
في بلاد الشام (ص ٥٥) - الظاهر بيبرس والاستيلاء
على أنطاكية (ص ٥٨) - أبناء الظاهر بيبرس (ص ٦٦) .

صفحة

السلطان المنصور قلاون والصليبيون (ص ٦٩) - السلطان
الأشرف خليل بن قلاون (ص ٧٣) - طرد البقايا الصليبية
من الشام (ص ٧٤) .

الفصل الرابع : المماليك والنوبة ٧٧
مصر والنوبة قبل قيام دولة المماليك (ص ٧٧) - السلطان
الظاهر بيبرس والنوبة (ص ٨٠) - السلطان المنصور
قلاون والنوبة (ص ٨٤) - السلطان الأشرف خليل
والنوبة (ص ٩٢) - السلطان الناصر محمد والنوبة
(ص ٩٨) - العلاقة بين دولة المماليك والنوبة في أواخر
العصور الوسطى (ص ١٠٠) .

الفصل الخامس : بيت قلاون ١٠٣
السلطان الأشرف خليل بن قلاون (ص ١٠٥) - السلطان
الناصر محمد بن قلاون (ص ١٠٧) - السلطان العادل كتبغا
(ص ١١٠) - السلطان المنصور لاجين (ص ١١٣) - سلطنة
الناصر محمد الثانية (ص ١١٥) - السلطان المظفر بيبرس
الجامشنيكير (ص ١١٨) - سلطنة الناصر محمد الثالثة
(ص ١٢٢) - عصر أولاد الناصر محمد (ص ١٢٥) -
الوباء الأسود (ص ١٣٢) - عصر أحفاد الناصر محمد
(ص ١٣٤) - حملة بطرس لوردجنان على الإسكندرية
(ص ١٣٥) .

صفحة

الفصل السادس : دولة المماليك الجراكسة ١٤٠

أصل المماليك البرجية وتكوينهم (ص ١٤٠) - ظهور
المماليك البرجية على مسرح الحوادث (ص ١٤٣) - ازدياد
نفوذ الجراكسة (ص ١٤٩) - برقوق وتأسيس دولة
المماليك الجراكسة (١٥١) - خصائص دولة المماليك
الجراكسة (ص ١٥٨) - السلطان الظاهر برقوق (ص ١٦٠) -
تيمورلنك ودولة المماليك (ص ١٦٤) - عصر أبناء
برقوق (ص ١٦٦) - السلطان المؤيد شيخ المحمودى
(ص ١٦٢) - السلطان الأشرف برسبای وفتح قبرس
(ص ١٦٩) - السلطان الظاهر جة قى وغزو رودس
(ص ١٧٧) - دولة المماليك فى أواخر أيامها
(ص ١٨٠) - السلطان الأشرف قانصوه الغورى
(ص ١٨٥) - سقوط دولة المماليك (ص ١٨٧) .

الفصل السابع : بلاد الشام فى عصر سلاطين المماليك ٢٠٠

امتداد نفوذ المماليك إلى الشام (ص ٢٠٠) - التقسيم
الإدارى لبلاد الشام فى عصر المماليك (ص ٢٠٥) -
المجتمع الشامى فى عصر المماليك (ص ٢١٣) - ثورات
الشام فى عصر المماليك (ص ٢٢٠) أثر ليايات الشام
فى أحوال دولة المماليك (ص ٢٣٠) .

صفحة

الفصل الثامن : العلاقات الخارجية ٢٢٣

- الممالك ومغول القفجاق (ص ٢٣٤) - الممالك والدول
- الإسلامية في آسيا (ص ٢٣٧) - سلطنة الممالك والدول
- الإسلامية في شمال أفريقية (ص ٢٤٣) - العلاقة بين
- سلطنة الممالك والسودان الغربي (ص ٢٥٠) - العلاقة
- بين سلطنة الممالك والحبشة (ص ٢٥٣) - العلاقة بين
- سلطنة الممالك ودول التركان (ص ٢٦١) - الممالك
- والعثمانيون (ص ٢٦٦) - الممالك والدولة البيزنطية
- (ص ٢٧١) - سلطنة الممالك والقوى الأوروبية (ص ٢٧٥) .

الفصل التاسع : النشاط الاقتصادي ٢٨٤

- الزراعة (ص ٢٨٤) - الصناعة (ص ٢٨٨) - التجارة
- الخارجية (ص ٢٩٢) - التجارة الداخلية (ص ٣٠٨) -
- المالية العامة (ص ٣١٠) - السياسة النقدية (ص ٣١٥) .

الفصل العاشر : الأحوال الداخلية ٢٢٠

- بناء المجتمع (ص ٣٢٠) - ثورات العربان (ص ٣٢٦) -
- الحياة في المدن (ص ٣٣٠) - الثورات والفتن السياسية
- (ص ٣٣٥) - المجاعات والأوبئة (ص ٣٣٧) .

الفصل الحادي عشر : الحياة العلمية والدينية ٣٤١

- النشاط العلمي في عصر الممالك (ص ٣٤١) - المدارس
- والمكتبات (ص ٣٤٢) - المكتبات (ص ٣٤٥) -
- المباني (ص ٣٤٧) - النشاط الديني (ص ٣٤٨) -

مقدمة

التصوف والروايا (ص ٣٥١) - الخلافة العباسية
(ص ٣٥٤)

الفصل الثاني عشر : نظم الحكم والقضاء ٣٦٠
النظام الإقطاعي (ص ٣٦٠) - السلطان (ص ٣٦٣) -
النظام الإداري (ص ٣٦٣) - الدواوين (ص ٣٧١) -
القضاء والمظالم (ص ٣٧٨) .

الفصل الثالث عشر : الفنون ٣٨٣
العمارة (ص ٣٨٥) - الرسم والتصوير (ص ٣٨٧) -
النحت والحفر (ص ٤٠٣) - الفنون الصغرى (ص ٤٠٥)

كشاف شرح أم المصطلحات

الواردة في مراجع العصر المملوكي ٤٠٩ - ٤٨٦

المراجع ٤٨٧ - ٥١٢

فهرس الخرائط

صفحة

- ١ - بلاد الشام والجزيرة في العصر المماليكى ٦١
- ٢ - ملكة النوبة المسيحية ٩٣
- ٣ - قبرس في العصور الوسطى ١٧١
- ٤ - دولة المماليك في أقصى اتساعها ٢٥٥

فهرس الصور

- ١ - جامع السلطان حسن بالقاهرة ١٢٩
- ٢ - مبخرة من عصر المماليك ٢٩٣
- ٣ - صورة غزال على إناء من خوف ٣٨٩
- ٤ - إناء من الزجاج المموه بالمينا ٣٩١
- ٥ - ثريا من النحاس ٣٩٣
- ٦ - سيفان من الصلب المكففت بالذهب ٣٩٧
- ٧ - معشكاة من الزجاج ٣٩٩

للمؤلف

- ١ - قبرس والحروب الصليبية ١٩٥٧
 - ٢ - أوروبا العصور الوسطى ،
الجزء الأول - التاريخ السياسى
الطبعة الثالثة ١٩٦٤
 - ٣ - أوروبا العصور الوسطى .
الجزء الثانى - النظم والحضارة
الطبعة الثانية ١٩٦٣
 - ٤ - مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ١٩٥٩
 - ٥ - الجامعات الأوربية فى العصور الوسطى . ١٩٥٩
 - ٦ - النهضة الأوربية فى العصور الوسطى وبداية الحديثة ،
بالاشتراك
الطبعة الثانية ١٩٦٠
 - ٧ - المجتمع العربى
بالاشتراك مع مجموعة من أساتذة جامعه القاهرة ١٩٦٢
 - ٨ - الظاهر بيبرس . ١٩٦٣
 - ٩ - المدية الإسمعية وأثرها فى الحضارة الأوربية . ١٩٦٣
 - ١٠ - المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك . ١٩٦٣
 - ١١ - الحركة الصليبية -- جزءان : ١٩٦٣
 - ١٢ - ثورة شعب . ١٩٦٤
 - ١٣ - العصر المماليكى فى مصر والشام . ١٩٦٥
- القائمة لسير . . .